العلمانيّة

جذورها وأصولها

د. محمد علي البار

دار القلم
دمشق



العلمـانيّـة

جذورها وأصولها

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير - جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدِّمة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] فيؤمنون بالطبيعة إلٰهاً وخالقاً. ساء ما يحكمون. ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، ويجادلهم سبحانه وتعالى في القرآن الكريم موضِّحاً لهم بديع خلقه، وحكيم صنعه، وكمال علمه، وعظيم رحمته، لعلّهم يفقهون؛ قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٠ ـ ٦٦].

وهؤلاء العلمانيون الذين يقولون: «لا إلٰه»، «وما يهلكنا إلا الدهر»، ليسوا أمراً جديداً وبدعاً، فقد كان لهم أسلاف في العصور والأمم السابقة.. وقد أخبرنا القرآن الكريم بما كانوا يقولون: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وفي العصور الحديثة ظهر هؤلاء في أوروبة أولاً فيما يسمّى عصر النهضة (Renaissance) وعصر التنوير (Enlightenment) نتيجة معارك طويلة وطاحنة مع الكنيسة التي وقفت ضد العلم، وضد حقوق الإنسان، وساندت النظام الإقطاعي، ثم النظام الاستعماري الأمبريالي، وسارت في ركابه.. وتدخلت في شؤون الحكم، بل كان لها إمبراطورية مقدّسة في أوروبة، وكانت فاسدة فاسقة، واشتهرت عائلة بورجيا في القرون الوسطى بفسقهم الذي تجاوز كلّ حدود.

تقول دائرة المعارف البريطانية[1]: تُمثل عائلة بورجيا البابوات الفسقة الذين ظهروا في القرون الوسطى أصدق تمثيل، ومنهم البابا الإسكندر السادس الذي حكم في عرش البابوية من عام (١٤٩٢م) إلى عام (١٥٠٣م)... وكان عمه ألونسو دي بورجيا رئيس أساقفة فالينسيا في إسبانيا، ثم صار كاردينالاً.. وقد قام عمّه بإدخاله في سلك الكنيسة وهو شاب مراهق. ولما تولى عمّه البابوية جعل ابن أخيه الشاب (٢٥ عاماً) كاردينالاً (وهو منصب كبير جدّاً لا يصله إلا من قضى في سلك الكنيسة دهراً).

وأصبح رودريجو (ابن أخ البابا ألونسو دي بورجيا) نائب رئيس الكنيسة في العالم الغربي (Vice - Chancellor)، وبالتالي جمع ثروة هائلة!.. وكان يعيش حياة البذخ والفجور، وكان له العديد من العشيقات والعديد من الأولاد غير الشرعيين[2] (لم تكن هناك وسائل منع حمل مؤثرة في ذلك الزمان)!.. وكانت عشيقته المفضّلة الإسبانية النبيلة نانوزا كاتاني التي أنجبت له أربعة أطفال؛ وهم جوان وقيصر وجوفري ولوكريزا الفاتنة..

واستطاع بالرشوة وبالفساد أن يحصل على عرش البابوية في (١٠ أغسطس

---

(١) دائرة المعارف البريطانية، الطبعة ١٥، لعام ١٩٨٢م: ٦/٤٦٧ مادة: (البابا الإسكندر السادس).

(٢) يفترض في رجال الكنيسة الكاثوليكية الرهبنة، وهم يحرّمون الزواج على رجال الكهنوت وعلى الراهبات، ومع ذلك فالزنى منتشر بينهم بشكل كبير وخاصة في العصور الحديثة (في تقرير الديلي ميل ١٩٧١م أن ٨٠ بالمئة منهم زناة، وأن ٤٠ بالمئة أيضاً يمارسون الشذوذ الجنسي) واعتداءاتهم على الأطفال مريعة وخاصة في الآونة الأخيرة.

١٤٩٢م)، وتسمّى باسم الإسكندر السادس، وحارب الدولة العثمانية، وأقام الحملات الصليبية، وبارك ما تفعله إيزابيلا وزوجها في إسبانيا من حرب إبادة للمسلمين.. ونصَّب ابنه المراهق سيزار كاردينالاً، وأفسد في الأرض، وعيّن أولاده وأصدقاءه في مناصب هامة.. وكان سيزار على علاقة غرامية جنسية مع أخته الفاتنه لوكريزا. كما كانت لوكريزا على علاقة جنسية غرامية مع والدها المهيب البابا المقدّس ممثل الله في الأرض، وأنجبت منه!.. واشتعلت النيران في بيت الفسق والفجور، وقتل سيزار أخاه الأكبر جوان في (١٤ يونيو ١٤٩٧م).. وكان سيزار نسخة أخرى من أبيه في المكر والفجور مع براعة في الحرب والمؤامرات تفوق براعة أبيه..

وعندما تم اكتشاف أمريكة ساند البابا بقوة احتلال تلك الأراضي من قبل إسبانيا، وشجع بعنف عمليات الإبادة للسكان المحليين وسرقة أموالهم وثرواتهم وذهبهم.

ونتيجة لفسق الكنيسة ورجالاتها وبيعهم صكوك الغفران ومحاربتهم للعلم، وحرقهم واضطهادهم للعلماء، وإثارتهم للحروب الدينية المدمّرة (في أوروبة ذاتها قامت عدة حروب بين الكاثوليك والبروتستانت منها حرب المئة عام، وحروب الروزيس وحرب الثلاثين عاماً).. ونتيجة لمواقف الكنيسة وإقامتها إمبراطورية مسيحية مقدّسة في وسط أوروبة، وما تبع ذلك من استبداد، ومن مواقف تؤيّد الملوك الظلمة والإقطاعيين، ثم عندما بدأ عهد الاستعمار الأوروبي (الإسباني البرتغالي أولاً) وقفت الكنيسة مع الاستعمار ونهب ثروات الأمم الأخرى، واستعبادها، وسرقة ثرواتها، وإبادة سكانها، وتحويل من بقي منهم بالقوة إلى المسيحية.. وهي مواقف أدت إلى استنكار من كان له ضمير حتى من رجال الكنيسة[1]، ونتيجة لذلك كلّه وقفت أوروبة ضد الكنيسة وتسلطها وفسادها.

(١) انظر كتاب: المسيحية والسيف، للمطران برتولومي دي لاس كازاس، ترجمة سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، بيروت، ١٩٩١م، وفيه =

ونحيل القارئ إلى كتاب الباحثة هيلين أليربي بعنوان: «الجانب المظلم من التاريخ المسيحي»[١]، وفيه أوضحت المسلسل الذي لا ينتهي من القتل وسفك الدماء والمؤامرات التي حاكتها الكنيسة منذ قيامها في عهد قسطنطين (الإمبراطور الروماني الوثني، عابد الشمس، والذي لم يتعمد إلا في لحظة موته)، إلى الحروب الدينية الأوروبية، إلى حروب الاستعمار التي أيّدتها الكنيسة، وأطالت النفس في وصف محاكم التفتيش المرعبة وخاصة في إسبانيا والبرتغال، ومحاربتها للعلم والعلماء. وهو كتاب حديث صدر عام (١٩٩٥م) في الولايات المتحدة وموثق بالأدلة.

وبدأت في أوروبة في عصر النهضة حركة متأثرة بالمسلمين وبالعلوم الإسلامية ومناهج البحث فيها، وكان الالتقاء أولاً في إسبانيا ثم في الليڤانت (Levant)، والمقصود به سواحل ومدن البحر الأبيض المتوسطة الشرقية الجنوبية (سوريا الكبرى التي تضم اليوم سورية ولبنان وفلسطين والأردن) أثناء الحروب الصليبية ومصر وشمال إفريقية.. ثم في صقلية وجنوب إيطاليا وجنوب فرنسا. واشتد النزاع بين المنهج العلمي والكنيسة، وقامت المذابح والاضطهاد وحُرق برونو لآرائه العلمية، واضطهد كوبرنيكس وجاليلو... إلخ.

وبدأت حركة الترجمة لما يسمّى «الكتاب المقدّس» الذي كان لا بد من قراءته باللغة اللاتينية التي لا يعرفها إلا القليل، وبدأت الانتقادات تتوالى على هذا الكتاب المقدّس نفسه، وخاصة في عصر التنوير (Enlightenment) مما حدا بالفيلسوف الألماني المشهور كانط أن يقول عن التعاليم والوصايا الدينية: إنها «أرذل الوصايا وأشدّها ضرراً». وقال أرنست بيڤن (وزير الخارجية البريطاني في حكومة أتلي بعد الحرب العالمية الثانية): «إن العهد القديم هو أشدّ الكتب بعداً

= تحدّث المؤلف عن مشاهداته للمذابح التي أقامها الإسبان ورجال الكنيسة للهنود الحمر في أمريكة الجنوبية، وهي مشاهد مرعبة ومقزّزة.

(١) Hellen Ellerbe: The dark Side of Christian History. 1995, Morning Star and Lark. Orlando. U.S.A.

عن الأخلاق». وقال عن اليهود: «ماذا تتوقع من شعب تربّى منذ المهد على أقوال التوراة»[(١)].

ثم إن التوراة الموجودة اليوم (وهي توراة محرّفة) لا يوجد فيها ذكر لليوم الآخر، بل لا يوجد في التوراة (الأسفار الخمسة، البنتاتوك، كتب الشريعة الخمسة) أيّ ذكر لعبادة الله سبحانه وتعالى.. بل تصوّره التوراة بصورة بشرية يعيش مع بني إسرائيل في الخيمة (قبة الزمان كما كان يسميها المؤرِّخون والكتّاب المسلمون مثل ابن القيّم وابن كثير وابن تيمية... إلخ)، ونزل من السماء إلى حواري مصر ليقتل ابن موسى (لأن موسى رفض أن يذهب إلى فرعون)، وخطف الطفل بالفعل، ولكن صفورة أم الصبي، انتشلته من براثنه، وقطعت غرلة الصبي (لم يكن مختوناً بعد)، ومسحت بدم الغرلة قدم الرب وساقه وقالت: عريس دم من أجل الختان، فقال لها الرب حسب زعمهم: عريس دم من أجل الختان، وانفك عن الصبي[(٢)].

وكان الرب يسير مع بني إسرائيل نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نور لمدة أربعين عاماً في برية صين (سيناء)، ومع ذلك لم يستطع أن يهديهم إلى الطريق[(٣)].

وقد جاء في سفر الخروج من التوراة المحرَّفة سفر الخروج (الإصحاح ٢٤/٩ ـ ١١): «ثم صعد هارون وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه منصّة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمدّ يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا».

---

(١) محمد علي البار: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، دار القلم ـ دمشق ـ الدار الشامية، بيروت، ١٩٩٠م، ص ١٧، نقلاً عن مذكرات كريستوفر ماهيو التي نشرت في صحيفة الشرق الأوسط.

(٢) انظر: التوراة، سفر الخروج، الإصحاح ٤/ ٢٢ ـ ٢٦.

(٣) انظر: سفر الخروج، الإصحاح، ١٣/ ٢٠ ـ ٢١.

والمضحك حقّاً أن الرب الذي يقاتل دوماً مع بني إسرائيل ويحضر المعارك معهم، وهو جالس في التابوت الذي صنعوه لهم، ويمنحهم النصر على أعدائهم، المضحك حقّاً أن بني إسرائيل انهزموا في المعركة مع الفلسطينيين وتركوا الربَّ وراءهم فأخذه الفلسطينيون أسيراً لديهم لمدة سبع سنوات، فضربهم بالبواسير وكثرة الفئران، فاضطروا لإطلاق سراحه تجرّه مركبة ثيران، ومعه فدية، بواسير من ذهب وفئران من ذهب. . وقام داود والشعب باستقبال الرب، رب الجنود الجالس على الكروبيم، والذي كان في تلك اللحظة في التابوت، «وكان داود يرقص بكلِّ قوته أمام الرب، وأشرفت ميكال بنت شاول (زوجة داود) من الكوة، ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب فاحتقرته في قلبها» [سفر صموئيل الثاني، الإصحاح السادس].

والرب في العهد القديم هو رب إسرائيل فقط، ولا يهتم بالآخرين، ويغار جدّاً عندما يتوجه أبناؤه لعبادة الآلهة الأخرى، وترى أسلوباً وقحاً، وكأنه عاشق يذهب إلى عشيقته، وهي تتدلل عليه وتذهب مع عشاق آخرين، وتزني أمامه!!.

وكتاب العهد القديم، ما عدا آيات قليلة، كتاب حقير يصف الله والأنبياء بكلِّ نقيصة وكلّ جريمة. . وهو لا يعترف باليوم الآخر، والله هو ربُّ شعب إسرائيل فقط ولا يعترف بغيرهم. . ولا يرضيه إلا أن يتقرّب إليه شعبه بالمذابح والقرابين، فإذا شمَّ رائحة الشواء أعطاهم أرضاً تفيض سمناً وعسلاً، وطرد سكان الأرض وقَتَلهم وأبادهم. .

وقد وضعتُ كتابين في هذا الموضوع، هما: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، وكتاب الله والأنبياء في «التوراة والعهد القديم»، لتوضيح ما في هذا الكتاب المقدّس (ليس فيه من القداسة شيء) من غثاء وحقارة، وسبٍّ للّه سبحانه وتعالى وللأنبياء الكرام!. . وهو بعد ذلك كله أساس للعلمانية لأنه لا يرى إلا الدنيا وحدها، والآخرة لا وجود لها بالنسبة له، والعلمانية هي الاهتمام بالدنيا فقط.

ويعرّف معجم وبستر العلمانية (Secularism) بقوله: «هي العقيدة التي ترى إبعاد الدين عن الدولة والتعليم والأخلاق، وأن تكون جميعها مستقلة وبعيدة عن تأثير الكنيسة والمؤسسات الدينية، وأن يرى الإنسان أن العقل هو مصدر خلاصه لا الدين، وبالتالي رفض كلّ الغيبيات وما وراء الطبيعة».

ونرى معجم أوكسفورد يعرف العلمانية: بأنها الرأي الذي يقول: إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية والقيم، وإن العلمنة هي تحويل ممتلكات الكنيسة ومؤسساتها إلى الدولة لخدمة الأمور الزمنية.

وتعرّف دائرة المعارف البريطانية العلمانية (Secularism): بأنها حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها... ثم تطورت باستمرار كحركة مضادة للتدين والدين المسيحي على وجه الخصوص.

ويعرّف **المعجم الدولي الثالث الجديد العلمانية**: بأنها اتجاه في الحياة يقوم على مبدأ أن الدين والاعتبارات الدينية يجب أن لا تتدخل في الحكومة... والعلمانية نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والأخلاقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين.

ويعرِّفها معجم علم الاجتماع المعاصر بقوله: **علماني: دنيوي، غير روحي، غير ديني، والعلماني هو العقلاني أو النفعي**.. والعلمانية: هي منظومة كاملة تحتوي على ميتافيزيقيا (وهو أمر متناقض، فهذه الكلمة تعني ما وراء الطبيعة؛ أي: الغيب، وهم ينكرون الغيب أساساً) واضحة ورؤية شاملة للكون ترفض الإيمان بالآخرة والغيبيات.. ولها أخلاقياتها المبنيّة على العقلانيّة والنفعيّة.

وقد أدّى هذا المفهوم للعلمانية إلى انحسار الدين وتراجعه، وإلى الفصل بين المجتمع والدين وإلى اختفاء فكرة المقدّس، وتكريس المجتمع العلماني بدلاً من المجتمع الكهنوتي والتركيز على الحياة المادية الدنيوية البحتة.. وقد وصفهم

المولى سبحانه وتعالى عندما وصف أسلافهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وقد تحدّث عنهم علماء الإسلام قديماً كما تحدّث عنهم في العصور الحديثة جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، وقد ردّ عليهم الأفغاني برسالته «رسالة في الرد على الدهريين»، وكتب محمد عبده مقالات ضدهم في مجلته «العروة الوثقى».

وقد كان منشأ العلمانية بعيداً عن الدين مجافياً له بسبب ما حصل في أوروبة من سيطرة الكنيسة وعقائدها اللاعقلانية، وفساد رجالها، وسيطرتها على الحكم، ومحاربتها للعلم، واستبدادها وطغيانها، وإقامتها محاكم التفتيش المرعبة، ونشرها الحروب الدينية وإغراقها أوروبة في بحار من الدماء!.. لهذا كله كانت أوروبة تتجه بعيداً عن الدين وعن الكنيسة. وكانت المعاداة للدين شديدة في فرنسا، بصورة خاصة، وعندما قامت الثورة الفرنسية ضد الملكية والإقطاع انتشر شعار: «اشنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس»!.. وكان العداء بينها وبين الكنيسة شديداً.

وابتعدت هولندا عن الكنيسة الكاثوليكية بصورة واضحة وحاربتها، وتحولت إلى الكالفينية ثم إلى الليبرالية، وتبعتها معظم دول أوروبة بصور متفاوتة.. واختارت دول الشمال الأوروبي المنهج العلماني، ثم انتشر بعد ذلك في كل أوروبة، وقامت إنجلترا باختيار دين جديد لها سمّته «الإنجليكانية»، وتحول ملك إنجلترا إلى رئيس للكنيسة بعد أن طرده البابا هو ونسله إلى أبد الآبدين من رحمة الله!.. واتخذت بريطانيا المنهج العلماني في الحياة منذ عهد إليزابيت الأولى (١٥٨٨ ـ ١٦٠٣م)..

واختارت ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا العلمانية بعد أن فعلت ذلك دول الشمال.. ورغم ذلك كانت العلاقة بين الكنيسة والدولة علاقة تبادلية، وبقي للكنيسة مقامها واحترامها خاصة بعد أن اعترفت بمبدأ «دع ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه»، وهو مبدأ اعتمدته الكنيسة في أوروبة بعد انتشار العلمانية حتى تُبقي

على نفوذها.. وقد كان للكنيسة البروتستانتية وفرقها المختلفة وخاصة «المتطهرين» دور كبير في تكوين الولايات المتحدة.. وهي التي قامت بإبادة السكان الأصليين (الهنود الحمر) بكافة الوسائل، بما في ذلك الحرب البيولوجية حيث استخدموا بطانيات وألحفة المصابين بالجدري من الأوروبيين، وأهدوها للهنود الحمر الذين لم يعرفوا الجدري في تاريخهم، فقضى على الملايين منهم دون قتال.

والولايات المتحدة دولة علمانية تفصل الدين عن الدولة، ولكن الكنيسة هناك لها نفوذ ضخم ومؤسسات في كل مجال، وخاصة في المجالات التعليمية والاجتماعية.. ولها نفوذ ضخم على اليمين الأمريكي، وخاصة على التدبيريين الذين يؤمنون بفكرة قرب مجيء المخلّص يسوع، ولا بد من أجل تقريب مجيئه من عودة بني إسرائيل إلى فلسطين كما تعود الطير إلى أوكارها، وأن تُسترجع أورشليم (القدس)!.. وقد تمَّ تحقيق هذين الشرطين بقيام دولة إسرائيل واستيلائها على القدس عام (١٩٦٧م). والشرط الثالث هو بناء الهيكل، تحقيقاً لنبوءات سفر حزقيال (وقد تحققت هذه النبوءات عندما أعادهم الملك دارا الفارسي إلى فلسطين والقدس وبنى لهم الهيكل... إلخ).

ويعترف بعض العلمانيين العرب: بأن العلمانية إنما ظهرت في أوروبة نتيجة لتعنّت الكنيسة.

ويقول د. حسين أحمد أمين(١): «وكان المفروض ألا تثور في العالم الإسلامي هذه المشكلة لأسباب عديدة، أهمها أن الإسلام لا يعرف نظام الكنيسة، ولا نظام رجال الدين (الكهنوت)، ولأنه يشجع الكافة على النظر في علومه والاشتغال بها». وقد صدق في ذلك كله، ولكنه زعم أن مجموعة من العلماء احتكروا فهم الدين لأنفسهم مما أدى إلى ظهور علمانية مناهضة للدين ورجاله في العالم الإسلامي (وهو أمر غير صحيح؛ حيث لا يستطيع أحد أن يحتكر علم الدين بل هو مفتوح للدارسين).

---

(١) عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: ١/٦٨.

ويرى حسن حنفي: «أن العلمانية ظاهرة تنتمي إلى الحضارة الغربية، وهي تعني الفصل بين الكنيسة والدولة.. ولهذا كان العلمانيون الأوائل في بلادنا الإسلامية كلّهم من النصارى، وغالبيتهم من نصارى الشام ممن تربوا في المدارس الأجنبية وفي إرساليات التبشير»[(١)].

ولعب عدد من نصارى الشام الذين قدموا إلى مصر دوراً هامّاً في نشر العلمانية والثقافة الحديثة، وقد دعمهم الاستعمار البريطاني في مصر، فكانوا هم الذين أسّسوا الصحافة في مصر (الأهرام ـ الهلال ـ أخبار اليوم... إلخ) كما كان منهم رجال الفن والمسرح والتمثيل والرقص والغناء.. وظهرت منهم مجموعة كبيرة من الفنانين والفنانات.

واعتُبر شبلي شميل من أبرز أعلام الدعاة إلى العلمانية، واستخدم في ذلك نظرية دارون «النشوء والارتقاء» لمحاربة الدِّين، وقرر أن المعرفة ليس لها إلا مصدر واحد هو الحواس.. وجميع المعارف الإنسانية اكتسابية صادرة عن الحواس.. والعقل ذاته مادي وليس هو إلا أثر من آثار الموجات الكهربائية التي تنتقل عبر الأعصاب إلى الدماغ».

وفي نظر **شبلي**[(٢)] **شميل**: «الإنسان الطبيعي هو وكل ما فيه مكتسب من

---

(١) يستغرب الإنسان أن يتخرج دعاة العلمانية من مدارس التبشير، ولكن العجب يزول حين نعرف أن الهدف الأساسي هو إبعاد شباب المسلمين عن الإسلام، لأن إدخالهم المسيحية مباشرة أمر يكاد يكون مستحيلاً، ولذا فقد سارت خطة زويمر (أحد كبار المبشرين في القرن العشرين) وهي نشر العلمانية والإلحاد بين المسلمين وإبعادهم عن دينهم!.. وقد طبّقت هذه الخطة في أماكن كثيرة منها اليمن الجنوبية التي كانت مستعمرة وتحول تلامذة المبشرين إلى الشيوعية والماركسية.

(٢) شبلي شميل (١٨٥٠ ـ ١٩١٧م)، طبيب وعالم طبيعي لبناني نصراني درس في المدارس التبشيرية ثم في فرنسا وأوروبة ـ علماني عدو للدين، اهتم بدارون اهتماماً عظيماً ونشر كتابه «فلسفة النشوء والارتقاء» واعتبر دارون بالذات وسيلته لنشر العلمانية في مصر، وكان من تلاميذه الكبار وناشري فكره سلامة موسى (قبطي نصراني)، ثم بعد ذلك ظهر العلمانيون المسلمون (بالوراثة). له عدة كتب؛ أهمها: فلسفة النشوء والارتقاء، ونشرت مقالاته وكتبه باسم المجموعة الكاملة لشبلي شميل.

الطبيعة»، وتحدّث عن تعارض العلم والدِّين وعدم إمكانية التوفيق بين الأفكار الدينية كالبعث والروح والمعجزة والوحي، ونتائج العلم.. بل اعتبر أن الدين ليس إلا حركة من الإنسان البدائي المرعوب من المجهول.. ولهذا اتخذ مبدأ نيتشه وهو أن الإنسان هو الذي خلق الله، وليس الله هو الذي خلق الإنسان!!.

ويرى **حسن حنفي**: أن جوهر الإسلام علماني[1] (بمعنى أنه ضدّ الكهنوت)، ويقول: إن النموذج الإسلامي قائم على العلمانية، بمعنى غياب الكهنوت، وأن الأحكام الإسلامية الشرعية الخمسة (الواجب، المندوب، المحرّم، المكروه، والمباح) تشمل كلّ نشاط إنساني، وتعبّر عن مستويات الفعل الإنساني الطبيعي.. وهناك تطابق مذهل بين الداخل والخارج، وبين الشريعة والطبيعة، بين الإسلامي والعلماني... كما أن علوم الفقه وأصوله وعلوم الحكمة الإسلامية وعلوم التصوّف كلّها جعلت الاهتمام بالإنسان أولاً.. وجعلت بؤرة الوجود هو الإنسان وليس الإلٰه (وهذا غير صحيح).

وكلّ ما قاله حسن حنفي يدل على أنه أكثر فهماً للعلمانية من غيره، وأن مصدرها الصدام بين الكنيسة والعلم والمجتمع في أوروبة، وأن الإسلام بعيد أصلاً عن هذه المعارك المفتعلة، وأنها نقلت نقلاً بواسطة نصارى الشام (بمعناها الواسع) وبتأييد ودعم من المستعمر البريطاني في مصر.

ويرى **نصر أبو زيد**[2]: أن العلمانية تهتم بهذا العالم الدنيوي فقط، وبالإنسان باعتباره قلب العالم ومركزه بعيداً عن الكنيسة التي جعلت الآخرة الهدف والغاية.. ومع هذا فإن الكنيسة في واقعها التاريخي لم تهمل الدنيا، بل انغمست فيها لحسابها، وأقامت دولة، وخاضت حروباً دامية، وانتشر الفساد في رجالها.. وكانت تمارس إيديولوجيا القهر والاستغلال في صراع دنيوي بحت لا علاقة له باللاهوت والدّين. وكلامه هذا حق وصدق. ويقول: «والعلمانية في

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: ١/ ٨١ ـ ٨٣.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٨٣.

هذا السياق معركة جزئية وواقعة تاريخية (في أوروبة) ومرتبطة بالكنيسة المسيحية كمؤسسة دينية». ويرى أن العلمانية لا تعادي الدين في أساسه، بل تعادي سيطرة الكنيسة وسلوكها المنحاز للإقطاع والظلم والاستعمار. وللأسف لم يكتفِ نصر أبو زيد بهذا الكلام ولو فعل لكان موفّقاً في ذلك، ولكنه رفع شعار «لا سلطان على العقل إلا للعقل» وتبنّى العلمانية لأنها حسب زعمه المخرج من سيطرة رجال الدين والكهنوت والتفكير الغيبي... إلخ.

ويختلف الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه القيّم «العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة»[١] مع كلٍّ هؤلاء، ويرى أن للعلمانية مفهومان في دائرتين متداخلتين:

الأولى: العلمانية الجزئية: وهي الدائرة الصغيرة، وتعني فقط فصل الدين عن الدولة، وهي بالتالي لا تنكر الدين ولكنها تفهمه كأشواق روحية تتيح لكلٍّ فرد أن يتصل بخالقه بالطريقة المناسبة له.

والثانية: العلمانية الشاملة: وهي الدائرة الأوسع وتحيط بالأولى، وهي تعني فصل الدين عن الدولة، وعن حياة الإنسان في جانبها العام والخاص بحيث تُنزع القداسة، ويتحول العالم والإنسان والطبيعة إلى مادة يمكن توظيفها لصالح الأقوى، وللاستمتاع بمباهج الحياة ما أمكن. وتؤدي العلمانية الجزئية حتماً إلى العلمانية الشاملة في نهاية المطاف.

ويؤيّد المسيري في ذلك التعريفات التي نقلناها عن العلمانية من المصادر الغربية؛ مثل: معجم وبستر، ومعجم أوكسفورد، والمعجم الدولي، ودائرة المعارف البريطانية، ومعجم علم الاجتماع المعاصر.

ويؤيّده كذلك الكاتب السوداني **عبد السلام سيد أحمد**[٢] الذي جعل العلمانية في ثلاث دوائر متصلة (بدلاً من اثنتين عند المسيري):

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٨٥.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٨٦.

الأولى: مبدأ فصل الدين عن الدولة.

والثانية: العلمنة الفكرية: وبروز العقل المادي الطبيعي الذي يرفض الغيبيات.

والثالثة: العلمنة الاجتماعية: وهي تشمل الدائرتين السابقتين بحيث تؤدي إلى إحلال منظومة متكاملة من القيم والعلاقات الإنسانية بعيداً عن الدين والأخلاق الدينية.

وقد انتقد المسيري موقف كثير من العلمانيين العرب الذين قبلوا العلمانية الجزئية، وهي فصل الدين عن الدولة، ورفضوا العلمانية الشاملة التي ترفض الإلٰه والغيبيات والدين وتعتمد إحلال منظومة كاملة من القيم والعلاقات الإنسانية بعيداً عن الدين والأخلاق الدينية؛ لأن العلمانية الجزئية تؤدي في نهاية المطاف إلى العلمانية الشاملة، وقد صدق.

ولكن المسيري يفهم الدين أنه أشواق روحية، وأن العلاقة هي علاقة قلبية وروحانية بين الإنسان والله.. ولا يرى المسيري في الدين أنه يُنّظم الحياة الإنسانية الدنيوية والأخروية، بل يفهم حديث الرسول ﷺ: «**أنتم أعلم بشؤون (بأمور) دنياكم**» في حديث تأبير النخل: أن الإسلام قد تخلّى عن الدنيا، وهو مفهوم غريب عن الإسلام تماماً. ولا شك أن مفهوم حسن حنفي عن الإسلام أعمق من مفهوم المسيري، فقد فهم الإسلام بأنه دين يضمُّ الدنيا إلى الآخرة، ولا كهنوت فيه، وأن جميع أعمال الإنسان وأنشطته في الدنيا تندرج تحت أحد الأحكام الخمسة (الوجوب، الندب، الإباحة، المكروه، الحرام)، واستخدم تعبير أن جوهر الإسلام علماني. وكذلك مفهوم نصر أبو زيد حول نشأة العلمانية وارتباطها بالكنيسة، وأن الإسلام بعيد عن ذلك. والموقف ذاته يقفه حسين أحمد أمين. ثم يقعون بعد ذلك في أخطاء كما سنوضّحها في الفصل الأول من الكتاب.

ويقع المسيري في خطأ عندما يتجاهل تاريخ نشأة العلمانية في أوروبة

وصراعها مع الكنيسة. ويعتقد المسيري أن التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية البنوية هي التي أدَّت إلى ظهور العلمانية، وأن الصراع مع الكنيسة ليس السبب في ظهور العلمانية، لأن السبب في ظنه هو التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية العميقة التي صحبت الثورة الصناعية... إلخ. وهذا الإنكار من المسيري يناقض ما ذكره أساطين العلمانية في الغرب نفسه وتعريفاتهم العديدة التي ذكرت المعركة الحاسمة بين الكنيسة والعلم والمجتمع، مما أدى إلى ظهور العلمانية.

ويذهب المسيري إلى أن المؤسسة الدينية لا يمكن أن تتوحد مع المؤسسة السياسية في أي تركيب حضاري بما في ذلك الإسلام!.. وهو قول خاطئ، فقد قامت دولة المدينة المنوّرة على يد الرسول محمد ﷺ، وكانت دولة دينية سياسية اجتماعية اقتصادية... إلخ ثم على يد الخلفاء الراشدين، ثم تحولت إلى الملك العضوض الذي أخبرنا عنه الرسول ﷺ.. ومع ذلك كانت المرجعية للأحكام والمجتمع هي الشريعة الإسلامية، وبقيت كذلك مع وجود الانحرافات في نظام الحكم والدولة إلى أن ألغى كمال أتاتورك، العلماني، (من يهود الدونمة) الخلافة الإسلامية سنة (١٩٢٤م). ومع هذا فإن الشريعة الإسلامية لا تزال تحكم في المملكة العربية السعودية واليمن والسودان وإيران وكثير من الدول الإسلامية عربية وأعجمية بصور متفاوتة قرباً وبُعداً عن منهج الإسلام والشريعة.

كما يزعم المسيري أن السلطة الدينية لا يمكن أن تتوحّد مع السلطة التعليمية.. وهو قول غير صحيح، فالمؤسسة التعليمية في الإسلام بدأت من مسجد الرسول ﷺ في المدينة، واستمرت كذلك طوال القرون الطويلة ـ ولا يزال لها دور رغم محاولة الفصل بينهما. وأما أوروبة فقد شهدت منذ دخول قسطنطين في المسيحية ومؤتمر نيقيه (٣٢٦ ميلادية) تأثيراً كبيراً للدين على المؤسسة التعليمية، بل إن المؤسسة التعليمية كلها كانت في رحاب الكنيسة، واستمر ذلك إلى عصر التنوير عندما قامت المعارك بين الكنيسة والدولة والمجتمع، وذلك منذ القرن السابع عشر الميلادي، واتضح ذلك في القرن الثامن عشر وبلغ مداه في القرن التاسع عشر الميلادي.

ورغم ذلك فإن المؤسسات التعليمية التابعة للكنيسة في الولايات المتحدة اليوم تشكّل رافداً هامّاً للمؤسسة التعليمية.. ولها نظام يبدأ من الروضة وينتهي بالجامعة، ولديهم آلاف المدارس وعشرات الجامعات التي تؤثّر على المجتمع ونظامه التعليمي.. والوضع ذاته موجود في أوروبة بصورة أقل بكثير مما هو عليه في الولايات المتحدة.

ويتجاهل المسيري دور ما يسمّى «الكتاب المقدس» بشقّيه «العهد القديم» و«العهد الجديد» في إيجاد العلمانية!.. وكيف أن تعاليم العهد القديم بالذات تعاليم مادية نفعية، وأخلاقه أخلاق استغلالية، وبطريقة بشعة ـ وكلها تسعى لصالح شعب هو شعب إسرائيل الذي حلّ فيه الإلٰه.

لهذا كله بدأتُ بتعريف العلمانية ومفاهيمها المختلفة في **الفصل الأول**، واستعرضتُ التعاريف المختلفة، ومواقف العلمانيين الغربيين والعرب، وركزتُ على النقاط التي أثارها المسيري.. وقد كان كتاب المسيري «العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» أهم مرجع لي في كتابة هذا الفصل، مع اختلافي مع كثير من مفاهيمه، واعترافي بأنه أهم كتاب في هذا الموضوع باللغة العربية، حسب علمي.

وفي **الفصل الثاني** تحدثتُ عن الكتاب المقدّس والعقائد المسيحية لأنها في رأيي هي الأساس والسبب في وجود العلمانية في الغرب، ومن ثم انتقالها بالتقليد إلينا.

وقد أوضحتُ كيف أن الدراسات حول الكتاب المقدّس توسعت لدرجة أن علماء اللاهوت أنفسهم ورجال الكنيسة أصبحوا يقرّون أن «الكتاب المقدّس» ليس وحياً من عند الله، بل هو عمل آلاف الكتّاب المجهولين على مدى أزمنة متطاولة. وكما تقول الرهبانية اليسوعية[1]: «أسفار الكتاب المقدّس هي عمل مؤلفين ومحررين ظل عدد كبير منهم مجهولاً... وكل هذه الكتب عُدِّلت وبُدِّلت

(١) الكتاب المقدّس، إصدار الرهبانية اليسوعية، بيروت، دار المشرق، كتب الشريعة الخمسة، مدخل إلى الكتاب المقدّس.

مراراً. . وأضيف إليها وأسقط منها ولم تتخذ شكلها النهائي إلا في القرن الأول بعد الميلاد أي بعد (١٣٠٠ سنة) من عهد موسى، بل إن النص المسوري، وهو الصيغة الرسمية للعهد القديم، لم يقرر نهائياً إلا في القرن العاشر بعد الميلاد على يد عائلة ابن أشير التي ظهرت في طبرية في سورية (احتلتها إسرائيل). وأقدم مخطوط سوري كامل للعهد القديم هو مخطوط حلب الذي يرجع إلى القرن العاشر بعد الميلاد»، أي بعد (٢٣٠٠ عام) من عهد موسى عليه السلام.

ويقول الأب سيداروس اليسوعي[1]: «ليس الكتاب المسيحي (العهد الجديد) كتاباً منزّلاً كتبه الله. . . وكان في بداية الأمر عبارة عن روايات شفهية تداولتها الجماعات المسيحية الأولى، ثم دوّنها الإنجيليون الأربعة كلٌّ بأسلوبه الخاص. . .».

وكل ما قلناه يكفي ليقنع باحثاً سطحيّاً أن الأناجيل قد حرَّفها المسيحيون، إذ بين يسوع الناصري والروايات الشفهية والتدوين الرباعي عن يسوع الممجد فجوة وهاوية. وأوضحت اتفاق جميع الباحثين بما فيهم رجال الكنيسة ذاتها على أن هذه الكتب المسماة «الكتاب المقدّس» ليست إلّا كتابات لعدد كبير من الكتّاب المجهولين والتي عُدِّلت وبدّلت، ولا تزال تعدّل وتبدّل إلى اليوم. وليست لها بالتالي العصمة من الخطأ والقداسة المزعومة.

ثم تحدثتُ عن العقيدة المسيحية والدين النصراني وكيف اتجه الباحثون في العصر الحديث إلى اعتباره ديناً أوجده بولس، ولم يأتِ به يسوع الذي لم يدّعِ قط أنه إلٰه أو ابن الإلٰه، وظهرت كتب كثيرة في الجامعات الأوروبية والأمريكية تعتبر أن بولس هو الذي حرّف دين المسيح، وبالتالي أن الدين النصراني الموجود الآن هو دين بولس!. . ومن أهم هذه الكتب كتاب أستاذ تاريخ الأديان في جامعة لندن هيام ماكبي وعنوانه: (صانع الأسطورة: The Myth Maker)، (بولس واختراع المسيحية: Paul and the Invention of Christianity) ونشرته دار

---

(١) الأب سيداروس اليسوعي، تكوين الإنجيل، سلسلة دراسات في الكتاب المقدس، دار المشرق في بيروت، بإشراف هيئة الإكليروس الكاثوليكي المسيحي، ١٩٩٠م.

هاربر بالولايات المتحدة سنة (١٩٨٦م). وكتاب أستاذ تاريخ الأديان في جامعة باريس الدكتور شارل جينيبر (المسيحية نشأتها وتطورها) الذي ترجمه الإمام الشيخ عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر) رحمه الله. وقد قرر الكتاب أن بولس هو أول من حرّف دين المسيح، وأن المسيحية تأثرت بالوثنية وتشرَّبتها، وصارت بذلك وكأنها دين وثني بطقوسه المعقّدة، وعقائده الصعبة على الفهم، والتي لا يسيغها العقل بأي حال من الأحوال. وقد نقلتُ في ذلك نقولاً من كتابي: (دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية)[١].

وتحدثتُ بعد ذلك عن مواقف الكنيسة وكيف أدت إلى العلمانية، كما تحدثت عن التطورات الحديثة في المسيحية، وظهور مجموعات كبيرة من الموحّدين الذين ينكرون التثليث وعقيدة الفداء والخلاص، ومن هؤلاء مؤلفو كتاب (اسطورة تجسد الإله: The Myth of God Incarnate) وهم مجموعة من علماء اللاهوت في أربع جامعات بريطانية.

ونقلتُ عن مراد هوفمان في كتابه الرائع (الإسلام في الألفية الثالثة) ما ذكره عن مجموعة كبيرة من علماء اللاهوت، وكيف أنهم يعيشون أزمة حقيقية وزلزالاً يضرب أسس العقيدة المسيحية، ولذا فإن الإمكانات التي تتيحها عملية التصحيح مذهلة بحيث يتحول يسوع من الأقنوم الثاني في الثالوث الإلٰهي إلى مجرد إنسان، بشر، رسول من عند الله.. وهذا يفتح آفاقاً واسعة للدعوة إلى الله بين هؤلاء العلماء الكبار من رجال اللاهوت والفكر.. ويجتذبهم إلى الإسلام بدلاً من الضياع في متاهات العلمانية وضلالها، أو عبادات كريشنا الهندوكية، أو تهويمات البوذية.. الخ.

وفي **الفصل الثالث** تحدثتُ طويلاً عمّا هو المقدّس وما هو غير المقدّس؛ حيث إن تعريف كلمة العلماني (Secular) تعني: غير مقدّس، مهتم بهذا العالم الدنيوي، ودرستُ في هذا الفصل من أين جاءت القداسة؛ فوجدت أن التوراة

---

(١) إصدار دار القلم ـ دمشق، ٢٠٠٦م.

تتحدث أن الله خلق آدم، على صورة الله خلقه، وجعل فيه جزءاً من ذاته العليّة نفخ فيه من روحه، وبالتالي كان آدم مقدّساً، وانتقلت القداسة إلى نوح ومنه إلى ابنه سام ومنه إلى إبراهيم فإسحاق فيعقوب في قصص خرافية مضحكة. . ومن يعقوب (إسرائيل) إلى أبنائه؛ فكل اليهود مقدّسون لأنهم من ذات الله وروحه!. . وهم أبناء الله وأحباؤه على الحقيقة والمجاز!. .

وتحدثتُ عن عقائد يهود وفرقهم بما فيها العلمانية الصهيونية؛ وهي من أغرب الأمور، فهؤلاء الصهاينة رغم أنهم علمانيون إلا أنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن الله (إذا كان هناك إلٰه) قد حَلَّ وتوحَّد في شعب إسرائيل، وفي أرض إسرائيل، وفي كتاب إسرائيل المقدّس (التوراة)؛ فاليهودي ليس فقط مقدَّساً «ومن ضرب يهوديّاً فكأنما ضرب العزة الإلٰهية» كما يقول التلمود، بل يقول العلمانيون: إن اليهودي هو ذاته الله!. . وأن الله قد تجسَّد تماماً في هذه الثلاثة: «شعب إسرائيل، وأرتز إسرائيل، وتوراة إسرائيل».

وقد كان المسيري موفّقاً تماماً في هذا الفصل؛ حيث عرض بتفصيل آراء هؤلاء الصهاينة الملاحدة الذين يرون أن القداسة تحدث فيهم لمجرد كونهم يهوداً «والقيمة المطلقة في حضارة هذا الشعب ليست قيمة أخلاقية أو إنسانية، وإنما قيمة البقاء. . . ويصبح معيار الإيمان باليهودية ليس الإيمان بهذه العقيدة أو تلك، أو ممارسة هذه الشعائر أو تلك، وإنما مدى التزام اليهودي ببقاء شعبه»[(١)].

وقد أوفيتُ البحث حقه عن هؤلاء اليهود ودورهم في نشر العلمانية، وكيف أن العلمانية تنبع من عقائدهم وخرافاتهم وأساطيرهم، حتى بعد أن وصلوا إلى ما يسمّى لاهوت موت الإلٰه (فكرة نيتشه الألماني). وكيف أنهم يعتقدون أنهم مقدّسون، بل لا قداسة في العالم سوى قداستهم!. . وهم في ذلك أشدّ من النازية والفاشية.

---

(١) **اليهودية التجديدية**: أسسها الحاخام مردخاي كابلان في عام ١٩٢٢م في الولايات المتحدة. وقد نقل المسيري كلامه في كتاب: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: ٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٥.

وأوضحتُ كيف لعبت أسفار التوراة وسفر يشوع وغيرها من أسفار العهد القديم دوراً هاماً في أهمية بقاء الشعب اليهودي ودولته، ولو أدى ذلك إلى قتل البشر جميعاً.. وبالذات قتل سكان فلسطين والذين يدّعون ملكية الأرض التي أعطاها الله (وإن كان لا وجود له حسب زعمهم) لشعب إسرائيل - ولذا يجب قتلهم وطردهم وتشريدهم وقتل نسائهم وأطفالهم كما نشاهده كل يوم على شاشات التليفزيون، وتاريخ قيام إسرائيل إلى يومنا هذا؛ فالأمر بقتل الكلّ من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني أمر رباني ذكرته أسفار العهد القديم والتوراة التي لها القداسة، رغم أن هؤلاء العلمانيين لا يؤمنون بالله أساساً ولا بالنبوّات والرسالات السماوية.

واضطررتُ إلى نقل صفحات كاملة من التوراة وسفر يشوع التي تأمر «بإقامة المذابح للفلسطينيين، وسكان الأرض التي أعطاك الرب إياها»، للتأكيد على هذه الحقائق وإزالة كلّ الأوهام عن السلام.

وفي **الفصل الرابع** تحدثتُ عن صفات الله سبحان وتعالى، وكيف تصوّره أسفار الكتاب المقدّس وخاصة سفر التكوين، وقصة خلق آدم وكيف غضب الرب عليه لأنه أكل من شجرة المعرفة، فالربُّ عندهم لا يريد للإنسان إلا أن يكون جاهلاً... وقد قارنتُ ذلك بقصة بروميثوس عند اليونان وتأثيراتها على الأدب الأوروبي واعتمادها لتحدي الإله الذي لا يريد للإنسان أن يعرف، ولا يريده أن يتعاون مع بني البشر، بل يريده جاهلاً ويبلبل لسانه حتى لا يبني مدينة برجها إلى السماء ويكون للبشر لسان واحد، فَنَزل الربُّ حسب زعمهم وبلبلهم، ومن أجل ذلك سميت المدينة «بابل».

وأوضحتُ أن هذه العقائد سواء كانت عند اليهود أو عند النصارى وما أضافوه من عقيدة التثليث أدت إلى إنكار الدين وظهور العلمانية في عصر النهضة وعصر التنوير؛ لأنها عقائد يرفضها العقل رفضاً تامّاً.

وفي **الفصل الخامس** استعرضتُ قصة الصراع بين الإله والإنسان، وقصة بروميثوس وتأثيراتها في الآداب الأوروبية في عصر النهضة وعصر التنوير.

وفي **الفصل السادس** أوضحتُ كيف صوّرت التوراة وأسفار العهد القديم الأنبياء بصورة مقزّزة تؤدي قطعاً إلى الكفر بهم، واعتبارهم أسلاف شارون وبيغن وشامير ونتنياهو ويهود أولمرت. . . كما أوضحتُ كيف تؤدي هذه التعاليم إلى انتشار الفاحشة وانهيار الأخلاق وشيوع العلمانية.

ودرستُ ما يسمّى أسفار الشعر والحكمة وبالذات سفر الجامعة (لا يؤمن بالآخرة وينتهي إلى فلسفة العدم والكل باطل الأباطيل وقبض الريح) وسفر أيوب الذي يخاصم الرب على أنه ابتلاه. . ولم يجد هذا الرب عندما بحث عنه، لا في الشمال ولا في الجنوب، ولا في الشرق ولا في الغرب. . وانتهى إلى الكفر الصريح والإلحاد. . وهذه الكتب مع كتاب الأمثال ونشيد الإنشاد الجنسي هي المادة الأساسية لكل كتّاب العلمانية والحداثة وما بعد الحداثة وأدبائهم وفنانيهم.

ثم جعلتُ **الفصل السابع** والأخير بعنوان: العلمانية والعلم، وكيف أن العلمانية تتشدَّق بالعلم (Science)، ولكن هذا العلم بعد توسعه في القرن العشرين تحول إلى أداة إيمان بدلاً من أن يكون أداة كفر. . ورغم ذلك بقيت الكتب العلمية الكلاسيكية والتي تُدرَّس في المدارس والجامعات بعيدة تماماً عن ذكر اسم الله سبحانه. . والخالق والمبدع لديها هو الطبيعة.

وتعرّضتُ بعد ذلك إلى حركة الإعجاز العلمي في القرآن والسنَّة وبعض الملاحظات الهامة عليها، رغم ما قدَّمته من خدمات عظيمة في فهم القرآن والسنّة في هذه المواد العلمية فهماً عميقاً جديراً بكل دراسة. . ولكنها رغم ذلك لا تزيد عن فهم من الفهوم التي امتلأت بها كتب التفسير لدينا.

واللّه أسأل أن ينفع بهذا البحث المطوّل الذي كان محاضرة أُلقيت في جامعة عدن ثم في الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وفي ندوة معرض الكتاب بالقاهرة، وفي منزل الشيخ أحمد محمد باجنيد العامر في ندوته الشهرية بالرياض. . وقد دفعني إلى هذا العمل تلك المناقشات العميقة والثرية التي دارت حول الموضوع، والله يتولى السرائر.

الفصل الأول

التعاريف المعجمية

تعريف العلمانية ومفاهيمها:

لا بدَّ أولاً من تحرير مصطلح (العلمانية) معجميّاً، وفي علم الاجتماع الغربي، والعلوم الحديثة. ثم بعد ذلك ننظر في مفهوم العلمانية لدى فلاسفة الغرب، ولدى العلمانيين العرب وغيرهم من المفكّرين.

ولا شك أن مصطلح العلمانية خلافي جدّاً ومن أكثر المصطلحات إثارة للفرقة والاختلاف كما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه القيّم «العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة»(١).

ويُرجِع الدكتور المسيري هذه الاختلافات إلى الأسباب التالية:

١ ـ شيوع تعريف العلمانية باعتبارها فصل الدِّين عن الدولة (فقط).

٢ ـ شيوع التصور بأن العلمانية فكرة ثابتة، بينما هي فكرة متطوِّرة ومتغيّرة عبر الزمن.

٣ ـ إخفاق علم الاجتماع الغربي في تطوير نموذج مركّب وشامل للعلمانية مما أدى إلى عدم وضوح الرؤية العامّة.

٤ ـ تصوّر أن العلمانية «مجموعة أفكار وممارسات واضحة»، وهي على عكس ذلك.

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق ـ القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م: ١/ ١٥.

ويرى المسيري أن هناك مفهومان للعلمانية في دائرتين متداخلتين:

الأولى: الدائرة الصغيرة وهي العلمانية الجزئية، وتعني فقط فصل الدين عن الدولة.

والثانية: شاملة وكبيرة وتحيط بالأولى؛ فهي تعني: فصل الدين عن الدولة وعن حياة الإنسان في جانبها العام والخاص بحيث تُنزع القداسة، ويتحوَّل العالم والإنسان والطبيعة إلى مادة يمكن توظيفها لصالح الأقوى، وللاستمتاع بمباهج الحياة ما أمكن.

وقبل أن نناقش أفكار الدكتور المسيري وتقسيماته نحب أن نلقي الضوء أولاً على التعريف المعجمي لها:

أولاً كلمة **العَلْمانية**: هي بفتح العين لا كسرها؛ فهي ليست منسوبة إلى العِلم بل إلى العالم، والنسبة إلى العالم ينبغي أن تكون العَالمية، ولكن عوج الألسنة وانحرافها أدى إلى هذا التحريف الذي قد يكون متعمَّداً للإيحاء بأن الكلمة منسوبة إلى العلم.. ولو فرضنا أنها منسوبة إلى العلم لكانت النسبة العِلْمية وهي غير ذلك.

وهذا أول الغبش!.. ولعلَّ المعاجم الأجنبية تُنجدنا لأن لفظة (العلمانية) ترجمة رديئة للفظ (Secularism) باللغة الإنجليزية، أو اللائكية (Laique) باللغة الفرنسية. وكلمة **سيكولارزم** (Secularism) تعني الدنيا أو العالم الآني (في مقابل العالم الآخر والغيبي والديني). وأصل الكلمة (Sacculum) باللغة اللاتينية تعني العصر أو الجيل، ولكنها تحوّلت في القرون الوسطى لتعني العالم أو الدنيا. أما كلمة موندوس (Mondos) ومنها كلمة مونديال فتعني العالم، ويرادفها باليونانية كلمة كوزموس (Cosmos)، بمعنى الكون أو العالم.

ويضع **معجم وبستر** التعريفات التالية:

(١) **علماني (Secular)**: مهتم بالزمني (Temporal)، بهذا العالم بدلاً من الدين، مُدَنَّس (Profane) في مقابل المقدّس (الديني). **علماني**: لا علاقة له بأي

تنظيم ديني. ومنها مدارس علمانية لا تخضع للمؤسسات الدينية (الكنسية) ولا التعليم الديني، ومنها موسيقى علمانية؛ أي موسيقى غير دينية، موسيقى دنيوية (في مقابل الموسيقى الدينية حيث تهتم الكنيسة اهتماماً بالغاً بالموسيقى الدينية، بل إن سيمفونيات موزارت هي سيمفونيات وموسيقى دينية وتعزف في المناسبات الهامة في أكبر الكاتدرائيات في العالم)[١].

(٢) **العلمانية (Secularism)**: هي العقيدة التي ترى إبعاد الدين عن الدولة والتعليم والأخلاق، وأن تكون جميعها مستقلة وبعيدة عن تأثير الكنيسة والمؤسسات الدينية.

(٣) **علماني إنساني (Secular humanist)**: وهي العقيدة التي ترى أن الإنسان العاقل يرى أن العقل هو مصدر خلاصه لا الدين، وبالتالي رفض كل الغيبيات وما وراء الطبيعة.

(٤) **العلمنة (Secularity)**: الحالة التي يصير الفرد أو المجتمع علمانيّاً بعيداً عن تحكّم الكنيسة والدين؛ ومنها الفعل: **يُعلمن (Secularise)**؛ أي يحول الشخص أو المجتمع إلى العقيدة العلمانية، وذلك بأن تتحكم الدولة (المجتمع) بدلاً من الكنيسة في حياة الناس ومصائرهم.

ويُورد **معجم أكسفورد** التعريفات التالية لكلمة سيكولار (Secular):

١ ـ **دنيوي أو مادي، ليس دينيّاً ولا روحيّاً**، مثل التربية اللادينية، أو الموسيقى اللادينية، والسلطة اللادينية، والحكومة المناقضة للكنيسة.

٢ ـ **الرأي الذي يقول: إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية والقيم.**

٣ ـ **العلمنة (Secularization)**: هي تحويل ممتلكات الكنيسة ومؤسساتها إلى

---

(١) حضرتُ حفلة في كاتدرائية نوتردام الشهيرة في باريس، حيث عُزفت في الكنيسة سيموفونية موزارت، وذلك أثناء حضوري مؤتمر عالمي لزرع الأعضاء، وذلك للتعرف على هؤلاء القوم وتفكيرهم.

الدولة لخدمة الأمور الزمنية، وهذا الكلام متفق إلى حدٍّ بعيد مع ما جاء في معجم وبستر، وهو مطابق تماماً لتعريف الدكتور المسيري عن العلمانية الجزئية (فصل الدين عن الدولة)، والعلمانية الشاملة: وتعني فصل الدين عن الدولة وعن حياة الإنسان في جانبها العام والخاص.

ولا شك أن هناك تداخلاً بين المفهومين، ويؤدي الأول إلى الثاني. وهذا ما أكَّدته المعاجم اللغوية، ودائرة المعارف البريطانية، والأستاذ المسيري، والشيخ الجليل يوسف القرضاوي في كتابه «الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه»(١).

تعريف دائرة المعارف البريطانية: عرّفت السيكولارزم (العلمانية): بأنها حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها؛ ذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا، والتأمل في الله واليوم الآخر، وفي مقاومة هذه النزعة طفقت العلمانية (Secularism) تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلّقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية، وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة.. وتطورت باستمرار كحركة مضادة للتدين والدين المسيحي على وجه الخصوص.

تعريف المعجم الدولي الثالث الجديد لمادة (Secularism): اتجاه في الحياة أو في شأن خاص يقوم على مبدأ أن الدين والاعتبارات الدينية يجب أن لا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعاداً مقصوداً، فهي تعني مثلاً السياسة اللادينية البحتة في الحكومة؛ وهي نظام اجتماعي في الأخلاق، مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين.

---

(١) د. يوسف القرضاوي: الإسلام والعِلمانية وجهاً لوجه، كتبها بكسر العين، ثم نقضها في كتابه؛ لأنها لا تنتسب إلى العلم (Science) وإنما إلى العالم، إصدار مكتبة وهبة ـ القاهرة، ١٩٩٧م، ط ٧، ص ٤٢ ـ ٤٤.

ويقول المستشرق (آربري) في كتابه (الدين في الشرق الأوسط) عن العلمانية (Secularism)[(١)]: إن المادية العلمية والإنسانية، والمذهب الطبيعي، والوضعية، كلها أشكال اللادينية.. واللادينية (العلمانية) صفة مميزة لأوروبة وأمريكة، ومع أن مظاهرها موجودة في الشرق الأوسط، فإنها لم تتخذ أي صيغة فلسفية أو أدبية محددة، والنموذج الرئيس لها هو فصل الدين عن الدولة في الجمهورية التركية.

وفي المغرب العربي الكبير وفي لبنان يُطلقون لفظ **اللائكية** على العلمانية، وهي من اللغة الفرنسية (لاييك Laique)، ومنها كلمة (ليتي Laity) باللغة الإنجليزية وتعني العامة (الكافة). وكلمة (ليسيزم Lacism) وتعني النظام العلماني، أي النظام السياسي المتميّز بإقصاء النفوذ الكهنوتي عن الدولة. و(ليسيايزيشن Laicisation) ومعناها نقل كثير من وظائف الكهنوت مثل التعليم والقضاء والخدمات الاجتماعية إلى خبراء يتم تدريبهم تدريباً زمنيّاً لا علاقة لهم بالعقائد الدينية التي تستند إلى الإيمان بالغيب (ما وراء الطبيعة).

جاء في معجم علم الاجتماع المعاصر (Dictionary of Modern Sociology)، لتوماس هولت ما يلي: «**علماني** لها عدة معانٍ، منها: دنيوي، غير روحي، غير ديني (غير مقدّس). وكلمة علماني في الواقع ليست «معاداة للدين» بل «لا علاقة لها بالدين» (non- religious). **وعلمانية**: هي الاعتقاد والممارسات التي لا علاقة لها بالجوانب النهائية، وإنما تهتم بالجوانب غير النهائية (أي غير الأخروية) للحياة الإنسانية (non ultimate). ومن ثمَّ فالعلمانية ليست معادية للدين، ولا هي بديل للدين، إنها مجرد قطاع واحد من قطاعات الحياة يهتم بما هو غير ديني ولا مقدّس (وهذا التعريف ما أطلق عليه المسيري: العلمانية الجزئية).

ويعرّف العلماني: بأنه العقلاني أو النفعي بشكل تام أو أساسي. ثم ينطلق

(١) نقلاً عن كتاب (العلمانية)، للدكتور سفر الحوالي، وأصله رسالة ماجستير من جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

ليعرف العلمانية (بكلام مناقض لما سبق)، وهي أن العلمانية منظومة متكاملة تحتوي على ميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) واضحة ورؤية شاملة للكون. وهو أمر مناقض تماماً للتفسير السابق عن العلمانية: بأنها فقط تهتم بكلٍّ ما هو دنيوي مادي نفعي، ولا علاقة لها بالدين، ولا بالإيمان، ولا بالروحانيات، ولا الإيمان بالغيب (اليوم الآخر، الملائكة، الإلٰه.. إلخ). وهذا التعريف الأخير هو ما أطلق عليه المسيري «العلمانية الشاملة». وقد أدى هذا المفهوم للعلمانية إلى انحسار الدين وتراجعه، وإلى الفصل بين المجتمع والدين، وإلى التركيز على الحياة المادية الدنيوية البحتة، وإلى اضطلاع منظمات غير دينية بما كانت تضطلع به المنظمات الدينية في الأخلاقيات والسلوك الإنساني، وإلى اختفاء فكرة المقدّس، وتكريس المجتمع العلماني بدلاً من المجتمع المقدّس الكهنوتي.

ويستخدم مصطلح علماني أحياناً بمعنى ملحد في كتابات بعض الكتّاب؛ مثل بيتر جاي (Peter Gay) مؤرِّخ حركة الاستنارة التي يسميها هو نفسه الوثنية الحديثة، ويصف التحليل النفسي الفرويدي: بأنه علم علماني لا علاقة له بالدين، بل هو معادٍ له يهدف إلى تحطيمه!.. وبذلك يظهر البعد المادي للعلمانية في شكل لا إبهام فيه ولا غموض.. ويتجلّى التأثير العلماني في نظرية التطور (النشوء والارتقاء) لداروِن، وعلم النفس عند فرويد، وعلم الاجتماع عند دوركايم، وعلم الاقتصاد عند كارل ماركس؛ وهؤلاء الثلاثة يهود!.. وقد استخدم اليهود نيتشه وداروِن لمحاربة الدين بصورة عامة والمسيحية بصورة خاصة.

تاريخ استخدام مصطلح سيكولار (Secular):

استخدم مصطلح سيكولار (Secular) لأول مرة مع نهاية حرب الثلاثين عاماً سنة (١٦٤٨م) عند بداية ظهور الدولة القومية الحديثة، وهو التاريخ الذي يعتمده كثير من المؤرِّخين كبداية لمولد الدولة العلمانية الحديثة، وتمت فيه الإشارة إلى علمنة ممتلكات الكنيسة؛ أي نقل ممتلكات الكنيسة إلى سلطات الدولة الحديثة.

وحرب الثلاثين عاماً تعتبر آخر الحروب الدينية ضراوة بين الكاثوليك

والبروتستانت. . وقد استمرت من عام (١٦١٨م) إلى عام (١٦٤٨م)، وقد مرّت هذه الحروب بمراحل عدة، وكانت بدايتها عندما فرضت عائلة هابسبورج العقيدة الكاثوليكية في بوهيميا (مقاطعة في ألمانيا). . وقد انطلقت شرارة الحرب عام (١٦١٨م) عندما أمر رئيس أساقفة براغ بتحطيم كنيسة بروتستانتية، فانتفض البروتستانت ثائرين. . وبدأت الثورة في بوهيميا، وخلعوا الملك الكاثوليكي فرديناند (من عائلة هابسبورج النمساوية المشهورة)، واختاروا بدلاً عنه فردريك البروتستانتي، ولكن بابا روما أيَّد الملك الكاثوليكي فرديناند وجعله إمبراطوراً رومانيّاً مقدّساً، وانهزمت بوهيميا البروتستانتية عام (١٦٢٠م).

ثم قام الدانيماركيون البروتستانت بمحاربة الملك فرديناند الكاثوليكي، واستمرت الحرب من عام (١٦٢٥م) إلى عام (١٦٢٩م) عندما انهزم ملك الدانيمارك وانسحب من سكسونيا.

وفي العام التالي (١٦٣٠م) دخلت السويد البروتستانتية الحرب ضد فرديناند الثاني الكاثوليكي، وانتصر السويد أول الأمر، ولكن جيشهم دُمر في معركة نورد لينغن عام (١٦٣٤م)، وبما أن نفوذ الهابسبورج (النمساويون) أصبح كبيراً جدّاً في أوروبة، فإن رجل فرنسا القوي الكاردينال ريشيلو دخل الحرب عام (١٦٣٥م) إلى جانب البروتستانت رغم أنه كاثوليكي، ودارت رحى الحرب بين البوربون الفرنسيين والهابسبورج النمساويين في ألمانيا والنمسا، وانتهت بصلح ويستفاليا عام (١٦٤٨م)، وحصلت فرنسا بموجبها على مقاطعتي الإلزاس واللورين (وهما مقاطعتان تابعتان لألمانيا، وبالتالي لحكومة هابسبورج النمساوية).

وقد أدت هذه الحرب الدينية ـ الزمنية إلى مذابح مريعة!. . وكانت الجيوش المسيحية التي ترفع راية الصليب تقوم بذبح المسيحيين من الرجال والنساء والأطفال، كما كانت تغتصب النساء والأطفال قبل ذبحهم وحرقهم. . وقد أدت هذه الحروب الدينية (بين البروتستانت والكاثوليك) في أوروبة، وتاريخ الكنيسة المظلم (الحروب الصليبية، محاكم التفتيش، محاربة العلم. . . إلخ) إلى وجود هذه النزعة العلمانية، وإلى نقل ممتلكات الكنيسة الأخطبوطية (مساحات شاسعة

من الأراضي الزراعية، مئات المباني الضخمة، الأموال التي لا حدّ لها) إلى الدولة الزمنية. .

وفي فرنسا أصبحت كلمة (العلمانية) تعني المصادرة الشرعية لممتلكات الكنيسة لصالح الدولة.

ويعتبر جورج هوليوك (George Jacob Holyooke: ١٨١٧م ـ ١٩٠٦م) أول من حدد بوضوح مفهوم العلمانية، حيث عرَّفها سنة (١٨٤٦م): بأنها «الإيمان بإمكانية إصلاح الإنسان من خلال الطرق المادية، دون التصدي لقضية الإيمان الديني بالقبول أو الرفض». وقال عنها: إنها «المذهب الذي يسعى لتنمية الجوانب الجسدية والفكرية والأخلاقية للإنسان من الناحية العملية المادية؛ بعيداً عن الكتاب المقدّس، والمناهج الدينية. . كما أنها لا تشترط الإلحاد منهجاً للوصول إلى أهدافها».

وبالتالي فإن العلمانية تسعى للعمل في هذه الحياة الدنيا على أسس إنسانية بحتة تعتمد العقلانية، والتجارب والبحث العلمي المنظّم، بعيداً عن العقائد الدينية التي تعتمد أساساً الإيمان بالغيب، وبالخوارق والمعجزات، وتستخدم القلب والعاطفة للوصول إلى الإيمان.

وتسعى مبادئ العلمانية إلى:

١ ـ تحسين الحياة البشرية في هذه الدنيا بالوسائل المادية البراجماتية العملية.

٢ ـ العلم الحديث (Science) هو قدر الإنسان؛ أي يرفض الإيمان بالقدَر (Providence).

٣ ـ عمل الخير في هذه الدنيا دون الانتظار للجزاء من الله (سبحانه وتعالى) في الدنيا أو الآخرة؛ إذ إن وجود الله والآخرة أمران مشكوك فيهما على أقل تقدير، ولا بد أن يعمل الخير لذاته في هذه الدنيا لجعل الحياة البشرية سعيدة قدر الإمكان.

نشأة مفهوم العلمانية:

نشأ مفهوم العلمانية إبّان عصر التنوير والنهضة في أوروبة في مواجهة الكنيسة، وعارض سيطرتها على الدولة وهيمنتها على المجتمع، وتنظيمه على أساس الانتماءات الدينية والطائفية، ورأى أن من شأن الدين أن يُعنى بتنظيم العلاقة بين البشر وربهم ـ هذا لمن أراد أن يؤمن بالدين، ولكنه نادى بقوة بفصل الدين عن الدولة، وأن تنظم العلاقات الاجتماعية على أسس إنسانية بحتة.

وهذا المفهوم ينطلق مما يسمّى النظرة الإنسانية (Humanism) التي مجّدت الإنسان كمحور للكون وإلٰه جديد له؛ وهو سيّد نفسه وحرّ الإرادة، ورافض للفكر والعقائد الغرائبية والغيبية. وقد اعتمد النظرة المادية البحتة في تفسير أحداث العالم وقوانينه وحياة الإنسان، واعتمد ما يسمّى العقلانية (Rationalism) كمنهج لتفسير حياة ومبادئ ونظم الإنسان، كما اعتمد ما يسمّى العلميّة (Scientism) أي اتخاذ العلوم التجريبية، والمنهج التجريبي المبني على الشك في كلِّ شيء، وعدم اعتماده إلا بعد إجراء التجارب والخلوص إلى النتائج.. ولا يقتصر المنهج العلمي على ما يسمّى العلوم التجريبية مثل علوم البيولوجيا والفلك والبحار والطب، بل يمتد ليشمل علم الاجتماع والسياسة والنفس والاقتصاد... إلخ، وبالتالي يعتبر المنهج الوحيد المقبول، باعتباره يتخذ التجارب والإحصاء والمنطق والعقلانية (Rationalism) وسيلة للوصول إلى الحقيقة، أو ما نعتبره الحقيقة.

ويرفض هذا المنهج رفضاً تامّاً الإيمان بالغيب، ويقف على طرفي نقيض مع ما يسمّى العلوم الوهبية (العلم اللدني)، وتعرف لدى الغربيين بالعلوم الغنوصية (Gnostics) وهي تأتي عن طريق الإلهام من الله تعالى...

ويرفض هذا المنهج الإيمان بالغيب.. وغيب الغيوب هو الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٢]، رغم أنه أقرب قريب ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، كما يرفض هذا المنهج الإيمان بالملائكة والجن واليوم الآخر.. وبالتالي لا يؤمن بالأنبياء والرسل، وأنهم موحى إليهم من الله، لأنه أساساً لا يؤمن بالله ولا

بالوحي.. ويفسّر الوحي بأنه حالات نفسية خاصة تعتري هؤلاء الأشخاص.. كما قد يفسّرها أحياناً بنوع من الصرع مبدؤه في الفصّ الصدغي من الدماغ (Temporal Lobe Epilipsy) والذي تظهر فيه آثار نفسية بالغة.. وقد تظهر آثار مختلفة بعد حدوثه كما كان يحدث للأديب الروسي المشهور فيدور دوستوفسكي الذي كان يصاب بنوبات من الصرع الذي يبدو أنه كان من الفصّ الصدغي.

وقد أوضحت الآيات الكريمات من سورة البقرة المنهج الإيماني المناقض تماماً للمنهج العلماني:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

وقد كان منشأ العلمانية (Secularism) بعيداً عن الدين، مجافياً له بسبب ما حصل في أوروبة من سيطرة الكنيسة وعقائدها اللاعقلانية، وفساد رجالها وسيطرتها على الحكم وإثارتها للنعرات الطائفية الدينية التي أغرقت أوروبة في بحار من الدماء.

لهذا كله انبنت الحضارة الأوروبية الحديثة على البعد عن الكنيسة ورجالاتها وعقائدها، وكانت خصماً لدوداً للدولة الثيوقراطية (الدينية)، كما كانت عدوّاً شرساً للفكر الديني الغرائبي.. وفي أول أمرها كانت بطبيعة الحال لا تؤمن بالله ولا بالأديان (athiest)!.. ولكنها بمرور الزمن وانتصار العلمانية في مناحي الحياة في أوروبة في العالم، وانحسار الدين في الكنائس والبيع، تحولت إلى مذهب واضح المعالم: «أن تبقى كل المعاملات الدنيوية السياسية والاجتماعية والاقتصادية خارج نطاق الدين، وأن تبقى العلاقات الروحية بين الإنسان وربه دون التدخل في شؤون الحياة، تابعة للكنيسة، لمن أراد أن يتديّن، وأحسَّ بأن لديه أشواقاً روحية، وأن النظام العلماني لا يحقق ما لديه من رغبات وأشواق وطاقات روحية.. لهذا كله وصلت الكنيسة والنظام العلماني إلى ما يشبه الاتفاق، واستخدموا العبارة المنسوبة للمسيح ﷺ في سفر متّى: «دع ما لقيصر

لقيصر وما لله لله». . وذلك عندما تآمر الفريسيون اليهود لكي يصطادوه بكلمة، ويجعلوه يُغضب القيصر الروماني؛ فقالوا له: يا معلم نعلم أنك صادق، وتُعلِّم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد. . فقل لنا: أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم وقال: لماذا تجربونني يا مراؤون؟!. . أروني معاملة الجزية، فقدّموا له ديناراً، فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا: لقيصر، فقال لهم: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (متّى ٢٢: ١٥ ـ ٢٢).

وقد تم فصل الدين عن الدولة في أوروبة. وكانت المعاداة شديدة للدين في فرنسا بصورة خاصة، وعندما قامت الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م) نادت بفصل الدين عن الدولة، وكان العداء بينها وبين الكنيسة التي مالأت الملكية والإقطاعية، عنيفاً. وكان من شعاراتها: «اشنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس». وكذلك ابتعدت هولندا عن الكنيسة بصورة واضحة، وتحولت إلى الكالفينية ثم إلى الليبرالية ـ وتبعتها معظم دول أوروبة بدرجات متفاوتة. واختارت إنجلترا لنفسها ديناً جديداً بعيداً عن البابا وعن روما، وتحول ملك إنجلترا إلى رئيس للكنيسة الإنجليكانية، ووضع لها مبادئ جديدة، بعد أن طرده البابا ونسله إلى أبد الآبدين من رحمة الله!! واتخذت بريطانيا المنهج العلماني في الحياة منذ عهد الملكة إليزابت الأولى، (حكمت بريطانيا من عام ١٥٥٨م حتى عام ١٦٠٣م). واختارت دول الشمال الأوروبي المنهج العلماني (السويد، النرويج، الدانيمارك. . . إلخ). . ثم انتشر ذلك في كل أوروبة.

ولم تكن الحرب بين الكنيسة والعلمانية شرسة في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا، بل بقي للكنيسة سلطانها، وخاصة في إسبانيا والبرتغال إلى القرن العشرين. وكذلك بقي للبابا في روما نفوذه الضخم بين الأتباع الكاثوليك، ليس فقط في المجال الروحي البحت، بل له نفوذه الهام حتى في عالم السياسة والاجتماع والاقتصاد.

وقد كان للكنيسة البروتستانتية وفرقها المختلفة وخاصة البيورتانس (Puritans: المتطهرون) دور كبير في تكوين الولايات المتحدة الأمريكية. . وهي

التي قامت بإبادة السكان الأصليين (الهنود الحمر) بكافة الوسائل (بما في ذلك الحرب البيولوجية، حيث أهدوا الهنود الحمر بطانيات وألحفة لمصابين بالجدري؛ فانتقل إليهم مرض الجدري الذي لم يكن معروفاً في القارة الأمريكية، فقضى على الملايين)!.. والولايات المتحدة دولة علمانية تفصل الدين عن الدولة، ولكن الكنيسة لها نفوذ ضخم وأموال هائلة ومؤسسات تربوية اجتماعية لا حصر لها.

وفيما يلي سندرس تعريف العلمانية عند مجموعة من العرب العلمانيين نقلاً عن المسيري في كتابه: (العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة) بتصرف مع تعليقاتنا الخاصة.

تعريف العلمانية عند العلمانيين في العالم العربي[1]:

يقول **محمد أحمد خلف الله**: «العلمانية حركة فصل السلطة السياسية والتنفيذية عن السلطة الدينية، **وليست فصل الدين عن الدولة**» مع أن التعريفات الأخرى للعلمانية تقرر فصل الدين عن الدولة.

أما **وحيد عبد المجيد** فيدّعي: أن العلمانية في الغرب ليست إيديولوجية أو نظاماً فكرياً، إنما هي مجرد موقف جزئي يتعلق بالمجالات غير الدينية (يعني أن الدين يهتم بالآخرة والغيب والروحانيات فقط)، ويميّز وحيد عبد المجيد بين «اللادينية» و«العلمانية» حيث يرى أن الصراع بين الملوك والسلطة البابوية، وظهور العلم التجريبي المنفصل عن الدين، وسيادة مفهوم العقل، هو الذي أدى إلى ظهور العلمانية اللادينية، (وهذا حق وصدق وسيأتي توضيحه).

ولكن بعد فترة الثورة الفرنسية تحولت العلمانية «الغربية» إلى الاعتدال، وبالتالي لا تقوم العلمانية على الفصل بين الدين والدولة (كما هو شائع لدينا)، بل على الفصل بين الكنيسة ونظام الحكم، وبالتالي لا تقيّد دور الدين في

---

(١) نقلنا آراء هؤلاء العلمانيين العرب في الغالب من كتاب الدكتور عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ولم نلتزم بآراء المؤلف بل خالفنا كثيراً منها.

المجتمع، وتتمتع الكنائس بحريات وإمكانات واسعة جداً، ولذلك ظلت الكنيسة نشيطة في كل الدول العلمانية، وتمارس أنشطتها الداخلية والخارجية.. وهذه الحرية هي نتاج رسوخ الديمقراطية قبل كل شيء.

أما **حسين أحمد أمين** فيتحدّث عن «المسيحية العلمانية» التي تذهب إلى أن من واجب المسيحية الاهتمام بالدنيا اهتمامها بالآخرة، وأن تُتاح للإنسان من عالمه المادي فرصة تعزيز القيم المسيحية ونشرها من خلال شؤون الحياة اليومية.. وكنتيجة لتعنّت الكنيسة وُجد تيار علماني معادٍ للدين... وكان من المفروض ألا تثور في العالم الإسلامي هذه المشكلة لأسباب عديدة، أهمها أن الإسلام لا يعرف نظام الكنيسة، ولا نظام رجال الدين (الكهنوت)، ولأنه يشجع الكافة على النظر في علومه والاشتغال بها.. وقد حدث صراع بسبب أن مجموعة من هؤلاء العلماء احتكروا فهم الدين لأنفسهم مما أدى إلى ظهور علمانية مناهضة للدين ورجاله في العالم الإسلامي (هذا الصراع غير صحيح ولم يحتكر أحد علم الدين والفقه، بل هو مفتوح لمن أراد أن يدرسه.. ولكن هؤلاء مقلّدون للغرب تقليداً أعمى، فبما أن مفكري الغرب صاروا ضدّ الدين فلا بد لهولاء أيضاً أن يكونوا مثلهم ضدّ الدين).

ويرى **المسيري** أن معظم الكتّاب العرب من العلمانيين يُقصرون العلمانية على الدعوة إلى الفصل بين الدين والسياسة كما فعل **فؤاد زكريا** الذي يقول: «إن ما تريده العلمانية إن هو إلا إبعاد الدين عن ميدان التنظيم السياسي للمجتمع، والإبقاء على هذا الميدان بشرياً بحتاً، تتصارع فيه جماعات لا يمكن لواحدة منها أن تزعم أنها الناطقة بلسان السماء؛ فأساس المفاضلة بين المواقف المختلفة يجب أن يكون «العقل والمنطق والمقدرة على الإتيان بالحلول الواقعية الناجحة».. «وأي دعوة إلى الارتكاز على سند سماوي في هذا الصراع إنما هو تضليل يخفي رغبة دفينة في إلغاء شروط هذا الصراع أصلاً».

ويقول **فؤاد زكريا**: «إن العلماني المتحمِّس في المجتمعات الإسلامية أو المجتمعات الغربية المسيحية، يرفض توجيه النظام السياسي للمجتمع توجيهاً

يرتكز على سلطة الدين، ولكنه في الوقت ذاته يتزوج بوثيقة شرعية إسلامية، أو يُعقد زواجه في الكنيسة إن كان مسيحيّاً، ويستشهد بالقيم والمبادئ الدينية ويطبّقها في الكثير من جوانب سلوكه الاجتماعي والشخصي، دون أن يكون في ذلك أي خروج عن علمانيته».

ويهاجم **الدكتور فؤاد زكريا** في كتابه: «النموذج الأمريكي» المجتمع «الأمريكي المادي» ويقول عنه: إنه «أكثر المجتمعات ماديةً في عالمنا المعاصر.. حيث يتحول الإنسان إلى كائن لا يعمل إلا من أجل المزيد من المال، ومن الأرباح، ومن المستوى المادي المرتفع». ويرفض فؤاد زكريا هذه المادية العدمية، التي تودي بالإنسان، ويضع مقابلها القيم الإنسانية والمعنوية.. «...وفي الإنسان قوى تعلو على السعي المباشر إلى الكسب والاقتناء» أي تعلو على المادية.

ويعتبر **أحمد عبد المعطي حجازي** علمانيّاً، لكن علمانيته كما عرَّفها بنفسه، ليست علمانية عدمية، ويؤكد أن ثمة ثنائية أساسية في الكون، وأن الفنان (مثل أحمد شيحا) يجتمع فيه الروح والجسد والسماء والأرض، وأن شعره مُفعم بالميتافيزيقا، ويحمل عبق الروح وما وراء الطبيعة والغيب. ويعلّق على ذلك المسيري بقوله: «لو سمع أحد علمانيي الغرب مثل هذا الكلام، لاتّهم حجازي بالغلو والتطرف الديني!!».

وعلى نفس هذا النسق يتحدث أحد شيوخ العلمانية في مصر **محمود أمين العالم**، عن العلمانية: أنها (أي: العلمانية) تعبّر عن الملامح الجوهرية لإنسانية الإنسان، وتعبّر عن طموحه (الثنائي) الروحي والمادي للسيطرة على جميع المعوّقات التي تقف في طريق تقدمه وسعادته وازدهاره.. بل لعلّ العلمانية تكون منطلقاً صالحاً للتجديد الديني نفسه بما يتلاءم ومستجدات الحياة والواقع!!.

ويعتبر **المسيري** هؤلاء جميعاً يتحدّثون عن مفهوم العلمانية الجزئية لا العلمانية الشاملة، وأنهم بالتالي يبتسرون مفهوم العلمانية ويضيّقونه، ربما لمحاولة البعد عن اتهامهم بالإلحاد ومحاربة الدين.

ونجد **محمد أركون** يتحدّث عن نوعين من العلمانية:

١ ـ **العلمانية السطحية** (النضالية الوضعية الصراعية): تنطلق من منطلقات عقلانية سطحية عفى عليها الزمن؛ فهذه العقلانية التي تشكل أساس الحضارة الغربية، تذهب إلى ضرورة سيادة العقل البشري القائم على التفحص والتجريب والقياس الرياضي الدقيق. والعقل هنا، كما يصفه أركون، عقل ضيّق جامد متصلّب، عقل أدواتي (أداتي) حسابي بارد، أوصلنا إلى عصرنا الأمريكي والتكنولوجي والاستهلاكي الراهن.

ويضرب أركون **مثلين** على هذه العلمانية **الصراعية السطحية**:

الأول: هو الثورة الفرنسية: حينما اعتقدت الثورة بإمكانية إحلال عبادة الكائن الأعلى وطقوسه محل العبادة المسيحية وطقوسها. وقد أخفقت الثورة في هذا تماماً، ولا تزال العقيدة المسيحية هي عقيدة الملايين في فرنسا.

أما **المثل الثاني**: فهو ثورة أتاتورك، التي كرَّست انتصار العقل الوضعي على الوعي الأسطوري الذي يهيمن على الأغلبية العظمى من المؤمنين... وانطلق أتاتورك من منظور أحادي ضيق يذهب إلى أنه لا توجد إلا حضارة واحدة هي الحضارة الغربية، وينبغي استيرادها وفرضها كما هي بزهرها وشوكها وحلوها ومرها!. وهذا ما فعله، ظنّاً منه أنه سيقضي قضاءً مبرماً على التراث الديني؛ بمجرد استيراد العلمنة وفرضها بالقوة من فوق لا من تحت، من الخارج لا من الداخل. ولذا لم يكتفِ أتاتورك بإلغاء الخلافة، وإنما انقضّ على المناخ السيميائي، أو الرمزي لكلّ المسلمين؛ فاستبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية، واستبدل القبّعة الأوروبية بالطربوش، والزيّ الأوروبي بالزي التقليدي، والقانون السويسري بالشريعة ـ أي أنه قضى على النظام السيميائي أو الرمزي الإسلامي، بما في ذلك الاحتفالات الرسمية، وفن العمارة والتقويم الزمني. وقد فشل أتاتورك أيضاً في هذا الجهد، ولا يزال الشعب التركي مسلماً متديناً في غالبيته الساحقة.

إن البعد الديني ـ حسب تصور **أركون** ـ ليس أمراً يمكن أن يُضاف إلى

الإنسان أو يُحذف منه، وإنما هو أمر لصيق بالوجود الإنساني، فالتوتّر الروحي الداخلي، والحنين للخلود والأبدية يشكّلان بعداً أساسيّاً من أبعاد الإنسان، فالإنسان بحاجة إلى أن يتجاوز شرطه المادي من وقت لآخر لكي يعانق شيئاً أكثر دواماً واتساعاً. ولهذا فإن أركون يرفض المقولة العلمانية السطحية الشائعة في بلادنا: «الدين لله والوطن للجميع».

فالدين ليس لله فقط، وإنما هو موجود في الشارع وفي أعماق الفرد والمجتمع، وقد تختفي أنماط التقديس وتموت مع أنماط الإنسان التي جعلتها تهيمن وتعيش. أما الله، كمرجعية مستمرة وكدلالة على المطلق فهو حي لا يموت. . . والحديث عن موت الله في المطلق كلام لا معنى له. إنه عبث وعدمية جوفاء، وليس المسلمون ولا العرب بحاجة إليه. (وهو كلام حق يأتي ضمن كلام فيه كثير من الباطل).

٢ ـ **العلمانية الجديدة أو العلمانية المنفتحة**: في مقابل العلمانية السطحية الصراعية التي جاءت بعد الثورة الفرنسية. وبعد فشل العلمانية السطحية كما أوضحها بمثليه (الثورة الفرنسية والثورة الأتاتوركية)، كان لا بد أن يكون هناك تقارب بين الكنيسة والدولة للعثور على صيغة جديدة من أجل علمنة جديدة، تتيح إمكانية وجود روحانية جديدة.

ويتساءل **أركون**: هل يحق للإنسان أن يعرف أسرار الكون والمجتمع أم لا يحق؟ (وهو سؤال غبي في نظرنا، فالله قد علَّم آدم الأسماء كلّها وأسجد له الملائكة من أجل هذا العلم، ولا شك أن الإنسان مفطور على حبِّ العلم، وأن الله سبحانه وتعالى قد أمره بذلك، ويثيبه عليه، ولكن هؤلاء المتغرّبون من العرب مثل أركون لا يدركون هذه البديهيات الإسلامية لأنهم يعيشون في الحضارة الغربية المسيحية، حيث الصراع بين الإله والإنسان، ولأن الله عندهم لا يريد للإنسان أن يعرف؛ بل يريده جاهلاً غبيّاً كي يستعبده).

ويجيب أركون على سؤاله هذا بأن هناك إجابتين:

الأولى: أن الإنسان بحاجة إلى قوة خارجية (فوق طبيعية) (ما وراء الطبيعة: ميتافيزيقية، غيبية)، لكي تسيّره وتسيّر أموره.

والثانية: أن الإنسان قادر بحدٍّ ذاته على تسيير أموره، وحلِّ مشاكله وتشكيل الصيغة الأجمل والأفضل للحياة في المجتمع، دون حاجة إلى قوة غيبية سماوية (وحي ورسل وكتب سماوية... إلخ).

ويرى **أركون** أنه لا بد من الجمع بين النظرتين، فلا بد للإنسان من هذه الثنائية أي القبول بالغيبيات، وفي نفس الوقت القبول بقدرة الإنسان على تسيير أموره في هذه الدنيا وحل مشاكله فيها. وهذا ما سمّاه أركون: **العلمانية المنفتحة**؛ وهي علمانية تولي أهمية كبرى للبعدين الروحي والديني لدى الإنسان.. ولا يجوز عند **أركون** حرمان الإنسان من حرية التفكير باسم المقولات الثيولوجية (علم الإلٰهيات المسيحي) أو بحجة الدفاع عن المقدّسات.. كما أنه لا يجوز منع الإنسان من دراسة الدين والتعمُّق فيه باعتبار الظاهرة الدينية مجالاً جادّاً للمعرفة والفهم.

وهو كلام فيه كثير من التناقض من جهة المفاهيم الغربية العلمانية ذاتها. ولو فهم الإسلام حق الفهم لعلم أن منهج الإسلام يجمع بين الأشواق الروحية ويوجه الإنسان إلى البحث في هذا الكون دون حجر عليه، بل يعتبر ذلك من العبادة التي تقرّب الإنسان لله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، والآيات الحاثّة على النظر في الكون وفي الأرض وفي السماء، وفي الإنسان، وفي جميع الكائنات، تملأ جنبات الكتاب الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. ولكن هؤلاء القوم لا يعرفون دينهم إلا معرفة سطحية عن طريق المستشرقين، فما أبعدهم عن فهم الإسلام، وما أحراهم بأن يدرسوا دينهم ويفهموه حق الفهم.

وينتهي **أركون** إلى القول: «لا بد من إقامة مقارنة جادة وصارمة بين البعد الديني بكلِّ ما يعنيه من قيمة روحية بالنسبة لوجود البشر من جهة، وبين معطيات العلوم الإنسانية والاجتماعية وفتوحات الحرية التي حقَّقها العقل العلماني في

أوروبة من جهة أخرى، والتي لا ينبغي إنكارها أو التراجع عنها بأيّ حال من الأحوال».

ويضيف **أركون**: «إن هذا لا يعني إلغاء التعليم التقليدي للأنظمة العقائدية والدينية، ولكنه يعني ضرورة موازنته في مجمَّعاتنا عن طريق إنشاء المعاهد والكليات لعلم اجتماع الأديان، والتاريخ المقارن للأديان، والأنثروبولوجيا الدينية. وفي ذلك الخير، كل الخير، للعلم والمجتمع والدين.. هنا يكمن الحل في رأيي.. وهذه هي العلمنة بالمعنى الواسع والمنفتح للكلمة».

وبما أنه أستاذ جامعي في السوربون فيقول: «كلّ ما أطلبه من أجل تصحيح العلمنة في فرنسا هو إدخال تعليم تاريخ الأديان في الثانويات والجامعات، بصفتها أنظمة ثقافية كبرى سيطرت على البشرية الأوروبية طوال قرون وقرون».

أما بالنسبة للبلاد العربية والإسلامية فيقول **أركون**: «كل ما أطلبه من أجل إدخال العلمنة الصحيحة في المجتمعات العربية والإسلامية هو إلغاء برامج التعليم السائدة، وإلغاء الطريقة اللاتاريخية، والعقائدية التبشيرية لتعليم الدين في المدارس العامة، وإحلال تاريخ الأديان والأنثروبولوجيا الدينية محله، ثم تدريس تاريخ الأنظمة الثيولوجية (علم الإلٰهيات) بصفتها أنظمة ثقافية، وبالتالي تتم علمنة الدين وتحويله إلى مادة دراسية أنثروبولوجية فحسب!!.

ويقول **أركون**: «وأنا أطالب بتأسيس معهد للثيولوجيا الإسلامية في فرنسا، ويقوم عليه علماء تاريخ الأديان والاجتماع والأنثروبولوجيا، ويستبعد منه علماء الدين المسلمين!!» وهكذا ينسى أركون أهمية الدين في المجتمع، ويتحول الأمر إلى مجرد دراسة تاريخية أنثروبولوجية، مثل دراسة عقائد الإنسان البدائي. وينسلخ أركون مما قدّمه أول الأمر في أهمية البعد الديني للإنسان في أي مكان في العالم، وهو متناقض مع نفسه أشدّ التناقض.

محمد رضا محرم يعرّف «العلمانية بأنها من العالَم، والعلماني هو الإنسان المشغول بأمور المعاش في الدنيا، ويقابله الكاهن المنقطع في المؤسسة الدينية». وهو مفهوم غربي مسيحي بحت.. وبالتالي فهؤلاء القوم يجهلون تاريخ أمتهم

ودينهم الإسلام جهلاً فاضحاً مخزياً، ويقعون أسرى التقليد الأعمى الببغاوي لأوروبة والغرب دون تفكير ودون عقلانية.. وهم أبعد الناس عن الفكر الحرّ والعقلانية!.. إن هم إلا عبيد للفكر الأوروبي الغربي، فما جاء عن الغرب وأوروبة فهو الحق والصدق والنور والحداثة والتقدّم، وما عداه فهو الظلامية والتأخر والوقوع في براثن رجال الكهنوت!!

ويرى **حسن حنفي**: أن العلمانية ظاهرة تنتمي إلى الحضارة الغربية، وهي تعني الفصل بين «الكنيسة والدولة» ولهذا كان العلمانيون الأوائل في بلادنا الإسلامية كلّهم من النصارى، وغالبيتهم من نصارى الشام، ممن تربوا في المدارس الأجنبية، وفي إرساليات التبشير!! ولذا كان ولاؤهم الحضاري للغرب، ودعوا إلى النمط الغربي في التقدم، ثم تبعهم بعد ذلك بعض المسلمين. وقد أدى ذلك بالحركات الإسلامية إلى رفض العلمانية «عن حقٍّ»، وربطها «بالتغريب»، بما يتضمّن ذلك من استعمار وتبشير ورفع شعار الحاكمية لله. فالخطأ الأول: وهو نقل العلمانية الغربية، أحدث رد فعلٍ خاطئ وهو الحاكمية.

ويرى **حسن حنفي**: أن جوهر الإسلام علماني (بمعنى أنه ضد الكهنوت) ويوضح ذلك بالأسباب التالية:

١ ـ النموذج الإسلامي قائم على العلمانية، بمعنى «غياب الكهنوت».

٢ ـ الأحكام الشرعية الخمسة: (الواجب، المندوب، المحرَّم، المكروه، المباح) تعبّر عن مستويات الفعل الإنساني الطبيعي؛ وهي تصف أفعال الإنسان الطبيعية.. وهناك تطابق مذهل بين الداخل والخارج، بين الشريعة والطبيعة، بين الإسلامي والعلماني، بين ما هو كامن في الإنسان، وما هو متجاوز له. وهناك تماثل بين المقدّس والزمني (تعبيرات لاهوتية مسيحية غير معروفة في التراث الإسلامي).

٣ ـ الفكر الإنساني العلماني الذي حوّل بؤرة الوجود من الإلٰه إلى الإنسان، «وُجِدَ كما يزعم حسن حنفي في تراثنا القديم في علم أصول الدين، والعقل

الخالص في علوم الحكمة، والتجربة الذوقية في علوم التصوف، والسلوك العملي في علم الفقه (الفروع)».

ويؤكد **حسن حنفي** بالتالي المرجعية الإنسانية المطلقة المتجاوزة للمادة، فالدائرة الشاملة عنده متجاوزة لعالم المادة؛ وهذا التجاوز يتمثل في الإنسان، الأمر الذي يسمح بظهور ثنائية الطبيعة والإنسان.

على أية حال يبدو **حسن حنفي** أكثر فهماً للعلمانية من غيره، وأن مصدرها الكنيسة، وأنها بعيدة بمفهومها الغربي عن الإسلام. . وإن كانت العلمانية في ذاتها متفقة مع المفاهيم الإسلامية التي ترفض نظام الكهنوت، وتهتم بالإنسان الطبيعي، وترى أن حياته كلّها ضمن الأحكام الشرعية الخمسة (وجوب، ندب، إباحة، كراهة، حرمة)، وأن العلوم الإسلامية سواء كانت أصول فقه أو فروعه، أو علوم الحكمة (كما عند ابن رشد وابن سينا والكندي والفارابي)، أو علوم التصوف الذوقية ـ كلها تنبع في أصولها من العلمانية!! والطبيعة الإنسانية!. . وهذا شطط في الفهم إلا أنه من المؤكد أن العلمانية الغربية بعيدة عن واقعنا وحياتنا وأفكارنا نحن المسلمين.

ويُرجع نصر حامد أبو زيد العلمانية إلى العالَم وليس إلى العلم ـ وهو حق ـ ويضيف: ولا يعني هذا أن العلمانية في تطورها التاريخي مفصولة عن العلم. فالاهتمام بالعالم وبشؤونه وبالإنسان، بوصفه قلب العالم ومركزه، هو جوهر دعوة العلمانية.

ويرى **نصر أبو زيد** أن هذا الموقف مناقض لموقف الكنيسة الذي يجعل «الآخرة» و«العالم الآخر» الهدف والغاية. ومع هذا فإن الكنيسة في واقعها التاريخي لم تهمل شؤون الدنيا، بل انغمست فيها لحسابها، وأن الإقطاع الغربي وظّف الدين في دعوة المستغلّين للبحث عن الخلاص الأخروي والانصراف عن الدنيا. . وكانت الكنيسة تمارس إيديولوجيا القهر والاستغلال في صراع دنيوي لا علاقة له باللاهوت والدين (الحق).

والعلمانية في هذا السياق معركة جزئية، ومجرد واقعة تاريخية، محصورة

بنطاق التاريخ الغربي، ومرتبطة بخصائص الكنيسة المسيحية (كمؤسسة دينية لا كعقيدة دينية). ومن الواضح أن الصراع هنا يجري في المجال الاقتصادي والسياسي. ويرى **نصر أبو زيد** أن العلمانية لا تعادي الدين في ذاته، بل تعادي سيطرة الكنيسة وسلوكها المنحاز للإقطاع والظلم والاستعمار.

وللأسف لا يكتفي **نصر أبو زيد** بهذا المفهوم، ولو فعل لكان موفّقاً في ذلك، ولكنه في النهاية يرفع شعار «لا سلطان على العقل إلا العقل» فالعقل هنا (وليس الدين) هو المرجعية الكلية والنهائية.

ونصر أبو زيد لا يبيّن نوعية هذا العقل الذي سيصبح السلطان الجديد على البشر: أهو العقل المادي والأداتي؟ أم هو العقل القادر على تجاوز عالم الطبيعة المادية والواحدية المادية؟.

والواقع أن العقول تختلف، وما هو صواب عند قوم لا يعتبر صواباً عند آخرين.. وعند نفس القوم ما هو صواب اليوم يعتبر خطأ غداً، والعكس صحيح. وأقرب مثال لذلك الشذوذ الجنسي الذي كان يعتبر إلى عهد قريب في الغرب أمراً فاضحاً، إلا أنه الآن يعتبر عملاً رائعاً.. وكذلك المخاللة والزنى فقد كانت في الغرب ذاته في عهود سلفت أمراً مشيناً، ولكنها منذ عصور النهضة الحديثة وخاصة في القرن العشرين أصبحت أمراً شخصيّاً، بل أمراً محبباً.. وهكذا قل في سائر الأمور. والاستعمار كان له أساطين فكر يدافعون عنه ويعتبرونه تمديناً وتحضيراً للأمم الجاهلة.. ونهب الثروات للأمم أمر مشروع ما دام البقاء للأصلح!.. وهكذا لا توجد فكرة أو عمل إلا وقال بعض أصحاب العقول: إنه أمر جيد، بينما يقول آخرون: إنه في منتهى السوء. وبالتالي لا يمكن اعتماد العقل وحده في تبيين الحق من الباطل، وهي مسألة قديمة عند المسلمين.. والشرع هو الذي يضع الحدود بين الحسن والقبيح، وبين المباح والمحرّم.. وأهواء البشر تحوّل الأمور وتجعل الحسن قبيحاً والقبيح حسناً، والأدلة على ذلك لا تُحصى في الماضي والحاضر.

والخلاصة: أن **نصر أبو زيد** قد أصاب في أن العلمانية مرتبطة بالغرب

والحرب ضد الكنيسة والكهنوت وتاريخها المظلم، ولكنه أخطأ في تبنّي هذه العلمانية لمجتمعاتنا المختلفة تمام الاختلاف عن الغرب وواقعه وتاريخه.

وينحو **عاطف العراقي** منحى نصر أبو زيد حيث يقول: إن ما يشاع عن العلمانية، وأنها ضد الدين؛ أمر غير صحيح، فالعلمانية تدعو فقط للفصل بين الدين والدولة، وإن العلمانية لا تدعو إلى إلغاء الدين، وإنما تدعو إلى عدم الاعتراف بالسلطة الدينية، (وللأسف لم يوضّح أن ذلك كان بسبب انحراف الكنيسة والكهنوت في أوروبة ومعاركها مع العلم والتقدم والمجتمع، ووقوفها مع الإقطاع والاستغلال والاستعمار) وهو بذلك يتحدث عن العلمانية الجزئية التي تؤدي في النهاية إلى العلمانية الشاملة التي تحدث عنها الدكتور عبد الوهاب المسيري.

ويقول: لا بد من التمييز بين الدين من جهة، ورجال الدين من جهة أخرى.. (مرة أخرى لا يوضّح أن هذا المفهوم للكهنوت ورجال الدين أمر مقصور على المسيحية وبعيد عن الاسلام)، ثم يدعو إلى فلسفة التنوير، فلسفة عقلانية مادية شاملة واحدية لا تسمح بوجود مطلقات إنسانية أو أخلاقية أو دينية (مناقضاً نفسه وما قاله قبل ذلك). وينتهي إلى القول: «فالعقل ـ والعقل وحده ـ هو الركيزة الكبرى، وإن العقل يمثل النور والضياء واليقين». وهذا العقل الذي يتم تقديسه هو العقل المادي، وهو عقل عالمي يقوم على الإيمان بالثقافة الخالدة، (أسلوب إنشائي غير علمي وغير عقلاني أيضاً)، ويقول: «الثقافة الإنسانية التي تتخطى حدود الزمان والمكان» (كلام غير عقلاني وغير علمي بل وغير علماني)، ثم يمجّد العقل الذي على أساسه قامت حضارة أوروبة، ولا سبيل لنا إلا أن نحذوَ حذوَ أوروبة، ونشر مبادئ الحضارة الغربية، واتباعها في كافة أوجه الحياة والفكر والاجتماع، وهو في ذلك مجرد تابع مقلّد للغرب.

ويتحدث الكاتب السوداني **عبد السلام سيد أحمد** عن العلمانية ويجعلها في ثلاث دوائر متداخلة:

الأولى: مبدأ فصل الدين عن الدولة (علمنة السياسة).

الثانية: العلمنة الفكرية، وهي أكثر اتساعاً من الأولى، وتشملها بطبيعة الحال، وبروز العقل المادي الطبيعي الذي يرفض الغيبيات.

الثالثة: العلمنة الاجتماعية، وهي تشمل الدائرتين السابقتين، بحيث تؤدي إلى إحلال منظومة متكاملة من القيم والعلاقات الإنسانية بعيداً عن الدين والأخلاق الدينية!! وهو في ذلك قريب من المفهوم الذي وضعه المسيري عن العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، إلا أن الشاملة عند المسيري تحوي الثانية (العلمنة الفكرية) والثالثة (العلمنة الاجتماعية)؛ وهما بذلك متفقان في توصيف العلمانية.. ونرى المسيري يهاجمها هجوماً شديداً، بينما لا نرى ذلك عند عبد السلام سيد أحمد الذي يؤيّدها.

ويقوم **عادل ضاهر** برفض جعل الدين في نصوصه المقدّسة المرجع الأخير في كلِّ ما يخص شؤوننا الدينية والدنيوية على حدٍّ سواء، وبالتالي اتخاذ العلمانية المادية والعقل المادي الأداتي بديلاً لها!.. ولهذا فالمرجعية الأخيرة في هذه الشؤون كلها ليست للدين بل للعقل حسبما يزعم.. وهو في ذلك مقلّد وببغاء ينقل ما يقوله الأوروبيون دون تفكير ولا تمحيص.

ويزعم **هاشم صالح** السوري المقيم في باريس: أن أوروبة علمانية، متحررة، عقلانية، لا أثر للأصولية الدينية فيها، وإذا أردنا التقدم فعلينا أن نحذو حذوها.. وهو موقف القرود والببغاوات المقلّدة.

وهكذا يفعل **مراد وهبه وعزيز العظمة** والعلمانية عندهم «تستند إلى النظرة العلمية بدلاً من الرؤية الدينية الخرافية إلى شؤون الكون والطبيعة على العموم. **ونتيجة لجهل عزيز العظمة الفاضح فإنه يبدأ في الكلام عن القرآن وعلم الفلك، وأنه مناقض للعلم، وجبل قاف عند الجغرافيين المسلمين الخرافي النابع من اعتبارات دينية.. ويستمر في هذيانه وجهله الفاضح متحدّثاً عن الركون إلى المعرفة عن: يأجوج ومأجوج، والجن والعفاريت، والزقوم، والتداوي بالرقى والطلاسم والأسماء الحُسنى»، مما يوضّح جهله وحقده التام على الإسلام والقرآن**.. وهو إنسان تافه بكلِّ المقاييس ولا يستحق بأي حال الرد عليه لفرط

جهله وغباوته، وغروره!.. فالدين عنده أفيون الشعوب، والتدين الشخصي هو الاشتطاط الوسواسي في شؤون الدين، والهستيريا الجماعية، واستخدام العبارات الدينية في الفكر السياسي وفي العقل الاجتماعي، وحبس المرأة في ظل خيمة (الحجاب). والصحوة الإسلامية ـ حسب تصوره ـ نتاج أزمة اقتصادية.. والمسلم العادي يطلب الخبز فلا يعطى إلا الإيمان (أي مثلما فعلت الكنيسة في أيام الإقطاع).. ويفسّر الصحوة الإسلامية نتيجة عوامل اقتصادية بحتة، ونتيجة مشاهدة برامج تليفزيونية تضخِّم دور الإسلام في حياة العرب!!.

ويعرّف وجه العلمانية المعرفي: بنفي الأسباب الخارقة عن الظواهر الطبيعية والتاريخية، والإيمان بدنيوية هذا الواقع وحركيته وتحولاته، فلا بد عنده من تنحية المرجع الديني عن موقع المحور الذي كانت تشغله في قطاعات التشريع، والتعليم، والقضاء، والثقافة، والسياسة، والحكم، وبالتالي رفض الدين والتدين جملة وتفصيلاً، وعدم الإيمان بالغيب، ورفض الإيمان بالله والملائكة واليوم الآخر والرسالات والوحي..

وهو أحقر العلمانيين العرب وأشدهم كفراً وعتواً وغلواً ومحاربة للدين، وأكثرهم جهلاً بالإسلام، بل تعدى جهله إلى معرفة أصول دينه العلماني!!.

الدكتور عبد الوهاب المسيري وتعليقاته:

وينتهي الدكتور عبد الوهاب المسيري بعد تلخيص وجهات النظر المختلفة حول العلمانية وتعريفاتها عند الغربيين ومقلّديهم من العرب إلى الآتي:

١ ـ تعاملت كثير من التعريفات المعجمية العامة مع الكلمة وأصولها اللغوية واشتقاقاتها ومعناها، ولم تتعامل مع مدلول الكلمة في معاجم علم الاجتماع أو علم الفلسفة، أو تطور حقلها الدلالي.

٢ ـ معظم التعريفات أهملت قضية المرجعية النهائية للمصطلح (والمفهوم)، ومن ثَمَّ لم تميّز بين الدائرتين: الصغيرة الجزئية، والكبيرة الشاملة.

٣ ـ تُعرَض كثير من التعريفات للعلمانية باعتبارها ظاهرة غربيّة وحسب.

٤ ـ تناولت كثير من التعريفات إشكالية الأصول، أي: كيف نشأت العلمانية في الغرب، ولكنها أهملت دراسة المجتمعات العلمانية المختلفة في الغرب، والتطورات السلبية والإيجابية التي ظهرت فيها عبر السنين.

٥ ـ تجاهلت معظم التعريفات الظواهر المصاحبة لظهور العلمانية، مثل الأمبريالية والحروب العالمية والنمط الاستهلاكي والحركات الشمولية.

٦ ـ لم تحاول التعريفات دراسة النظريات الاقتصادية والسياسية المختلفة وعلاقتها بالعلمانية.

٧ ـ لم تناقش التعريفات ما تعلق بتطبيق العلمانية مثل الميكيافيلية والهوبزية والداروينية والفرويدية والنفعية المادية (البراجماتية).

٨ ـ لم تناقش هذه التعريفات نتائج العلمانية في الغرب مثل الاغتراب والتسلّع (أي أن يصبح كل شيء سلعة قابلة للبيع والشراء بما في ذلك القيم والعواطف الإنسانية)، والتشيُّؤ (تحول كل إنسان إلى مجرد شيء)، والأنومي (Anomy) أي: اللامعيارية، وعدم وجود ميزان للأخلاق والإنسان والسلوك سوى الإحساس بالمنفعة واللذة.

٩ ـ لم تتناول هذه التعريفات الحركات الفنية والأدبية الحديثة (ما بعد الحداثة) باعتبارها إحدى نواتج العلمانية.

١٠ ـ لم تربط هذه التعريفات بين العلمانية وتاريخ الفلسفة في الغرب، ولم يحاول أي من الدارسين أن يبيّن العلاقة البنوية (التي تميت الإنسان) وما بعد البنوية (التي تذيب الإنسان) بالعلمانية، ولم يشيروا إلى نيتشه ودريدا وقضية الفوضوية والعدمية.

١١ ـ لم تتناول هذه التعريفات الحياة اليومية في المجتمعات العلمانية في الوقت الحاضر، وما آلت إليه من انتشار المخدّرات والعنف والانحطاط العام في الأخلاق، والأمركة (الهامبرجر والكوكا كولا).

١٢ ـ لم يتعرض أحد للتراث الغربي في نقد العلمانية، وما بعد الحداثة، وما أدت إليه من تفسخ المجتمعات وتآكلها وبداية انهيارها.

إن العلمانية أصبحت فكرة ضمن أفكار أخرى، وأصبح تاريخها جزءاً من ضمن تاريخ هذه الأفكار والرؤى، وتمَّ تجاهل عمليات العلمنة البنيوية الكامنة المسؤولة الأساسية عن تحوّل المجتمعات.

ويعتبر أن كل التعريفات (وخاصة العربية) للعلمانية، إما أن تكون مدحاً للعلمانية باعتبارها تحكّم العقل، وتطلق عقال الفكر والتقدم، وحرية الفكر والضمير... إلخ، أو تكون قدحاً باعتبارها كفراً وإلحاداً، وغزواً ثقافياً إمبرياليّاً عولميّاً مرتبطاً بالصهيونية واليهود ومؤامراتهم، وبالاستعمار الجديد المتمثل في الهيمنة الأمريكية والعولمة.

ولا شك حسب رأي **المسيري**، أن هذه التفسيرات تعطي قائليها راحة نفسية، ولكنها ليست تعريفات تحاول وصف الواقع وتفسيره، وإنما هي أحكام أخلاقية تعكس لنا رؤية أصحابها، وموقفهم النفسي والأخلاقي من ظاهرة العلمانية دون أن يقوموا بتعريف حدودها والغوص في مضامينها، وتتاليات تطورها في المجتمعات الغربية ذاتها التي طبقت العلمانية منذ عدة قرون.

ويقع **المسيري** في خطأ عندما يتجاهل تاريخ نشأة العلمانية في أوروبة وصراعها مع الكنيسة، ويعتقد المسيري أن التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية البنيوية هي التي أدت إلى ظهور العلمانية، وأن الصراع مع الكنيسة ليس هو السبب في ظهور العلمانية، لأن السبب في ظنّه، هو التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثورة الصناعية... إلخ، وهي التي أدت إلى ظهور العلمانية. وإنكار المعركة بين الكنيسة والعلم ومواقفها المخزية اجتماعيّاً وعلميّاً، وسيطرتها على مجريات الحياة في أوروبة لقرون طويلة وفسادها المتناهي، أمر مخالف للواقع والتاريخ.. ولا شك أن هذه المعركة الطويلة ومفاهيم الكنيسة هي عامل هام وأساسي في ظهور العلمانية والإلحاد.

ويذهب **المسيري** إلى أن المؤسسة الدينية لا يمكن أن تتوحد مع المؤسسة السياسية في أي تركيب حضاري وسياسي مركب، تماماً مثلما لا يمكن أن تتحد مؤسسة الشرطة الخاصة بالأمن الداخلي مع مؤسسة الجيش الموكول إليها الأمن

الخارجي (هذا غير صحيح بالنسبة لدول العالم الثالث حيث تعمل الجيوش لدعم سلطة الحاكم، وتعمل كرديف للشرطة عندما تفلت الأمور من يدها).

ويزعم **المسيري** أن السلطة التعليمية لا يمكن أن تتوحَّد مع المؤسسة الدينية. وهو خطأ فاحش في مفهومه للدين؛ فالمؤسسة التعليمية ارتبطت في أوروبة في العصور الوسطى بالكنيسة، ولا تزال للكنيسة مؤسساتها التعليمية الضخمة. وفي العالم الإسلامي كانت المؤسسة التعليمية على مدى القرون مرتبطة تماماً بالمسجد منذ أيام الرسول محمد ﷺ إلى بداية العصور الحديثة. وكانت المساجد في مكة والمدينة وخاصة الحرمين الشريفين مصادر العلم والدعوة. كما كان الأزهر في مصر قد لعب دوراً مشهوراً في المؤسسة التعليمية.. وقل مثل ذلك عن مساجد فاس والقيروان والعراق وإيران وبخارى... إلخ. وهذا كله يدلُّ على عدم فهم المسيري لمفهوم الإسلام، ودائماً ما يجعل المسيري مفهوم الدين مرتبطاً بالروحانيات فقط، أما أمور الدنيا فيفهمها أنها بعيدة عن الدين، بناء على قراءة مغلوطة لحديث الرسول ﷺ: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**».

ويعتقد **المسيري** أن فصل المؤسسات الدينية (بمفهومه الخاص عن الدين وهو الروحانيات فقط) عن مؤسسات الدولة عملية ليست مقصورة على المجتمعات العلمانية، وإنما هي موجودة في معظم المجتمعات المركبة (بما فيها الدولة الإسلامية).

وعلى هذا الأساس فإن أتباع مفهوم العلمانية الجزئية لا يرون أي تعارض بين العلمانية والدين، وأن بإمكانهما التعايش معاً.

ويقول **المسيري**: إن كثيراً من أعداء العلمانية سيقبلون هذا الفصل (أي الدين عن الدولة) إذا ما تأكَّدوا أن العلمانية مسألة تنطبق على الآليات والإجراءات الفنية وحسب، ولا تنطبق بأية حال على القيمة الحاكمة والمرجعية النهائية للمجتمع، ومن الممكن أن يقبلوا فصل بعض جوانب المجال السياسي والاقتصادي، بل بعض جوانب السلوك الإنساني عن الدين، طالما أن المرجعية النهائية هي مرجعية متجاوزة للدنيا والرؤية النفعية النسبية المادية.

وهذه النظرة غير صحيحة وهي مبنية على مفهوم المسيري للدين بأنه الروحانيات والإيمان بالغيب فقط والمسائل الأخروية، وأن الدين أصلاً لا شأن له بالدنيا!.. وهو مفهوم غير إسلامي أساساً؛ بل غريب عن الإسلام؛ حيث يحكم الإسلام في كل شؤون الإنسان الدنيوية والأخروية، ولا بد من معرفة حكم الله في كل مسألة في حياة الإنسان، وهي حكم المكلّفين بشرع الله، وفيه الأحكام الخمسة: الوجوب، والندب، والحِلّ، والكراهة، والحرمة؛ فلا تخلو مسألة من المسائل من أحد هذه الأحكام الخمسة.: والمسيري لا يعترف بذلك، ومفهومه للدين هو صلة العبد بربه في الصلاة، أو في ذكر الآخرة، أو الإيمان بالغيب، بالإضافة إلى أخلاقيات البرِّ العامة.. وهو مفهوم ناقص لدى الإسلام.. ويبدو حسن حنفي، بل ونصر حامد أبو زيد أقرب إلى فهم الحقيقة في هذه النقطة من الدكتور المسيري كما سبق ذكره.

ويقرر **المسيري**: أن هذا المفهوم الجزئي أو الجزيئي عن العلمانية يتجاهل قضية المرجعية والنموذج الكامن وراء المصطلح، مما أدى إلى هذا الغموض في مفهوم مصطلح العلمانية.. ولا بد في النهاية من وصول المجتمع إلى مفهوم العلمانية الشاملة. ويستشهد على ذلك بما حصل في أوروبة والغرب؛ حيث تصاعدت معدلات العلمنة بحيث تجاوزت مجالات الاقتصاد والسياسة والإيديولوجيا، وأصبحت العلمنة ظاهرة كاسحة، وصلت إلى وجدان الإنسان وتغلغلت في أحلامه، ووجهت سلوكه وعلاقاته، وقوّضت ما تبقّى من أخلاقيات مسيحية، أو حتى إنسانية (هيومانيه Humanist). ولم يعد بالإمكان الحديث عن فصل هذا عن ذاك، وبخاصة بعد عام (١٩٦٥م)، حين انتقلت الحضارة الغربية الحديثة من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة.

ويقول **المسيري**: «إن اعتبار العلمانية مجموعة من الأفكار الغربية نشأت في أوروبة بسبب طبيعة المسيحية التي تفصل الدين عن الدولة وتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وبسبب فساد الكنيسة وسطوتها ومحاربتها للعلم، وبالتالي فإن العلمانية هي ظاهرة غربية مسيحية مرتبطة ارتباطاً كاملاً بالغرب، ولا علاقة لها بالإسلام والمسلمين». هو منظور اختزالي وغير صحيح.

ويقول: «وانطلاقاً من هذا التصور الاختزالي تصبح مهمة من يود التصدّي للعلمانية، هي البحث عن الأفكار العلمانية والممارسات العلمانية (الواضحة)، وعن القنوات التي يتم من خلالها نقل الأفكار والممارسات العلمانية. ومهمة من يبغي الإصلاح هي ببساطة استئصال شأفة هذه الأفكار والممارسات، عن طريق إصدار تشريعات سياسية معينة، وفرض رقابة صارمة على الصور والأفكار الواردة من الخارج» (١/ ٢١).

واعتبر **المسيري** هذا التصور تصوراً ساذجاً واختزاليّاً، وتبسيطاً لظاهرة العلمانية وتاريخها، وللظواهر الاجتماعية على العموم.. وهذه الرؤية تتجاهل الحقائق البديهية الآتية حسب قوله:

١ ـ النماذج الطبيعية المادية موجودة بشكل كامن في أي مجتمع بشري بما فيها المجتمعات الإسلامية ذاتها.

٢ ـ أية جماعة إنسانية (وضمن ذلك الأمة الإسلامية) مهما بلغ تديّنها وتمسّكها بأهداب الدين، لا بد أن تتعامل في كثير من الأحيان مع الزمان والمكان والطبيعة والجسد، من خلال إجراءات زمنية صارمة.. (ويتجلّى بوضوح مفهوم **المسيري** للدين على أنه أشواق روحية فقط).

٣ ـ السلوك الإنساني مركّب لأقصى درجة، وما يحدده ليس العوامل الواضحة والبرامج المحددة وحسب؛ فدور العناصر الكامنة وغير الواعية في تشكيل السلوك الإنساني قوي، بل إنها أقوى كثيراً من العوامل الواضحة.

٤ ـ علاقة الدين المسيحي بالمجتمع الغربي علاقة مركبة.. وظهور العلمانية في الغرب لا يرجع إلى فساد بعض رجال الدين أو إلى الارتباط الوثيق بين مؤسسات الكنيسة (الكاثوليكية) ومؤسسات الإقطاع الغربي، أو إلى تعنّت الكنيسة ورفضها الأعمى للثورة العلمية.. ورغم أهمية هذه العناصر في الثورة على الكنيسة إلا أن المسألة أعمق من ذلك بكثير، فهي مرتبطة بتحولات بنيوية عميقة في عالم الاقتصاد والسياسة، ثم في مجالات الحياة

الأخرى العديدة، وهذه التحولات هي التي أدت إلى ظهور العلمانية (لا الثورة ضد فساد رجال الدين وغيره من العناصر). . وكل المجتمعات الإنسانية ليست بمنأى عن مثل هذه التحولات.

والعلمانية (في نظره): «ثمرة عمليات كثيرة متداخلة، بعضها ظاهر واضح، والآخر بنيوي كامن، وهي تشمل كل جوانب الحياة، العامة والخاصة، والظاهرة والباطنة، وقد تتم عمليات العلمنة من خلال الدولة المركزية، بمؤسساتها الرسمية، أو من خلال قطاع اللذة من خلال مؤسساته الخاصة، أو من خلال عشرات المؤسسات الأخرى (ومنها المؤسسات الدينية ذاتها!)، أو من خلال أهم المنتجات الحضارية أو أتفهها».

وإن: «كل الأشياء المحيطة بنا ـ المهمُّ منها والتافه ـ تُجسّد نموذجاً حضارياً متكاملاً يحوي بداخله إجابة عن الأسئلة الكلية النهائية». والسؤال هو: كيف؟.

ويقول: «وننسى في عالمنا العربي أن العلمنة تتم من خلال منتجات حضارية يومية أو أفكار شائعة، وتحولات اجتماعية تبدو كلها في الظاهر بريئة أو مقطوعة الصلة بالعلمانية أو الإيمانية، ولكنها في الواقع تخلق جوّاً خصباً مواتياً لانتشار الرؤية العلمانية الشاملة للكون، وتصوغ سلوك من يتبناها، وتوجهه وجهة علمانية. وقد وصفنا مثل هذا المنتج الحضاري أو الأفكار التي تولِّد العلمانية، (بشكل كامن)، بأنها جزء عضوي لا يتجزأ من بنية هذا المنتج... ولا يمكن استخدام هذا المنتج أو تبنّي هذه الأفكار أو خوض هذه التحولات دون أن يجد الإنسان نفسه متوجِّهاً توجهاً علمانيّاً شاملاً، ولذا سميناها (**بنيوية**).

والصفات البنيوية عادة ما تكون كامنة، غير ظاهرة أو واضحة.. ولذا سميناها «**علمنة بنيوية كامنة**»؛ بل إن كثيراً ممن يساهمون في صنع هذه المنتجات، وصياغة هذه الأفكار، وإحداث هذه الانقلابات، قد يفعلون ذلك وهم لا يدركون أبعادها الفلسفية، ودورها القوي في صياغة الإدراك والسلوك؛ ولذا يمكن أن يكون هناك مجتمع يتبنّى بشكل واضح ظاهرة إيديولوجية دينية، أو

رؤية علمانية جزئية، ولكن عمليات العلمنة الشاملة البنيوية الكامنة من القوة بحيث إنها توجّه المجتمع وجهة مغايرة تماماً لا يشعر بها أعضاء المجتمع أنفسهم، وتؤدي بهم إلى العلمانية الشاملة».

ويعطي مثالاً على ذلك **الاتحاد السوفييتي** سابقاً؛ كان دولة علمانية شاملة، بينما الولايات المتحدة الأمريكية دولة مليئة بالكنائس والاتجاه الديني، حتى إن الدولار الأمريكي متوج بعبارة «نحن نثق بالإله». ورغم ذلك كله فالمجتمع الأمريكي أكثر علمانية من المجتمع السوفييتي!!.

فالحياة في الولايات المتحدة، رغم تعدد الكنائس ووجود عدد كبير ممن يرتادها، حياة مادية قاسية تلهث وراء المال والنجاح واللذة، وقد أدى ذلك إلى تفكك الأسرة وتهميش القيم الأخلاقية والإنسانية والدينية، وهيمنة أخلاق السوق وقوانين البيع والشراء، والعرض والطلب على الوجدان الأمريكي!.. وتحول كل شيء إلى رقم ومكسب مادي بحت، وتحولت القيم الأخلاقية إلى قيم نسبية، والبقاء للأصلح (حسب الداروينية الاجتماعية).. والأصلح هو الذي يستطيع البقاء في هذه الغابة والوحوش المتصارعة، ولا يهم ما هي الأساليب المستخدمة للبقاء: الكذب، الغش، الخداع.. كلها مبرّرة ما دامت تؤدي إلى البقاء!.. والأصلح هو من يستطيع البقاء، أما الذي لا يستطيع البقاء فلا شك أنه غير صالح مهما كانت لديه من قيم وأخلاق ومُثل.

ومن ذلك، الأفكار التي تبدو محايدة بريئة، مثل فكرة الإنسان الطبيعي، والقول بتبنّي النماذج الموضوعية أو العقلية المادية التي لا تعترف بالمثاليات والأخلاقيات، وفكرة نهاية التاريخ، وخطاب التمركز حول الأنثى (Feminism)، والمنظومات الحلولية، وهي كلها تجليّات للعلمانية الشاملة.

حتى المنتجات الحضارية اليومية مثل (التِّي شيرت T-shirt) الذي تحول إلى مادة إعلانية (مثلاً مكتوب عليه: اشرب الكوكا كولا)، ويأكل الهامبرجر وينام على سرير وظيفي، ويعيش حياة نمطية ولا توجد في حياته خصوصية..

وهو إنسان قادر على تنفيذ كل ما يصدر إليه من أوامر في العمل أو المدرسة أو النادي أو الحزب. . . إلخ. .

ويعيش مثل هذا الشخص في بيئة توجهه؛ سواء كان في العمل أو في المنزل أو في الدراسة أو في النادي أو في الحزب. . وتستغلّه أجهزة الإعلام والإعلان للترويج عن مفاهيمها وبضائعها، وتعمل في ذلك الأفلام والإنترنت والصحافة على غسل قلبه ودماغه وعقله من كل تفكير أو عاطفة مستقلة، فهو إنسان آلي أو شبه آلي مبرمج بالحاسوب. . هو كمٌّ من الكمِّ الهائل. . واحد من الملايين أو البلايين الذين تصنعهم أجهزة الإعلام والإعلان واللذة!. . وليس له مرجعية سواها؛ فما تقوله هو الصواب، وما تشير به عليه أن يفعله سواء كان في مسكنه، أو مأكله أو مشربه، أو جدِّه أو لعبه، في شغله وفراغه. . وفي كيفية أكله ولبسه ومشيه وضحكه. . تصنعه أجهزة معقّدة ماهرة ذكية يسيطر عليها رجالٌ لا همَّ لهم إلا المزيد من الربح!. . كل شيء قابل للكسب، وأخذ المال وعبادته بطرق كلها محسوبة مبرمجة بدقة بالغة، وبموضوعية كاملة، ولا بد من تحويل العالم كله إلى سوق لهذه الفلسفة البراجماتية السوقية الربحية البحتة؛ وهو ما يسمى (**العولمة**) و(**منظمة التجارة العالمية World Trade Organisation**). . ويتم ضبط ذلك كله لصالح الشركات العالمية عابرة القارات، ومركزها الأول الولايات المتحدة، ولكنها تتعداه إلى أوروبة واليابان والصين وكافة دول العالم.

وقد أدى ذلك إلى إيجاد نموذج متمركز حول الإنسان؛ فهو سيد الكون والطبيعة. . والمقصود بالإنسان هو الإنسان الأبيض الأمريكي (اليهودي). . وليس أي إنسان؛ فالكلّ عبيد له. . ويتحول الإنسان بعد ذلك إلى إنسان يعبد ذاته. . ولكن ما بعد الستينيات من القرن العشرين وثورات الهيبيز أدت إلى فشل هذا النموذج، وأن يتحول الإنسان إلى إنسان مادي طبيعي مثله مثل جميع الكائنات الطبيعية، وهو ما أدى إلى الفلسفات المعادية للإنسان (البنيوية وما بعد الحداثة). والشيء ذاته أصاب الاتحاد السوفييتي، وانتهت العلمانية المادية الاشتراكية إلى المادية العلمانية الرأسمالية التي تبحث عن المال واللذة بأي

طريق، بما في ذلك المافيا والمخدّرات والدعارة!.. واعتُبر الجنس نوعاً من النشاط الاقتصادي الهام؛ فراجت تجارة البغاء والدعارة، وأصبح الاتحاد السوفييتي السابق المصدر الأول للرقيق الأبيض في العالم، باتفاق تام مع تجار الجنس في أوروبة وأماكن كثيرة من العالم بما في ذلك إسرائيل، ودول الشرق الأوسط الأخرى، وخاصة بعض الدول الخليجية!.. وأصبح الاسم الجديد للبغايا والداعرات عاملات الجنس (Sex workers) ولهنَّ نقابات وحقوق ونظم عالمية!!.

وقد تحوَّلت كثير من المجتمعات حسب هذه النظرة العلمانية إلى أن يحاول كل فرد من أفراد المجتمع أن يحقق مصلحته الشخصية المادية (المتعلقة بمنفعته ولذته)، ولا يلتزم بأي مرجعية أخلاقية أو إنسانية، بحيث يصبح الإنسان ذئباً لأخيه الإنسان، وتصبح كل العلاقات علاقات تعاقدية صراعية لا يحسمها إلا القوة أو الخداع والمكر، ونصوص القانون والمحاكم.

إن ما حدث في الغرب هو أن بعض مجالات الحياة العامة تمت علمنتها لبعض الوقت، وظلت الحياة الخاصة وعالم القيم محكومة بصورة عامة بالقيم المسيحية أو الإنسانية (Humanists)؛ وهي العلمانية الجزئية، ولكن من بعد الستينيات من القرن العشرين ظهرت العلمانية الشاملة، وتحكمت الدولة وأجهزتها الإعلامية والرأسمالية المتحكمة في الإعلان والإعلام وصناعة اللذة؛ تحكمت أيضاً بالحياة الخاصة للإنسان.. وقد تغيّرت الأمور فأصبحت الدولة التنين ـ التي تنبأ بها هوبز ـ قد أحكمت قبضتها على الإنسان الفرد من الخارج (الأجهزة الأمنية)، والداخل (الرغبات والميول بأجهزتها التربوية والإعلامية والإعلانية وقطاع اللذة).

واتسع نطاق **العلمنة** وتخطَّى عالم السياسة والاقتصاد، ووصل إلى عالم الفكر والفلسفة، ومنها إلى كل مجالات الحياة العامة والخاصة، وتم تدجين الإنسان من الداخل والخارج، ولم يعد هناك أي أساس لأية معيارية دينية أو أخلاقية أو إنسانية!.. والمعيار الوحيد هو ما تدبّره الدولة وأجهزة الإعلام

والإعلان وقطاع اللذة. . والدافع الوحيد لهذه الأجهزة وخاصة الإعلان والإعلام وقطاع اللذة هو دافع الربح، وليست هذه الأجهزة مسؤولة أمام أحد وكأنهم يبيعون سلعة تدرُّ أرباحاً عالية، وصرّح أحدهم بقوله عن قطاع اللذة: «إن القائمين عليه لا يهمهم ماذا تفعل في السرير، المهم ماذا تفعل أمام شباك التذاكر! . .».

وهكذا تحولت العلمانية الجزئية التي كانت تتحدث عن فصل الدين عن الدولة، وعدم التدخل في حياة الإنسان الخاصة، واحترام الدين والقيم على المستوى الفردي، تحولت في الستينيات من القرن العشرين إلى العلمانية الشاملة التي تتحكم في الإنسان، وتجعله نسخة مكررة مثل القطيع، ومثل المنتجات المكررة التي تنتجها المصانع (Mass Production) كلها بصفات محددة دقيقة متماثلة. . وذلك كله لزيادة الربحية لمجموعة من المتحكمين في أجهزة الإعلام والإعلان وصناعة اللذة. . ومنها إلى صناعة الفكر والثقافة فيما يسمى ما بعد الحداثة. . وقد سيطرت على العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية نفس المفاهيم الصارمة في المجالات العلمية البحتة، وهي مفاهيم ومقاييس مادية خالصة، همّها الأول دراسة الظاهرة من الناحية الكمية. . وأصبح علم الاجتماع الغربي نفسه جزءاً من المنظومة العلمانية الشاملة، وتمّت عملية التلاقي (Convergence) بين الرأسمالية والاشتراكية في نظام علماني معولم ومقولب.

وأدت عمليات التحديث والعلمنة الشاملة إلى أزمة الحضارة الحديثة وفقدان القيم فقداناً مرعباً، وهيمنة القيم النفعية وانتهاء دور الأسرة (بدأت بانكماش العائلة إلى الأسرة النووية المكونة من الزوج والزوجة والأطفال، وانتهت بتفكك الأسرة تماماً بحيث أصبح الرجل مع الرجل أسرة، والمرأة مع المرأة أسرة، إذا كانت تلك رغبتهما. . ويمكن العثور على الأطفال بالتبني أو من مشاريع أطفال الأنابيب. . . إلخ).

وتحول الإنسان نفسه إلى سلعة وإلى شيء، وإلى موت القيم بما في ذلك الإيمان بالله وبالدين، وقد كانت البداية بالنظام الاستعماري الأمبريالي الذي نهب ثروات العالم لصالح الرجل الأوروبي الأبيض غير مكترث بما يسببه من هلاك

لمئات الملايين من البشر؛ سواء كان في العالم الجديد (الأميركيتين وأسترالية) أو العالم القديم (إفريقية وآسية). . وأدى ذلك إلى الإبادة النازية والحروب العالمية والتلوث البيئي والإباحية. . وسقطت الفلسفة الإنسانية الهيومانية (Humanists)، كما سقط النموذج الاشتراكي. . وتغوّلت الدولة ووسائل الإعلام والإعلان وقطاع اللذة.

وازدادت الظلمة المحيطة بالمفكّر الغربي؛ فأصبح يتحدّث عن «الاستنارة المظلمة» و«تآكل العقل النقدي» بعد أن كان يمجّد ويعبد العقل والتفكير العلمي البراجماتي. . كما بدأ يتحدث عن «العقل التفكيكي» و«العقل الأداتي» وعن «استبعاد الإنسان من المركز» أي مركز الكون، وعن «العداء للإنسانية» (anti-humanism) واعتبر أن الحضارة قد وصلت إلى نهايتها فأصبح يتحدث عن «نهاية التاريخ» (فوكوياما)، وللوصول إلى ذلك لا بد من «صراع الحضارات» (هنتنجتون). كما تحدث عن «عبثية الواقع» و«الثمن الباهظ للتقدم» المادي. وانتشر مسرح العبث وأن الإنسان يتقيأ نفسه. . وينتظر جودو الذي لا يأتي أبداً. . ويتحوَّل الإنسان إلى صُرصار ثم إلى ذرات متناثرة. . عبث في عبث. . الكل باطل، وقبض الريح، وخواء، والنهاية هي الانتحار السريع أو البطيء حسب المزاج السوداوي ودرجته!. . وهناك انشغال مرضي في الفن والشعر بالأعضاء التناسلية، والبول، بل والتبرز أيضاً!!.

وهكذا بعد أن تحوّل الإلٰه إلى الطبيعة، والطبيعة إلى الإلٰه؛ ظهر أن هذه الطبيعة لا تستحق العبادة، فتمزَّق كل شيء. . وإذا لم يكن هناك إلٰه كما يقول دوستوفسكي فكل شيء جائز حتى القتل.

وجاء العالم المادي النتشوي[1] ليحلّ محلّ الإلٰه والأخلاق، وأصبحت القوة هي مقياس الخير والشر، وأتمَّ داروين الحلقة بقصة الصراع الدائم والبقاء للأصلح. . والأصلح هو الذي يستطيع البقاء ويتغلَّب على غيره بأي طريقة

---

(١) نسبة إلى نيتشه، الفيلسوف الألماني الذي مجّد القوة.

كانت.. بالكذب، بالخداع، بالسرقة، بالغش، بالاحتيال، بالقتل.. ليست الوسيلة مهمة، المهمُّ هو النجاح في البقاء والسيطرة على الآخرين!.. وهي الفلسفة التي أُغرمت بها أوروبة في عهد الاستعمار والأمبريالية لنهب ثروات العالم والقضاء على كل ما هو غير أبيض، ثم بدأت هذه الحضارة في التآكل والانهيار من الداخل، وأدَّت إلى النازية، قمة النظام العلماني المادي، وما تبعها من مآسٍ ومذابح مروّعة!.. وبما أن لليهود نصيباً من هذه المذابح فكان لا بد أن تتم إدانة هذا النظام النازي (الذي تعاون معه كثير من الصهاينة بما فيهم رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق شامير، وأحد مؤسسي إسرائيل ورئيس عصاباتها الإجرامية).

وظهر بعد ذلك (جاك دريدا) زعيم التفكيكيين، وأعلن عالم ما بعد الحداثة، حيث لا يوجد هدف، ولا مركز ولا غاية، ولا فرح ولا ندم، ولا تشاؤم، فكل شيء قابع داخل قصته الصغرى دون مرجعية نهائية.. وتخفق اللغة الإنسانية في التواصل بين الإنسان وأخيه الإنسان فتختفي القيم والمعايير ويتفكك الإنسان!!.

وينتهي **المسيري** بإعادة تعريف مصطلح العلمانية بحيث يصبح مجاله الدلالي أكثر اتساعاً وشمولاً وعمقاً بتقديم نموذج مركب للعلمنة والعلمانية.

ونحن نعتقد أن سبب ظهور العلمانية هوالكنيسة، وما يسمونه «الكتاب المقدّس» وما فيه من خزعبلات، وجرائم ضد الإنسانية، ولذا سندرس الكتاب المقدّس والعقائد المسيحية في الفصل التالي، ثم ندرس ما هو المقدّس وما هو غير المقدّس، ثم ندرس الله جلّ جلاله في أسفار التوراة والعهد القديم وما يؤدي إليه من صراع وعلمانية، والعلمانية الواضحة في أسفار العهد القديم التي لا تؤمن بالآخرة وتعمل فقط للدنيا، وذكرنا مقاطع كاملة منها لنذلل على وجهة نظرنا المختلفة تماماً عن نظرة الدكتور المسيري.

* * *

الفصل الثاني

ما هو الكتاب المقدّس؟[1] وما هي العقائد المسيحية؟

تؤمن الكنيسة ومن يتبعها بما يسمّى الكتاب المقدّس (Bible)، وهو يقسم إلى قسمين كبيرين:

الأول: العهد القديم[2]:

وهو مجموعة الأسفار التي نزلت على موسى عليه السلام.

وقد سُمِّي العهد القديم مقارنة بالعهد الجديد الذي أقامه يسوع.. جاء في إنجيل متّى (٢٦/ ٢٨): «لأن هذا هو دمي الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا». وقد جاء في سفر أرميا (٣١/ ٣١ ـ ٣٢): «ها أيام تأتي يقول الرب، وأقطع مع بيت إسرائيل عهداً جديداً، ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم».

والعهد القديم هو عهد الربِّ الذي تكرَّر لإبراهيم ثم إسحاق ثم يعقوب، ثم

---

(١) انظر لمزيد من التفصيل كتاب: دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية، لكاتب هذه السطور، إصدار دار القلم ـ دمشق، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

(٢) **العهد القديم**: مجموعة من الأسفار التي حُرِّفت وبدلت بدرجة كبيرة جدّاً، بحيث أنها أصبحت ـ حسب ما يقول علماء اللاهوت من اليهود والنصارى ـ لا يمكن أن تنسب إلى هؤلاء الأنبياء، وإنما كتبت بعدهم، وقد امتلأت بالزور والبهتان والكذب على الله والأنبياء، حتى قال فيها الفيلسوف الألماني الشهير كانت (كانط): «أرذل الوصايا وأشدها ضرراً». وقال عنها أرنست بيفن (وزير الخارجية البريطانية في حكومة أتلى بعد الحرب العالمية الثانية): «إن العهد القديم هو أشد الكتب بعداً عن الأخلاق»، وقال عن اليهود: «ماذا تتوقع من شعب تربّى منذ المهد على أقوال التوراة؟!». وسفر يشوع يسمّى سفر المجازر!.. هذه الأسفار كلها لا أخلاقية، إجرامية حقيرة، ما عدا آيات باهرات هنا وهناك.

تكرر على لسان موسى والأنبياء بعده لإعطائهم أرض كنعان، أرض فلسطين، أرضاً تفيض لبناً وعسلاً.. وتكون علامة العهد بين الرب وبين شعبه المختار هو الختان. «وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسْلِكَ من بعدك؛ يُختن منكم كل ذكر، فتختنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة العهد بيني وبينكم..» (سفر التكوين ١٧: ٩ ـ ١٢).

ويُقَسَّم العهد القديم عدة تقسيمات. **والبروتستانت** يقسِّمون العهد القديم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ **التوراة**: وهي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم؛ وهي التي يقولون: إنها نزلت على موسى، أو ما يسمّى كتبة الشريعة الخمسة أو البنتاتورك؛ وتبدأ بسفر التكوين ثم الخروج ثم اللاويين ثم العدد ثم التثنية، وتنتهي حسب زعمهم بوفاة موسى على جبل في الأردن مقابل لأريحا وفلسطين (موجود إلى اليوم وبه كنيسة أقامها الإيطاليون في قمة جبل في مدينة مأدبا بالأردن). وقد مات موسى كما يزعمون مغضوباً عليه من الرب (وهو افتراء على موسى عليه السلام).

٢ ـ **الأسفار النبوية**: وتنقسم هذه إلى أسفار الأنبياء المتقدمين وأسفار الأنبياء المتأخرين.

٣ ـ **الكتابات وأسفار الشعر والحكمة**.

ومجموع هذه الأسفار (٣٩) سفراً. أما **الكنيسة الكاثوليكية** فلها تقسيم آخر، وعدد الأسفار لديها (٤٦) سفراً؛ هي كالآتي:

١ ـ **أسفار موسى الخمسة**: وتسمّى أيضاً التوراة، الشريعة، البنتاتوك... إلخ، وهذه الأسفار متفق عليها بين جميع فرق النصارى وفرق اليهود بما فيهم السامريون.

٢ ـ **الأسفار التاريخية**: وهي (١٦) سفراً، وتبدأ بيشوع وتنتهي بالمكابيين الأول والثاني.

٣ ـ **الأسفار النبوية**: وهي (١٧) سفراً، تبدأ بأشعيا، وأرميا، وتنتهي بنحميا وزكريا وملاخي.

٤ ـ **الأسفار الشعرية**: وهي (٦) أسفار، وتبدأ بأيوب، والمزامير، ثم أسفار سليمان الثلاثة، ومراثي أرميا.

٥ ـ **الأسفار التعليمية**: وهما اثنان فقط، هما سفر الحكمة وسفر يسوع بن سيراخ.

أما اليهود فيعترفون بـ (٢٤) سفراً، أهمها أسفار التوراة (الشريعة) الخمسة، ثم يدمجون بعض الأسفار في بعض. وأما السامرة، وهم من فرق اليهود التي كادت أن تندثر (لا يزال منهم بقايا) فيؤمنون فقط بأسفار موسى الخمسة، وكذلك الصادقيون الذين اندثروا. وبما أن الأسفار الخمسة (التوراة) المحرَّفة ليس فيها أي ذكر للجنة والنار واليوم الآخر فإن الصادقيون والسامرة لا يؤمنون باليوم الآخر، ولا الجنة ولا النار!.. وكذلك فإن إيمان اليهود بالجنة والنار ضبابي جدّاً، وأغلبهم لا يؤمن بالآخرة وما فيها من نعيم وعذاب.

الثاني: العهد الجديد:

هو مجموعة من الأناجيل والرسائل التي لم يُعترف بها إلا في مؤتمر نيقية (أزنيك)[1] سنة (٣٢٩م) على يد قسطنطين، واستبعد ما عداها من الأناجيل والرسائل التي تبلغ المئات.. ومنعت وحوربت حتى تمّ القضاء عليها.

وهذه الكتب هي: الأناجيل الأربعة: متّى ومرقس ولوقا ويوحنا. وسفر أعمال الرسل، ورسائل بولس، وهي عديدة، ورسائل بطرس (رسالتان)، ورسائل يوحنا (ثلاث)، ورسالة يعقوب، ورسالة يهوذا، ورؤيا يوحنا. ومجموع هذه الأسفار ٢٧ سفراً.

وهناك مجموعة من الأسفار تُسمّى الأسفار المنحولة (أبوكريفا

---

(١) مدينة نيقية: هي اليوم مدينة أزنيك في الأناضول في تركيا.

Apocrypha) وهي (١٤) سفراً، ولا يؤمن بها البروتستانت، بينما تقبل الكنائس الكاثوليكية هذه الأسفار كمواد للإرشاد والتعليم الروحي دون إعطائها الصفة القانونية (Canonical) وهي كتابات مشكوك فيها.

ماذا يقول علماء اللاهوت النصارى في كتابهم المقدّس؟:

تقول **دائرة المعارف البريطانية**[١]: إن العهد القديم كتاب يمثل تراث الشعب الإسرائيلي وتراث شعوب أخرى كثيرة، وإن أسفار موسى الخمسة المعروفة باسم التوراة والناموس لم يكتبها موسى، وإنما كتبت بعد وفاته بقرون طويلة جدّاً، وأول ما كُتب من التوراة هو عند تكوّن مملكة داود حوالي ألف عام قبل الميلاد، ثم في عهد سليمان (٩٦١ ـ ٩٢٢ق.م)، وفي القرن التاسع قبل الميلاد تم تحرير النص اليهوي الذي يذكر فيه اسم الله بيهوه، ثم أضيف النص الإلهي (الذي يذكر الله باسم ألوهيم)، ثم أضيف النص الكهنوتي وهكذا إلى عهد النفي في بابل في القرن الخامس قبل الميلاد.. ولم يتم توحيدها في نص واحد إلا في القرن الأول بعد الميلاد؛ أي بعد عهد موسى بألف وأربعمئة عام على الأقل.

وتقول **دائرة المعارف البريطانية**: إن أسفار العهد القديم كتبت في عصور مختلفة وأيدي كتّاب مختلفين ذوي ثقافات مختلفة متباينة، ثم إن النص اليوناني المعتمد يختلف عن النص العبري اختلافاً بيِّناً، وفيه زيادات كثيرة في مختلف الأسفار. ويرجع النص اليوناني إلى القرن الرابع بعد الميلاد.

«أسفار الكتاب المقدّس هي عمل مؤلفين ومحررين ظل عدد كبير منهم مجهولاً، لكنهم ـ على كل حال ـ لم يكونوا منفردين؛ لأن الشعب كان يساندهم، ذلك الشعب الذي كانوا يقاسمونه الحياة والهموم والآمال حتى في الأيام التي كانوا يقاومونه فيها، فمعظم عملهم مستوحى من تقاليد الجماعة. وقبل أن تتخذ كتبهم صيغتها النهائية انتشرت زمناً طويلاً بين الشعب؛ وهي تحمل آثار ردود فعل القراء في شكل تنقيحات وتعليقات، وحتى في شكل إعادة صياغة

---

(١) دائرة المعارف البريطانية، الطبعة ١٥، لعام ١٩٨٢م، المايكروبيديا: ٢/ ٧٨٩.

بعض النصوص إلى حدٍّ هام أو قليل الأهمية، لا بل أحدث الأسفار ما هي أحياناً إلا تفسير وتحديث لكتب قديمة».

وهذا الكلام في منتهى الأهمية، فهو يعترف اعترافاً صريحاً لا لبس فيه أن الكتاب المقدّس بأكمله ليس من عند الله مباشرة، ولا أوحى الله به لأحد من أنبيائه، بل هو عمل مؤلفين عديدين استلهموا تقاليد الشعب وآلامه وأحلامه. وكانت تلك الصياغات ديناميكية (أي قابلة للتغيير والحذف والإضافة)، وليست استاتيكية (أي ثابتة جامدة لا تغيير فيها)، وكان القراء ينقِّحونها ويعلّقون عليها ويقومون بإعادة صياغتها بحيث تُغيّر النصوص السابقة وتُعدّل.

وتقول **الرهبانية اليسوعية المسكونية (العالمية)**، وهي أكبر تجمع كاثوليكي عالمي وتعتبر محافظة جداً بالمقارنة مع البروتستانت: «لم يكن هناك حدود للكتابات المعترف بها لدى حاخامات اليهود باعتبارها وحياً من الله؛ لأن الإضافات كانت مستمرة، والقائمة مفتوحة».

وتتحدث **الرهبانية اليسوعية في المدخل إلى الكتاب المقدّس** فتقول: وكل هذه الكتب عُدِّلت وبُدِّلت مراراً، وأضيف إليها وأسقط منها، ولم تتخذ شكلها النهائي إلا في القرن الأول بعد الميلاد، بل إن النص المسوري - وهو الصيغة الرسمية للعهد القديم - لم يقرر نهائيّاً إلا في القرن العاشر بعد الميلاد على يد عائلة ابن أشير، التي ظهرت في طبرية في سوريا (في فلسطين حاليّاً). وأقدم مخطوط مسوري كامل للعهد القديم هو مخطوط حلب الذي يرجع إلى القرن العاشر بعد الميلاد، أي بعد أكثر من (٢٣٠٠) عام من عهد موسى عليه السلام.

علماء النصارى ينفون أن الأنجيل نزل على عيسى عليه السلام، ويؤكّدون أن عيسى عليه السلام لم يأتِ بكتابٍ من عند الله اسمه الإنجيل، بل الأناجيل الكثيرة كُتبت بعد رفعه إلى السماء في نهاية القرن الأول الميلادي، وفي القرن الثاني والثالث. ووقعت الخلافات الشديدة بين فرق النصارى وأناجيلهم العديدة حتى تمَّ في مجمع نيقية سنة (٣٢٦م)، ومجمع خلقيدونية عام (٤٥١م)، استبعادُ العديد من

الأناجيل، والاعترافُ بأربعة أناجيل فقط، هي أناجيل (متّى ولوقا ومرقس ويوحنا)، كما تمَّ الاعتراف بسفر أعمال الرسل المنسوب إلى لوقا، ورسائل بولس، وبعض الرسائل الأخرى، ورؤيا يوحنا (المجموع ٢٧ كتاباً ورسالة).

ويكفينا هاهنا أن نذكر ما جاء في كتاب الأب سيداروس اليسوعي: **(تكوين الإنجيل)**، وهو أحد سلسلة دراسات في الكتاب المقدّس التي تصدرها دار المشرق في بيروت، وهي سلسلة تشرف عليها هيئة الإكليروس الكاثوليكي المسيحي في لبنان، يقول الأب سيداروس في مقدمة كتابه: «ليس الكتاب المسيحي (الأناجيل) كتاباً منزلاً كتبه الله، بل هو كتاب بشر بإلهام الروح القدس، وسيجرنا الحديث إلى أن نقرّ بأن الكتاب كان في بداية الأمر عبارة عن روايات شفهية تداولتها الجماعات المسيحية الأولى، ثم دوَّنها الإنجيليون الأربعة كُلٌّ بأسلوبه الخاص وقصده اللاهوتي الخاص.

فكلّ ما قلناه الآن يكفي ليُقنع باحثاً سطحياً أنَّ الأناجيل قد حرَّفها المسيحيون، إذ بين يسوع الناصري والروايات الشفهية والتدوين الرباعي عن يسوع الممجّد فجوةٌ وهاوية. والحقيقة كما بيّناها بوجه عابر، هي أن الأناجيل والعهد الجديد بمجمله، كتاب إيمان لا كتاب تاريخ، وإن تضمّن هذا الإيمان سرد أحداث ووقائع تاريخية، ولكن الإيمان شكّل هذا السرد بتصرف وإخلاص في آن واحد. وستبيّن دراستنا: أن لا تعارض بين حرّية التصرف والإخلاص في الأناجيل، وأن يسوع الناصري في أقواله وأعماله التاريخية هو يسوع الممجد كما ظهر في الأناجيل الأربعة».

والكاتب يقرُّ بصعوبة ما يواجهه، فالأناجيل الأربعة كتبها مجموعة من البشر لم يروا المسيح ولم يعايشوه، بل لم يعايشوا من رآه وسمعه: فإنجيل لوقا كتبه لوقا الذي يزعمون أنه تتلمذ على يد بولس، وبولس نفسه لم ير المسيح ولم يعايشه، وكان عدوّاً للمسيحيين يضطهدهم، ثم زعم أن المسيح ظهر له وهو في طريقه إلى دمشق ليضطهد المسيحيين، وناداه: لِمَ تضطهدني؟ فآمن بولس، وصار من ساعته رجل المسيحية الأول متجاوزاً بذلك الحواريين، ومختلفاً معهم

ورافضاً لهم عندما تتاح له الفرصة، لأنه حسب زعمه يأخذ مباشرة من الرب المسيح.

وتقول **الطبعة المسكونية (العالمية) للكتاب المقدّس العهد الجديد**(١): «لم يطلق اسم العهد الجديد على المؤلفات السبعة والعشرين التي نسميها اليوم العهد الجديد إلا في أواخر القرن الثاني بعد الميلاد. ولم تكن تعتبر أسفاراً مقدَّسة، بل كان العهد القديم هوالكتاب المقدّس الأوحد لديهم، وهو الذي كانوا يسمونه «الشريعة والأنبياء».

إن تأليف تلك الأسفار السبعة والعشرين وضمّها في مجموعة واحدة أدّيا إلى تطور طويل ومعقد، والفجوة التاريخية والجغرافية والثقافية التي تفصلنا عن عالم العهد الجديد هي عقبة كأداء يعسر تفهمها».

وتقول تلك الطبعة المسكونية العالمية الموثقة لديهم: «وقد نُسخت تلك النصوص مراراً، واختلفت تلك النسخ اختلافاً شديداً. . إن نُسخ العهد الجديد التي وصلت إلينا ليست واحدة، بل يمكن للمرء أن يرى فيها فوارق مختلفة الأهمية، ولكن عددها كثير جدّاً، على كل حال. . . إن نص العهد الجديد قد نُسخ ثم نُسخ طوال قرون كثيرة بيَدِ نُسَّاخٍ صلاحُهم للعمل متفاوت. . وما من أحد منهم معصوم من مختلف الأخطاء التي تحول دون أن تتصف أي نسخة ـ مهما بذل فيها من الجهد ـ بالموافقة التامة للمثال الذي أخذت عنه. . يضاف إلى ذلك أن بعض النُسَّاخ حاولوا أن يصوّبوا ما جاء في مثالهم، وبدا لهم أنه يحتوي على أخطاء واضحة أو قلة دقة في التعبير الإلٰهي. . وهكذا أدخلوا إلى النص قراءات جديدة تكاد تكون كلها خطأ». . . «ومن الواضح أن ما أدخله النُسَّاخ من التبديل والتغيير على مرِّ القرون تراكم بعضه على بعضه الآخر، فكان النص الذي وصل

---

(١) الكتاب المقدّس: العهد الجديد، دار المشرق، بيروت، الطبعة ١٩، سنة ٢٠٠٠م. وأخذت المداخل (أي الشروح والمقدمات) من الترجمة الفرنسية المسكونية (العالمية)، التي أصدرها الفاتيكان، ووافق عليها مجلس الكنائس العالمي.

آخر الأمر إلى عهد الطباعة (القرن الخامس عشر الميلادي) مثقلاً بمختلف ألوان التبديل التي ظهرت في عدد من القراءات... ولا يرجى في أي حال من الأحوال الوصول إلى الأصل نفسه».

وهو كلام في منتهى الأهمية من أكبر مرجع مسيحي، وهو يمثل الفاتيكان ومجلس الكنائس العالمي، وينسف هذا الكلام العقائد التي كانت سائدة لدى النصارى حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وربما للقرن العشرين والواحد والعشرين لدى كثير من العامة، وهو أن الكتاب المقدّس (العهد القديم والعهد الجديد) كتبه أُناس عديديون يوجههم روح القُدس، وبالتالي كانت لهذه الكتب عصمة عدم الوقوع في الخطأ!.. فلما تبيّن لهم كثرة الأخطاء العلمية والتاريخية والجغرافية تحولوا إلى القول: بأن الذين كتبوا العهد القديم والعهد الجديد بشر عاديون، ولا بد أن تظهر ثقافة عصرهم، فأيّ كتاب كتب في تلك العصور لا بد أن يحتوي على أخطاء علمية وتاريخية وجغرافية، ويحتوي على كمٍّ هائل من الأساطير، ولكن القيمة الحقيقية لهذه الكتب: أنها تحتوي على تعاليم روحية وأخلاقية عالية، هي التي أراد الله أن تصل إلينا، ولهذا وجَّه الروح القدس الكُتَّابَ الكثيرين إلى هذه المعاني السامية.

ويقول مؤلفو كتاب (**أسطورة تجسد الإلٰه**)، وهم مجموعة من أساتذة علم اللاهوت في أربع جامعات بريطانية: «لقد اتضح لمؤلفي هذا الكتاب، كما اتضح لعدد كبير من مسيحي اليوم: أن المسيحية على امتداد تاريخها كانت حركة نامية ومتغيّرة باستمرار... **وفي القرن التاسع عشر قامت المسيحية في الغرب بتعديلين رئيسين في مواجهة التوسُّعات الهامة للمعرفة الإنسانية، فقد قبلت أن الإنسان هو جزء من الطبيعة، وأنه برز ضمن تطور أشكال الحياة على هذه الأرض**[1]، **وقبلت أن الأناجيل كُتبت بأقلام عدة أشخاص في حالات متنوعة، ولا يمكن أن يُضفى على كلماتها عصمة الأمر الإلٰهي**».

---

(١) هذا قبول واضح لنظرية دارون التي حاربتها الكنيسة.

وتتحدث (**دائرة المعارف البريطانية**)[١] عن الفترة الشفوية لكلٍّ من العهد القديم والعهد الجديد، فتقول: «إن مرور فترة طويلة من الزمان تم فيها انتقال التعاليم والكتب شفويّاً أدّى إلى حذف واختصار وإضافة لتلك التعاليم والكتب عندما جاءت فترة الكتابة والتدوين، ولم تصل إلى فترة التدوين إلا بعد تحويرها وتغييرها تغييراً كبيراً جدّاً. ثم إن المُعضلة ازدادت بعد فترة التدوين التي امتدت إلى عدة قرون.. وكان كلّ كاتب يضيف ما يراه مناسباً!.. ثم إن عمليات النسخ من هذه الكتب أيضاً واجهت عمليات متعددة من التغيير المتعمَّد وغير المتعمد. ذلك أن الناسخ قد يرى أن المادة المكتوبة تؤدي إلى تغيير في العقائد أو تهديد لها فيقوم هو بكتابة ما يظنه الحق والصواب، مقتنعاً بأن روح القدس يوجهه إلى الصواب.. هذا بالإضافة إلى أخطاء النُسّاخ المعروفة في حذف سطر أو كلمة أو تغييرها دون قصد.. وإذا عرفنا أن عملية كتابة العهد القديم تمتد إلى مدى أكثر من ألف عام فإننا ندرك بدون ريب مدى التغيير الذي سيلحق بهذه الكتب في هذه العقود والأزمان المتطاولة».

وتتحدَّث (**دائرة المعارف البريطانية**) عن الترجمة المشهورة بترجمة الملك جيمس، والتي تُعتبر موثوقة ومعترفاً بها، والتي ظهرت في عام (١٦١١م): ثم تتابعت التصويبات والتغييرات، وفي عام (١٨٧٠م) قام مجمع كانتربري الكَنَسي بدراسة طبعة الملك جيمس الموثقة والمعتمدة، فوجد فيها أخطاء كثيرة!.. وقامت لجان من بريطانيا والولايات المتحدة وعملت عملاً دؤوباً، وصدرت طبعة جديدة من العهد الجديد سنة (١٨٨١م)، **وقد قامت هذه اللجان بإحداث ثلاثين ألف تغيير في ترجمة الملك جيمس المعتمدة الموثّقة، وتقول دائرة المعارف البريطانية: «إن خمسة آلاف من هذه التغييرات والتصويبات هامة جدّاً»**[٢].

تَصَوَّرْ ثلاثين ألف تصويب وتغيير في العهد الجديد فقط، وفي كتاب مرَّ بالعديد العديد من التصويبات والتغييرات، وهذا كله في إطار الترجمة المعتمَدة

---

(١) دائرة المعارف البريطانية، الطبعة ١٥، لعام ١٩٨٢م، المايكروبيديا: ٢/ ٨٨٤ ـ ٨٨٥.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٨٩١.

الموثقة المعروفة بترجمة الملك جيمس! فأي توثيق وأي اعتماد يمكن أن يوضع في كتاب يتم تغييره كلّ عشر أو عشرين سنة؟!..

واستمرت التغييرات في عام (١٨٨٥م). وفي عام (١٩٠٠م) قام الأمريكان بإصدار ترجمة جديدة للعهد الجديد، وفي العام التالي نشروا ترجمة أخرى للعهد القديم، واستمرت التغييرات والتي عرفت باسم الترجمة الأميركية القياسية (المعيارية) المنقّحة (The Revised Standard Version)، وظهرت طبعة أخرى عام (١٩٢٨م) تم تغييرها تغييراً رهيباً عام (١٩٣٧م)، ثم واجهت مزيداً من التغيير والتصويبات عام (١٩٤٦م)، ثم عام (١٩٥٢م)، ثم عام (١٩٥٧م)[١]. والأمر مستمر في التغيير كل بضع سنوات:

فهناك الكتاب المقدّس الإنكليزي الجديد (New English Bible).

وهناك الكتاب المقدّس الأمريكي الجديد (New American Bible).

كما أن هناك الكتاب المقدّس (العالمي) الدولي الجديد (New International Bible).

إن المسيحيين الأوائل لم يكونوا يعتقدون أن كتبهم تكوّن عهداً جديداً يتميّز عن العهد القديم[٢]، وكانوا يعتمدون التوراة وكتب الأنبياء كتاباً مقدَّساً.. ثم دخلت في القرن الثاني بعض رسائل بولس، ثم في نهاية القرن الثاني بدأ الاعتراف بالأناجيل؛ وإنْ ظَلَّ الخلاف فيها إلى قرون تالية، حيث بلغ عدد هذه الأناجيل المئات!.. ولم يتم الاتفاق على أربعة منها إلا بعد معارك طاحنة ومرور مئات السنين.

وتقول **(دائرة المعارف الأمريكية)**[٣]: «إن الاختلاف بين هذه الأناجيل

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٨٩٢.

(٢) فردريك جرانت: الأناجيل أصلها ونموها، نقلاً عن أحمد عبد الوهاب: المسيح في مصادر العقائد المسيحية، مكتبة وهبة ـ القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.

(٣) دائرة المعارف الأمريكية، لعام ١٩٥٩م: ١٢/ ٧٣.

الأربعة عظيم لدرجة أنه لو قبلت الأناجيل المتشابهة (مرقس ومتّى ولوقا) باعتبارها صحيحة وموثوقاً بها، فإنّ ما يترتب على ذلك هو عدم صحة إنجيل يوحنّا».

ويقول الباحث المسيحي المشهور **فردريك جرانت** في كتابه: (الأناجيل أصولها ونموها): «إن العهد الجديد كتاب غير متجانس، ذلك أنه شتات مُجمَّع، فهو لا يمثل وجهة نظر واحدة تسوده من أوله إلى آخره، ولكنه في الواقع يمثل وجهات نظر مختلفة. وإن الإنسان لَيستطيع أن يتتبع بدقة ملحوظة الاتجاهات التي سار فيها التفكير المسيحي، كما يتتبع إلى حدٍّ ما التوسع الجغرافي والعددي للكنيسة، وكذلك مراحل التطور لعقيدة الكنيسة وأخلاقياتها وعباداتها وتنظيمها».

وقد ظهرت كتب كثيرة موثّقة وعلمية من الجامعات الأوروبية والأمريكية تعتبر أن بولس هو الذي حرَّف دين المسيح، ومن أهم هذه الكتب كتاب أستاذ تاريخ الأديان في معهد ليوبايك بلندن الأستاذ الدكتور **هيام ماكبي** (Hyam Macciby) وقد صدر الكتاب بعنوان: (صانع الأسطورة بولس واختراع المسيحية Paul and the Invention of Chyistianity) ونشرته دار هاربر بالولايات المتحدة سنة (١٩٨٦م)، وأعيد طبعه مرات بعد ذلك. وهناك كتاب أستاذ تاريخ الأديان في جامعة باريس الأستاذ الدكتور **شارل جيبنير** (المسيحية نشأتها وتطورها) الذي ترجمه الإمام الشيخ عبد الحليم محمود، شيخ الأزهر، رحمه الله، وفيه يقرر: أن بولس كان أول من حرّف دين المسيح وأدخل العقائد الوثنية في المسيحية.

وخلاصة القول: إن بولس هو المؤسس الأول للدين النصراني الموجود حاليّاً، وهو الذي رفع يسوع إلى مرتبة ابن الله، وإن كان أقل من الأب في المنزلة، وهو الذي أوجد عقيدة الصلب والفداء، وأن يسوع ما جاء إلا ليموت على الصليب، ويتألّم ويفتدينا من الخطيئة الأصلية (خطيئة آدم)، فيصير هو الخطيئة، ويتحمل عنّا اللعنة، فيصير هو اللعنة؛ لأنه مكتوب: كل من عُلِّق على خشبة فهو ملعون ـ كما جاء في رسالة بولس إلى أهل غلاطية ـ فالمسيح عند

بولس ملعون!.. وقد تحمَّل عنّا اللعنة ليفتدينا؛ فهو الخروف الذي ذُبح من أجلنا، وهو الذي تحملّ عنّا اللعنة، وننال الخلاص به وعن طريقه، ولا أحد ينال الخلاص إلا بالإيمان به.. وهو الذي أخرج الأنبياء والرسل من آدم إلى يوحنا المعمدان من جهنم؛ حيث كانوا فيها فنزل إليها وأخرجهم منها.. وهو الذي خلّصهم، وهو الذي سيخلّصنا حسب زعمه.

التأثيرات الوثنية في المسيحية:

وهو هذا مصداق ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وهو إعجاز في بابه، فما كان العرب ولا غيرهم يعرفون كيف دخلت الأديان الوثنية وعقائدها إلى النصرانية، وكيف أن عقيدة التثليث والقول: بأن المسيح هو ابن الله، قول قد قاله المصريون القدماء في عبادتهم لأوزيريس (الأب)، وإيزيس (الأم)، وحورس (الابن)، وفي عبادتهم للإله الخالق بتاح، وكلمته توت، وروحه القدس حورس.. وهذا التثليث المصري قديم جداً، وهو الذي عبَّد الطريق للهرمسية السكندرية المؤلفة من العقل الأكبر، ثم الكلمة الخلّاقة ثم الروح القدس.. وقال أفلوطين (وفاته ٢٧٠م) السكندري: بالتثليث، فالله صدر عنه وتولد منه العقل الكلّي (Logos). ومن هذا العقل الكلي انشقت الروح المقدسة (الروح القدس)، والتي يتم بواسطتها خلق الأشياء.. وعن هذا الثالوث يصدر كلّ شيء ومنه يتولد.. وقد تعرَّف أفلوطين في رحلته إلى الهند وفارس على عقائدهم وما فيها من تثليث، فعقيدة سافستري الهندوكية القديمة تقرر ما يلي: «نؤمن بسافستري (أي الشمس) إلٰهاً واحداً ضابطاً لكلِّ ما في السماء والأرض، وخالق السموات والأرض، وبابنه الوحيد (أكنى)؛ أي: النار. نور من نور، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، تجسّد من (فايو)؛

أي: الروح في بطن مايا العذراء.. ونؤمن بفايو الروح المحيي المنبثق من الأب والابن، الذي هو مع الأب، والابن يسجد له ويمجد».

وهذه العقيدة موجودة بنصِّها لدى النصارى في عقيدة مجمع نيقية (٣٢٥م)، ومجمع القسطنطينية سنة (٣٨١م)، ومجمع أفسس سنة (٤٣١م)، ومجمع خلقيدونية سنة (٤٥١م). ونص هذه العقيدة هي: (نؤمن بإلٰه واحد: الله الأب كلي القدرة، خالق كل شيء ما يُرى وما لا يُرى. ونؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن الله، المولود من الأب، إلٰه من إلٰه، نور من نور، إلٰه حق من إلٰه حق. مولود غير مخلوق، من ذات الجوهر مثل الأب، به خلق الكلَّ ما في السمٰوات وما في الأرض، الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل وتجسَّد وعاش بين الناس، الذي تألَّم، وفي اليوم الثالث قام وصعد إلى السماء، ويأتي ليدين الأحياء والأموات. ونؤمن بروح القدس الربِّ المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن مسجود له وممجد). وأضافوا إليها مقدمة (مجمع أفسس سنة ٤٣١م)، ونصها: (نعظّمك يا أم النور الحقيقي، ونمجّدك أيتها العذراء المقدّسة، والدة الإلٰه، لأنك ولدت لنا مخلص العالم، أتى وخلَّص نفوسنا.. المجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح فخر الرسل، إكليل الشهداء، تهليل الصديقين، ثبات الكنائس، غفران الخطايا، نبشِّر بالثالوث المقدّس لاهوت واحد، نسجد له ونمجده، يا رب ارحم، يا رب بارك. آمين).

ونرى أن العقيدتين الهندية والمسيحية متماثلتان!.. ولدى الهنود ثالوث آخر هو (براهما) الإلٰه الخالق، و(فشنو) الإلٰه الحافظ المدبّر، و(سيڤا) الإلٰه المهلك، والثلاثة صور وأقانيم لحقيقة واحدة ورب واحد وإلٰه واحد هو (بارميشوار)، أي: الإلٰه الأكبر أو الإلٰه الأم، ولديهم أيضاً المثلث (أغني) إلٰه النار.

ولدى الفرس تثليث مشابه: فالإلٰه الأكبر هو ميثرا الإلٰه الشمس، ويحيط به كوتيس وكوتوباتيس حاملاً المشاعل. وكلهم آلهة نور من نور.

وفي بابل القديمة آلهة مثلثة هي: أنو، وبل؛ وأيا: فالأب هو (أيا) وهو

رمز المعرفة، و(بل) هو الابن ويمثل الخلق والنشاط العملي، و(أنو) هي الروح القدس.

ولدى بابل آلهة مثلثة أخرى هي: سن (القمر)، وأداد (العاصفة)، والأب (أنو)، ولديهم أيضاً الشمش (الشمس)، وسن (القمر)، وعشتار (وهي نجمة الزهرة وعند اليونان والرومان هي ڤينوس). وهذا التثليث الأخير موجود أيضاً في اليمن منذ عهد سبأ في القرن العاشر قبل الميلاد.

ويقول العالم النفسي الشهير **كارل يونج** في كتابه **(علم النفس والأديان الغربية)**: «إن جذور المسيحية والتثليث تعود إلى الأديان الوثنية القديمة في بابل ومصر وفارس والهند واليونان».

ويقول الباحث الديني المشهور **لو كليرك**: «طبعاً استعار المسيحيون المؤمنون من هنا وهناك بعض التفاصيل الوثنية أنَّى وجدوها».

ويقول **الأب دولا هاي**: «إن الطبيعة البشرية التي تتصرف وفقاً لمشاعرها الدينية كافية لتفسير تشابه الشعائر المسيحية وشعائر عبادة ميثرا الفارسية».

ويقول **أندريه نايتون** في كتابه **(المفاتيح الوثنية للمسيحية)**: «إن الكنيسة ابتلعت بعض العناصر الوثنية، ولكنها أضفتْ عليها طابعها الخاص، وذلك لاستقطاب ما يمكن استقطابه من عبدة الأصنام، وهذا ما أدى إلى دخول عناصر وثنية جديدة على المسيحية؛ غير أن هذه السياسة كانت خطيرة جدّاً... وكانت وراء ظهور حركة الإصلاح البروتستانتي في آخر المطاف».

ويقول: «لماذا لا نعود إلى النصوص الوثنية القديمة ونصوص المسيحيين الأوائل مثل القديس جستين الذي يعترف بوجود أفكار جوهرية متشابهة بين المسيحية والوثنية؟ واعترف القديس جستين بتشابه طقوس القربان المقدّس في المسيحية وفي الأديان الوثنية، كما أن كليمان السكندري قارن بين الأسرار المسيحية والأسرار الوثنية. وأكد التشابه بينهما».

ويقول العالم النفسي الشهير **كارل يونج** في كتابه **(علم النفس والأديان**

الغربية): «إن التثليث ليس فكرة مسيحية، وإنما جاءت من الأديان الوثنية القديمة. . إن آباء الكنيسة لم يشعروا بالراحة إلى أن أعادوا بناء عمارة التثليث على غرار نموذجها المصري الأصيل».

«وتوضح الوثنيات القديمة أن الابن (أي ابن الله) ينزل من عالم النور إلى عالم الظلمة، عالم الإنسان والشر، ووظيفة الابن الإلٰه المتجسد في صورة بشرية أن يقدم نفسه ضحية من أجل أن يخلّص العالم من الشرِّ والأذى. وهذا التصور موجود لدى الفرس، فجيومارت هو ابن إلٰه كان النموذج الأصلي الذي تبنَّتْه المسيحية فيما بعد.

ويتحدّث العلاّمة **شارل جينيبر** في كتابه (**المسيحية نشأتها وتطورها**) عن فكرة الإلٰه الذي ينزل من السماء إلى الأرض بصورة بشرية، ويتعذب ثم يرتفع لينقذ ويخلص أتباعه فيقول: «إن هذه الآلهة تموت في موعد معين من السنة ثم يبعثون في موسم آخر، فيشعلون في نفوس المؤمنين بهم مشاعر الأسى العميق، ثم يستثيرون لديهم مظاهر الفرح التي تكاد تصل حدَّ الجنون بعودتهم وبعثهم مرة أخرى.

وهذه الآلهة مرتبطة بالشمس أو بالمواسم الزراعية: فميثرا كان إلٰهاً شمسياً، ولذا احتفل بمولده في (٢٥ ديسمبر)، وهو موعد الانقلاب الشمسي. وكان الإمبراطور قسطنطين ـ باعتباره عابداً للشمس ـ يحتفل به. واضطر رجال الكنيسة أن يجاملوا قسطنطين فحولوا ميلاد المسيح إلى هذا العيد الوثني وجعلوا الاحتفال بعيد الميلاد يوم (٢٥ ديسمبر).

أما تموز فهو من آلهة الزراعة؛ حيث يموت في شدة القيظ وتحييه أول نسمات الربيع، وهكذا الحال بالنسبة لأدونيس! . . وأغلب الآلهة يموتون ثم يبعثون، وتتمثل الأرض الخصبة بالأم، فعلى سبيل المثال نجد الأم الكبرى (سيبيل) في أسطورة أتيس، وأفروديت بالنسبة لأدونيس. . وقد جمع الناس في العبادة بين هاته الأرباب وهاتيك الشخصيات الإلٰهية النسائية.

وتتماثل قصة موت الإلٰه وبعثته في الديانات الوثنية بما هو موجود في

المسيحية التي تشرّبت منها ذلك؛ فالإله يتعذّب أولاً كما يتعذّب الإنسان، ثم يموت كما يموت الإنسان، ولكنه يتغلب على الموت ويبعث من جديد في مجده وقوته كإله!.. ويقوم الأتباع والمؤمنون بهذه العقيدة بتجديد الاحتفال بموت إلههم وبعثته في كل عام في الموعد المحدد (غالباً ما يكون في بداية الربيع).. وهذا ما يتم بالفعل في الاحتفالات المسيحية المعروفة بعيد الفصح (إيستر)؛ حيث يزعمون أن يسوع صُلب يوم الجمعة وقام يوم الأحد واجتمع بالحواريين والأتباع، ثم ارتفع إلى السماء ليجلس عن يمين الأب يحكم على الأحياء والأموات ويدين الكلّ.

وتتماثل طقوس موت الإله ثم بعثه في الأديان الوثنية والدين المسيحي؛ فأتيس وأدونيس وأوزريس وسيبيل كلّها تتحول إلى آلهة بعد أن تعذّبت في صورة بشرية ثم ماتت، ولكن قيامها بعد الموت يشكّل لحظة الانتصار على الموت والآلام والخطايا. وتتكامل الصورة باتحاد المؤمنين بهذا الإله عبر أكل لحمه؛ وهو ما يعبّر عنه في العشاء الرباني أو القربان المقدّس أو الأفخارستيا حيث يقدّمون الخبز على أساس أنه لحم المسيح (الرب الإله)، وشرب دمه (وهو النبيذ الذي يقدّمه الكاهن للأتباع على اعتبار أنه يتحول عبر طقوس الأفخارستيا (Eucharist) إلى دم المسيح حقيقة).

وعند الوثنيين يقومون بذبح ثور خاص ينهمر فيه دم الثور على المؤمنين الذين يتم تعميدهم بدم الثور الذي يتقمّص فيه الإله، ويتجسّد فيه الربّ، حسب زعمهم في تلك اللحظة، ليجعل للمؤمنين به حظّاً في الاتحاد به!.. وينزل المؤمن إلى الحفرة (تمثل الهاوية والموت الذي نزل بالإله حسب زعمهم) التي يتساقط إليها دم الثور... والثور هنا هو الإله أتيس.. أما دماؤه فتمثل جوهر حياته الإلهية، ويتلقى المؤمن هذا الدم ويتشرّبه ويمتزج به حتى إذا خرج من الحفرة اعتُبِرَ مولوداً جديداً، فيُسقى اللبن كما يُسقى المولود، ويخرج وقد تطهّر من الآثام كما يخرج الطفل من بطن أمه ملوّثاً بدماء النفاس، ومع ذلك فقد تشرَّب جسمه وروحه بالإله، فأصبحت له السعادة الروحية الإلهية، وعليه بعد

ذلك أن يتّحد مع الآلهة سيبيل كما فعل آتيس، ويتقرب إليها بتقديم الأعضاء التناسلية للثور لها.. وهو أمر يرمز إلى الزواج الذي يتم روحيّاً في حجرة العرس الخاصة بالأم الكبرى.

وتتم الاحتفالات مع هذه الآلهة آتيس، وميثرا الفارسي، وبعل السوري، وأزوريس المصري في طقوس معقدة، ومآدب ضخمة، حيث يتناول المؤمنون الطعام والشراب على موائد الإلٰه المعبود بحيث يتاح لكافة المؤمنين الامتزاج بدم الإلٰه ولحمه والاتحاد به لينالوا السعادة الأبدية.

وهذه الطقوس مع بعض التحوير نراها في المسيحية في احتفالات عيد الفصح (إيستر) المرتبطة بالقربان، والتي أدخلها بولس إلى المسيحية، وبذلك أبعد النصرانية الحقة عن التوحيد، وأدخلها في طقوس وثنية معقدة ومقززة». انتهى كلام **الدكتور شارل جينيبر** أستاذ تاريخ الأديان في جامعة باريس في كتابه **(المسيحية نشأتها وتطورها)**.

العقائد المسيحية والقربان:

لقد ناقشنا فيما سبق عقيدة التثليث، وكيف أنها عقيدة وثنية استعارها آباء الكنيسة من الأمم الوثنية.. وكان لبولس (St. Paul) في ذلك الدور الأكبر، وهو الدور المؤسس، وهو الذي جاء بقصة الصلب والفداء، وأن يسوع مات على الصليب ليفتدينا وتكفيراً عن خطيئة آدم بأكله من شجرة المعرفة.. وطلب المعرفة عندهم جريمة لا يكفّرها إلا أن ينزل الله من عليائه في صورة ابنه الحبيب يسوع المسيح الممجد عن طريق الكلمة ليصبح جنيناً في بطن امرأة هي مريم العذراء، ثم تلده مثلما تلد بقية الأطفال أي امرأة في العالم، منذ حواء إلى يوم الدين.

ولا تتحدث المصادر المسيحية عن معجزات يسوع عليه السلام في مهده وطفولته، ولا توجد لها أية إشارة في الأناجيل والرسائل الموجودة في كتاب العهد الجديد (لعلّها توجد في كتاب إنجيل الطفولة؛ وهو من الأناجيل الممنوعة والمرفوضة، ولست أدري إن كانت منه بقايا موجودة في المكتبات العالمية؟).

ويذهب يسوع وأمه وزوجها يوسف النجار (العائلة المقدّسة) بتوجيه من الله

إلى مصر فراراً من بطش الملِك هيرودوت، وتبقى العائلة المقدّسة في مصر عشر سنوات، ثم تعود هذه العائلة إلى فلسطين، ويظهر من الصبي اهتمام بالهيكل وبمناقشة الأحبار في دينهم. ثم في سنِّ الثالثة والثلاثين يبدأ رسالته بعد أن سبقه يوحنا المعمدان الذي بشَّر به. ولكن المصادر المسيحية تقول: إن يسوع نفسه لم يكن يعلم أنه إلٰه، بل كان يتحدّث عن نفسه باسم ابن الإنسان، ولم تظهر له الحقيقة إلا في عيد الفصح ـ وبدأ يدرك أنه سيصلب، وأن دمه سيسفك من أجل خطايا الإنسان.. ولم يدرك التلاميذ (الحواريون) مرامي كلامه وكان فهمهم بطيئاً.. وكان يدعو بحرارة أن يجيز الآب عنه هذه المحنة، ولكن الآب لم يسمع دعاءه وتمَّ صلبه مع لص وقاطع طريق!..

وكان هذا الصلب وهذا الفداء هو لبّ المسيحية التي جاء بها بولس الذي لم يشاهد المسيح في الحياة، وإنما شاهده حسب زعمه بعد رفعه إلى السماء في طريق دمشق عندما ذهب بولس لاضطهاد أتباع المسيح!.. ومنذ تلك اللحظة تحوّل بولس إلى راعي المسيحية التي لم يفهمها الحواريون بما فيهم بطرس (الصخرة Peter)، والذين أنكروا على بولس أقواله وحاربوه واتهموه بأنه لا يحترم الشريعة، ويجدّف.. ولكن بولس استطاع أن ينجو منهم بسبب أكاذيبه وألاعيبه، واعتبر نفسه الممثل ليسوع الممجد الذي صُلب وصار على يمين الله الآب، بينما الحواريون يمثّلون يسوع ابن الإنسان الذي كان بالجسد.. ويقول عن نفسه: إنه أكمل نقائص المسيح، ففي رسالته إلى أهل كولوسي (١/ ٢٢ ـ ٢٨) يقول: «الذي الآن أفرح في آلامي لأجلكم، **وأكمّل نقائص شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة، التي صرتُ أنا خادماً لها حسب تدبير الله المعطي لي لأجلكم، لتتميم كلمة الله. السرُّ المكتوم منذ الدهور ومنذ الأجيال، لكنه الآن قد أظهر لقديسيه». وهكذا يزعم بولس أنه هو الذي جاء بدين يسوع الحق، وأن الآخرين كما يقول عنهم في رسالته إلى أهل تيطس (الإصحاح الأول): «إنهم دائماً كذّابون، وحوش رديئة باطلة» ويطلب من أتباعه أن لا يصغوا إلى خرافات اليهود المتنصّرين (أي الحواريين) الذين اشتدوا على**

بولس لإنكاره الشريعة، ولرفعه يسوع إلى مقام الإلٰه وإعلانه عقيدة الإلٰه الذي نزل وتعذّب في صورة بشر، ثم قام (وهي عقيدة وثنية كما أسلفنا وأوضحنا).. ولكن بولس بانطلاقه بين الأمم الوثنية، وإباحته لهم أكل الدم والميتة والخنزير وكلّ نجس، وإباحته لهم بعدم الختان، كما أباح لهم كثيراً من عقائدهم الوثنية، وربطها بيسوع الممجّد، استطاع أن يكسب الأعداد الكبيرة من الوثنيين إلى صفِّه، وأن يجمع منهم الأموال الضخمة حتى أصبح قوة تهدّد الحواريين أنفسهم في أورشليم.

وازداد تيار تأليه يسوع قوة بينما ضعف تيار الموحّدين، والذين يرون يسوع بشراً ورسولاً كريماً من رسل الله.. وبذلك تمّ تحويل هذه العقيدة التوحيدية الصافية إلى عقيدة متأثِّرة إلى أبعد الحدود بالوثنيات المنتشرة في اليونان وسوريا ومصر وفارس... إلخ، وعبادة الإلٰه البشر الذي يموت ثم يبعث من جديد، ويبعث في أتباعه روح الحياة.. (عقائد الآلهة: أتيس، وميثرا، الفارسي، وبعل السوري، وساندان إلٰه الخصب، وأوزريس المصري، وأدونيس... إلخ).

طقوس القربان المقدّس العشاء الأخير، الأفخارستيا (Euchorist):

لا شك أن فكرة أكل الإلٰه، وشرب دمه، فكرة وثنية لم يقُل بها عيسى ﷺ، بل أتى بها بولس، وتبعه فيها كُتَّاب الأناجيل الذين جاؤوا بعده.. وسننقل فيما يلي ما جاء عن القربان المقدّس بأقلام الباحثين من النصارى أنفسهم في كتاب **(بولس وتحريف المسيحية) لهيام ماكبي**[1].

اتحاد المؤمن مع الإلٰه في الأفخارستيا (القربان المقدّس، العشاء الرباني):

يعني القربان المقدّس اتحاد المؤمن مع الألوهية، وذلك بأكل جسد المسيح وشرب دمه، وهذا يعني تأليه عيسى!.. ومن المستحيل أن يتفق هذا التأليه مع الرأي القائل: بأن عيسى كان المسيح الذي ينتظره اليهود.

(١) كتاب (بولس وتحريف المسيحية)، هيام ماكبي، ترجمة سميرة عزمي الزين، ص ٤٧ وما بعدها.

إن القربان المقدّس لا يعني الاشتراك في الألوهية وحسب، بل يعني أيضاً معنى (التضحية) بكائن سماوي وهو الإلٰه أو ابن الإلٰه؛ وهو هنا يسوع الناصري، لافتداء الإنسانية!.. إن المسيحي يشترك في جسد المسيح كما كان اليهود يأكلون لحم الخروف في الفصح.. ولقد شبّه بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس الأولى (٥/ ٧) المسيح بالخروف، حين قال: لأن فصحنا أيضاً المسيح قد ذبح لأجلنا... وكثيراً ما يرد في الإنجيل أو رسائل بولس الحديث عن يسوع الناصري باسم الخروف.

ومثل هذا المفهوم لموت عيسى لا ينسجم مع التراث النبوي اليهودي؛ لأنه يُعيد الاعتبار للتضحية بالبشر التي نددت بها أسفار العهد القديم.. وكانت التوراة تعتبر التضحية بالحيوان هي البديل الكامل والإلغاء التام للتضحية بالبشر.. وهذا معروف في قصة إبراهيم وابنه الذي أراد أن يضحي به فأبدله الملاك بالخروف.

إن القربان المقدّس يعني: أن الخلاص هو موت المسيح وسفك دمه، وفي ذلك عودة إلى الوثنيات القديمة ومجانبة تامة لما في العهد القديم من تعاليم، وقد قال المسيح: ما جئت لأنقض الناموس.

وتزعم الأناجيل أن يسوع هو الذي أسس القربان، وقد جاء في إنجيل متّى ولوقا وإنجيل مرقس (١/ ٢٢ ـ ٢٤): «وقال: خذوا كلوا، هذا هو جسدي. ثم أخذ الكأس وشكر وأعطاهم فشربوا كلّهم. وقال لهم: هذا هو دمي للعهد الجديد الذي يُسفك من أجل كثيرين». وفي إنجيل يوحنا (٦/ ٥٣ ـ ٥٨) أشدّ من ذلك.

وقد أدى هذا الكلام الغريب إلى أن يتراجع كثير من الأتباع، فقد جاء في إنجيل يوحنا (٦/ ٦٦): «ومن هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه». وقد جاء في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (١١/ ٢٣ ـ ٣٠) تفصيل القربان المقدّس. وبما أن بولس عاش قبل كُتَّاب الأناجيل وكان لوقا أحد تلاميذه وأتباعه، فإن قصة القربان والعشاء الأخير اخترعها بولس

ونقلها عنه كُتَّاب الأناجيل الذين جاؤوا بعده. (كُتبت الأناجيل فيما بين عام ٧٠ و١٢٠ بعد الميلاد، بينما كتبت رسائل بولس فيما بين ٥٠ و٦٠ بعد الميلاد).

وكان بولس يدّعي أنه لا يتكلّم إلا بما يخبره به المسيح عن طريق الوحي: «لأنني تسلّمت من الرب ما سلمتكم»؛ ولهذا فقد اهتمَّ الدارسون المسيحيون بمسألة تلقي بولس الوحي من المسيح، وأدى ذلك إلى خلافات عديدة بينهم، فالقول: بأن بولس هو الذي افترى واخترع القربان المقدّس يعني: أنه هو الذي أسس هذه المسيحية، لا عيسى، أي: أن السرَّ الجوهري للمسيحية ـ وهو ما يميّزها عن الديانات السماوية ـ لم يأتِ به عيسى.. وإن اشتراك المؤمن في جسد المسيح الديني ـ وذلك بالتهام جسد الإله ـ لم يقل به يسوع.. ولو علم بذلك عندما كان حيّاً لاعتبره مفهوماً مُقرفاً مقززاً، وهو مفهوم موجود لدى كثير من الديانات الوثنية السابقة والمعاصرة للمسيح.

إن الدراسة التاريخية للكنيسة المسيحية الأولى، وهي كنيسة القدس التي أسسها يعقوب العادل وبطرس، تقول: إنها لم تمارس طقوس القربان المقدّس. ولو صحَّ أن يسوع هو الذي أسّس القربان لكانت كنيسة القدس أول من طبّق هذا القربان لأنهم هم قد حضروا العشاء الأخير.

وهذا لا يعني أن يسوع لم يوزّع الخبز والنبيذ على تلامذته في العشاء الأخير، لقد كان ذلك طبيعيّاً، وكانت تلك عادة اليهود وخاصة في الأعياد عندما ينهض كبيرهم على المائدة فيحمد الله ثم يكسر الخبز ويعطي قطعة منه لكل مدعو، وفي نهاية المأدبة يحمد الله مرة ثانية ويرفع كأس النبيذ، وتنتقل الكأس من واحد لآخر، وذلك كلّه شكراً لله على ما أنعم.. ولكن ذلك لا يعني أبداً تحوّل الخبز إلى جسد، والنبيذ إلى دم، وهذا هو افتراء بولس الذي حوّله إلى طقس وثني.

وبما أن فكرة شرب الدم مُحرَّمة ومقزِّزة لدى اليهود؛ فإنّ القول: بأن النبيذ دم يسوع هو في حدِّ ذاته فكرة مقزِّزة ومقرفة للمستمعين اليهود سواء كانوا من أتباع يسوع وأنصاره أم من أعدائه.

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن عبارة بولس (عشاء الرب) وهي العبارة التي استعملها للقربان المقدّس كانت شائعة جدّاً في الديانات الوثنية والباطنية. وقد أحرجت عبارة عشاء الرب آباء الكنيسة الأوائل وأزعجتهم، مما اضطرّهم لاستبدالها بعبارة (القربان المقدس).

وكان المؤمنون بهذا الطقس من أتباع بولس، ومن جاء بعدهم، يعتقدون أن الخبز والخمر يتحوَّلان إلى جسد المسيح ودمه بطريقة سحرية معجزة في كلِّ مرة يمارسون فيه هذا الطقس الغرائبي.. ولهذا قال لهم بولس: «ولكن ليمتحن الإنسان نفسه. هكذا يأكل الخبز ويشرب من الكأس؛ لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميِّز جسد الرب» الرسالة الأولى لأهل كورنثوس (٦/٢٨ ـ ٢٩).

ولقد سبق للمؤرِّخ **هانس ليتزمان** أن برهن على أن أتباع عيسى في كنيسة القدس الأولى التي أسسها يعقوب العادل وبطرس، وهما اللذان كانا مع المسيح ومن أخصِّ حوارييه لم يقوما قط بممارسة طقوس القربان المقدّس.. ولم يكن الحواريون يرون أبداً أنهم يأكلون لحم يسوع ولا يشربون دمه عندما كانوا يقتسمون الخبز ويشربون من كأس واحدة، بل كان ذلك أمراً مشتركاً ومشاعاً بينهم منذ عهد آبائهم، واستمر في عهد يسوع وبعده دون أن يكون له أيّ معنى من معاني التجسُّد.

إن بولس هو الذي أسس القربان المقدّس وأضاف عليه بأنه رأى المسيح (في الرؤيا) في العشاء الأخير يعطي التعليمات والتفصيلات لهذا الطقس السري. ولقد أضيفت رؤيا بولس بعد ذلك إلى الأناجيل فاعتبرتها الأغلبية الساحقة من مؤرِّخي العهد الجديد حقيقة واقعة، أما تلامذة عيسى الذين أسسوا كنيسة القدس فإنهم لم يمارسوا أبداً هذا الطقس المُقَزِّز.

ويتحدّث أندريه نايتون[1] عن القربان (الأفخارستيا) فيقول:

«من بين الآثار الفارسية (موجود في متحف اللوفر بباريس) تمثال لأتباع الإلٰه ميثرا يتناولون فيه الخمر والخبز، يرمزون بذلك إلى لحم معبودهم ميثرا ودمه (وهو ما يقوله المسيحيون عن سرِّ القربان Eucharist حيث يتحوّل الخبز إلى لحم المسيح والنبيذ إلى دمه).

وتدل رسائل بولس على أن هذا الطقس قد أُقيم على أساس مادي حتى يتماشى مع الطقوس الوثنية القديمة.

لقد كان لكلٍّ قبيلة طوطمها الحيواني الذي تعبده، وكان أفراد القبيلة يضحُّون أحياناً بهذا الإلٰه الحيواني ويلتهمون لحمه (نيّئاً) ودمه اعتقاداً منهم بأن ذلك يُكسبهم فضائل سماوية، كما تعتقد المسيحية الحالية أن التهام لحم المسيح ودمه المتمثل في الخبز والنبيذ فيما يسمّى القربان المقدّس (Eucharist) سيُكسب المؤمنين فضائل غير بشرية خالدة، ويؤكّده لهم قول المسيح حسبما جاء في (إنجيل يوحنا: ٦/ ٤٧ ـ ٥١): «الحق أقول لكم: من يؤمن بي فله حياة أبدية... أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم».

ويقول معظم علماء الأديان: إن أكل اللحم النيئ وشرب الخمر في أسرار قربان ديو نيزوس لم يكن رمزاً روحيّاً بل مناولة حقيقية. يقول الكاتب أرنوب في كتابه (ضد الوثنيين): إن هؤلاء حين كانوا يتناولون اللحم النيئ إنما يعتقدون أنهم يمتلئون بالفضيلة الإلٰهية.

ويقول الأب لاجرانج في كتابه عن أورفيوس: «إن أكل اللحم النيئ كان يهدف إلى التوغل في الحياة الإلٰهية، وذلك بالتهام الحيوان الإلٰهي لحماً ودماً».

ويقول فرانز كومون: إن نبيذ القربان المسيحي هو بديل للنبيذ الذي كان

---

(١) أندريه نايتون: الرموز الوثنية للديانة المسيحية، اختصرته وترجمته سميرة عزمي الزين، بعنوان: الأصول الوثنية للمسيحية، ص ٦١.

يُقدَّم في أعياد باخوس، وإنه شراب يضمن الخلود في العالم الآخر (وهو أحد رموز طقوس الدفن عند الرومان). ويقول العالم الفرنسي شارل غينيبير في كتابه عن المسيح (ص ٣٧٣): إن علماء الآثار المصرية وجدوا نصوصاً على ورق البردي تدل على أن دم الإله أوزيريس كان يتحول إلى الخمر، والعكس صحيح أيضاً.

وهذه العقائد أيضاً موجودة لدى أتباع الأديان الشرقية القديمة، ومنها عبادة الآلهة آثار غاتيس السورية»[١].

القربان المقدّس كما يصفه كارل يونج العالم النفسي الشهير[٢]:

لقد وصف القربان المقدّس في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (١١/ ٢٣) وإنجيل يوحنا (١/١٥ ـ ٥) العشاء الأخير.

وإننا لا نجد في تاريخ المسيحية إقامة لشعيرة القربان المقدّس إلا بعد العام (١٥٠ بعد الميلاد). والواقع أن القدّاس هو القربان الوثني المقدّس بعد أن أضيف إليه كثير من الطقوس المعقدة.

طقوس تمهيدية ← تقدمة القربان ← التكريس ← المناولة ← الختام.

وكلمة القربان موجودة في العهد القديم وفي التوراة لدى اليهود، وهي في الأصل كلمة عبرية، وعندما تمَّت ترجمة التوراة إلى اليونانية وضاعت التوراة العبرية بقيت كلمة القربان، وظنّها كثير من الكتّاب أنها يونانية الأصل، (وهي تستخدم أيضاً في اللغة العربية، وهو تقريب الضحية لله، أو الذبح لله، وكان القربان المقبول عند اليهود أن تأتي نار من السماء فتأكله، وغير المقبول يبقى

(١) أندريه نايتون: المفاتيح الوثنية للمسيحية، ترجمته باختصار سميرة عزمي الزين، بعنوان: الأصول الوثنية للمسيحية، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، بيروت، ١٩٩١م، ص ٦١ ـ ٦٤.

(٢) كتاب كارل يونج: علم النفس والأديان الغربية، والذي نقلت منه سميرة عزمي في كتاب: الأصول الوثنية للمسيحية، فصل تحولات الرموز في القدّاس، ص ١٢٣ ـ ١٤٧.

مكانه، فلهذا دخلت كلمة المحرقة أيضاً في المعاني المرتبطة بالقربان)... وأما عند الأمم الوثنية فكانت الضحية تقدّم للأوثان وتشوى لها!.. وكان دخان الشواء يرضي الآلهة، ولحم الشواء يُرضي الكهنة.. وفي مرحلة لاحقة صار الوثنيون يؤمنون بأن هذا الدخان هو الشكل الروحاني للقربان.. وفي التوراة وأسفار العهد القديم يُسَرُّ (يهوا) [الله] جدّاً برائحة الشواء المقدَّم له في القربان.. ويقوم بإعطاء من يقدّم له القربان جميع طلباته ـ وخاصة إذا كانت من كبير اللاويين والكهنة ـ ويعطيهم أرضاً تفيض لبناً وعسلاً ويمنحهم أرض الكنعانيين... إلخ.

والقدّاس المسيحي يعني: أن الخبز المقدّم في القربان يتحوّل إلى لحم المسيح، والنبيذ المقدّم في آخره هو دم المسيح.

ويعتبرون ملكي صادق، الملك الكاهن اليبوسي الذي استقبل إبراهيم عليه السلام عند قدومه القدس، وباركه؛ هو الكاهن الأعلى الذي يتم على يديه تقديم القربان. ولهذا جاء في رسالة بولس إلى العبرانيين (٧/ ١٧): «لأنه يشهد أنك كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق». وقال عنه بولس: «إنه بلا أب ولا أم، بلا نسب، لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة، بل هو شُبِّه بابن الله، هذا يبقى كاهناً إلى الأبد». (رسالة بولس إلى العبرانيين: ٧/ ٣). وواضح أن شخصية ملكي صادق صارت عند بولس تمهيداً لشخصية المسيح التي صارت تجسيداً للكلمة.

إن فكرة الرهبنة والقربان المقدّم لله يشير إلى تحوّل جوهر الأشياء وتغيرها، وهذا ما يشكّل العنصر الثالث في القدّاس.. وهو السرّ الحق المتمثِّل في أبدية الرهبنة، أو الكاهن الخالد على غرار ما فعله ملكي صادق، وعلى غرار التضحية التي يقدّمها لله باستمرار.

إن شعائر القدّاس تمضي بهذه الأشياء مرحلة مرحلة إلى أن تصل إلى الذروة في التكريس؛ حين يعتقد الكاهن والمصلّون أن المسيح نفسه بدأ يتكلّم على لسان الكاهن، في تلك اللحظة يعتبر المسيح حاضراً في الزمان والمكان.

الطقــوس:

١ ـ رفع الخبز:

يرفع الكاهن خبز القربان نحو الصليب المعلَّق فوق المذبح، ويرسم شارة الصليب على طبق القربان، وبذلك يدخل الخبز في علاقة مع المسيح ومع موته على الصليب؛ حيث يتحوّل الخبز إلى ذبيحة أو قربان!! وبالتالي يصبح مقدّساً.

٢ ـ تحضير كأس القربان:

للخمر عند شاربيها بُعْدٌ روحاني[1]، خاصة وأنها مخصصة للكاهن عند الرومان.. ويضاف قليل من الماء إلى الخمرة؛ حيث إن الماء هو الوجه الطبيعي أو المادي، والمزج عند الكنيسة الكاثوليكية يشير إلى الطبيعة المزدوجة للمسيح من الروح والجسد.. ويقول مطران قرطاجنة عام (٢٥٨م) في تفسيره لهذه الظاهرة: إن الخمرة تعني: المسيح، بينما الماء يعني: المسيحيين. ولا بد من مباركة الماء قبل مزجه بالخمر، لأن المسيحي يؤمن بضرورة تطهير جسده قبل امتزاجه مع المسيح، ولذا لا تمزج الخمرة إلا بماء طهور تمّت مباركته من قبل الكاهن، لأن المسيح لا يتحّد إلا مع المصلّين الأطهار!!.

وبعد صلب المسيح جاء واحد من العسكر وطعن جنبه بحربة، وللوقت خرج دم وماء (إنجيل يوحنا: ١٩/ ٣٢ ـ ٣٤). ويقول بطريرك القسطنطينية عام (٤٠٧ بعد الميلاد): إن المسيح عندما كان يشرب الخمر إنما كان يشرب (ماء نفسه).

٣ ـ إعلاء الكأس:

يرفع الكاهن كأس الخمرة إلى أعلى لكي تصير الخمر روحانية تماماً، ويدخل روح القدس ويحوّل الخمر إلى روح ويسكنها، ثم توضع الكأس على

(١) تسمّى الخمور (المشروبات الروحية) بناءً على وهم أنها تُنعش الروح.. وهو وهم باطل!.

يمين الخبز المقدّس، ويفسّر الكاهن ذلك بأن دم المسيح تدفّق من الجانب الأيمن من جسده عندما طعنه الجندي الروماني.

٤ ـ التبخير:

ويرسم الكاهن علامة الصليب ثلاث مرات فوق الخبز والنبيذ مستخدماً المبخرة، بعد ذلك يبخّر الكاهن المذبح؛ وعملية التبخير ترمز عندهم لعملية التطهير وطرد الشياطين وجميع الأرواح الشريرة، ويرفع البخور الصلاة إلى السماء.

وبذلك يعتقد الكاهن والمصلّون أن الهدايا التي قدّموها للرب صارت مطهَّرة بعد أن خرجت من طبيعتها الأصلية وتحولت، وهم أيضاً قد تطهّروا بهذه الطقوس وصاروا جاهزين للاتحاد مع المسيح.. وتقول الصلاة: «مبارك الذي يجيء باسم الرب... تعالَ أيّها الرب المسيح، أيّها الكاهن الأسمى، تعال واظهر بين أتباعك».. ويعتقد هؤلاء (المجانين): أن المسيح يظهر فعلاً بقوة هذه الطقوس، وهذه هي ذروة القدّاس.

٥ ـ التكريس:

ويتحوّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه فعلاً، ويتكلّم المسيح مباشرة على لسان الكاهن، ويقول يوحنا الدمشقي: «إن للكلام معنًى مقدّساً مهما كان الراهب أو الإنسان الذي يقوله.. إنه حين يلفظ هذا الكلام إنما يجعل المسيح نفسه يتكلّم». وأعلن مجمع ترانت (١٥٤٢ ـ ١٥٦٣م): أن المسيح نفسه يكون حاضراً في الخبز والخمر والمطهّرين، وفي القرن السادس عشر تبنّت الكنيسة الكاثوليكية أقوال أسقف مدينة ليون كمويستا، ومفادها: «أن المسيح يُذبح على يد الراهب كلّ مرة». ولهذا يستلُّ الكاهن مِبْضَعاً صغيراً يغزُّه في الخبز، إشارة إلى ذبح المسيح وإلى طعن الجندي له بالحربة. ويقول الكاهن: «ها قد ذُبح خروف الله».

ويعتبر التكريس قمّة القربان، وتتلى بعد التكريس عدة صلوات ليقبل الربُّ

المسيح هدايا عبيده «لنلتقِ جميعاً أمام هذا المذبح، وبفعل المناولة نأكل جسد ابنك المقدّس، ونشرب دمه، لنمتلئ بالنعمة السماوية». ثم يرسم الكاهن بعد أن يضع الخمر فوق الكأس شارة الصليب ثلاث مرات قائلاً: «بواسطته، ومعه، وفيه». ثم يرسم شارة الصليب مرة أخرى، ويكسر الخبز ويمزج الخبز بالخمر، ويقول الكاهن: «برغم أن الخبز والخمر اثنان فإنهما فعليّاً واحد». ثم يقول: «فليكن هذا المزج والتكريس بين جسد الرب ودمه عوناً لنا».

ويقوم الكاهن بمناولة الحاضرين قطعة قطعة من الخبز المغموس بالخمر؛ أي لحم المسيح ودمه، والذي تعذَّب على الصليب مرة أخرى أمامهم.. وبذلك يتم الامتزاج التام بين المسيح دماً ولحماً وبين جماعة المؤمنين!! وهذا ما يُعبّر عنه القدّاس بالتناول الحسي لجسد المسيح ودمه.

ولا تزال الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية تؤمن بحرفية سرّ القربان، بينما رفضت الكنائس البروتستانتية هذه الخزعبلات واعتبرتها قصة رمزية لا تمارس اليوم، ويكفي أن المسيح قد قدّم دمه وجسده للمؤمنين... وما ذكر عن القربان والعشاء المقدّس وعقيدة الأفخارستيا (Eucharist Dogma) إنما هو أمر رمزي بالنسبة للمؤمنين بيسوع؛ ولهذا فإنهم لا يهتمون كثيراً بممارسة هذا الطقس، وإذا مارسوه لم يعتقدوا أن المسيح يحضر فعليّاً في أثناء ممارسة الطقس... ولا يعتقدون أنه يتجسّد فعليّاً في الخبز والخمر، وإنما هي أمور رمزية تدل على تضحية يسوع الفعلية بنفسه من أجلنا، ومن أجل رفع الخطيئة، وحصول النعمة.

والعجيب حقاً أن الكاثوليك والأرثوذكس والكنائس الشرقية لا تزال تؤمن بحرفية تحول الخبز والنبيذ إلى لحم المسيح ودمه.. وأن المسيح نفسه يحضر القدّاس ويتجسَّد في الكاهن.. وما أن تتم المناولة وأكل المسيح وشرب دمه، حتى يتّحد المؤمنون بربهم اتحاداً جسديّاً وروحيّاً، ونفسيّاً وبدنيّاً... وهو أمر لا يكاد يتصوره الإنسان العاقل ويعتبره من أغرب الغرائب التي لا يقولها سوى مختلي العقول.

عقيدة مؤتمر نيقية:

جاء في كتاب سوسنة سليمان، لنوفل نعمة اللّه بن جرجس النصراني[١]: «إن عقيدة النصارى التي لا تختلف بالنسبة لها الكنائس، وهي أصل الدستور الذي بيَّنه مجمع نيقية (سنة ٣٢٥م) هي الإيمان بإلٰه واحد: أب واحد ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يُرى وما لا يُرى، وبرب واحد: يسوع الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله، إلٰه حق من إلٰه حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، والذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خطايانا نزل من السماء، وتَجَسَّد من الروح القدس، ومن مريم العذراء تأنَّس (أي صار إنساناً)، وصُلب عنّا على عهد بيلاطس، وتألم وقُبر، وقام من الأموات في اليوم الثالث ـ على ما في الكتب ـ وصعد إلى السماء، وجلس على يمين الرب، وسيأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات. ولا فناء لمُلكِه. والإيمان بالروح القُدس: الربِّ المحيي المنبثق من الأب، الذي هو مع الابن يسجد له، ويمجّد الناطق بالأنبياء».

الدكتور بوست يوضّح عقيدة التثليث ومعنى الابن:

ويوضح الدكتور بوست في كتابه: تاريخ القدس عقيدة التثليث، قائلاً: «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الأب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير».

«والابن لا يعني الولادة البشرية، وإنما تعني علاقة المحبة والاتحاد في الجوهر.. وما ورد في الأناجيل وخاصة إنجيل يوحنا بلفظ ابن الله، أو ابن العلي، لا يُقصد بها قطعاً ولادة طبيعية بشرية؛ ولكنه تعبير يكشف عمق المحبة السريّة بين يسوع المسيح وبين الله، وهي محبة متبادلة ويراد بها إظهار المسيح

(١) الشيخ محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي، ط ٣، ١٩٦٩م، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

على أنه الشخص الوحيد الذي حازَ رضا الله الكامل، لذلك يقول الله فيه: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت وله اسمعوا» وقد تكررت هذه الجملة في الأناجيل، ويراد بها إظهار التشابه والتماثل في الذات وفي الصفات وفي الجوهر. وليس المقصود ما ورد عن المؤمنين في الإنجيل والعهد القديم أنهم أبناء الله، وكما ورد عن داود «أنت ابني، أنا اليوم ولدتك»، فالمعنى ها هنا مجازي بحت. أما ما ورد عن ابن الله في الأَناجيل فالمقصود به غير ذلك، وليس فقط بالمعنى المجازي، بل بالمعنى الحقيقي لأنه ورد عن يسوع أنه قال: «من رآني فقد رأى الأب. أنا والأب واحد». والمقصود أن يسوع هو الوارث لكلِّ شيء من أبيه؛ فمنه كلّ الأشياء، وجميع الأشياء به، وكلّ الأشياء له.. ويراد بها معانٍ كثيرة يقصر دون إدراكها العقل»[1].

والأقنوم الثاني أي يسوع الممجّد هو صورة أو شكل من أشكال الألوهية التي لها ثلاثة أقانيم وفي حقيقتها واحدة.. وقد جاء في عقيدة مؤتمر نيقية المنعقد سنة (٣٢٥ بعد الميلاد): «إن الجامعة المقدّسة والكنيسة الرسولية تحرّم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه، وأنه لم يوجد قبل أن يولد، وأنه وجد من لا شيء، أو من يقول: إن الابن وُجد من مادة أو جوهر غير الله الأب. وكل من يؤمن أنه خُلِقَ، أو من يقول: إنه قابل للتغيير، ويعتريه ظل دوران»[2]. فيسوع المسيح الممجّد هو إلٰه من إلٰه، لا أول له ولا بداية ولا نهاية. وأنه من جوهر الله، وأنه قديم بقدمه، ولا يعتريه تحوّل ولا تغيير. ومن لا يقبل هذه العقيدة يعتبر مارقاً من الدين. وبما أن آريوس ومجموعة كبيرة جدّاً من الأساقفة كانوا يقولون: إن الأب وحده هو الله، والابن (يسوع) مخلوق، مصنوع، وقد كان الأب إذ لم يكن الابن؛ فإن آريوس وجميع من وافقوه اعتُبروا مطرودين، محرومين، مارقين من الدين، وقد حاربتهم الدولة الرومانية بكل

(١) القس بوطر: الأصول والفروع كما ينقلها الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه: محاضرات في النصرانية، ص ١٠٠ ـ ١٠٢.

(٢) محاضرات في النصرانية، نقلاً عن كتاب: تاريخ الأمة القبطية، ص ١٢٦.

جبروتها، بعد أن دخل قسطنطين في الدين المسيحي، بناءً على ما جاء في مجمع نيقية، رغم أن الذين وافقوا على هذه العقيدة هم (٣١٨) شخصاً، بينما رفضها غالبية المجتمعين الذين بلغوا (٢٠٤٨) شخصاً من الأساقفة، كما يقول ابن البطريق. وقد فرضت هذه العقيدة بقوة الإمبراطورية الرومانية عندما فرض قسطنطين هذه العقيدة التي توافق هواه من جهة، وتسمح ببقاء ملايين الوثنيين في هدوء، وأن ينضموا بالتدريج إلى هذه العقيدة الجديدة التي لا تخالف عقائدهم في التثليث وإن اختلفت في التفاصيل.

تحريف الكنيسة واستبدادها وما أدى إليه من العلمانية:

الواقع أن دين عيسى عليه السلام قد تمَّ تحريفه أولاً بواسطة بولس (شاول اليهودي الذي كان يضطهد الحواريين والمؤمنين الأوائل، ثم ادعى أن المسيح ظهر له في الطريق إلى دمشق فأصبح مندوباً عنه؛ يقول بولس: «إن الله قد أعلن ابنه فيَّ»، وكان بولس يلبس لكلِّ حالة لبوسها، وهو الذي أباح لهم لحم الخنزير والخمر وهو الذي سمح بالغرلة (عدم الختان) واخترع التثليث وابن الإله... إلخ)، ثم زاد ذلك آباء الكنيسة، وعندما تحوّل الإمبراطور قسطنطين في بداية القرن الرابع للميلاد إلى المسيحية تم إدخال بقية الطقوس والأعياد الرومانية الوثنية في صلب العقيدة المسيحية؛ حتى إن عيد الميلاد في (٢٥ ديسمبر) الذي يحتفل به الأوروبيون ليس إلا عيداً وثنيّاً كانت تحتفل به روما[١]، فبقي كما هو وتحوّل إلى أعياد الميلاد، وكذا قُل في آلهة الرومان؛ حيث تحولوا تدريجيّاً إلى القديسين الذين يحمون روما وبقية المدن.. أو أولئك القديسين الذين يحمون طائفة معينة من الناس، أو حتى فريقاً من المهنيين مثل الحدادين والنجارين... إلخ؛ فكلّ طائفة من هؤلاء تحوّل إلٰهها الذي تعبده إلى قديس تقدّم له القرابين والاحتفالات!.. حتى الحب جعلوا له قديساً هو سانت ڤالنتين (Valentine

(١) ويوم الأحد (Sunday) هو يوم الشمس، وهو اليوم المقدّس في الأسبوع لدى قسطنطين عابد الشمس، وبأمره صار عيداً مسيحيّاً بدلاً من السبت الذي كان يحتفل به الحواريون.

Day) بدلاً من كيوبيد إله الحب وڤينوس وأفروديت.. وهناك سانت بارثليميو وسانت باتريك وسانت جورج وسانت توماس من أنصاف الآلهة والقديسين الذين يعبدون مع الأقانيم الثلاثة في بريطانيا، ومثلهم في فرنسا، وفي كل قطر من الأقطار المسيحية مجموعة من أنصاف الآلهة التي تُعبد من دون الله.

إن الدين المسيحي منذ أن أضاف إليه بولس تلك الإضافات الوثنية، والتي ازدادت على مرِّ الأيام مع تكوّن الكنيسة، ثم مع دخول الإمبراطور قسطنطين في المسيحية، وما تبع ذلك من دخول القبائل الجرمانية والإنجلوسكسونية وقبائل الفاندال والفالس من دول الشمال، وذلك في قرون متأخرة نسبيّاً امتدت إلى القرن العاشر الميلادي؛ حينما دخلت القبائل الجرمانية وقبائل الشمال وقبائل روسيا في المسيحية. كلها أضافت إلى المسيحية عقائدها الوثنية.. بل إن الكنيسة إلى اليوم تَعِدُ الأفارقة الوثنيين عندما يريدون دخول المسيحية بأن يبقوا على معظم طقوسهم، بل وعاداتهم وتعدد زوجاتهم.. وكذلك يفعلون في الهند والمناطق البوذية؛ حيث دخلت كثير من تعاليم الهندوسية والتعاليم البوذية في المسيحية التي انتشرت بين الهنود وبين سكان شرق آسية.. وقُل مثل ذلك في دخول أهل تايوان وهونج كونج في المسيحية؛ فإنهم أدخلوا الكونفوشية والطاوية والبوذية في صلب عقائدهم المسيحية!.. والكنيسة لا ترى ضيراً في ذلك، بل تراه من التعددية اللازمة لدخول المسيحية ولبقائها وانتشارها.. بل هناك محاولات من الكنيسة لإدخال ما يسمّى المسجد العيسوي لإدخال المسلمين في إفريقية وأندونيسيا... إلخ في المسيحية.

إن عملية تقمّص عقائد وعبادات الآخرين وإدخالها في صلب الدين المسيحي هو أمر قديم قدم الكنيسة ذاتها، ولهذا فإن التنوع في المسيحية يصل إلى حدود لا يمكن تخيّلها، فهي أديان مختلفة وعقائد متباينة، ترتبط باسم جامع هو المسيحية.. والواقع أنها مجموعات من الأديان الوثنية المتباينة.

وموقف الكنيسة في العصور الوسطى وسيطرتها على الأمور الزمنية، وإقامتها الإمبراطوريات ودعمها للنظام الإقطاعي الظالم جعلها تقف في مراحل

معينة ضد القوميات الأوروبية وما تبعها من ظهور كالڤن ومارتن لوثر وظهور البروتستانتية بفرقها المتعددة وثورتها على كنيسة روما.. وقيام الحروب الدينية المروّعة في أوروبة مثل حروب المئة عام، وهي حروب دامت مئة عام بين الكاثوليك والبروتستانت في هولندة وبلجيكا وفرنسا وألمانيا، وحروب الروزس (Roses)، وحروب الثلاثين عاماً.. وخروج بريطانيا من ربقة البابا وإعلان ملك إنجلترا أنه هو رئيس الكنيسة الجديد.. والذي انتهى به الأمر إلى طرد أبدي من البابا له ولنسله من بعده إلى يوم الدين من رحمة الله!.. ولا يزال هذا الطرد سارياً، ولم يقم أيٌّ من البابوات بإلغائه إلى اليوم.. ولذا فإن البابا الذي يجول في مختلف أرجاء العالم لا يستطيع الذهاب إلى بريطانيا وبالذات إلى إنجلترا واسكوتلندا التابعتين للكنيسة الإنجليكانية (كنيسة إنجلترا)، والتي يرأسها ملك بريطانيا نفسه.

وقد أدَّى بزوغ البورجوازية الناهضة إلى صراع عنيف مع الإقطاع ومع الكنيسة، وأدى فيما أدى إلى الثورة الفرنسية الدموية، والتي أعلنت علمانية الدولة، وبُعدها عن الكنيسة والدين إلى يومنا هذا.. وتبعتها كل دول أوروبة بعد تلك المعارك الطاحنة مع الكنيسة، وموقف الكنيسة المعادي للعلم والمعرفة، وحرق الكنيسة لكوبرنيكس، وحكمها بالإعدام على جاليليو الذي اضطر إلى الاعتراف بخطئه ليبقى على حياته.

فمواقف الكنيسة المعادية للعلم والحرية ووقوفها مع الأنظمة الإقطاعية ونظام العبودية ورقيق الأرض (Serfdom) أدى إلى الانعتاق من ربقة الكنيسة والثورة ضدها في مختلف أرجاء أوروبة، كما أدى ظهور المنهج العلمي في أوروبة على يد مجموعة من العلماء الذين تأثروا بالمنهج العلمي الإسلامي مثل روجرز باكون، إلى الصراع المحتدم بين الكنيسة والعلم.

ورغم أن الكنيسة عدّلت من مواقفها بعقلية ميكافيلية وصولية، مرات عدة وغيّرت مواقفها من الدولة ومن العلم، وتركت ما لقيصر لقيصر واكتفت بأن تستولي على التبرعات والهبات من المجموعات التي لا تزال متأثرة بالدين. كما

استطاعت الكنيسة في مختلف دول أوروبة ومستعمراتها الكبرى مثل كندا والولايات المتحدة وأستراليا وأمريكة اللاتينية أن تصل إلى اتفاق مع الدولة على أن تبقى كل ممتلكات الكنيسة مصونة، ولا تدفع عنها أية ضريبة للدولة. . بل توصلت إلى اتفاق يقضي بأن أيّ تبرع للكنيسة من الأفراد أو الشركات ينبغي أن يخصم من ضريبة الدخل. . ولهذا تضخمت ممتلكات الكنيسة بشكل رهيب. . وهي الآن تملك عدداً كبيراً من عقارات نيويورك ولندن وباريس وروما ومعظم المدن الكبيرة.

واستطاعت الكنيسة أن تلعب دوراً أساسيّاً وهامّاً في حركة الاستعمار سواء كان في أمريكة اللاتينية بواسطة الإسبان والبرتغال (الكنيسة الكاثوليكية) أو في الولايات المتحدة وكندا بواسطة الكنائس البروتستانتية، وخاصة مجموعات المتطهرين البيورتانيين الذين تقمّصوا دور إسرائيل في التوراة، واعتقدوا أنهم شعب الله المختار الذي أرسله إلى أرض كنعان ليحتلها. . أرضاً تفيض عسلاً ولبناً. . وأن عليه أن يبيد سكان الأرض كما فعل يشوع بسكان أريحا. وكان دور الكنيسة الكاثوليكية مرعباً في أمريكة الوسطى وأمريكة الجنوبية (أمريكة اللاتينية) حيث تم فرض التنصير بالقوة مع قتل الملايين؛ أما أمريكة الشمالية فلم يهتم البروتستانت (البيورتانس) بتنصير الهنود الحمر، بل اهتموا بإبادتهم بكل الوسائل بما في ذلك استخدام الحرب الجرثومية وإعطائهم ألحفة وبطاطين المصابين بالجدري!. . وبما أن الجدري لم يكن معروفاً في أمريكة فإن تلك الطريقة الجهنمية أدّت إلى قتل الملايين من الهنود الحمر، وبالتالي تم الاستيلاء بسهولة على أراضيهم الواسعة!. . ثم جاء الرجل الأبيض بما يقرب من مئة مليون إفريقي على مدى قرنين، مات منهم ما يقرب من سبعين مليوناً أثناء الرحلات المهلكة، وفي الثورات، وفي المناجم، وبواسطة التعذيب.

وكان الذين قاموا بذلك وشجّعوا عليه هم رجال الكنيسة البروتستانت وخاصة من جماعة (البيورتانس) المتطهرين.

كما أن الكنيسة لعبت دوراً هامّاً في حركات الاستعمار في إفريقية وآسية،

وفي مواجهة المسلمين.. وكانت الكنيسة دوماً نصيراً للمستعمر الغاشم، ووجدت دورها في تبرير هجماته الوحشية واستغلاله لبني البشر.. والتقت المصالح الدنيوية، وتمَّ تغطيتها باسم الدين والرب والعشاء الرباني واللقاء المعمداني وتحضير الشعوب المتخلفة وتنويرها.

وهكذا بالفعل لعبت الكنيسة في معظم مراحلها دوراً معقداً وخبيثاً لدعم الظلم والاستعمار.. تماماً كما قامت في السابق بمساندة الإقطاع ونظام رقيق الأرض، وحُقَّ لأعداء الكنيسة بأن يقولوا: «الدين أفيون الشعوب»، فقد لعبت الكنيسة في كثير من الأوقات هذا الدور بدقة ومهارة.

ومع هذا فقد اتَّجه في النصف الثاني من القرن العشرين مجموعة من الرهبان في أمريكة اللاتينية إلى اتخاذ مواقف مضادة لاتجاه الكنيسة العام، وساندوا الثورات ضد الظلم الاجتماعي حتى تحدثت أجهزة الإعلام عن الكاردينال الأحمر وعن الرهبان الحمر.. وهم مع ذلك قلة بالنسبة لتيارات الكنيسة في أمريكة اللاتينية ذاتها.

والخلاصة: أن مواقف الكنيسة ومواقف ما يسمّى الكتاب المقدّس تجعل العلم يقف بعيداً عن الكنيسة، وقد احتدمت المعركة بينهما فترة من الزمن.. ثم اتفق الجميع على فصل الدين عن الدولة، والعلم عن الكنيسة.. وكان المنهج العلماني والدولة الحديثة هي طريقة الوفاق الممكنة الوحيدة بين منهجين على طرفي نقيض.

واتجهت أوروبة منذ عصر النهضة والتنوير إلى العلم والأدب والفن الإغريقي الروماني.. وكانت فلسفة أوروبة وآدابها منذ عصر النهضة راجعة في أصولها إلى علوم اليونان وفلسفاتها المختلفة.. ولا يمكن فهم هذه الفنون والفلسفات دون الرجوع إلى أصولها الإغريقية ـ الرومانية، بل إن الكتاب المقدّس، وخاصة العهد القديم قد تأثر إلى حدٍّ كبير بأساطير اليونان كما تأثر بأساطير الأمم الأخرى؛ مثل: الكنعانيين والبابليين والآشوريين والكلدانيين

والفرس.. ونرى التأثير اليوناني بصورة أكثر وضوحاً في إنجيل يوحنا، وفي رسائل بولس من كتب العهد الجديد.

التطورات الحديثة في المسيحية:

يقول كتاب (**أسطورة تجسُّد الإلٰه The Myth of God Incarnate**)[١] الذي كتبه سبعة من كبار علماء اللاهوت في بريطانيا: «**والمؤلّفون مقتنعون أن تطوُّراً لاهوتيّاً رئيساً مطلوب الآن في الربع الأخير من القرن العشرين.. وتبرز الحاجة لذلك من حجم المعلومات عن الأصول المسيحية، والتي تضمُّ اعترافاً: بأن المسيح كان إنساناً اختاره الله لدور خاص في الإرادة الإلٰهية، وأن الاعتقاد الذي ظهر بعد قرون من رفع يسوع بأن الله قد تجسّد فيه، وأنه الأقنوم الثاني في الثالوث المقدّس ليس إلا أسلوباً أسطوريّاً أو شاعريّاً للتعبير عن أهمية يسوع بالنسبة لنا، وهذا الاعتراف مطلوب منّا لمصلحة الحقيقة أولاً، ولعلاقتنا بأبناء الديانات الأخرى ثانياً** (وبالذات اليهودية والإسلام).

والتعديلات التي غيّرت بها المسيحية نفسها في الماضي لتصبح قابلة للاعتقاد كانت تسبب أحياناً عطباً أدى إلى رفض كثير من الناس في العصور الحديثة للمسيحية ذاتها، **ولا بد من إيجاد تغييرات في الكهنوت اللاهوتي المسيحي ستساعد أولادنا وأولاد أولادنا على جعل الصحبة المسيحية ممكنة.. والمسيحية لا تستطيع البقاء إلا في كونها منفتحة باستمرار على الحقيقة.. ولهذا وضعنا كتابنا هذا متفقين مع عدد متزايد من علماء اللاهوت المسيحي، ومن العامة الذين لم يعودوا يقبلون فكرة تجسّد الإلٰه في يسوع المسيح**».

---

(١) صدر هذا الكتاب الهام في بريطانيا عام (١٩٧٧م) المحرر جون هيك. وللأسف فإن أسلوب الكتاب لاهوتي ومعقد، ولذا لم يجد الرواج الذي لاقته كتب أخرى أقلّ أهمية ولكنها كُتبت بأسلوب صحفي وجذّاب.
وقد قمت باختصار الكتاب وتبسيطه وشرحه، وجعلته الفصل السابع من كتابي (دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية)، إصدار دار القلم ـ دمشق، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

وهذا كلام مهم يوضّح أن العقيدة المسيحية الكلاسيكية لم تعد مقبولة من غالبية المسيحيين المثقفين في الغرب، بما في ذلك مجموعة من علماء اللاهوت المسيحي، وأن عليها أن ترفض عقيدة تجسّد الإلٰه في يسوع، وبالتالي عقيدة التثليث، وهي لبّ المسيحية التي يؤمن بها النصارى على مدى القرون المتطاولة، والتي جاء بها بولس ولم يقل بها يسوع ولا الحواريون، بل قال بها بولس ومن بعده آباء الكنيسة الذين طوّروا هذه العقيدة وأدخلوها في متاهات وضبابيات وخرافات ووثنيات يرفضها العقل! وعندما كانوا يواجهون بأن العقل يرفض هذه العقيدة التثليثية المعقدّة كانوا يقولون: اترك عقلك واتبعني.. وهذه العقائد لا يمكن أن تفهم بالعقل بل بالقلب.. وهذه أسرار لا يستطيع أن يفهمها إلا من وصل إلى مراتب عليا في الأكليروس المسيحي.. والشيء ذاته كان يقال عن عقائد الأفخارستيا (العشاء الرباني، القربان.. الخ) التي أفضنا القول في ذكرها وذكر تفاصيلها وخرافاتها.

ويقول الدكتور مراد هوفمان في كتابه (الإسلام في الألفية الثالثة)[١]: «لقد رأى هيك (J. Hick) ـ محرر كتاب أسطورة تجسّد الإلٰه ـ: أن عيسى كان إنساناً فقط اختاره الله ليحمل رسالته الإلٰهية، وأنه لم يكن معصوماً من الخطأ أو الخطيئة[٢]. لقد تمثّلت رسالته في أن يضيف إلى صورة الإلٰه القاسية الموجودة في العهد القديم، صورة الإلٰه المحبّ الرحيم، وأن يُضفي على وصايا موسى وتعاليمه روحانية، وأن يضفي مسحة أكثر إنسانية على تشدّدات التلمود.. ولقد عدَّ هيك (Hick) عملية تأليه عيسى والتي جاءت زمنيّاً في وقت لاحق لحياته، وتحويل عيسى إلى الشخص الثاني في مسألة الثالوث المقدّس «طريقة أسطورية ورمزية للتعبير عن معنى وقيمة عيسى.. لقد تحولت صورة عيسى «كابن للرب»

---

(١) مراد هوفمان: الإسلام في الألفية الثالثة، تعريب عادل المعلم ويس إبراهيم، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٣م، ص ٢٢٠.

(٢) إن هذا الكلام غير صحيح، فالأنبياء معصومون من الخطيئة ولا يقرّون على خطأ، حيث يأتيهم الوحي ويوجههم إلى الصواب.

وهي كناية صاغها اليهود الموحّدون (باعتبارنا كلنا أبناء للرب بالمعنى المجازي، كما يحب الرجل أولاده) إلى نظرية أشبه ما تكون بنظرية الإغريق في تعدّد الآلهة، وعلاقة الأب الإلٰه بأبنائه».

وترتكز نظرية هيك (Hick) التي تدعو إلى إلغاء ونفي فكرة التجسيد إلى حقيقة أن عيسى نفسه لم يتحدث في أية لحظة عن نفسه كإلٰه أو عن ثالوث إلٰهي. وتتمركز رؤية هيك الشاملة على عيسى أكثر منها على الإلٰه.. ولكنه لا يجزم إن كان وقوع حدث المسيح هذا فريداً أو أنه سيظل كذلك، فيقول: «إننا لم نعد نتحدث عن نقطة تقاطع بين الإلٰهي والإنساني؛ هذا التقاطع الذي حدث في حالة واحدة فقط هي عيسى».

ويقول هوفمان: «إن بول شوارزنو (Paul Schwarzenau) (١٩٨٢م) يشارك جون هيك هذا الرأي، ويقول: لم تتم تسمية عيسى في المسيحية الأولى والمرحلة التي سبقتها بالرب (أو الإلٰه). بل إنه من المؤكد أن شخصية عيسى التاريخية ما كانت لتسمح أو تقبل بعملية تأليه لشخصه».

ويقول مراد هوفمان: إن التمرد على الرؤية المسيحية التي أوجدتها الكنيسة للمسيح عيسى ابن مريم كانت فردية من أمثال غوته وتولتسوي... إلخ؛ ولكن منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي أصبحت جماعية، وقام بها لاهوتيون، وكان لها نتائجها المدمّرة.. «وأذكر في هذا الصدد بعض أساتذة علم اللاهوت من الكاثوليك والبروتستانت؛ مثل: رودلف بولتمان (Rudolf Bultman) وهانز كامبينهوسن (Hans Campenhausen) وأدولف هارناك (Adolf Harnack)، وإيمانويل هيرش (Emanuel Hirsch) وهانز كونج (Hans Kung) وجيرد لودمان (Gerd Ludemann) وپول تليش (Paul Tillich) وأدولف شلاتر (Adolf Schlatter) وكارل رانر (Korl Rahner) وغيرهم كثير»[١].

«ولكن الجموع المسيحية من العامة لم تشارك في هذه العملية، وخاصة أن

---

(١) مراد هوفمان: الإسلام في الألفية الثالثة، ص ٢١٤.

عملية المراجعة هذه قد حرص القساوسة على حجبها عن الجماهير والتكتم على أمرها»[١].

«وأما كتاب أسطورة تجسّد الإلٰه الذي حرره جون هيك مع سبعة من علماء اللاهوت البريطاني فقد كان كتاباً صعباً على العامة إذ كتب بلغة لاهوتية معقدة، ويحتاج إلى تبسيط[٢].

وقد توصّل جميع هؤلاء الباحثين من علماء اللاهوت المسيحي إلى أن عيسى ليس مؤسس الدين المسيحي بقدر ما هو موضوع هذا الإيمان والدين، أي عيسى هذا المجهول العظيم.. ولقد توصَّل البحث إلى أن تاريخ الرسل وقصصهم ما هو إلا نتاج القرن الرابع الميلادي»[٣].

يقول جيرد لودمان (Gerd Ludemann): «إنني لا أؤمن إذن بالكتاب المقدّس ككلمة الله لنا، ولكن أؤمن بعيسى الذي يقف خلف نصوص العهد الجديد تخنقه التقاليد الكُنُسية المتراكمة»[٤].

«ويعتقد لودمان: أن التدقيق التاريخي لنشأة العهد الجديد وما يحتويه من مقدّسات، يؤدي إلى انهيار أبنية الكنيسة وعلم اللاهوت كما لو كان بناؤهما من ورق»[٥].

«ولقد عبّر كثير من علماء اللاهوت عن استيائهم البالغ من تزوير بعض الوثائق الكاملة مثل رسالة بولس الثانية، وكذلك الرسالة الثانية لبطرس، وكذلك جميع المواضع الخاصة بمسألة الثالوث؛ ومن ضمن هذه المواضع رسالة يوحنا الأولى (الإصحاح ٥: ٧) أو ما جاء في إنجيل متّى (٢٨: ١٩) عن التعميد باسم

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) قمت باختصاره وتبسيطه وجعلته الفصل السابع من كتابي (دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية)، دار القلم ـ دمشق، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

(٣) مراد هوفمان: الإسلام في الألفية الثالثة، ص ٢١٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٥) المصدر السابق نفسه.

الأب والابن والروح القدس، فهذه كلها مزوّرة وأدخلت إلى إنجيل متّى والرسائل في أزمنة متأخرة»[١].

«أما أكثر المواقف تطرُّفاً فقد تبناها بعض علماء اللاهوت من أتباع پول تليش (Paul Tillich)؛ مؤكدين رأيه أن يسوع رمز جميل لدرجة تجعل من الضروري اختلاقه إن لم يكن قد وجد فعلاً، حتى إن الحقيقة التاريخية ليسوع تصبح غير ذات أهمية، فالإيمان والدين المسيحي ليسا بحاجة إلى تسويغ تاريخي ولكن إلى لقاء روحي مع المسيح»[٢].. والعجيب هو ما قام به فردريك شلايَرماخر (Fredrich SchleierMacher) وهو تحويل الدين إلى فلسفة جمالية تتخلّى عن جميع مضامين الإيمان الموضوعية، وتلقي بها خلف ظهرها لتصبح «ديناً بلا إلٰه»؟! لأن ديننا ينحصر في إحساس الفرد الداخلي، ويترفّع عن الحياة والعالم الحقيقي، ويصبح كما قال غوته (Goethe): «مسيحية لاستخدامي الخاص»[٣].

ومما قاله الأب سيداروس اليسوعي في (تكوين الأناجيل): «**يسوع الناصري عاش في الناصرة. وبدأ يدعو ويعلم وهو في سنِّ الثلاثين، وتظهره الأناجيل بصورة بشرية، وهو نفسه لا يدّعي سوى أنه بشر، رسول من عند الله. وله معجزات: شفاء المرضى، وتكثير الطعام. وإقامة بعض الأشخاص بعد موتهم، ولكنه لا يعلم أنه المسيح فضلاً عن أن يكون ابن الله، والأقنوم الثاني في التثليث المسيحي (الله الأب، يسوع الابن، والروح القدس).. وكل واحد منهم إلٰه منذ الأزل إلى الأبد، ومع ذلك فهو إلٰه واحد.. وهو أمر يصعب فهمه وشرحه للآخرين، ولا سبيل إلى إدراكه بالعقل والفكر، وطريقه الوحيد هو الإيمان والتسليم**».

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٨. وقد وصل شلايَر ماخر إلى ما تتحدث عنه العلمانية تماماً، وتحدّث آخرون من أمثال ماثيو فوكس (M. Fox) عن عيسى الكوني الذي لا حقيقة تاريخية له، ودخل في الغنوصية وما بعد الحداثة، وتهويمات وهرطقات.

وكيف يكون يسوع إلٰهاً منذ الأزل إلى الأبد، ورغم ذلك لا يعلم أنه إلٰه، بل يصرّ على أنه بشر رسول من عند الله إلى بني إسرائيل ليرجعوا عن غيِّهم وتكبّرهم وثقافتهم.. والمعجزات التي يصنعها ليست من عنده، بل من عند الله الذي أكرمه بها.. ومع ذلك تصرّ الكنيسة على أنه إلٰه من الأبد إلى الأزل.. وكيف يكون إلٰهاً من تكون فيه جميع الصفات البشرية؛ وهو يصحو وينام، ويأكل ويشرب، وينسى ويتعب، ويتألم ويبكي، ويدعو الله في كل وقت؟! وأين كان الله عندما صُلب يسوع وقتل؟! فإذا كان هو الله، والله واحد غير متعدد، فكيف يكون ميّتاً وحيّاً في وقت واحد!.. أسئلة أثارت المصاعب في وجه الكنيسة منذ إنشائها إلى العصر الحديث، وأدت إلى موجة العلمانية والاعتماد على العقل، لأن الكنيسة ترفض العقل ولا يمكن أن تبقى وللناس عقولهم!!.

وبعد أن يستعرض هوفمان **آراء مجموعة كبيرة من علماء اللاهوت المعاصرين، وكيف أنها تتّجه بصورة عامة إلى أن التثليث أسطورة اخترعها آباء الكنيسة الأولين، ولم يقل بها يسوع قطعاً، ولا نادى بها الحواريون الاثنا عشر، بل ولا كنيسة أورشليم (اليهود المتنصرين)، بل أول من بدأ بها بولس، ثم أتباعه من بعد ذلك.. ولهذا كله فإن عقيدة التثليث تتضاءل عند هؤلاء الباحثين من علماء اللاهوت وتتحول إلى فكرة أسطورية شاعرية عبَّرت في فترة من الزمان عن محبة الناس ليسوع في زمن كان فيه تجسّد الآلهة في صورة بشر أمراً عادياً جداً.**

ويقول هوفمان: «ولقد تسلطت أضواء على عنصري «الصلب» و«القيامة» (أي: صلب يسوع وقيامته من بين الأموات) واكتسبا رؤية جديدة، حيث نالت الرؤية القرآنية مساندة من جانب التيار النقدي في علم اللاهوت، والذي أثبت: أن عملية المحاكمة (أي: محاكمة يسوع) وتوقيع العقوبة قد تمّا في يوم الجمعة نفسه قبل عيد فصح اليهود مباشرة، **وأن الكلمات التي تُنسب للمسيح وهو على الصلب ما هي إلا كلمات ملفّقة لا أساس لها من الصحة، وأنها رواية مؤلّفة في زمن لاحقٍ لهذا الحدث**»[1].

(١) مراد هوفمان: الإسلام في الألفية الثالثة، ص ٢٢٢.

ويقول هوفمان: «**أعتقد أن هذا العرض الموجز يكفي دليلاً على الأزمة العميقة التي تعيشها علوم اللاهوت المسيحية، والمسيحية ذاتها وتعاليمها في العالم المسيحي، والتي يعدُّ يوجين درورمان (E. Drewormann) أخيراً وليس آخراً ـ أحد مؤشراتها البارزة. ويصوّر القرآن هذا الموقف بدقة شديدة**»[١]، **قال تعالى**: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤].

ويقول هوفمان: «ولكن من غير المتوقع أن تؤدي هذه الأزمة (حتى الآن) إلى أن تسرع حشود المسيحيين المُحبطة إلى الدخول في دين الله أفواجاً، كما بشرت بذلك سورة النصر، [وذلك يرجع إلى التشويه الشديد لصورة الإسلام في الإعلام الغربي بصورة متعمدة حتى يُبعدوا الملايين عن أنوار الإسلام]. . ولكن ستدفع هذه الأزمة بالكنيسة إلى فنائها، وتعجّل بالقضاء عليها، وبنهاية المسيحية المرتبطة بالكنيسة، وسيؤدي ذلك إلى زيادة شعور الجماهير بالاغتراب عن الدين عامة (وبالتالي يزداد الاتجاه العلماني قوة)، وتزيد رغبة الإنسان الفرد بانتقاء ما يريد وما يناسبه من المعروض في سوق الديانات والمعتقدات التي هي أشبه بالسوبرماركت[٢] (عبادة كريشنا الهندوسية، العبادات البوذية، العودة إلى الطبيعة والأرواحية. . . إلخ)، وأفراد منهم يتجهون إلى الإسلام».

ويقول هوفمان: «فبالرغم من الزلزال الذي ضرب علم اللاهوت، لا يمكن إلا أن نتوقع استمرار الجموع البسيطة من الكاثوليك في بولندا وكرواتيا وأيرلندا وإسبانيا، في المشاركة في المواكب التي تُقام إجلالاً وتقديساً «لأم الله»! (المقصود مريم بنت عمران)»[٣].

«وتفتح عملية رفع هالة القدسية عن عيسى (المقصود تأليهه) وتخليصه من

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٤.

المسحة الأسطورية والملحمية الباب واسعاً أمام تصالح المسيحية مع غيرها من الديانات والمعتقدات وبخاصة الإسلام.

إن الإمكانات التي تتيحها عملية التصحيح هذه مذهلة، لأنه إذا ما توطدت فكرة أن عيسى مجرد «رسول الله»؛ وهي مكانة عظيمة تحظى لدى المسلمين بتقدير واحترام بالغين، فإن هذا كفيل برأب الصدع بين المسيحيين والمسلمين، ذلك الذي أحدثه المجمع الكنسي في أزنك»[١].

إن الأمر لا يتعلق بأن يشعر المسلمون بأنهم على حق عندما تتطور المسيحية لتدرك أن المسيحية المذكورة في القرآن هي الأصل وهي الصحيحة.

«ولكن إذا حدث هذا فسيكون الإسلام قد أدّى رسالته في إصلاح المسيحية وتخليصها مما علق بها من شوائب وتلفيقات، وعاد بها إلى أصلها.. وبهذا يكتسب الحوار العالمي فرصاً جديدة، ليس على المستوى الإنساني فحسب، بل كذلك على مستوى النظريات، لأنه في هذه الحالة لن تصبح مسألة الطبيعة الإلٰهية لعيسى أحد المحرّمات التي لا تُمس ولا تناقش.. وبهذا سيكون تمسك المسلمين بالنصرانية التي وردت في القرآن لمدة (١٤٠٠) عام عملاً آتىٰ ثماره، واستحق هذا العناء والمثابرة»[٢].

ويقول: «إن المسلمين من أكثر الناس احتراماً وإجلالاً ودفاعاً عن مكانة المسيح عيسى ابن مريم وأمّه اللذين اصطفاهما الله، وتتأكد هذه الحقيقة عندما يتابع المسلم بدهشة بالغة واستنكار واضح ما يتعرض له كلّ منهما (أي: عيسى ومريم العذراء) من تقليل لمكانتهما واحترامهما على يد بعض علماء اللاهوت المسيحيين: وي دوروثي، ورانك هينمان، وسولي، عندما يتعرضون لشخص المسيح على أنه شكل من أشكال العاملين في المجال الاجتماعي العام، ولأمّه

---

(١) المقصود مؤتمر نيقية الذي انعقد سنة (٣٢٦م)، ونيقية هي اليوم مدينة أزنك في تركيا في الأناضول.

(٢) مراد هوفمان: الإسلام في الألفية الثالثة، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

بصفتها أمّاً غير متزوجة»[١] (أي: أنها أتت به من الزنى).

والصورة أشدّ فظاعة عند العلمانيين والإعلاميين والكتّاب والأدباء والأفلام السينمائية التي تنتجها هوليود، والتي تعرض المسيح ﷺ، وغرامياته المزعومة مع مريم المجدلية، أو ما هو أشدّ من ذلك «المسيح شاذ جنسيّاً»... إلى آخر تلك القاذورات والمزابل التي تطلع بها أجهزة الفن الداعر الذي يقف اليهود من ورائه، لتحقير يسوع المسيح ﷺ وتصوير أمه بأقذع الصور وأحقرها.

ويعتقد شوارزنو (Schwarzenau) أن زمن ما بعد المسيحية قد بدأ، **وأن عهد المبشّرين قد ولّى، وأن ساعة عودة البشر لدين الله الواحد الأحد قد حانت، ويرى أن القرآن هو الوحي والرسالة الإلٰهية والدين الكوني الذي يصلح للعالم كله، وفيه حقيقة ما حدث لعيسى والرواية الأصلية.، ولذا فإن القرآن هو التفسير الحقيقي الصادق لما جاء في العهد الجديد (الأناجيل)..** ويتوقع **شوارزنو أن يتطور الأمر من توالي موسى وبعده عيسى وبعده محمد إلى أن يكونوا معاً.. سنكون في أواخر الأيام كلنا معاً داخل الإسلام العالمي**[٢].

ويسير في الاتجاه نفسه تقريباً (جون هيك) محرر كتاب (أسطورة تجسُّد الإلٰه) ويطالب (هيك) أتباع الديانات والمذاهب إلى نبذ فكرة التعصب لدينهم ومذهبهم واعتباره طريق النجاة الأوحد والمطلق.. يناشد المسيحيين أن يخطوا الخطوة الحاسمة، ويعترفوا بأنه بالإضافة إلى عيسى هناك مخلّصون آخرون، وأن هناك رسلاً وأنبياء أوحى الله إليهم غير يسوع، وأنهم كذلك أصحاب رسالات سماوية[٣].

وينطلق مراد هوفمان معلّلاً لهذه الظاهرة التي سمّاها التعدد الديني الليبرالي والقبول بالآخر؛ إلى أن الإنسان الغربي قد قبل الفيزياء الجديدة التي تتحدث عن نسبية غير دقيقة، فالضوء مثلاً هو موجات، وهو في نفس الوقت جسيمات، وهو

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٨.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٩.

أمر متناقض، ولكن لا يمكنك أن تفهم طبيعته إلا بالقبول بنظريتين متعارضتين في ظاهرهما.

وهذا يتشابه مع الناحية الدينية ومع الفيزياء، وصيحات الفكر والأدب في الألفية الثالثة وما بعد الحداثة.. ولقد امتد ضياع المعايير، وثقافة الصدفة، ونظريات الفوضى ليس إلى علوم اللاهوت فحسب، بل تجدها كذلك في الأدب والمسرح وفي فنون الرقص والموسيقى الحديثة..

والملمح المميّز لما بعد الحداثة في الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا هو نبذ المنظومات الكبيرة والنظريات الشاملة العامة؛ فبدلاً من الشرح يحتل الوصف مكان الصدارة، ويتم تفكيك علاقات فكرية إلى مجرد طرق محادثة؛ فالعلم يتم «تدويره» وتحريكه تماماً، كما يتم تحريك المال في اتجاه ما بعد الحداثة.. (إلى العلمانية الشاملة والعولمة التي تحدّث عنها الدكتور عبد الوهاب المسيري طويلاً في كتابه العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، وسبق أن نقلنا عنه نقولاً كافية في هذا الصدد).

ويقول هوفمان: إن القارئ أيضاً يصبح مؤلفاً، والنص آخر الأمر هو نتاج ما يفعله القارئ.. وكل شيء له الحق في أن يتمتع بالقدر نفسه من الحماية؛ كل ما هو صغير، كل ما هو غريب، كل ما تهدّده الأغلبية: النساء (غريب أن يعتبروا النساء أقلية تهددها الأغلبية بينما هُنَّ نصف المجتمع، ومع الأطفال أكثر من ثلاثة أرباع أو أربعة أخماس المجتمع)، الأطفال، مدمنو المخدرات، الشواذ جنسيّاً (وهنا يظهر الهذيان والجنون وتدمير كل شيء؛ كيف يمكن أن تقارن المرأة والأطفال الذين هم أربعة أخماس المجتمع بمدمني المخدرات والشاذين جنسيّاً وعُبَّاد الشيطان؟! وهي نحلة بدأت تنتشر في التائهين والضائعين).

ويقول هوفمان: رد فعل ما بعد الحداثة على حالة الفقر الفكري والروحي للحداثة في مظاهر العصر الجديد والاتجاه إلى السحر والكابالا، وإعادة كشف الغيب وعلوم إعادة التجسيم، والنحل المسيحية الجديدة الملفَّقة، والدين المدني وأساطير الطبيعة، ونظريات البيئة... وغيرها كثير مما نجده في السوبرماركت

الديني المعاصر.. (وهي أمور كلّها مقدّمات لمجيء المسيح الدجّال اليهودي الذي يدعي الربوبية، وعندما تكون الأمور في حالة من الهلامية التامة فيسهل لليهود آنذاك طرقها وتحويلها إلى ما يريدون)، ويستشعر الناس الخوف من كل ما يتسم بالنظام والقواعد؛ ففي عصر ما بعد الحداثة يبتعد الناس عن «الموضوعية» [وقد مكثوا دهراً يتحدثون عنها، ويمجّدونها طوال القرن الثامن عشر والتاسع عشر وردحاً طويلاً من القرن العشرين].

وأصبح كثيرون ينفون عن العلوم الطبيعية مسألة المعيارية والموضوعية!! وتصبح كل مادة ومقولة هي مجرد مادة تأمّلية، ومن الفضيلة ألا يكون للمرء رأي ثابت في أي مسألة، ولا هدف ثابت مهما كان نبيلاً (لا يوجد نُبل أصلاً)!.. وستصبح كل حماسة دينية وانتماء عقائدي تطرفاً!.. هذه النسبيّة في القيم، والتي بدأت بالنسبية في الفيزياء (نظرية آينشتاين)، ستؤدي بطبيعة الحال إلى عدم اتخاذ مواقف، وليس للتسامح وتقبّل الآخر (من الواضح جدّاً أن الغرب بأكمله لا يقبل المسلمين والإسلام، ويتعصب ضدهم أشدّ التعصب، رغم ما يزعمونه من التفكيك، ونظرية نسبية القيم، والاعتراف بالآخر، وذلك كله راجع إلى غسيل الدماغ المستمر ليل نهار من أجهزة الإعلام).

ولكن لا بد في النهاية أن تؤدي هذه النظريات إلى عكس ما جاءت به؛ وهو الإيمان بالمطلق وأن القيم الحقيقية ثابتة، كما ستؤدي أيضاً إلى تقبل الآخر.

وقد وصلت الحداثة أو ما بعد الحداثة التي كانت تقدّس العقل بحيث ارتبطت الحضارة الأوروبية الحديثة بالعقلانية، وانتهت بأمر لا يمكن تصوره وخاصة لنا في العالم الإسلامي، وهو كما يقول زيجمونت بومان (Zygmunt Bauman) أن ما يهدد الوجود الإنساني ككائن أخلاقي ليس الشهوات ولا الأفكار القديمة، ولا الاعتقاد بالخرافات، ولكن ما يهدّده حقّاً هو الحضارة والعلم!! وبذلك يهدمون كل ما قامت عليه أوروبة في مرحلة النهضة (Renaissance)، ومرحلة التنوير (Enlightenment)؛ (حركة التنوير الفلسفية في القرن الثامن عشر إلى بداية القرن العشرين).

ويؤدي هذا الفكر المنحرف إلى العدمية، وإلى أن يختار المرء أي شيء يريده، وأن يغير موقفه وما يريده حسب الشهوات والأهواء..

وتتمسك مرحلة ما بعد الحداثة رغم ذلك، بفصل الدولة عن الكنيسة، وبالتعدد الفكري (الليبرالية)، وبرؤية تاريخية على خط مستقيم؛ أي: أننا نسير في خط التقدم المستمر إلى أن تأتي «نهاية التاريخ» عند فوكوياما، ويسبقه قطعاً «صراع الحضارات» كما عند (هنتنجتون) كما تتمسك مرحلة ما بعد الحداثة بميتافيزيقيا ملحدة، ورسالة التبشير بأن الإنسان محور الكون (ولكن هذه الأخيرة وجدت ضربات موجعة فيما بعد الحداثة كما أوضحها الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه الفذّ: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة).

ويعترف عمانويل كليرمان (Emanuel Kellermann): بأن الإسلام يكتسب أهميته وقيمته المطلقة مقارنة بالأديان الأخرى، فهو يقدّم أفضل ما يمكن للدين.

وهناك أعداد متزايدة من اللاهوتيين الغربيين والمفكّرين الذين درسوا الإسلام ورأوا فيه المنقذ للبشرية مما تعاني من اضطراب شديد المفاهيم، وضياع كامل لمفهوم الدين والأخلاق، والانتهاء برحلة السيولة في كل شيء..

وهو أمر لا بد أن يحدث، ولو بعد مرحلة طويلة من الصراع والضياع.

الموحّدون في المسيحية:

لا ريب ولا شك في أن الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام هو دين توحيدي نقي، وقد قال لهم عيسى عليه السلام كما يرويه رب العزّة في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥١ ـ ٥٢].

وقال عيسى عليه السلام كما يحكيه عنه القرآن الكريم: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣١].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

وإذا كان علماء اللاهوت المسيحي يقرّون اليوم بأن يسوع الناصري لم يعدُ أن يكون رسولاً نبيّاً، ولم يدَّعِ هو سوى أنه بشر، مرسل من عند الله، وله معجزات كثيرة أعطاه الله إيّاها، ولكنه لم يقل قط أنه ابن الله وأنه الأقنوم الثاني في التثليث المسيحي (الله الأب، يسوع الابن، والروح القدس) ومع ذلك فلم يعرف أحد هذا السّر إلا في عيد الفصح عندما أرادوا صلبه وقتله، فإنه قد شعر بذلك، (حسب قولهم) ورغم ذلك فإنه كان يدعو الله بحرارة أن يجيز عنه هذه المحنة، ويتصبّب عرقاً مثل الدم.. وتظهره الأناجيل بصورة بشرية (ما عدا إضافات واضحة أنها جاءت في فترة متأخرة).

وعقيدة التثليث والصلب والفداء... إلخ، بدأها بولس، وزاد فيها آباء الكنيسة حتى ظهرت في عقيدة نيقيه (مدينة أزنك في الأناضول) سنة (٣٢٦م) وما بعدها من مؤتمرات.

ولكن **الحواريين** الذين عاشوا مع يسوع وعرفوه، لم يقولوا: إن يسوع هو ابن الله أو الأقنوم الثاني، بل كانوا يقولون: إنه بشر مطهر أرسله الله إلى بني إسرائيل ليرجعوا عن طريق الشر والغواية والكبر والعجب والمعاصي.

وكان **الناصريون (Nasarenes)** أو المتنصّرون أيضاً من الموحِّدين؛ وهم

اليهود الذين تنصّروا وآمنوا بيسوع عليه السلام نبيّاً ورسولاً.. وكان أغلبهم من منطقة الجليل ومن مدينة الناصرة (كلاهما في فلسطين)، ونسبوا إلى مدينة الناصرة في الجليل، وكانوا شديدين في أفكارهم على بولس وكادوا أن يقتلوه.

وكذلك كان **الأبيونيون (Ebonites)**؛ وهم الفقراء إلى الله.. وهم فرقة من اليهود ظهرت قبل زمن عيسى عليه السلام؛ وكانوا متمسكين بالتعاليم الحقة، وعمل البرّ والتواضع.. ولما ظهر عيسى عليه السلام آمنوا به وآزروه، وكانوا على أنقى صور التوحيد.

والشيء ذاته يقال عن **الآسيين**؛ وهم فرقة من اليهود ظهروا قبل زمن يسوع واستمروا إلى ما بعده، وقد اهتمّ الباحثون بهم بعد اكتشاف مخطوطات مغارة قمران في جنوب الأردن قرب البحر الميت.

وقد سمّاهم الفيلسوف والمؤرِّخ اليهودي فيلون الإسكندري (القرن الأول بعد الميلاد) (Theraputy Theo) أي: أطباء الله، لأنهم يداوون الناس مجاناً، تقرّباً إلى الله.. وكانوا ينتظرون مجيء المسيح، ولهم نظام صارم، ويهتمون بالاغتسال والنظافة، ويصلّون في الفجر صفوفاً متجهين إلى الجنوب (أي: إلى مكة!!) ويلبسون الثياب البيضاء.. ولا يتزوجون، ويربون الأطفال الأيتام بدلاً من ذلك.

وبما أنهم كانوا منعزلين فإنهم لم يروا المسيح، وإنما رأوا الحواريين فآمنوا ورجعوا إلى أماكنهم، ثم اجتاحهم الرومان ولم يبق منهم أحد.

ومن الفرق **الموحّدة بولس الشمشاصي وفرقته** وهو (أسقف أنطاكية سنة ٢٦٥م)، وكان يعلن أن يسوع رسول الله، غير أنه ولد لمريم العذراء من دون أب، وأن يسوع لم يدَّعِ قط أنه إلٰه أو ابن الإلٰه. وقال عنه ابن حزم: «كان بطريركاً بأنطاكية.. وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح، وأن عيسى عبد الله ورسوله، كأحد الأنبياء، خلقه الله معجزة من غير أب.

ومنهم **آريوس (٢٥٦ ـ ٣٣٦م)** وأصرّ على نحلته بأن يسوع بشر، وليس بإلٰه

ولا ابن الله، وقد طردته الكنيسة، وبقي أنصاره فترة من الزمن ثم اضمحلّوا واختفوا بعد الاضطهاد والمحاربة.

وأما نسطورس (٣٨٠ ـ ٤٥١م) فقد أعلن أن مريم ولدت يسوع الإنسان وليس الإلٰه.. ولكنه اتّحد بعد الولادة بالله (بداية الكفر)؛ فهو ابن الله بالمجاز وليس بالحقيقة، وطردته الكنيسة ولعنته من أجل قولته تلك.

وبقي **أفراد موحّدون هنا وهناك**:

منهم **ورقه بن نوفل** الذي آمن بالنبيِّ محمد ﷺ. وقال له: والله إن هذا لهو الناموس الذي أُنزل على موسى، ليتني أكون حيّاً حين يُخرجك قومك فأنصرك فقال رسول الله ﷺ: «**أو مُخرجيّ هُم؟**» قال: ما جاء نبيّ بمثل ما جئت به إلا أخرجه قومه.. ليتني فيها جذعاً، لأنصرنك. وهكذا كان ورقه بن نوفل أول من أسلم بعد خديجة رضي الله عنها؛ فإسلامه قبل أبي بكر وعثمان وعمر وعلي وغيرهم من كبار الصحابة.

ومنهم **سلمان الفارسي** رضي الله عنه انتقل من المجوسية ودخل النصرانية، وتبع أحد الأحبار المتنسكين الذي أخبره أنه قد أظلَّ زمن نبيّ يظهر من جزيرة العرب بين ماء ونخل، فاتجه إلى يثرب، فأخذه العربان وباعوه ليهودي في المدينة، فلبث حتى هاجر رسول الله ﷺ فأسلم.

ومنهم **عدّاس (غلام)** صفوان بن أمية، نصراني كان يعمل في بستان صفوان بن أمية، فلمّا لجأ رسول الله ﷺ إلى الطائف أقبل عليه عدّاس وأعطاه قطفاً من عنب، فقال له الرسول ﷺ: «**من أين أنت؟**» فقال عداس: من نينوى. فقال رسول الله ﷺ: «**من مدينة يونس بن متّى؟**» فقال عدّاس: وما أعلمك بيونس بن متّى؟ قال: «**ذاك أخي نبيّ الله يونس بن متّى، وأنا نبيّ ورسول مثله**» فأكب عليه عدّاس يقبّل يديه ورجليه.

ومنهم النجاشي أصحمة، ملك الحبشة، فأسلم، وأسلم بعده كثير من الأحبار.. وأسلم كثير من النصارى في الشام ومصر والعراق وغيرها بعد الفتوح، أسلموا طواعية بعد أن عرفوا أنوار الإسلام.

وعندما ظهرت حركة **الإصلاح الديني في أوروبة في** القرن السادس عشر الميلادي، ظهر منهم موحّدون مثل **أرزاموس** (١٤٦٥ ـ ١٥٣٦م) الذي حذف الفقرة الوحيدة في العهد الجديد، التي تنص صراحة على التثليث، وهي في رسالة يوحنا الأولى (٥/٧) وليست في إنجيل يوحنا، وتقول الفقرة: فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة: الأب والكلمة والروح القدس.. وهؤلاء الثلاثة هم واحد.. والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة: الروح والماء والدم.. والثلاثة هم واحد»[(١)].

الموحّدون في أوروبة:

ويذكر **فلبر في كتابه (تاريخ الموحّدين)** أن **كالفن رفض قانون الإيمان (عقيدة نيقية)**، وبدلاً من ذلك جعل قانون الرسل والوصايا العشر والصلاة الربانية، أساس كتابه (خلاصة العقيدة) الذي صدر في جنيف عام (١٥٤١م) بدلاً من عقيدة نيقية التثليثية.

وكتب **سرفتس** في إسبانيا كتاباً أسماه (أخطاء التثليث)، وقال عن الثالوث: إنها اختراعات فلسفية لا تعرفها الأسفار المقدّسة. وندّد باضطهاد المسلمين واليهود في بلده إسبانيا، (محاكم التفتيش المرعبة).

وظهرت مجموعات مختلفة في أوروبة والولايات المتحدة تدعو صراحة إلى التوحيد، ونبذ التثليث. ويقول **شانينج** (عام ١٨١٩م): «**إن الثلاثة أقانيم تتطلب ثلاثة جواهر، وبالتالي ثلاثة آلهة.. إن الأسفار لم تُعْطِ أيّ مستند للاعتقاد في التثليث.. إن نظام الكون يتطلب مصدراً واحداً للشرح والتعليل لا ثلاثة، لذلك فإن عقيدة التثليث تفقد أيّ قيمة علمية أو دينية**»[(٢)]، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ويقول: «**إن عقيدة بولس، وهي أن يسوع ابن الله مات من أجل خطايانا،**

---

(١) دائرة المعارف الأمريكية، طبعة ١٩٥٩م، ج ٢٧، نقلاً عن اللواء المهندس أحمد عبد الوهاب في كتابه: طائفة الموحدين من المسيحيين عبر العصور، ص ٣٥.

(٢) أحمد عبد الوهاب: طائفة الموحدين من المسيحيين، ص ٣٨.

وصار هو الخطيئة واللعنة حتى يقينا اللعنة، إنما هي عقيدة أسطورية وغير منطقية، وتعني الطعن في أخلاق الله (الأب). . إن الله يحب أن لا يُعرف عن طريق اللعنة، بل عن طريق الحلم والحكمة والمحبة. إن الأب الحكيم المحب لبنيه لا يُهلك الولد المخطئ (فضلاً عن أن يُهلك ويعذّب ابنه الوحيد الحبيب)، لكنه يعلّمه ويقوده في طريق الحكمة والفضيلة. إن الموت الدموي على الصليب من أجل إطفاء لعنة الله لهو أمر مناقض للحلم الإلٰهي والصبر والحكمة والمحبة التي لا نهاية لها»[(١)].

وانتشرت حركة مضادة للتثليث في إيطاليا (١٥١٧ ـ ١٥٥٣م) وكانت تنكر الأقانيم الثلاثة وتقول: (إنما هو إلٰه واحد لا إلٰه إلّا هو). كما كان في ألمانيا عدد من الموحّدين سخروا من التثليث وعقيدة الفداء والصلب واعتبروها عقيدة وثنية؛ ومن هؤلاء مارتن سيلاريوس، وهانز دنك، ويوحنا كمبنوس. وفي هولندا ظهر داود يوريس، وكان ينادي علانية بعقيدة التوحيد، ويرفض التثليث[(٢)].

وفي بولندا تحوّلت أكثر من (٢٠٠٠) كنيسة إلى التوحيد في القرن السادس عشر الميلادي، ثم تحولت إلى البروتستانتية. وفي عام (١٦٠٥م) صدر بيان الموحّدين البولنديين، وفيه: إن الله واحد في ذاته، وإن المسيح إنسان حقيقي، ولكنه ليس مجرد إنسان، وإن الروح القدس ليس أقنوماً، ولكنه قدرة الله. وفي عام (١٦٥٨م) طردت الكنيسة الكاثوليكية جماعة الموحّدين وبدأ اضطهادهم. وبحلول عام (١٧٣٦م) نفيت جميع المجموعات الموحّدة[(٣)].

وانتشر الموحِّدون أيضاً في المجر في القرن السادس عشر ثم اضطهدتهم الكنيسة!. . وفي ترانسلڤانيا ظهر فرانسيس داود (ولد عام ١٥١٠م) بدعوة التوحيد سنة (١٥٦٦م)، وحكم عليه بالسجن إلى أن توفى عام (١٥٧٩م)، وزاد الاضطهاد في عهد ماريا تريزا (١٧٤٠ ـ ١٧٨٠م).

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠ ـ ٤٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٢ ـ ٤٥.

وفي القرن التاسع عشر قدَّم الموحّدون من بريطانيا معونات لإخوتهم الموحّدين من أهل المجر وترانسلفانيا. . وفي بداية القرن العشرين كان في المجر وترانسلفانيا نحو (١٦٠) كنيسة موحّدة. وفي هولندا انتشرت عقيدة التوحيد، وظهر منهم عدد ليس بالقليل واشتهر منهم شولتن وتيليه وكنن. **وفي هولندا ظهرت الجمعية الدولية للحرية الدينية وتولى رئاستها الهولنديون.**

وظهر في بريطانيا جون بيدل (١٦١٦ ـ ١٦٦٢م)[١] **ونادى بالتوحيد** بعد أن حصل على الماجستير من جامعة أوكسفورد عام (١٦٤١م). وكان الفيلسوف والمفكّر والأديب **الإنجليزي جون لوك ينادي بأن يفهم الكتاب المقدّس في إطاره التاريخي، وأن لا يفهم حرفيّاً**. ثم ظهر **جون بريستلي، عالم الكيمياء والفيزياء المشهور، وانتقد التثليث، وأعلن التوحيد سنة (١٧٦٨م) ونشر رسالة بعنوان: «التماس إلى أساتذة المسيحية المخلصين الموقّرين» وطالبهم بالتوحيد، فأدت تلك الرسالة إلى اضطهاده وإلى أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية.**

ويعتبر ثيوفلس ليندساي (١٧٢٣ ـ ١٨١٨م) من مؤيدي بريستلي ومعارفه، وأسس كنيسة للموحّدين، وقد انضم إليها توماس بلشام (١٧٥٠ ـ ١٨٢٩م) وتأسست «الجمعية التوحيدية لترقّي المعرفة المسيحية وممارسة الفضيلة»، وأخيراً تكوّن **«الاتحاد البريطاني ـ الأجنبي للتوحيد» ليضمّ الموحِّدين من دول أخرى.**

وكان لجيمس مارتينو (١٨٠٥ ـ ١٩٠٠م) دور كبير في أن الكتاب المقدّس كُتب بأقلام بشر عاديين ليسوا معصومين من الخطأ. **وفي عام (١٩٥٩م) كانت هناك حوالى (٤٠٠) كنيسة للموحِّدين.**

وقد سبق الحديث عن **جون هيك محرر كتاب (أسطورة تجسُّد الإلٰه)** الذي وضعه مجموعة من أساتذة علم اللاهوت في بريطانيا، وقرروا فيه أن يسوع بشر وليس إلٰه. وإن القول بتجسُّد الإلٰه فيه ليس إلا أسطورة. (ظهر الكتاب عام ١٩٧٧م).

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٧ ـ ٥١.

وذكر الدكتور مراد هوفمان كما أشرنا، عدداً كبيراً من هؤلاء الموحِّدين الذين يُعتبرون من علماء اللاهوت المسيحي.

وفي الولايات المتحدة انتشرت حركة الموحِّدين منذ القرن التاسع عشر، وتكونت جمعية التوحيد الأمريكي عام (١٨٢٥م)، وفي عام (١٩٥٩م) كان في الولايات المتحدة (٣٧٠) كنيسة توحيدية وعدّة مدارس للتوحيد، واحدة منها في جامعة هارڤارد، وأخرى بجامعة بركلي في كاليفورنيا، ومدرستان للتوحيد في شيكاغو.

وهناك أعداد متزايدة من المؤلفين الذين يُنكرون ألوهية يسوع ويشدّدون على أنه بشر رسول من الله، وليس أكثر من ذلك، وهو رسول عظيم مكرّم، له العديد من المعجزات، ولكنه ليس بإلٰه ولا ابن الإلٰه ولا الأقنوم الثاني من الثالوث المقدّس!! ولهذا يتزايد عدد الذين يدخلون الإسلام من هؤلاء المفكّرين، لأنهم لم يجدوا ديناً غيره رفع مكانة يسوع وكرَّمه، وفي نفس الوقت أعلن أنه بشر لا إلٰه. وواجب المسلمين العمل على توسيع هذه الدائرة، فالتثليث يحتضر، والخرافات والأوهام لا بد أن تزول.. والعمل للإسلام واجب ثقيل، وخاصة في هذه الأيام التي يُتهم فيها الإسلام بالإرهاب والتعصب... إلخ.

عبد الوهاب المسيري وموقفه الغريب من الموحِّدين:

والغريب حقّاً هو موقف الدكتور عبد الوهاب المسيري من هؤلاء الموحِّدين؛ فقد أطلق عليهم في كتابه (العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة) اسماً غريباً واشتقاقاً خاصاً **هو (الموحدانية Unitarianism)**؛ وتحدّث عنها باعتبارها شكلاً من أشكال البروتستانتية المتطرّفة، وأنها اجتذبت إليها عدداً من أعضاء الجماعات اليهودية.

ويعرّف الموحدانية بقوله: «عقيدة مسيحية تُنكر عقيدة التثليث ولاهوت المسيح، (أي: كونه إلٰهاً أو ابن إلٰه)، وهي نتاج حركة الاستنارة والعقلانية. ويمكن القول: إنها شكل من أشكال الربوبية، **أي: صيغة شبه علمانية للمسيحية**».

وهو قول مجانف للحق بعيد عن الصواب؛ فالحركة التوحيدية في المسيحية قديمة جدّاً كما أوضحنا، واختفت في الغرب لقرون طويلة بسبب الاضطهاد والقتل والنفي، ثم ظهرت في عصر النهضة والحركة التنويرية، وظهور الحرية الدينية، ورغم ذلك عانت من الاضطهاد كما أوضحنا.

وكان أول من ظهر في الغرب بعقيدة التوحيد هو الراهب بيلاجيوس البريطاني، والمتوفى سنة (٤٢٠م)، والذي حاربه بشدة القديس أوغسطين الذي اعتبره مهرطقاً.. وكذلك قام الراهب الإسباني سيرفيتوس برفض عقيدة التثليث وإعلان التوحيد، وأن عقيدة التثليث دخيلة على المسيحية الحقة ولا وجود لها في الأناجيل (سوى بعض الإضافات المتأخّرة جدّاً).

ويقول المسيري عن عقيدة الموحِّدين (الموحدانية): «إنها حركة عقلانية جافَّة»، وهو قول ظالم، قال به عبّاد المسيح والمثلّثون.. ومن الخطأ الفاحش أن يتهمهم المسيري بذلك.. وقد ركّز هؤلاء الموحّدون على أن الله واحد، وأن يسوع بشر، وقائد عظيم، وليس ابن الله، ولا الأقنوم الثاني في الثالوث المقدّس.. وأن ما يُسمّى الكتاب المقدّس كتاب كتبه بشر ليسوا معصومين، وبالتالي فالكتاب المقدّس هذا مليء بالأخطاء التاريخية والعلمية، ولا يمكن أن يُقرأ باعتباره كتاباً مقدّساً معصوماً، بل هو كتاب موعظة.. ويرفضون عقيدة الخطيئة الدائمة التي وقع فيها آدم (وهو أكله من شجرة المعرفة). ويقولون: إن الإنسان مفطور على حب الخير، ويغويه الشيطان، ويمكن أن يسقط في الخطيئة، ولكنه يعود إلى الصفاء والخير بالتوبة وعمل البِر.. ووقفوا ضد الكنيسة التي تحتكر لنفسها الخلاص ورأوها طاغوتاً تحتكر لنفسها القداسة، وتفسير الكتاب المقدّس، وإعطاء صكوك الغفران.

وقد اتفق الكالفينيون (بروتستانت) مع الكاثوليك والكنائس الأخرى باعتبار الموحِّدين خارجين عن المسيحية!.. والحق أنهم خارجون على الدين المسيحي الذي ظهر منذ مؤتمر نيقية (٣٢٦م)، وما تبعه من مؤتمرات وعقائد.. ولكنهم دون ريب هم المسيحيون التابعون للمسيح ﷺ، وهم أنصار الله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ

عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وبدلاً من أن يشيد بهم عبد الوهاب المسيري، باعتباره مسلماً موحِّداً مؤمناً بالقرآن؛ نراه يتخذ موقفاً غريباً كلّ الغرابة؛ حيث يقول عن عقيدتهم: «إنها عقيدة شبه علمانية، أو تكاد تقترب من العبادات الجديدة، إذ لا توجد فيها فكرة الإلٰه المفارق المتجاوز للإنسان والطبيعة؛ فالإلٰه قد حلَّ في مخلوقاته وتوحّد معها، وشحب تماماً، وتحول إلى ما يشبه مبادئ الطبيعة والضرورة التي لا شخصية ولا وعي لها، وأصبحت كل الأمور متساوية ونسبية»(١).

وهذا الذي قاله المسيري بُهتان، فالقوم كُتبهم موجودة، ومقالاتهم منشورة، وهم يؤمنون بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، خالق الأكوان كلها، وخالق البشر بما فيهم يسوع المبجّل، ويسوع لا يعدو أن يكون بشراً رسولاً نبيّاً، ذو قدر عند الله ومكانة، ولكنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الله إلى مريم بواسطة الملك جبريل، فوُلد معجزة من دون أب (وبعضهم لا يذكر ذلك).

ولست أدري لماذا يغتاظ المسيري [المسلم] من هؤلاء الموحِّدين الذين يقولون: إن المسيح بشر، وإن الله واحد، ويرفضون كل خزعبلات الكنيسة. وما دام المسيري مؤمناً موحِّداً، فعليه أن يكون موقفه مثل موقف مراد هوفمان من هؤلاء، حيث مدحهم، ورأى أنهم أقرب الناس إلى الإسلام.. وأن الكنائس المسيحية تحاربهم، وتضع أمامهم العراقيل كي لا يصلوا إلى الجماهير العريضة!.. وكذلك تفعل أجهزة الإعلام الغربية معهم.

ولا يمنع ذلك أن تكون هناك بعض الأخطاء منهم، فهم ليسوا مسلمين بعد، ولكنهم أقرب المجموعات المسيحية كلّها إلى الإسلام. ومن أخطائهم أنهم يقولون: إن يسوع صُلب، وكان لا بد أن يُصلب لما جاء به من عقائد مخالفة

(١) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، القاهرة: ٢/ ٣٩٤.

لعقائد اليهود، وعقائد الدولة الرومانية (ويرفضون تماماً عقيدة المخلّص والخروف الذي افتدانا بدمه. . . إلخ).

كما أن بعضهم يعتبر قصة ولادة يسوع، بكلمة الله عن طريق الملك قصة شاعرية جميلة، وأن قصص الأمّهات العذارى كانت منتشرة في ذلك الزمان، فأم الإسكندر المقدوني يزعمون أنها كذلك، بل وأم كثير من الأباطرة، وحتى الفلاسفة مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو. . . إلخ، كانوا كذلك. (انظر كتاب أسطورة تجسُّد الإله، تحرير جون هيك). ويعتقدون: أن ولادته كانت طبيعية، وأن مريم كانت مخطوبة ليوسف النجار، وأنه تزوجها، ولا يمنع ذلك أن يكون يسوع ابن يوسف النجار؛ (لا يصرّحون تصريحاً واضحاً بذلك).

على أية حال وجود مثل هذه الأخطاء لا تنفي عنهم أنهم موحِّدون، وأنهم مؤمنون بالله ربّاً، وبيسوع عبد الله ورسوله. . ولكنهم مع ذلك ليسوا مسلمين، وإن كانوا أقرب الناس إلى الإسلام، وعلينا واجب كبير في الاقتراب منهم، ودعوتهم إلى دين الله الحق، الذي رفع مكانة عيسى عليه السلام، وطهَّر أمّه من كل وصف ذميم. . وفي نفس الوقت وضع عيسى في موضعه اللائق به، وهو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، عليه وعلى أنبياء الله جميعاً صلوات الله ورحمته وبركاته.

وقد استمرَّ المسيري في هجومه واعتبر الموحّدين فرقة علمانية، وأن القول بفكرة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد المتجاوز يمكن أن يختفي عن طريقين:

الأول: أن يزداد الإله (المبدأ الواحد) في حلوله واقترابه، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [قَ: ١٦] حتى يتحوّل الحلول والكمون إلى وحدة وجود روحية، ثم مادية. (وهذا كلام لا دليل عليه، بل هو بُهتان متعمّد لمحاربة التوحيد).

والثاني: هو أن الإله (المبدأ الواحد) يزداد تجريداً ومفارقة للمخلوقات، حتى يصبح تعطيلاً. (ونحن نرفض التجسيد، والحلول، والاتحاد، والتعطيل، وقد فَصَّلت العقائد الإسلامية في هذا الموضوع تفصيلاً كاملاً).

ويقول المسيري: إن إله (كالفن) الذي لا يُسبر له غور، وصاحب الإرادة

المطلقة، يتحوّل عند هؤلاء إلى التعطيل الكامل بسبب هذه التجريد للإله (كما فعل أرسطو وفلاسفة اليونان الإلهيين). ويقول: «أي أن الكالفينية نفسها إن هي إلا حلقة أولى تؤدي إلى الموحدانية»[١] (أي التوحيد).

ويبدو أن المسيري قد اغتاظ من تحوّل كثير من أعضاء الشرائح العليا والوسطى إلى هذه العقيدة التوحيدية، وأصبحت معظم كنائس بوسطن كما يقول تؤمن بالعقيدة الموحدانية هذه.. وقد أعفتهم كنائسهم هذه من القيام بأية شعائر أو طقوس، مخالفين بذلك الكنائس التقليدية.. وأكدت الموحدانية للإنسان أن الخلاص متيسّر، وأن النعمة قد حلّت (دون الحاجة إلى الإيمان بيسوع المخلّص الذي صار خطيئة ولعنة من أجلنا كما يقول بولس). ويقول: إن عددهم في الولايات المتحدة قد جاوز المئة ألف شخص.

ويقول المسيري: «والكنيسة الموحدانية تعبير عن حلولية مرحلة وحدة الوجود، ولكنها كانت ذات طابع عقلاني جاد وجاف (وكادت العبادة تكون مثل البحث العلمي والبحث الصارم عن البراهين)»[٢]. ويغتاظ المسيري من استعمالها للعقل، ورفضها لخرافات الكنيسة، وعقائد بولس الوثنية، وعقيدة الخلاص، والخروف الذي ذُبح من أجلنا ليخلّصنا من الخطيئة (خطيئة آدم لأكله من شجرة المعرفة)، فصار يسوع ابن الله الممجّد هو الخطيئة وهو اللعنة، كما يقول بولس ليخلّصنا من الخطيئة واللعنة!!.

ويا عجباً للمسيري الذي يهاجم بشدة من يهاجم هذه العقائد الخرافية الأسطورية، ويصفها بأنها جافة وعلمية وعقلانية؛ فماذا يريدها هو؟ أسطورية، شاعرية، خرافية، وثنية!!..

ويتحدّث المسيري أن حركة الحضارة الأخلاقية تشبه الموحدانية واليهودية التجديدية في كثير من النواحي، وأن كثيراً من اليهود وخاصة من أعضاء الشرائح

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٣٩٤.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٣٩٥.

العليا من المجتمع الذين يودّون تحقيق الانتماء الكامل إلى المجتمع الأمريكي ينضمون لهذه الكنيسة الموحدانية.

ونقول للمسيري: ليس هذا الأمر بغريب، فاليهود في الأصل موحِّدون، ولكن مصيبتهم الكبرى: أنهم يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه على الحقيقة والمجاز، وأن الله قد حلّ فيهم، وعقيدة الحلول اليهودية ترى أن الله قد حلّ وتجسَّد في شعبه، وفي أرضه (أرض إسرائيل)، وفي توراته (الكتاب المقدّس): ولهذا يرون أن الله قد حلّ، واتحد، وتوحّد (الحلول، الاتحاد، وحدة الوجود) في الشعب اليهودي وارتز (أرض) إسرائيل، والتوراة (الكتاب المقدّس واللوجوس والكلمة التي بها خلق كل شيء).

ولهذا فإننا نرى بعض المفكّرين اليهود الذين يرفضون هذه العقيدة العنصرية النازية النتشوية، يتحوّلون إلى الإيمان بهذه الكنائس التوحيدية؛ ذلك لأن الإيمان بهذه الموحدانية (كما سمّاها المسيري) أيسر عليهم من الإيمان بالمسيحية التقليدية التي تزعم: أن الله ثالث ثلاثة، وأن الله قد تجسّد في يسوع المسيح، وأن الله قد جاء وتجسّد في صورة يسوع البشري ليموت على الصليب، ويتألم ويبكي من أجل أن يخلّصنا من الخطيئة، ويكون هو ملعوناً حتى يخلّصنا من اللعنة!!.

ولكن المسيري لا يعجبه ذلك، فيهاجم هؤلاء الموحِّدين ومن انضم إليهم من اليهود!.. ولكأنما يريدهم أن يبقوا على نفس المسيحية الكلاسيكية الوثنية التثليثية، أو اليهودية صاحبة عقيدة شعب الله المختار الذي حلّ الله فيهم وحلّوا فيه!!.

وهو موقف نستغربه تماماً من الأستاذ عبد الوهاب المسيري، وخاصة بعد أن عاد إلى الإسلام وترك ما كان فيه من علمانية وإلحاد وشيوعية فكرية، ولكن ثقافته الواسعة في هذه الميادين وتأثيراتها وصداقاته المتعددة تشدُّه أحياناً إلى بعض ما كان عليه من اضطراب في المفاهيم. نسأل الله لنا وله الهداية والرشاد.

وهذا الذي وقع فيه هنا، وفي مواضيع أخرى أشرنا إليها، لا يمنعنا أبداً من الإشادة بكتابه (العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملية) فهو أوسع وأعمق من كتب بالعربية في هذا الباب، حسب علمي. وكتابه، رغم ما فيه من أخطاء، بعضها هام جدّاً، مرجع أساسي لكلٍّ من أراد أن يدرس العلمانية دراسة عميقة وجادة.

* * *

الفصل الثالث

قداسة اليهود..
ما هو المقدّس؟ وما هو غير المقدّس؟

بحثنا في الفصل الأول تعريف العلمانية (Secularism) المعجمية، وفي العلوم الحديثة، ووجدنا أن المعاجم الغربية مثل معجم وبستر، ومعجم أكسفورد، ودائرة المعارف البريطانية، ومعجم علم الاجتماع المعاصر، تتفق كلها في تعريف العلمانية: بأنها العقيدة التي ترى إبعاد الدين عن الدولة، وأن كلمة علماني (Secular) تعني: «مهتم بهذا العالم الزمني، **غير مقدّس** (مدّنس Profane)، في مقابل الديني والمقدس. والعلماني هو الدنيوي الذي لا علاقة له بالدين أو بالروحانيات أو الغيبيات».

آدم مقدّس:

ولكن من أين جاء مفهوم المقدّس فيما يسمّى الحضارة اليهودية ـ المسيحية؟[1] نستطيع أن نتبيّن ذلك من دراستنا للعهد القديم، وبالذات سفر

---

(١) انتشر استخدام لفظ «الحضارة اليهودية ـ المسيحية» ولفظ «الأخلاق اليهودية ـ المسيحية». مع أن المعركة بين اليهود والنصارى معركة أبدية، فاليهود هم الذين حاربوا عيسى عليه السلام واتهموا أمّه بالزنى، وأنه ساحر، وكذّاب، وأفّاق، ومهرطق.. ويتحدّث التلمود عن كتب العهد الجديد: بأنها كُتب الإثم والعار، وتلامذة المسيح ملحدون وهراطقة، والكنائس بمثابة قاذورات ومزابل، والواعظون فيها كلاب نابحة، ويسوع الناصري موجود في لجات الجحيم، وقد ارتدَّ يسوع عن دين اليهودية وعبدة الأوثان.. وقَتلُ النصارى من الأفعال التي يكافئ الله عليها، وعلى اليهودي أن يتسبب في إهلاكهم بأية وسيلة. وقد جاء في سفر متّى والأناجيل الأخرى: أن السنهدرين (المحكمة العليا لليهود) هي التي أمرت بقتل =

التكوين، حيث جاء في **قصة خلق آدم** بعد أن خلق الله الكائنات: «وفي اليوم السادس صنع الله البهائم»، ثم قال الله: «نعمل الإنسان على صورتنا.. كشبهنا، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه» (التكوين: ١/ ٢٥)، وفي سفر التكوين (الإصحاح ٢): «وجبل الربُّ الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة الحياة، فصار آدم نفساً حية».

وهكذا تكوّن آدم من نوعين مختلفين وجبلّتين متغايرتين: «جسده من التراب وروحه (حسب زعمهم) من ذات الله»، فصار فيه شيء مادي (مدنَّس) وشيء إلٰهي مقدّس؛ وهو تماماً على صورة الله حسب زعمهم. وإذا ذهبت إلى الكنيسة السيستين في الڤاتيكان الملحقة بكنيسة سانت پيتر (القديس بطرس)، والتي يدخلها عشرات الملايين من السيّاح سنويّاً، سترى في سقفها لوحة فنية رسمها الفنّان الإيطالي الشهير مايكل أنجلو.. وقد مكث ست سنوات على سقالة وهو يرسم هذه اللوحة، حيث توضّح رجلاً قويّاً مفتول العضلات كثّ اللحية والشارب، يخلق صورة مشابهة له تماماً، وهو آدم.. وهذا التجسيم والتجسيد لله في اليهودية والمسيحية شديد الوضوح، فالله عندهم قد تجسَّد في المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.. والصورة التي رسمها مايكل أنجلو لله حسب زعمهم، تشابه تماماً صورة كبيرة الآلهة عند اليونان زيوس.

وقد يغلط بعض الناس في فهمهم للآية الكريمة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، ويظن أن الروح التي نفخها الله في آدم هي جزء من روح الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. و(مِنْ) ليست تبعيضية، وللأسف فإن ترجمات القرآن الكريم تفهم هذا المعنى، وهو خطأ كبير.

ونسبة الروح إلى الله، كنسبة البيت والناقة والعبد والرسول، فيقال: بيت

= يسوع وصلبه. فهم أعداء يسوع أبد التاريخ، والعداء بينهم وبين النصارى أبدي، ولكن الأكاذيب تروِّج هذه الأيام، وهم سدنة الكذب والخداع، وأبو الكذب يدعون كما قال عنهم يسوع في الإنجيل.

الله، ويقصد به الكعبة، أو أيّ مسجد من المساجد، ويقال: ناقة الله، والمقصود بها الناقة التي خلقها الله من الصخرة لقوم ثمود والتي عرفت باسم ناقة صالح عليه السلام، وفي الآية الكريمة ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]. . وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وكلّها إضافات تقتضي التشريف والتكريم، فالبيوت كلّها بيوت الله، والنوق كلّها له، والعبيد جميعاً عبيده، والخلق كلّهم ملك يده، فأضاف فرقة منهم إليه، وسمّاهم حزب الله، وسمّى الفرقة الأخرى حزب الشيطان، وعبّاد إبليس والهوى، وكلّهم خلقه وعبيده. والإضافة إليه سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتكريم فقط، لا إضافة بعضيّة ولا جزئية. تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وكما يقول الإمام عبد الله العيدروس في كتابه (الدر والجوهر): «إذا وصل الذاكر إلى عالم الروح برز له نعت القِدم بتنصيص التخصيص، ومنشور التشريف من باب ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾. . . فتنزّه القدم (أي: الله) عن الحدث (أي: المخلوق). . وتنزّه القديم (أي: الله جلّ جلاله) عن المحدث (أي: المخلوق)، وجلّت الأولية عن الوصل والفصل. . إضافتك إليه إضافة قُرب لا إضافة نسبة، إضافة كرم، لا إضافة قِدم، هو منزّه عن كل إضافة، وإن قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾.

الروح التي في آدم عند اليهود والنصارى من ذات اللّه:

واليهود والنصارى يعتقدون أن الله خلق آدم ونفخ فيه من روحه؛ أي من ذاته، وبالتالي فإنَّ آدم مقدّس لأنَّ فيه حسب زعمهم الباطل جزءاً من ذات الله. كما يعتقدون أن الله خلق آدم على صورة الله، فهو يشبهه تماماً، وإن كان حسب اعتقادهم أصغر حجماً، وأقلّ وزناً، وأقلّ قدرة، لكنه مثله في الشكل والهيكل تماماً.

وقد خلق الله حواء من ضلع آدم، وأنجبت حواء من آدم مجموعة من الأبناء

والبنات، هؤلاء تسمّيهم التوراة أبناء الله. ويعتقد اليهود أن آدم (كما جاء في التلمود) كانت له عشيقة من الجن اسمها ليليت؛ عاشرها لمدة (١٣٠) سنة، وأنجب منها أبناء وبنات كثيرين، كما أن حواء حسب خرافاتهم وأباطيلهم اتخذت لها مجموعة من الشياطين عُشَّاقاً، وأنجبت منهم أبناء وبنات، وتسمّي التوراة أبناء وبنات آدم من عشيقته ليليت، وأبناء وبنات حواء من عُشّاقها من الجن أبناء الناس.. أما أبناء آدم وحواء فهم بنو الله.

ولذا جاء في الإصحاح السادس من سفر التكوين من التوراة المحرّفة: «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات: أن أبناء الله رأوا أن بنات الناس حسنات (أي: جميلات) فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الربُّ: لا (يبقى) يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر. وتكون أيامه مئة وعشرين سنة. كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم».

وهو نفس التصور اليوناني لما يسمّى المردة التيتانيك (Titanic) (تذكَّر اسم السفينة التي غرقت في بداية القرن العشرين تيتانك وجعل لها فيلم ضخم). والتيتانك في التصور اليوناني الوثني هم نسل الآلهة من زواجهم من البشر.. ومنهم سارق النار المقدّسة برومثيوس الذي سنورد قصته فيما بعد.

والأمم الوثنية تزعم: أن ملوكهم (الفراعنة في مصر، ونمرود في العراق، وملوك الهند، وأباطرة الصين واليابان) إنما جاؤوا من نسل الآلهة، وأن الله يتجسّد فيهم.

روح اللّه في نوح وأولاده الثلاثة:

وقد غضب الربُّ، حسب زعمهم في التوراة المحرّفة، لاختلاط نسب أولاده بأنساب أبناء الناس وبناتهم، فقرر الربُّ حسب زعمهم أن يغرق الأرض ويحدث الطوفان ويهلك جميع مَنْ في الأرض مِنْ إنسان وطيرٍ وحيوان ما عدا

نوح، لأنه وجد نعمة في عيني الرب.. وكان نوح من نسل آدم وحواء (من شيث ابن آدم وحواء) ولم يكن قد دخل نسبه شيء من بنات الناس (أي: أولاد الزنى).. لهذا كله نجّى الله نوحاً وزوجته وأولاده الثلاثة، لأنهم من نسل الله..

ولا ترد بطبيعة الحال في قصة نوح أنه دعا إلى عبادة الله، بل لا يرد في أسفار التوراة كلّها أن نبيّاً من الأنبياء ورسولاً من الرسل دعا إلى الله سبحانه وتعالى.. بل أقصى ما يعمله النبيّ أو الرسول أن يقدّم قرباناً لله فيشم الله رائحة الشواء فيعطيه مقابل ذلك أرضاً تفيض عسلاً ولبناً.

روح اللّه تحلّ على سام وتنتزع من حام:

وهكذا بقيت روح الله في نوح وأبنائه الثلاثة.. ولكن نوحاً حسب زعمهم بعد الطوفان زرع العنب وحصده، وعمل منه النبيذ (الخمر) فشربه وسكر وتعرّى.

جاء في سفر التكوين (الإصحاح ٩: ٢٠ ـ ٢٧): «وابتدأ نوح العمل على الأرض وغرَس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجاً (أي: خارج الخباء)، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما، ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره، علم ما فعل ابنه الصغير، فقال: ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لأخوته. وقال: مبارك الربُّ إلٰه سام، وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم».

والقصة غريبة جدّاً، ونتيجة رؤية حام لعورة أبيه تحوّل لونه إلى اللون الأسود، وصار عبداً لإخوته، وصار أولاده بالتالي عبيداً للبيض؛ ولهذا فإن الزنوج والسود كافة ينبغي أن يكونوا عبيداً لأبناء سام (اليهود) وأبناء يافث (الأوروبيين). وأما كنعان فتُصَبُّ عليه اللعنات، ومعروفٌ أن كنعان هو اسم للقبيلة أو الأمّة التي سكنت فلسطين، ولما كان كاتب السفر من اليهود، ويريد

الاستيلاء على أرض كنعان، أوجد هذه القصة الحقيرة ليلعن كنعان، وليأخذ أرضه وليبيده إبادة تامة، وهو ما نراه بأم أعيننا اليوم حيث تقصف الطائرات والمدافع اليهودية القرى وتقتل النساء والأطفال وتقوم بحرب إبادة في فلسطين ولبنان.

إذن تحوّلت روح الله إلى سام وبقيت فيه.. وسام إذن مقدّس، بينما حام وكنعان في منتهى النجاسة والتدنّس، وقد نزعت منهما روح الله هما ونسلهما إلى أبد الآبدين. فليس للسود روح من روح الله، ولا للفلسطينيين (كنعان وأبناء كنعان)، ولذا تجب إبادتهم واستعبادهم وأخذ أراضيهم.. إنها سياسة إسرائيل إلى اليوم دون أن تتغير، وأوروبة والولايات المتحدة تبارك كلّ هذه الأعمال الدموية والوحشية، بل وقد اقترف الأوروبيون هذه الجريمة النكراء عندما استوطنوا الولايات المتحدة حيث كانوا يعتبرون الهنود الحمر ممثلين لكنعان الذي تجب إبادته، ثم أتوا بالسود، أبناء حام، واستعبدوهم وقتلوا منهم الملايين.. إنها جريمة مستمرة مستخدمين فيها خرافات (الكتاب المقدّس) المليء بالأكاذيب والأساطير والجرائم التي لا تخطر ببال.

سكن اللَّه في خيام سام وإبرام:

وتحوّلت روح الله إلى سام وسكن الله في خيام سام!! ومن سام ونسله جاء إبراهيم عليه السلام، وكانت روح الله قد حلّت في إبراهيم. ورغم ذلك فإننا لا نرى إبراهيم يدعو أحداً لعبادة الله، بل كلّ همّه حسب زعمهم أن تكثر أمواله وغنمه ومواشيه، وأن يقدّم للرب قرباناً، محرقة، فيشمّ الربُّ، حسب زعمهم، رائحة الشواء، فيسعد بذلك جدّاً، ويقول لإبراهيم: «وقال الربُّ لإبرام (إبراهيم): اذهب من أرضك وعشيرتك، ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أُريك (أرض فلسطين، أرض كنعان المغضوب عليه) فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظّم اسمك» (التكوين: ١٢)، وذهب إبراهيم من أرض حاران في بابل إلى أرض غربته ومعه زوجته (وأخته من أبيه حسب زعمهم) ساراي (سارة)، وابن أخيه لوط بن هاران.

«اجتاز إبرام في الأرض إلى مكان شكيم (وهي مدينة نابلس الحالية)، وكان الكنعانيون في الأرض (أي: أرض فلسطين) حينئذٍ. وظهر الربُّ لإبرام، وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض، فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له (لأنه حسب زعمهم يحب المذبح والقرابين واللحم المشوي بصورة خاصة. وقد أكثر إبرام حسب زعمهم هو وبنوه من بناء هذه المذابح ليحصلوا على الأرض التي تفيض سمناً وعسلاً!!).

وقال الرب لإبرام: ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التي ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد. واجعل نسلك كتراب الأرض (لم يتحقق ذلك رغم مرور أربعة آلاف سنة، ورغم أن اليهود من أمم شتى دخلت الدين اليهودي، ولا يعرف اليوم مَنْ هو مِنْ نسل إبراهيم، ومَنْ هو مِنْ نسل الأمم التي تهوّدت إلا أن عدد اليهود في العالم لا يزيد عن (١٧) مليون شخص فقط» (سفر التكوين، ١٣: ١٤ ـ ١٧).

وتتكرر مزاعم الاستيلاء على هذه الأرض، ومساحتها التي تتسع أحياناً حتى تصل من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات، قال الرب حسب زعمهم الكاذب: «لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر (النيل) إلى النهر الكبير نهر الفرات».

روح الله تنتقل إلى إسحاق فقط:

ولمّا كانت ساراي (سارة) عاقراً أعطت إبراهيم جاريتها هاجر ليدخل عليها، فحملت هاجر وولدت إسماعيل. ولكن سارة غارت مِنْ هاجر ومِنْ ولدها إسماعيل وأذلّت هاجر، وغضب إبراهيم لذلك. ولكن ملاك الرب قال له: لكلِّ ما تأمرك ساراي افعل. فاستجاب إبراهيم لذلك، ولكنه توجه إلى الله بالدعاء قائلاً: «ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله: بل سارة تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق. وأقيم عهدي معه عهداً أبديّاً لنسله من بعده... عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت من السنة الآتية، فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم» (سفر التكوين، الإصحاح ١٧: ١٨ ـ ٢٢).

وهي صورة بشعة وقميئة لهذا الرب المزعوم الذي يظهر في صورة بشرية ليجعل روحه في إسحاق دون إسماعيل.

وتتالى القصة البشعة والمضحكة والحقيرة، ويكبر إسحاق الذي انتقلت إليه وحده روح الله وصار بالتالي مقدَّساً. وتزوج إسحاق من رفقة من بيت ناحور في العراق، لأن الله قد أمر إبراهيم أن لا يدنّس روحه بالزواج من بنات كنعان الذي لعنه الله، وخرجت منه روحه كما أسلفنا. «وقال إبراهيم لعبده، كبير بيته المستولي على كل ما كان له: ضع يدك تحت فخذي (طريقة يمين عجيبة) فأستحلفك بالربِّ إلٰه السماء والأرض أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم (والذين أحسنوا إلى إبراهيم حسب كلام التوراة نفسها)، بل إلى أرضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحاق» (التكوين الإصحاح: ٢٤).

وكان إسحاق ابن أربعين سنة لمّا اتخذ لنفسه زوجة، رفقة بنت بتوئيل ابن ناحور أخي إبراهيم عليه السلام الآرامي. وصلّى إسحاق لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً، فحبلت رفقة، وقال لها الرب الذي ظهر لها: «في بطنك أمَّتان، ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب، وكبير يستذل لصغير». (التكوين، ٢٥: ٢٠ ـ ٢٣). وقد خرج أولاً عيسو وهو أحمر وكلّه فروة شعر، ثم تبعه يعقوب (يتعقبه) قابضاً بعقب عيسو فدعي لذلك يعقوب. ويعقوب هو نفسه إسرائيل، ولهذا ينبغي أن يستعبد له الجميع بما في ذلك أخوه عيسو (يسميه العرب العيص)، ويكون نسل عيسو عبيداً لنسل إسرائيل، كما أن نسل إسماعيل ينبغي أن يكونوا عبيداً لنسل إسحاق.

روح اللّٰه يستولي عليها يعقوب بالخداع:

ولما شاخ إسحاق أراد أن يعطي البركة لابنه عيسو، ولكن رفقة كانت تحبّ يعقوب أكثر، فاحتالت على زوجها الأعمى ليأخذ يعقوب البركة. وانظر إلى هذه القصة الحقيرة والتافهة في سفر التكوين: «إن إسحاق لما شاخ وكلّت عيناه عن

النظر دعا ابنه عيسو وقال له: إنني قد شخت، ولست أعرف يوم وفاتي، فالآن خُذ جعبتك وقوسك واخرج إلى البريّة وتصيّد لي صيداً، واصنع لي أطعمة كما أحب، وائتني بها لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت» (التكوين، ٢٧: ١ ـ ٤).

وبما أن رفقة تحبُّ يعقوب فقد دعته وأخبرته بما قال أبوه إسحاق. وقالت له: «اسمع لقولي. اذهب إلى الغنم، وخُذ لي من هناك جديين جيدين من المعزى فأصنعهما أطعمة كما يُحبُّ، فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك (بالخديعة) قبل وفاته (وفعل يعقوب كما أمرته أمّه، ولبس يعقوب في يديه وعنقه جلد الجدي بشعره (حتى يظن إسحاق أنه عيسو كثير الشعر) ولبس أفخر ألبسة عيسو ودخل يعقوب على أبيه مقلّداً صوت عيسو) وقال: يا أبي! فقال إسحاق: هاأنذا من أنت يا بني؟ فقال: أنا عيسو بكرك قد فعلت كما كلّمتني. قم اجلس وكُل من صيدي لكي تباركني نفسك (واستغرب إسحاق سرعة عودة عيسو وشكّ في الصوت لهذا) قال له: تقدّم لأجسّك يا بني. فتقدّم يعقوب فقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو لأن يدي يعقوب كانتا مشعرتين كيدي عيسو، وشمّه إسحاق ووجد ريح عيسو فاطمأنت نفسه وأكل الجديين الكاملين في وجبة واحدة وأكل معهما خبزاً وشرب كمية كبيرة من الخمر حتى تنزل البركة، فلما أكل ذلك كلّه قام إسحاق وبارك ابنه قائلاً: فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر. وليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل، كن سيداً لإخوتك، وليسجد لك بنو أمك. ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين» (سفر التكوين، الإصحاح ٢٧).

هذه هي البركة؛ أموال وحقول وحنطة وخمر ولتستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل وتستعمر كلّ الأراضي وتكون أمبراليّاً حقيراً ينهب خيرات الأمم ويستعبدهم له.. إنها صورة علمانية دنيوية بشعة.. لا يوجد في التوراة كلها إلا عمليات نهب وسرقة وغش وخداع والاستيلاء على أرض الغير وأموالهم، وجعلهم عبيداً لبني إسرائيل إلى أبد الآبدين. ويكفي البشرية فخراً أن تتمجد بلعق حذاء بني إسرائيل!!.

أيّة نظرة عنصرية حقيرة أشدَّ هذه.. إن التوراة (المحرّفة) التي يتعبَّد بها هؤلاء اليهود والنصارى كتاب قذر (ما عدا بعض آيات تلمع فيها مثل الألماس والجواهر النفيسة وسط مزبلة).

وتتحدّث هذه التوراة المحرّفة أن فضيحة يعقوب وخداعه انكشفت لإسحاق. إذ إن إسحاق ما كاد ينتهي من إعطاء البركة ليعقوب الكاذب المخادع (حسب زعمهم وهو من ذلك بريء) حتى جاء عيسو بالصيد وقدَّمه لأبيه قائلاً: ليقمْ أبي ويأكل من صيده، حتى تباركني نفسك. فقال إسحاق أبوه: من أنت؟ قال: أنا ابنك بكرك عيسو. فارتعد إسحاق ارتعاداً عظيماً جدّاً وقال: فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إليّ فأكلت من الكل قبل أن تجيء وباركته؟ نعم ويكون مباركاً. وعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة جدّاً ومُرَّةً جدّاً. وقال لأبيه: باركني أنا أيضاً يا أبي، فقال إسحاق: قد جاء أخوك بمكرٍ وأخذ بركتك» (التكوين، ٢٧: ٣٠ ـ ٣٥) وألَّح المسكين عيسو على أبيه إسحاق أن يعطيه أي شيء مما بقي من البركة: «صاح عيسو أما بقيت لي بركة؟ فأجاب إسحاق: إني قد جعلته سيّداً لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيداً، وعضّدته بحنطة وخمر، فماذا أصنع لك يا بني؟!» القضية منتهية!! وظل المسكين عيسو يردد على مسامع أبيه: باركني أنا أيضاً، فباركه ببركة هي إلى اللعنة أقرب منها للبركة قائلاً له: «هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك، وبلا ندى السماء من فوق، وبسيفك تعيش، ولأخيك تستعبد».

هذه هي البركة التي حصل عليها عيسو، وكتب الأمر وقضي، فالبقاء للأصلح، والأصلح هو الأكثر خداعاً ولؤماً وحقارة.. هذه هي الداروينية الاجتماعية قد جاء بها قبل ثلاثة آلاف عام سفر التكوين.. فما أحقر هذا الكتاب وما أخبثه.. وعلى ضوئه سار بنو إسرائيل ثم تبعتهم أوروبة في ذلك، فكلّ مبادئ العلمانية والرأسمالية والأمبريالية والخداع، والسّرقة، والكذب، والبقاء للأصلح إنما جاءت من بركات هذا الكتاب الحقير!!.

روح اللّٰه في يعقوب ونسله إلى أبد الآبدين، ويهود إسرائيل في غالبيتهم ليسوا من نسل يعقوب:

وهكذا حلّت روح الإلٰه في يعقوب ونسله من بعده إلى أبد الآبدين. . وانتزعت هذه الروح من عيسو الأخ الأكبر لإسحاق كما انتزعت من قبل من إسماعيل، الابن الأكبر لإبراهيم، وأُعطيت لإسحاق. هذا رغم أن البكورية عندهم مقدّسة، ولها الأولية في كلٍّ شيء، ولكنها هاهنا تختفي لتعطى فقط ليعقوب وبنيه مهما فعلوا من نجاسات وقاذورات لأنهم لم يحصلوا عليها أصلاً إلا بطريق الخداع والكذب والزور والبهتان.

لهذا السبب بقي شعب إسرائيل شعباً مقدّساً مُكرَّساً للإلٰه، مهما فعل من آثام، ومهما اعتقد من أديان، حتى لو عبد الأوثان أو أنكر الأديان جملة وتفصيلاً؛ فالصادقيون الذين يؤمنون بالأسفار الخمسة (التوراة)، ولا يؤمنون بغيرها ولا بالتلمود ولا باليوم الآخر، أيضاً هم مقدّسون، لأنهم فقط من نسل يعقوب وإسحاق وإبراهيم.

وتورّث القداسة عندهم من الأب للابن طالما كان من نسل يعقوب (شعب الله المختار) هذا مع العلم أن أكثر اليهود في الأرض اليوم ليسوا من نسل يعقوب، بل من المجموعات التي تهوّدت، فيهود أوروبة الشرقية وبولندا هم من يهود الخزر الذين تهوّدوا عندما تهوّد ملكهم في القرن العاشر الميلادي، ويسمون الإشكناز. وقد هاجر كثير منهم إلى روسيا ثم إلى بولندا ومنها إلى أوروبة والولايات المتحدة. وهم يشكّلون المجموعة الحاكمة في إسرائيل، وهي المجموعة التي أسست لدولة إسرائيل ومنها بن غورين، ودايان، وجولدا مايير، ومناحم بيجن، وبيرز وإسحاق شامير، ورابين وموسى شاريت وجوزيف فايتز وشارون. . . إلخ، وبالتالي كلّ المنظومة التي كوّنت إسرائيل وحكمتها منذ بداية عهد هذه الدولة إلى اليوم في عهدا يهود أولمرت. كما أن السفارديم (أي: اليهود الشرقيين)، ويهود البلاد العربية يرجع كثير منهم إلى أصول عربية، فيهود اليمن على سبيل المثال هم يمنيون دخلوا في الديانة اليهودية على عهد ملكة سبأ (التي

تدعى بلقيس) أيام سليمان. قال تعالى على لسانها: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، ثم على عهد ذي نواس الذي تهوّد ونشر اليهودية، وعهد تبع الأقرن.

ولا شك أن من هؤلاء اليهود القادمين من البلاد العربية من يرجعون في أصولهم إلى يعقوب ﷺ، لكنهم فقدوا أنسابهم منذ أزمنة طويلة ترجع إلى زمن النفي من أورشليم في العهد الروماني على عهد طيطس (٧٠ بعد الميلاد) ثم أدريان سنة (١٣٥ بعد الميلاد).

آثار القداسة المزعومة على بني إسرائيل:

ونتيجة لهذه العقيدة الباطلة التي تعتقد في نفسها القداسة، وأنهم أبناء الله وأحباؤه على الحقيقة (لأنهم من ذات روح الله التي تسلسلت من آدم إلى شيث إلى نوح إلى سام إلى إبراهيم فإسحاق ثم يعقوب وبقيت في بنيه لا تبارحهم)، وعلى المجاز رغم أنهم بارزوا الله بالعداء والكفر والإلحاد، وقتلوا الأنبياء وكذّبوهم ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤]. وقالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧].

وفعلوا كلّ قبيح، وأباحوا لأنفسهم الكذب والسرقة والغش والخداع قائلين: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيجوز بالتالي خداعهم وسرقتهم وغشّهم وقتلهم وأخذ الربا الفاحش منهم.

وسمحوا لأنفسهم بأن يكذبوا على الله ويزوّروا التوراة والكتب المقدّسة ويخفونها، ثم يصنعون بدلاً عنها كتباً من عند أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٨ ـ ٧٩].

والآيات القرآنية الفاضحة لهم كثيرة جدّاً، وفيما نقلناه غنية.

قداسة اليهود عند العلمانيين:

والغريب حقّاً أن نجد **اليهود العلمانيين بل والملحدين** الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولا بالرسل، ولا حتى بالكتب المقدّسة، يؤمنون إيماناً عميقاً بقداسة الشعب اليهودي رغم أنهم يدّعون العلمية! وهذا من أعجب العجب، فكلّ فرق اليهود بما فيها **اليهودية التجريدية** التي أسسها الحاخام مردخاي كابلان في الولايات المتحدة عام (١٩٢٢م)، وتطورت بعد ذلك.. وعنده أن الإله ملتحم بمخلوقاته؛ فهو جزء من الطبيعة، والطبيعة جزء منه، (مثل عقائد بوبر وسولومون شختر)، وهو يذوب فيها، ويتوحّد بها، وتذهب بذلك قداسته، ولا يوجد بالتالي كتب مقدّسة، ولا أنبياء، ولا وحي، ومع ذلك يؤمن إيماناً عميقاً بقداسة الشعب اليهودي والأمة اليهودية التي هي التجسيد الحقيقي لكلِّ ما هو مقدّس!!.

وكما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري[١]: «وبشحوب فكرة الإله ثم اختفائها، تظهر فكرة أن الشعب عنصر أكثر أهمية من الإله في النسق الديني!.. فأكثر الأشياء قداسة في نسق كابلان هم اليهود وتراثهم، وليس دينهم!! فالدين اختراع إنساني وتعبير حضاري عن روح الشعب العضوي (فولك)، يشبه في هذا المجال اللغة والفولكلور، ولا يوجد فارق كبير بين التوراة، والكتب الأخرى للشعب، فكلّها منتجات حضارية يلتحم فيها الدين بالموروث الحضاري..

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق ـ القاهرة، ٢٠٠٢م: ٢/ ٢٣٣ ـ ٢٣٥.

وهكذا يختفي الدين مثلما اختفى الإلٰه من قبل، حتى يبرز عنصر واحد هو الشعب اليهودي وروحه المطلقة الأزلية!..

«ويرى كابلان أن وجود اليهود يسبق ماهيتهم؛ ولذا، فإن اليهود أهم من اليهودية.. واليهودية إنما وجدت من أجل اليهود، ولم يوجد اليهود من أجل اليهودية!!».

والشيء ذاته يقال عن **اليهودية الإصلاحية** التي قامت في الولايات المتحدة، والتي ترى أن الله قد حلَّ في شعبه المقدّس، الشعب اليهودي، على الحقيقة وعلى المجاز. وكما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري[1]: «وقد حاولت اليهودية الإصلاحية حلّ إشكالية الشعب المقدّس عن طريق تبنّي الحلّ الغربي للمشكلة، وهو أن يكون الحلول الإلٰهي في نقطة ما في الطبيعة أو في الإنسان أو في التاريخ.. وهذه الصياغة من الحلولية تُلغي الإلٰه كنقطة متجاوزة، فمصدر القداسة كامن (حالٌّ) في المادة. وبالنسبة لليهودية الإصلاحية، فهي توسع نطاق الحلول بحيث يصبح المطلق إطاراً يضم كلّاً من اليهود والأغيار. (ولكن اليهود هم قلبه ولبّه وأصله).... وبطبيعة الحال لا يعترف اليهود الإصلاحيون بالشريعة الشفهية (وهي التلمود الذي يعتبر التعبير المستمر عن الحلول الإلٰهي).. ويبقون اعترافهم بالشريعة المكتوبة (التوراة) التي تعتبر عندهم مقدّسة قداسة الشعب اليهودي ذاته.

وإذا كان الأمر كذلك عند الفرق العلمانية والملحدة، والذين لا يؤمنون بدين ولا بالإلٰه الخالق، إلا أنهم لا يزالون يؤمنون بقداسة الشعب اليهودي، وأن البشرية كلها تتمجَّد بخدمة هذا السيد المبجّل الذي سيهدي الإنسانية إلى النور والحق، حتى ولو اضطرت الإنسانية لتحمّل العبودية والذلّ والمهانة من سيّد الكون، الإلٰه الجديد، شعب إسرائيل المقدس!!.

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٣٢٥ ـ ٣٢٧.

ويرى كابلان كما ينقله عنه المسيري[١] أن وجود اليهود يسبق ماهيتهم، وأن اليهود أهم من اليهودية.. والقاسم المشترك الأعظم بين اليهود ليس عقائدَهم، ولا ممارساتهم الدينية، ولا حتى أهدافَهم الخلقية.. وإنما حضارتهم الشعبية الدينية.. وهي حضارة يدفعها الإلٰه (إذا كان هناك إلٰه) بالتدريج نحو العُلا والسمو الذي ليس له مفهوم أخلاقي، وإنما يتمثل في رغبة اليهودي في البقاء في الحياة الدنيا، والتحكم فيها والتمتع بما فيها من المباهج والمسرات ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦][٢].

والقيمة المطلقة في حضارة هذا الشعب ليست قيمة أخلاقية أو إنسانية، وإنما قيمة البقاء، وهي قيمة طبيعية يشترك فيها الإنسان مع الحيوان!!. من كل هذا يمكن القول: بأن محور الحياة اليهودية هو الشعب اليهودي، ويصبح معيار الإيمان باليهودية ليس الإيمان بهذه العقيدة أو تلك، أو ممارسة هذه الشعائر أو تلك، وإنما مدى التزام اليهودي ببقاء شعبه.. ويصبح الإيمان أو عدم الإيمان بالدين غير مهم، أي: أن الإيمان لا يصبح ذا علاقة بفكرة الخير أو الالتزام المبدئي بمجموعة من القيم، وإنما يغدو إيماناً ببقاء الشعب (اليهودي) وتراثه القومي. وفي هذا الإطار عرّف كابلان الشعائر والطقوس بأنها ليست قانوناً أو شريعة، وإنما مجرد وسيلة لبقاء الجماعة وتطوّر الفرد، فاليهودية في خدمة اليهود، وليس اليهود في خدمة اليهودية!!.

ويرى كابلان أن العهد الذي وحّد بين اليهود في الماضي يجب أن يوحّد في الوقت الحاضر بين إسرائيل ويهود العالم.. واليهودية هي حضارة هذا الشعب، ولهذا لا يمكنها أن تستمر دون أن تكون لها دولة، فيها أغلبية يهودية تمثّل المركز لكل الجماعات اليهودية في العالم، ولذلك فقد نادى بتعمير أرض

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: ٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٩.

(٢) إضافة الآية الكريمة هي من عندي، وليست في كلام المسيري.

إسرائيل باعتبارها الوطن القومي للحضارة اليهودية!.. وهو، كما يقول المسيري، يتفق في هذا مع الصهاينة في إنكار أن الإلٰه هو مصدر القداسة، فمصدرها الحقيقي هو التاريخ اليهودي والأمة اليهودية!! (انظر إلى هذا الغرور المتناهي؛ حيث يتحوّل الشعب اليهودي إلى قداسة الإلٰه نفسه، بل لا قداسة عندهم للإلٰه، بل القداسة كلّ القداسة لهذا الشعب)..

ويرى الحاخام أرمز جرين في كتابه (فلتبحث عن وجهي، ولتتفوّه باسمي) عام (١٩٩٢م): أن الأحداث التي وردت في العهد القديم صور مجازية للتعبير عن الحقيقة التي تضرب بجذورها بعيداً عن السطح، فالإلٰه والعالم صيغتان مختلفتان تعبّران عن كائن واحد!! والإلٰه شيء نشعر به نحن من خلال تجربة شخصية، والوحي لا يأتي من السماء، وإنما هو يشبه الإلهام الفني الذي ينبع من الروح الإنسانية. ويؤكد جرين أنه لا يوجد إلٰه يطلب من عابديه أن يتّبعوا سلوكاً محدداً وأشكالاً معينة من العبادة.. أما الماشيح (ما يعرف بالمسيح الدجّال عند المسلمين) فهو الذات الإنسانية المنفتحة على الواحد الذي يحل فيه الإلٰه حلولاً تامّاً. وتصبح الذات الإنسانية هي نفسها الذات الإلٰهية في الماشيح (صدق رسول الله ﷺ الذي أخبرنا عن الأعور الدجّال الذي يدّعي أن الله قد حلّ فيه)[1].

ويتحدّث هؤلاء اليهود من بداية الستينيات من القرن العشرين عن لاهوت موت الإلٰه والذي انتشر أيضاً بين المسيحيين.. وهو مفهوم يرجع إلى نيتشه الذي أعلن موت الإلٰه، وأن الإنسان هو الذي خلق الإلٰه، وليس الإلٰه هو الذي خلق الإنسان!.. ويتحوّل هذا الإلٰه إلى الشعب اليهودي ويتجسّد في آخر الزمان في الماشيح (المسيح الدجّال الأعور الكذّاب).

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في كتابنا: المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، الدار السعودية ـ جدة، ط ٢، سنة ٢٠٠٠م، وفيه جملة من الأحاديث الصحيحة الواردة في الدجّال، ص ١٣٠ ـ ١٥٢، إلى قتال الدجال في آخر الزمان، حيث يكون معه اليهود والنساء وكثير من الخلق الجهلة، ويقتله عيسى عليه السلام عند باب لُد في فلسطين.

الصهيونية حركة علمانية دينية:

يبدو هذا العنوان متناقضاً، فالعلمانية (دنيوية بعيدة عن الدِّين أساساً)، ولكن اليهود بقدرتهم على جمع المتناقضات استطاعوا أن يجعلوا حركتهم الصهيونية العلمانية، دينية أيضاً.

ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة: **أولها: أن العهد القديم والتوراة كتاب علماني لا ديني**، ما عدا آيات هنا وهناك، تلمع مثل الألماس والجواهر في وسط ركام من القاذورات!.. وسيأتي الحديث عن رواية اليهود لله كما تصوره أسفار التوراة والعهد القديم، كما سيأتي الحديث عن تلويثهم لسير الأنبياء ﷺ بما فيهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى ولوط وهارون وداود وسليمان... إلخ.

وكتاب العهد القديم المحرّف كما أسلفنا ليس كتاباً مُقدَّساً، بل هو أبعد شيء عن القداسة، وإن كان اليهود يزعمون أن التوراة (المحرّفة) هي اللوجوس، والكلمة، والقداسة الكاملة، وبها خلق الله الأكوان، فهي قبل الأكوان وستظل بعد فناء جميع الأكوان.

واليهود يرون أنفسهم، كما أوضحنا، أنهم أبناء الله على الحقيقة وعلى المجاز، كما أن علاقتهم بالله حتى في لحظات الصفاء، ومع وجود الأنبياء هي علاقة جدلية تخاصمية، واليهود مجسّمون تجسيماً فظيعاً.. والتوراة (المحرّفة) شاهد على ذلك. وهم يرون: أن الله قد حلَّ في هذا الشعب، وهو إلٰه لإسرائيل فقط؛ أما غيرهم من الشعوب فلا يهتم بهم سواء عبدوه أم عبدوا غيره من الآلهة والأوثان والأرجاس. وترى تلك العلاقة الحميمة التي تكون بين الشعب وإلٰهه تماماً، كما تكون العلاقة بين الرجل وحبيبته وعشيقته. جاء في سفر هوشع (١: ٢ ـ ٥): «أول ما كلّم الربُّ (هوشع) قال: اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى، لأن الأرض قد زنت تاركة الرب. فذهب وأخذ (جومر بنت دويلايم) فحبلت وولدت له ابناً. فقال له الرب: ادع اسمه (يزرعيل) لأنني بعد قليل أعاقب (بيت ياهو) على دم (يزرعيل) وأبيد مملكة إسرائيل». ويقول في نفس السفر

(هوشع ٢: ١ ـ ٥): «قولوا لإخوتكم عمّي، ولأخواتكم رحامة. حاكموا أمّكم لأنها ليست امرأتي وأنا لست رجلها، لكي تعزل زناها عن وجهها، وفسقها من بين ثدييها. لئلا أجرّدها عريانة، وأوقفها كيوم ولادتها، وأجعلها كقفر. وأصيّرها كأرض يابسة، وأميتها بالعطش، ولا أرحم أولادها، لأنهم أولاد زنى، لأنّ أمّهم قد زنت. التي حبلت بهم صنعت خزياً».

وكتاب العهد القديم (وأوله الأسفار الخمسة التي تسمّى أسفار الشريعة أو التوراة) كتاب لا أخلاقي، فقد صوّروا الأنبياء بصورة قميئة جدّاً، وجعلوهم لصوصاً وكذبة وخونة للعهد، وزناة وفجرة، وقتلة، وجبناء. ولم يتركوا صفة من الصفات المرذولة إلا وألصقوها بهم، ليتسنّى لهم فعل كلّ تلك القبائح والجرائم، ما دام الأنبياء، حسب زعمهم الكاذب، قد فعلوا هذه الموبقات.

بل تطاولوا على رب العالمين وجعلوه في صورة بشر يسير معهم بالليل بصورة عمود من نار، ويسير معهم بالنهار بصورة عمود من السحاب، ويجلس معهم في الخيمة ويجتمع بهم ويكلّمهم، ويحارب معهم، وقد أسره الفلسطينيون لمدة سبع سنوات!! وكم تخاصموا معه وتعاركوا مع ربهم الذي يعود إليهم بعد أن يذلّهم بيد أعدائهم، فينقذهم، ويتزلّف إليهم، فيتركونه ويجرون وراء آلهة أخرى مثل البعليم وعشتروت وملكوم، وكلّ الرجاسات التي كانت عند الأمم الأخرى.

ومن الصور المضحكة أن الربَّ، حسب زعمهم، نزل ليقتل ابن موسى لأن موسى لم يذهب إلى فرعون لينجّي شعب الله، ونزل الرب إلى حواري مصر فوجد الغلام وأمسك به يريد قتله، ولكن صفورة (أم الغلام وزوجة موسى) خطفت الولد من يدي الرب وأحضرت سكينة وأسرعت بقطع غرلة الغلام.. ثم مسحت الدم والغرلة بساق الرب!! «وقالت: إنك عريس دم لي، فانفكَّ الربُّ عن الصبي. حينئذ قالت صفورة: عريس دم من أجل الختان». انظر القصة كاملة في سفر الخروج الإصحاح (٤: ٢٢ ـ ٢٦).

والكتاب كلّه مخازي وصور مُخجلة، ورغم أن شعبه، شعب إسرائيل، قد

ترك ربه عشرات بل مئات المرات، إلا أن هذا الربَّ، حسب زعمهم، يجري وراءهم ويتملقهم!.. جاء في سفر التثنية، الإصحاح (١٤): «أنتم أولاد الرب إلهٰكم» وقال لداود: «أنت ابني. أنا اليوم ولدتك اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً. وأقاصي الأرض ملكاً» (المزمور الثاني).

وقال لسليمان بعد أن عبد الأوثان، حسب زعمهم الكاذب: «هو يبني بيتاً لاسمي، وهو يكون لي ابناً، وأنا له أباً، وأثبت كرسي ملكه على إسرائيل إلى الأبد» أخبار الأيام الأول (٢٢: ١٠).

وفي سفر هوشع الإصحاح الثاني يقول لهم الرب: «حاكموا أمّكم (أي: إسرائيل) لأنها ليست امرأتي وأنا لست رجلها، كي تعزل زناها وفسقها من بين ثدييها. لئلا أجرّدها عريانة، وأوقفها كيوم ولادتها وأجعلها كقفر.. ولا أرحم أولادها لأنهم أولاد زنى.. لأن أمهم زنت. التي حبلت بهم صنعت خزياً. لأنها قالت: أذهب وراء محبيّ الذين يعطون خبزي ومائي وصوفي وكتّاني وزيتي وأشربتي.. لكن هاأنذا أتملّقها وأذهب إلى البرّية وأُلاطفها، وأعطيها كرومها من هناك.. وهي تغنّي كأيام صباها، وكيوم صعودها من أرض مصر.. ويكون في ذلك اليوم يقول الرب: «إنك تدعيني رجلي، ولا تدعينني بعلي» (لأن الرب يغار جدّاً من البعل الذي كانوا يعبدونه ويتركون الربَّ من أجله)... ويقول: «وأقطع لهم بهذا في ذلك اليوم.. وأخطبك لنفسي إلى الأبد».. وقال الرب لهوشع: «اذهب أيضاً أحبب امرأة، حبيبة صاحب وزانية، كمحبّة الربّ لبني إسرائيل، وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى، ومحبّون لأقراص الزبيب».

وفي سفر الجامعة: الكلّ باطل وقبض الريح ـ لأن الموت يتربص بالكلّ.. ولا شيء بعد الموت!! وفي سفر أيوب يتحدّى أيوب الربّ ويوبّخه على ظلمه له ويحاكمه!! ويذهب أيوب يبحث عن الرب شرقاً فلا يجده، وغرباً ليس هو هناك، شمالاً لا وجود له.. جنوباً لا أثر له. ويتحدّاه: أين أنت؟ فلا ربَّ هناك، ولا عدالة ولا إيمان.

والتوراة (المحرّفة) كلها ليس فيها أيّ ذكر للإيمان باليوم الآخر.. إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا.. والجزاء في هذه الدنيا فقط.. كثرة أموال، طول عمر، تمتع بالنساء والخمر، والملذات، انتصار على الأعداء.. هذا عندما يرضى الرب عن بني إسرائيل حين يعبدوه وحده. أما حين يعبدون الملكوم وعشتروت والبعليم... إلخ، ويغضب الرب عليهم فيضربهم بالأوجاع والأمراض، وبانتصار الأعداء عليهم، وبالكوارث والنكبات.. وبالجوع في الأرض.. الحساب والعقاب هنا. الجنة هنا والنار هنا.. ولا آخرة.

لهذا كلّه من السهل جدّاً على اليهودي أو الصهيوني أن يكون علمانيّاً، وفي نفس الوقت مؤمن بقداسة شعب الرب، شعب إسرائيل، وبقداسة أرض إسرائيل، وبتوراة إسرائيل.. الشعب مقدّس، والله قد حلَّ في هذا الشعب.. والقداسة كلّ القداسة لهذا الشعب، حتى ولو لم يكن هناك إلٰه. فالإلٰه هو شعب إسرائيل، وعلى كل الأمم أن تتمجد بلعق حذاء إسرائيل.

وكما يقول المسيري في كتابه (العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة)[١]: «اكتشفت الصهيونية القيمة التعبوية للخطاب الديني.. وأكدت أهمية التراث العبراني القديم، والبطولات العبرانية غير الدينية وغير الأخلاقية»[٢].

والأعياد الدينية تحولت إلى أعياد قومية، «وهكذا، بعد أن كانت اليهودية تمنح اليهودي القداسة بمقدار ما يتبع من الشعائر، ويلتزم من الوصايا والنواهي، صار اليهودي (هو نفسه) مركز القداسة باعتباره يهوديّاً وحسب، أي: حسب انتمائه الإثني (أي: العرقي)، وأصبحت دولته التعبير الأكبر عن القداسة، ومن ثَمَّ أصبح (عيد استقلال إسرائيل) عيداً دينياً.. لدرجة أن كثيراً منهم يتصوّرون الآن

---

(١) المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: ٢/ ٣٩٧.

(٢) الإشادة بالمذابح التي أقامها يشوع (يوشع بن نون) حسب زعمهم لأريحا وللفلسطينيين وقتله للنساء والأطفال.. وكذلك مذابح موسى للمديانيين ومذابح داود لعمّان الأردن (بن عمّي).. إلخ والإشادة بجميع الجرائم المنسوبة كذباً وبهتاناً لأنبياء الله.

أن الدولة الصهيونية معبدهم أو هيكلهم، وأن رئيس وزرائها حاخامهم الأكبر أو كاهنهم الأعظم»[١].

وقد نجح الصهاينة في تحويل المشاعر الدينية لدى اليهود إلى التظاهر من أجل إسرائيل ودعمها المستمر، وتحرير الشيكات لها، فهذا أهمّ بكثير من التزام الأوامر والنواهي الدينية والالتزام بالسبت.

وكان حتميّاً على الصهيونية أن تستغل العواطف الدينية، وخاصة لدى اليديش (يهود أوروبة الشرقية وبولندا)، وقد أضفت الصهيونية العلمانية على نفسها صبغة دينية، فلجأت إلى تبنّي الرموز والأفكار الدينية لدى الجماهير بعد علمنتها. وهذا ما عبّر عنه كلاتزلين بقوله: «إن الدين اليهودي يمكن أن يساهم في بلورة الروح القومية للشعب اليهودي»[٢]. وقد كان هرتزل ونوردو يدركان أهمية العناصر الدينية في تجنيد الجماهير اليهودية في أوروبة الشرقية خاصة، وفي كافة أرجاء العالم عامة.

وبما أن تعاليم الدين اليهودي كما تصوره التوراة وتعاليم التلمود دنيوية بحتة، ولا علاقة لها بالآخرة ولا بالمثل، كان من السهل تبنّي النظرة المادية العلمانية التي ترى أن هدف الإنسان في الكون هزيمة الطبيعة، والعناصر المعادية (من البشر والطبيعة). وبما أن اليهود ينبغي أن يعودوا إلى وطنهم (فلسطين) فلا بد أن يُطرد العرب من فلسطين.

وحدث تطور للنظرة المشيحيانية (المسيح المنتظر اليهودي الدجّال) فبدلاً من النظرة التقليدية: نفي بأمر الله ← انتظار الماشيح ← مقدم الماشيح ← عودة إلى فلسطين وأورشليم وبناء الهيكل، وحكم العالم تحت قيادة الماشيح.

أصبحت النظرة كالتالي:

نفي ← عودة مادية فعلية لمجموعات كبيرة من اليهود للأعداد لمقدم

---

(١) المسيري: ٢/٣٩٨.

(٢) المصدر السابق: ٢/٤٠٦.

الماشيح (دون انتظار مشيئة الإلٰه) ← مقدم الماشيح ← عودة كاملة تحت قيادته وقيام الدولة العالمية التي يسود فيها اليهود على الجميع، وتكون عاصمتها أورشليم (القدس).

وقد قررت اليهودية الأرثوذكسية أن محاولة استباق الأمور، والعودة إلى فلسطين قبل ظهور الماشيح ليس إلا وسيلة لذبح اليهود وتعريضهم للدمار. ويستدلون على ذلك بالحوادث العديدة التي حصلت في التاريخ، وأدت إلى مذابح اليهود؛ مثل ثورة المكابيين في العهد الروماني، ومثل ادعاء شبتاي تسفي في الدولة العثمانية أنه الماشيح والذي قام بتجميع اليهود لإقامة دولة إسرائيل، وانتهت ثورته بالفشل.. واستطاع بمكره وخداعه أن يعلن إسلامه، فأبقى الخليفة العثماني على دمه، بل جعله من ضمن الحاشية. وأدّى ذلك إلى إسلام ما يعرف بيهود الدونمه، وهم أتباع شبتاي تسفي، ومنهم ظهر بعد أجيال كمال أتاتورك الذي حطَّم الخلافة، وأقام الدولة العلمانية التركية الجديدة التي حاربت الإسلام وأهله ورموزه أشدّ الحرب.

وشبتاي تسفي[(١)] (١٦٢٦ ـ ١٦٧٦م) ماشيح دجّال، ولد في أزمير في الأناضول (الدولة العثمانية)، ودرس التوراة والتلمود والقبالاه (السحر والغنوصية اليهودية)، وكان والده تاجراً ووكيلاً لشركتين إحداهما: بريطانية، والأخرى: هولندية.. وقد تنبأ كتاب الزوهار (القبالي) حسب التفسيرات القبالية، بمجيء المسيح (الماشيح الدجّال) عام (١٦٤٨م). وشهدت هذه الفترة حرب الثلاثين عاماً (في أوروبة) (١٦١٨ ـ ١٦٤٨م) بين البروتستانت والكاثوليك، كما شهدت ثورات عنيفة في أوكرانيا والقوقاز، واهتز من جرّائها التجمع اليهودي البولندي، وهو أكبر تجمع لليهود آنذاك.

وأدى هذا الاضطراب في حياة اليهود والثورات إلى انتشار الفكر القبالي الغنوصي، وازداد ترقّب اليهود للمسيح (الدجّال).. وفي هذا المناخ ظهر شبتاي

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: الموسوعة الموجزة: اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق: ٢/١٠٨ ـ ١١٤.

تسفي وادعى أنه الماشيح، وتزوج عاهرة كانت تدّعي أنها لن تتزوج إلا الماشيح. وأعلن شبتاي بعد أن تزوجها عام (١٦٤٨م): أنه الماشيح.. ونظم الحلقات والعمل وزار كثيراً من البلدان في أوروبة ومصر وفلسطين ودخل القدس عام (١٦٦٥م)، وأعلن أنه سيذهب إلى تركيا ويخلع السلطان.. وانضم إليه عدد غفير من اليهود في أوروبة والشرق الأوسط.. بل إن بعض الأوساط المسيحية بدأت تؤمن بأن شبتاي تسفي سيتوّج ملكاً على فلسطين. **وكان يوقع رسائله باسم: «ابن الإلٰه البكر»، «أبوكم يسرائيل»، «أنا الرب إلٰهكم شبتاي تسفي»**.

وتوجه إلى إستنبول في فبراير (١٦٦٦م)، حيث ألقي القبض عليه، ووُضع في قلعة جاليبولي المخصصة للشخصيات المهمة، وبما أنه لم يقم بثورة مسلحة فإن الدولة سمحت لأتباعه بزيارته، وأن يكون له عدد من الحريم، كما عُرف أنه شاذ جنسي ومخنّث!.. واجتمع به الحاخام نحميا من بولندا، وقرَّر أنه دجّال وكذّاب، وأنه يدبر لثورة ضد الحكومة العثمانية، فقُدِّم للمحاكمة وخُيِّر بين الموت أو أن يعتنق الإسلام، فأشهر إسلامه وتعلّم العربية والتركية، ودرس القرآن، وأسلمت زوجته وكثير من أتباعه، وعرفوا باسم «يهود الدونمة».. واستمرّ شبتاي في السرِّ على عقيدته، والاتصال بأتباعه، رغم إعلانه الإسلام هو وزوجته وأتباعه.. ولما أحسَّت الدولة العثمانية بمكره نفته إلى ألبانيا حيث مات بداء الكوليرا عام (١٦٧٦م).

وتعتبر حركة شبتاي تسفي أهمّ الحركات المشيحيانية، وقد هزّت اليهودية الحاخامية، وأدت إلى ظهور الحركة الحسيدية (أيضاً حركة غنوصية قبالية تعتمد السحر والأرقام والخزعبلات) والحركة الفرانكية، وكلاهما رفضتا القيادة التقليدية التلمودية.. وأدت في النهاية ـ كما يعتقد كثير من الباحثين ـ إلى ظهور العلمانية الصهيونية.. كما أن توجّه تسفي للعمل على العودة الفورية لليهود إلى فلسطين، يشبه تماماً موقف المشيحيانية الصهيونية العلمانية التي ترفض الموقف الديني التقليدي الذي ينصح اليهود بالانتظار حتى يأتي الماشيح، بينما ترى الصهيونية العلمانية وجوب تحرك اليهود والعودة إلى فلسطين تمهيداً لمجيء

الماشيح. وكان هرتزل، مؤسس الصهيونية المعاصرة، معجباً جدّاً بشبتاي تسفي، وكان يفكّر في كتابة أوبرا عنه لتمثيلها في الدولة الصهيونية عند قيامها!!.

والفرق بين حركة شبتاي تسفي والصهيونية الحديثة هو أن شبتاي ركّز على شخصية الماشيح، صاحب القوى الخارقة، والذي تتركز فيه الألوهة، بينما نرى الصهيونية المعاصرة تجعل الألوهة كلّها تتركز في الشعب (شعب إسرائيل) والأرض (أرض إسرائيل). ولكن هذا لا يمنع الصهيونية العلمانية المعاصرة أن تصرّح بأن الماشيح هو التجسيد الكامل للألوهة!! وبذلك يكون الفرق بينهما ضئيلاً. وتؤمن الصهيونية العلمانية بوجوب ترتيب الأمور، والعودة إلى فلسطين، للتعجيل بظهور الماشيح، وهو ما يسمّى عندهم «دحيكات هاكتس» أي: التعجيل بالنهاية[١]!!.

وقد جعلت الصهيونية اليهود في أصقاع العالم باختلاف أجناسهم ولغاتهم، شعباً عضويّاً يرتبط ارتباطاً عضويّاً بأرضه وتراثه، وهو ما يعطيه حقوقاً مطلقة في هذه الأرض. وتنكر الصهيونية العلمانية الآخرة (مثلها مثل الدين اليهودي في أصوله التوراتية وفرق الصادوقيين والسامرة وغيرهم)، كما تنكر أية منظومات قيمية أخلاقية، وتمجد النزعة النتشوية، وإيجاد السوبرمان اليهودي وفلسفة القوة... والحق هو القوة، والقوة هي الحق.. وإبادة الغير الساكنين في أرض صهيون.. ويشهد على ذلك مئات المذابح التي قام بها الصهاينة منذ عام (١٩٢٠م) عند بداية المستوطنات اليهودية، وإقامة الانتداب البريطاني، وكان أول حاكم لفلسطين يهودي بريطاني صهيوني متعصب هو هربرت صموئيل[٢]. ومنذ ذلك الحين (١٩٢٠م) وحتى اليوم (٢٠٠٧م) يستمر مسلسل المذابح والقتل

(١) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: ٢/٤٠٩.

(٢) دخلت بريطانيا فلسطين واحتلتها من الدولة العثمانية بسبب مساندة العرب لها وتحطيمهم للجيش التركي في العقبة، ودخل القائد البريطاني اللنبي القدس في (١١/١٢/١٩١٧م) من باب الخليل وقال: «الآن انتهت الحروب الصليبية». وعندما دخل دمشق وقف عند قبر صلاح الدين وقال: ها قد عُدنا يا صلاح الدين!! واستمرت الإدارة العسكرية حتى (١ تموز ١٩٢٠م) وأقاموا حكومة مدنية يرأسها صهيوني يهودي متعصب هو هربرت صموئيل.

المتعمد للنساء والأطفال وحرب الإبادة.. وهو تاريخ طويل يزكم الأنوف ويحتاج إلى مجلدات، وقد ذكرنا بعضها في كتاب (تيه العرب وتيه بني إسرائيل)، وكتاب (القدس والمسجد الأقصى)، وكتاب (من يعقوب بن كلس وابن النغريلة إلى مونيكا لوينسكي).. فليرجع إليها القارئ الكريم.

وتتميّز الحركة الصهيونية العلمانية الدينية بالنزعة الداروينية (البقاء للأصلح)، والنيتشوية (الحق هو القوة والقوة هي الحق) وتركز على:

١ ـ القومية العضوية والتأكيد على رابطة الدم والتراب (الشعب اليهودي وأرض فلسطين وقد تجلّى فيهما الإلٰه حسب التعبير الأرثوذكسي الديني، وحلّ فيهما الإلٰه حسب التعبير الصهيوني) ولهذا فلا بد من نبذ وطرد وإبادة الآخر الذي ينافس على هذه الأرض المقدّسة ارتز يسرائيل.

٢ ـ النظريات العرقية (أشدّ من النازية، وهم، أي: اليهود شعب القداسة الذي حلّ الله فيه، فالشعب اليهودي هو الله، والله هو الشعب اليهودي. والنازيون لا يقولون ذلك).

٣ ـ تقديس الدولة باعتبارها المظهر الحقيقي والكامل للشعب اليهودي على الأرض اليهودية. وكلاهما مقدّس. وهما محل تجلّى الإلٰه عند اليهود والأرثوذكس المتدينين، وموقع اتحاد الألوهة بالأرض والبشر (الحلول والاتحاد) عند الصهاينة.

٤ ـ النظرة الداروينية (البقاء للأصلح، واليهودي قطعاً هو الأصلح) والنيتشويه (الحق هو القوة والقوة هي الحق). وكلاهما يطبق في يسرائيل (الأرض والدولة والشعب التي حلّ الإلٰه فيها ولم يعد له وجود في سواها).

وقد سئل هتلر عن سبب معاداته لليهود، فأجاب قائلاً: «لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران؛ نحن (الألمان) وحدنا شعب الإلٰه المختار؛ هل هذه إجابة شافية؟».

ويتحدّث مارتن بوبر (فيلسوف الصهيونية): عن أن الرابطة بين اليهود

وأرضهم، هي رابطة الدم والتراب الذي لا يوجد إلا في فلسطين، ولا يمكن للدم اليهودي أن يتفاعل ويبدع إلا من خلالها، وأثناء محاكمات نورمبرج كان الزعماء النازيون يؤكدون أن الموقف النازي من اليهود تمت صياغته من خلال الأدبيات الصهيونية التي تتحدث عن الأرض والدم. وقد أعلن اليهود أنفسهم بوجوب عودتهم إلى فلسطين وطردهم من أوروبة. ولم نفعل نحن (النازيون) سوى أن نفّذنا ما أرادوه.

ويقول سترايخر، المنظِّر النازي، أثناء محاكمته في نومِبرج: إن فكرة النقاء العرقي أول ما تعلّمها من الكاهن والكاتب عزرا.. (الذي أمر بعدم الزواج من غير اليهود والانغلاق التام على الجيتو اليهودي)، ومن الأدبيات الصهيونية الخاصة بنقاء اليهود العرقي والتي استمرت حتى نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين.

ويتميّز الفكر النيتشوي بأنه منظومة متكاملة، استنبطها الإنسان الغربي ثم الصهيوني من أعمال نيتشه (وإن كانت فلسفة نيتشه تحتوي على كثير من الأفكار النبيلة بالإضافة إلى الأفكار الخسيسة).. والفكر النيتشوي وإن كان مصدره فلسفة نيتشه إلا أنه يختلف عنها كما يقول المسيري؛ فهي أشدّ منه وضوحاً باستخدام القوة واحتقار الضعف.. وكان نيتشه معجباً بالعهد القديم وما يصوره أسلوبه غير الأخلاقي، ووصاياه التي لا يتخلّلها أي تهاون أو مساومة. وفي كثير من كتاباته يكيل نيتشه المديح لليهود أكثر من الألمان[١].

ويقول الفيلسوف اليهودي الروسي أحاد هعام: «إنه لا توجد حاجة لاستحداث نيتشوية يهودية، لأن النيتشوية موجودة في اليهودية والعهد القديم منذ آلاف السنين.. واليهودية ديانة لم تستند إلى الرحمة، ولم تلزم الإنسان الأعلى اليهودي بالخضوع للجماهير». وقد تحوّل لديه الشعب اليهودي إلى شعب مقدّس، مكثّف بذاته ولا يمكن الحكم بمعايير أخلاقية يضعها الآخرون!! والشعب اليهودي هو امتداد للخالق حسب الفكر القبالي، وتجلٍّ للخالق حسب

---

(١) المصدر السابق: ٢/٤١٣ ـ ٤١٥.

الفكر الأرثوذكسي المتدين، وهو نفسه قد حلّ الله فيه، وحلّ هو في الله، في الفكر الصهيوني المتطرف.

ويقول أحاد هعام: إن المقولة الأساسية النيتشوية الخاصة بتفوق عرق أو جنس معين من البشر على بقية البشر والمخلوقات، هي نفسها مقولة يهودية بحتة، يؤكد عليها الكتاب المقدّس (العهد القديم) والتلمود.

وإذا كان الهدف من الحياة على الأرض هو ظهور الإنسان الأعلى (الماشيح وهو المسيح الدجّال)، فيجب أن نقبل بارتباط ظهوره بظهور الأمة الممتازة العليا التي تسود على بقية البشر، وهي التربة الصالحة التي سينبت منها الماشيح الإنسان الأعلى؛ (وهو حق، فالماشيح الدجّال هو يهودي كما أخبرنا بذلك المصطفى ﷺ... وسيظهر في آخر الزمان.. وأكثر أتباعه اليهود والنساء [وهذا يوضّح اهتمام اليهود بالحركات النسوية]، ويتبعه سبعون ألفاً من ذوي الطيالسة اليهود، ويقتله عيسى ابن مريم عليه السلام في باب لُد عندما يقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله! تعالَ هاهنا يهودي ورائي فاقتله! وهي المقتلة العظمى لليهود التي لم يحدث لهم مثلها ولا أيام نبوخذ نصر سنة (٥٨٦ قبل الميلاد)، ولا مذابح الرومان في الحروب المكابية ومذابح تيطس ٧٠ بعد الميلاد، ومذابح هرديان سنة (١٣٥م)؛ فهذه هي المذبحة الأخيرة التي تفوق بكثير ما يقال عن الهولوكوست ومحارق أوسيفتش الهتلرية.. والمذابح التي يديرها اليهود ليل نهار للفلسطينيين، ولأهل لبنان، وللعرب والمسلمين، تجعل هذه المذبحة الأخيرة لليهود حتمية كما أوضحها المصطفى ﷺ)[١].

ومنذ ظهور اليهود على مسرح التاريخ وهم يجمعون بين الذلة والحقارة والشعور بالنقص، في نفس الوقت الذي يشعرون فيه بأنهم شعب الله المختار،

---

(١) انظر كتاب: المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، د. محمد علي البار، الدار السعودية ـ جدة، لمزيد من التفصيل عن أحاديث اليهود في آخر الزمان ومسيحهم الدجّال والمقتلة القادمة لهم.

وأنهم متفوّقون على كلِّ الأمم، وأن من ضرب يهوديّاً فكأنما ضرب العزة الإلٰهية.. والشعب المختار كما يقول أحاد هعام: عليه أن يكون النموذج الذي يسعى العالم إليه، ويتمجّد بالانبطاح له، ولعق أقدامه وأحذيته.. ومجرد وجود الشعب المختار الذي يحكم العالم، هو سعادة لهذه البشرية التي ترى الله متجلّياً في هذا الشعب الذي يحكم العالم، (الأرثوذكسية الدينية)، أو الشعب الإلٰه الذي حلّ الله فيه وحلّ هو في الإلٰه (النظرة العلمانية الصهيونية)! ولا يستطيع أحد أن يقف في وجه هذا الشعب، ومن وقف في وجهه يجب تدميره تدميراً تامّاً.

والنيتشوية اليهودية مبنية على فكرة تفوّق اليهود وتعاليمهم على كلِّ البشر، وهو الأمر الذي يميّزهم بحقوق مطلقة، وأهمّها العودة إلى الأرض المقدّسة متى شاؤوا، وأن يقيموا فيها دولة إسرائيل الأمة الأعلى والمثال المحتذى لجميع بني البشر، مهما فعلت هذه الدولة من مذابح ومجازر وحرب إبادة وطرد للفلسطينيين (مذابح دير ياسين، صبرا وشاتيلا، قبية، الانتفاضة الأولى والثانية، مجازر قانا الأولى والثانية... إلخ). اقتل الكلّ اقتل أبيمالك.. من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني.. هذه هي أوامر الرب.. رب الجنود والجالس على الكروبيم، ولا أحد يستطيع أن يجادل أو يعارض أوامر الرب ـ هكذا قال رب الجنود!!.

والخلاصة: أن عقيدة اليهود الأرثوذكسية في الماشيح (المسيح الدجّال الأعور) وهي نفي بأمر الله تؤدي إلى انتظار المشيح حتى يأتي ويقيم الدولة اليهودية العالمية، ومركزها فلسطين، وعاصمتها أورشليم (القدس)، قد تطورت بسبب الصهيونية العلمانية إلى نفي أدى إلى التشرد، وأن على الحركة الصهيونية أن تجمع أكبر عدد ممكن من اليهود في وطنهم إسرائيل، وعاصمتها أورشليم، وتقيم هذه الدولة القوية حتى يأتي المشيح (الماشيح) فيقيم الدولة العالمية التي تحكم العالم من عاصمتهم أورشليم (القدس).

وهذا مماثل لما حدث عند الشيعة، فقد كان أغلب علماء الشيعة يرون عدم الاستعجال وقيام دولة شيعية حتى يأتي المهدي عليه السلام، لأنه هو الذي سيقيم دولة الإسلام، وقد تطورت هذه النظرة على يد الخميني إلى إقامة الدولة الشيعية بقيادة

ولاية الفقيه، وتكون هي ممهّدة للمهدي عليه السلام، فإذا جاء وجد هذه الدولة جاهزة، ومنها ينطلق لإقامة دولة الإسلام العالمية.

وكلا النظرتين في هذا الباب متشابهتان.. وليس فيهما خروج عن الدين بأيّ حال من الأحوال. والمطلوب من البشر (وخاصة في الإسلام) أن يعملوا ولا يتّكلوا، وإذا استطاعوا إقامة دولة إسلامية ولو بصورة مصغّرة، فإن عليهم أن يفعلوا ذلك ويبذلوا كلّ جهدهم لإقامة دين الله وشرعه ودولته؛ فإذا جاء المهدي أو عيسى عليه السلام فإنهم سيجدون الأنصار والوسائل لإقامة الدولة الإسلامية العالمية.

ويختلفان بعد ذلك في موضوع القداسة، فاليهود والصهاينة يعتقدون في أنفسهم القداسة، وأن الله قد حلّ فيهم وحلّوا فيه، واتحد بهم واتحدوا به (نظرية الحلول والاتحاد).. وهذه هي نظرة الصهاينة.. أما الأرثوذكس اليهود، فيرون أنهم أبناء الله وأحباؤه على الحقيقة والمجاز (كما أوضحنا سابقاً)، وإن كانوا لا يقولون بالاتحاد والحلول إلا أن الفرق بينهم وبين الصهاينة في واقع الأمر ضئيل.

وأما المسلمون فلا يرون إلا أنهم هم أتباع الرسل جميعاً منذ آدم إلى نبيِّنا محمد ﷺ، ويرفضون النظرة العنصرية الإثنية، وليس لله أبناء.. والله لا يحابي أحداً، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال ﷺ: «**ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**»؛ فهي دعوة عالمية إنسانية تناقض تماماً الدعوة اليهودية الأرثوذكسية والصهيونية، وتقف على طرفي نقيض معها (Antithesis) فهي النقيض التام لها، والتي ستقضي عليها بإذن الله.

لاهوت موت الإله وقداسة اليهود(١):

وينطلق لاهوت موت الإله عند اليهود من فكرة قداسة التاريخ اليهودي النابعة من قداسة الشعب اليهودي، ومن مركزيته الكونية، وهي قداسة تشمل ما

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ٢/ ٣٤٦ ـ ٣٥٨.

يقوم به هذا الشعب من أفعال، وما يقع له من أحداث.. وأهمّ الأحداث التي وقعت له في الماضي هي العبودية في مصر، والخروج منها، ثم السبيُ البابلي، والعودة منه، ثم سقوط الهيكل والشتات.. ولكن أهم ما وقع لليهود على الإطلاق هو الإبادة النازية ليهود أوروبة، وهذه الإبادة ليست فعلاً ارتكبته الحضارة الغربية ضد ملايين البشر (من بولنديين ويهود وغجر وروس ومعاقين وعجائز)، وإنما هي جريمة ارتُكبت ضد اليهود فحسب، لأن الآخرين لا قيمة لهم أصلاً.

وهكذا يُنظر إلى الإبادة النازية باعتبارها حادثة تاريخية تُجسِّد الشرّ المطلق، وهي رهيبة إلى درجة أنها تنفي وجود الخير والعقل واليقين والأمل، وهي أخيراً تنفي وجود الإله، وحتى إن كان الإله موجوداً، فيجب ألا نثق فيه، لأنه تخلّى عن الشعب اليهودي، (نفس ما قاله التلمود عمّا حدث من النفي إلى بابل والتشريد).. وأصبحت «الهولوكوست» تشبه الأيقونة التي تُعبد، وفهمها الكامل غير ممكن.

ولكن بما أن الشعب اليهودي واجه الخروج من مصر، والنفي إلى بابل، والتشريد، واستطاع أن يقاوم كلّ عوامل القضاء عليه، رغم وجود الإله الذي باعه إلى أعدائه؛ لذا تحوّل الشعب نفسه إلى إله تتجسّد فيه كلّ معاني الألوهية والقداسة.. وثنية حلولية جديدة، هي: وثنية بدون إله، إذ تحلّ الذات القومية محلّ الإله تماماً، أي: أن الشعب اليهودي استوعب في ذاته كلّ المطلقية والقداسة الممكنة، وأصبح مركز الكون، والكلمة المقدّسة (اللوجوس)، والغرض أو الغاية الإلهية (تيلوس) معاً وفي آن واحد؛ ولذا، تُعدُّ مقاومة الشعب اليهودي للإبادة بمنزلة الأوامر والنواهي، فهذه المقاومة هي التي تقوم بعملية إصلاح الخلل الكوني (تيقون)؛ وهي في الأصل عملية يقوم بها الإله، من خلالها يستعيد وحدته التي فقدها أثناء عملية تهشم الأوعية (شفيرات هكيليم)، وكلما قاوم اليهودي زادت عملية الإصلاح تسارعاً، واكتملت استعادة الإله لوحدته.

ومن ثمَّ فإن الشعب اليهودي يوجد خارج التاريخ ككيان لا يخضع لقوانينه العبثية، وهو يؤكد المعنى من خلال مقاومته.. وهكذا يصبح الشعب هو الإله،

والإله هو الشعب، وأن هذا الإله لا يتجاوز تاريخ هذا الشعب، وإنما يتجلّى ويحلّ ويذوب فيه تماماً ويختفي!!.

وإذا كانت الجريمة الكبرى هي الفناء، فالفضيلة الكبرى هي المقاومة والبقاء.. وكل هذا يجسّده ظهور دولة إسرائيل كدولة ذات سيادة التي تعبّر عن إرادة الشعب اليهودي ورغبته في البقاء، وتثبت أن الشعب اليهودي يرفض أن يلعب دور الشعب الشاهد كما ترى المسيحية، كما يرفض أن يكون شعباً شهيداً كما ترى الحاخامية (الأرثوذكسية) التي ترى أن اليهود تمَّ اختيارهم ليكونوا شعباً من الشهداء والقديسين والأنبياء والكهنة... لكن الدولة الصهيونية تقف على الطرف النقيض من هذا كله؛ فهي تحل مشكلة العجز اليهودي الناجم عن انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة، فإسرائيل دولة ذات سيادة، ولها سلطة وجيش قوي... وإسرائيل هي الشيء الإيجابي الذي ظهر من رماد أوشفيتس (المحرقة) (وهي باعتبارها رمز بقاء الشعب) تشكل هزيمة للعدم ولهتلر (ولذا يشار إلى لاهوت موت الإله بأنه لاهوت البقاء، ولاهوت ما بعد أوشفيتس).. بل إن إسرائيل هي حقّاً الوسيلة الكبرى لعملية الإصلاح الكوني؛ فمن خلال هذه الدولة يعلن المطلق عن نفسه، ويُستعاد الحضور الإلهي داخل التاريخ.. فبقاء الشعب اليهودي والدولة اليهودية هو بقاء الإله، واستمرار الشعب هو استمرار الإله.. ولذا، فإن من يقف ضد الدولة الإسرائيلية فهو يقف ضد الإله، ومن يقبلها بلا شرط فهو وحده المؤمن!.. وقد صرّح الحاخام أيوجين بورويتز (أحد مفكري موت الإله): بأن الدولة الصهيونية إبّان حرب (١٩٦٧م) لم تكن وحدها المهددة بالخطر، بل كان هذا الخطر محدقاً بالإله نفسه!!.

والقيمة الأخلاقية المطلقة هي بقاء الشعب اليهودي، والبقاء هو نهاية في ذاته، والحفاظ على الدولة وبقائها، وبأي ثمن، هو أيضاً مطلق أخلاقي.. وبالتالي تتم تبرير كل أفعال وجرائم إسرائيل، ويجب تقبّلها ومباركتها في كل الأحوال.. وإلا فإن ذلك يعني محاربة الإله ومحاربة الشعب اليهودي الذي حلّ الإله فيه، وأصبح هو الإله الذي يجب أن يعبد ـ ولذا لا بد من الالتزام ببقاء

إسرائيل وحماية سيادتها وتفوقها وإذلال أعدائها وقهرهم واستعبادهم!.. وتصبح بالتالي تذكر المحرقة أوشفيتس وإبادة اليهود هي الشعائر والطقوس بدلاً من جميع الشعائر والطقوس الدينية.. (فليكن مباركوك مباركين، وليكن لاعنوك ملعونين) كما جاء في التوراة (المحرفة).

وكما أن حادثة الصلب لا بد أن تقبل كما هي في الوجدان المسيحي، فإن لاهوت موت الإلٰه اليهودي يتطلب من اليهود والأغيار قبول حادثة الإبادة باعتبارها سرّاً من الأسرار.. وكما أن المسيح يقوم بعد الصلب، فإن الشعب يبقى بعد الإبادة، ثم يقوم على هيئة الدولة الصهيونية!! أي: أن الحلول المسيحي الشخصي يتحول إلى حلول قومي دائم ومستمر.

ولاهوت موت الإلٰه هو اللحظة التي تتم فيها صهينة اللاهوت اليهودي تماماً إذ يختفي الإلٰه تماماً ويموت، وتموت معه شعائره وكتبه المقدسة، ليحل محله إلٰه جديد هو الدولة الصهيونية، وتظهر معها شعائر جديدة هي الدفاع عن هذه الدولة وامتداداتها وتسلطها على جيرانها ومن حولها.. وتظهر طقوس تذكّر إبادة الشعب اليهودي في أوشيفتس ومحارق النازية!!.

والإبادة هذه لا يمكن أن يشكك فيها أحد مهما كان مؤرّخاً وإلا فالسجن والتحقير مصيره، والدولة الصهيونية لا يمكن نقدها أو الحوار بشأنها لأنها هي نفسها الإلٰه الجديد الذي ينبغي أن يتمجَّد الجميع بعبادته والسجود له.

ولاهوت موت الإلٰه تعبير عن العلمنة الشاملة للنسق الديني اليهودي؛ وهو شكل حاد من توثّن القومية (وجعلها وثناً وحيداً يعبده جميع البشر).. وإذا كانت الذات القومية اليهودية مطلقة كاملة السيادة على الكون بأكمله، فلا مجال للحوار مع الآخر ولا حقوق له، فهو يقع خارج الدائرة المقدّسة.. ويمكننا القول: إن لاهوت موت الإلٰه هو النسق الكامن وراء الخطاب السياسي الإسرائيلي بكل علمانيته وبريقه وعنفه وقوته[1].

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: ٢/ ٣٥٢.

والغريب حقّاً: أننا نجد أسفار التوراة وسفر يوشع (يشوع = جوشوا) وغيره من أسفار العهد القديم تتحدث عن شعب إسرائيل بنفس الأسلوب الحديث الذي يتحدث به الصهاينة، وتأمرهم أسفار التوراة والعهد القديم بإبادة الكلّ من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني.. وهي سياسة إسرائيل منذ قيامها إلى اليوم.. وسننقل هاهنا مقالين لكاتب هذه السطور نُشرا في الشرق الأوسط والمجتمع الكويتية، ثم تمّ نشرهما في كتاب (تيه العرب وتيه بني إسرائيل).. وهذا يوضّح التماهي بين أفكار الصهيونية اليهودية المتدينة، والصهيونية العلمانية الملحدة، وكلاهما يقوم بنفس السياسة، وقد صرّح «مناحم بيجن» عندما أعلنت الأمم المتحدة أن الصهيونية نوع من أنواع العنصرية: إن الصهيونية هي اليهودية، واليهودية هي الصهيونية، ومن يعادي الصهيونية فهو عدو للسامية. ثم قامت الأمم المتحدة تحت الضغط الأمريكي ـ اليهودي بإزالة هذه الفقرة.

التوراة المحرَّفة تدعو لإقامة المذابح ومنع السلام(*):

إنَّ سياسية إسرائيل منذ التخطيط لقيامها في مؤتمر بال (١٨٩٧م) إلى إعلان قيامها عام (١٩٤٨م)، وما صاحبها من مذابح مروّعة، مثل «دير ياسين» و«قبية» ثمَّ ما تلاها من مذابح ومجازر حتى مذابح «صبرا» و«شاتيلا»، تعتمد اعتماداً كاملاً على نصوص التوراة المحرَّفة، وبالأخصّ على سفر يشوع (سفر المجازر).

ولقد قرَّر «بن غوريون» تدريس النصوص التوراتية التي تؤكِّد حق إسرائيل المزعوم في أرض فلسطين والأردن ولبنان وأجزاء من سورية حتى حماة.. وعلى تلك النصوص التي تطلب من إسرائيل طرد جميع سكان الأرض التي تدوسها أقدام إسرائيل.. والأمر الرباني المزعوم بعدم السماح لأيّ من سكان تلك الأرض بالبقاء فيها، والأمر بإقامة المذابح لتلك الشعوب وإبادتها إبادة كاملة عن بكرة أبيها، ومن ذلك ما جاء في سفر العدد (الإصحاح ٣١: ٧ ـ ١٩) من التوراة

(*) نُشر هذا المقال في الشرق الأوسط (لندن ـ الرياض ـ نيويورك... إلخ)، كما نُشر أيضاً في مجلة المجتمع (الكويتية).

المحرَّفة في قتال مدين (مديان): «فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر.. وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم... وأحرقوا مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار، وأخذوا كلّ الغنيمة والنهب من السلب والبهائم وأتوا إلى موسى.. فخطَّ موسى على وكلاء الجيش رؤساء الألوف ورؤساء المئات. وقال لهم موسى: هل أبقيتم كلّ أنثى حية؟ فالآن اقتلوا كلّ ذكر من الأطفال وكلّ امرأة عرفت رجلاً مضاجعة».

وفي سفر يشوع الإصحاح السادس عند فتح أريحا: «وحرّموا كل ما في المدينة، من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحدّ السيف» (يشوع ٦: ٢١).

ويزعمون بأنَّ الرب قال لهم: «ويكون عند أخذكم المدينة أنكم تضرمون المدينة بالنار» والمقصود بالمدينة (عاي)، ويضيف الإصحاح الخامس من سفر يشوع بالتفصيل مذبحة (عاي)، وكيف قتل يشوع وبنو إسرائيل جميع سكان (عاي) وجميع من شرّد منها، وجميع النساء والأطفال والأغنام والأبقار.

ثمَّ تتكرَّر نفس المذبحة الرهيبة بالنسبة لأورشليم وحبرون ولخيش وعجلون ومقيّدة كلّها ضربها بحدِّ السيف وحرَّم كل نفس حية فيها فقتل النساء والأطفال والشيوخ والعجزة.. وهكذا فعل بلبنة وجازر ودبير وحرمون... إلخ.

ويعتقد كثير من الباحثين أنَّ معظم تلك المجازر أسطورية، ويمثّلون لذلك باحتلال أريحا، فهذا الاستيلاء مختلق من أساسه، لأنَّ علم الآثار كما يقول الأب دينو أثبت أَنَّ أريحا دمرت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ولم يكن لها أيّ وجود في عهد يشوع، وكما يقول جارودي[١]:

«ومع هذا تستخدم هذه التلفيقات التاريخية في المدارس الإسرائيلية لتنمية التعصّب بين الشباب.. ولقد قام العالم السيكولوجي ج. تاماران، الأستاذ

---

(١) روجيه جارودي: إسرائيل ـ الصهيونية السياسية.

بجامعة تل أبيب بالتجربة التالية: وزّع الأستاذ على أكثر من ألف تلميذ ابتدائي من الصف الرابع إلى الثامن (المرحلة الأولية من الدراسة) حيث تدخل دراسة سفر يشوع في المنهج، ورواية مذبحة أريحا التي قام بها يشوع. ثمَّ سأل التلاميذ السؤال التالي: لنفترض أنَّ الجيش الإسرائيلي احتلَّ قرية عربية في الحرب؛ فهل يفعل مع أهلها ما فعله يشوع مع أهل أريحا؟ وتراوحت الإجابات بنعم بين (٦٦) بالمئة و(٩٥) بالمئة حسب المدرسة والمستعمرة (كيبوتز) والمدينة!.. ولمَّا كشف هذا الاستطلاع الوجه الحقيقي للمجتمع الإسرائيلي قامت الجامعة بفصل الأستاذ تاماران من قائمة أساتذتها».

وقد صرَّح أحد الحاخامات في جيش إسرائيل أثناء غزو لبنان (صحيفة هاآرتس في ٥/ ٧/ ١٩٨٢م) بما يلي: «علينا ألاَّ ننسى أجزاء التوراة التي تبرّر هذه الحرب، فنحن نؤدِّي واجبنا الديني بتواجدنا هنا (في أرض لبنان). فالنص المكتوب يفرض علينا واجباً دينياً هو أن نغزو أرض العدو».

ويقول روجيه جارودي معلِّقاً على نصوص التوراة المحرَّفة التي تطالب بتوسع أراضي إسرائيل وطرد جميع سكانها الأصليين وإبادة كلّ من يقاوم، بناء على العهود والمواثيق التي قطعها الرب مع إبراهيم ثم إسحاق ثم إسرائيل (يعقوب) ثم موسى ويشوع... إلخ؛ يقول جارودي: «لهذا يظهر الحاخامات في إسرائيل حماساً جنونياً لتوسيع حدود إسرائيل باستمرار ويبررون كلّ المغامرات العسكرية الدموية ومجازر صبرا وشاتيلا».

ولم يقتصر الحاخامات أثناء غزو لبنان على تشجيع الغزو ومباركته والسير في داخل الدبابات وهم يتلون التوراة المحرَّفة، بل قالوا: بأنَّ لبنان هي أرض عاشو (اسم قبيلة) التي أعطاها الرب لإسرائيل.. واعتبروا أنَّ تدمير مدينتي صور وصيدا ودكّ بيروت بالقنابل ومجازر صبرا وشاتيلا هي عمل ديني باركه الرب إلٰه إسرائيل[1]؛ حيث أمر الرب يشوع بن نون بإبادة جميع الكنعانيين والشعوب

(١) وقد قام مجلس كبار حاخامات إسرائيل بإصدار بيان يؤكد هذا الاتجاه، وأن الرب =

الأخرى القاطنة في فلسطين والأردن وسورية ولبنان.. وأمره بأن لا يترك طفلاً ولا شيخاً ولا رجلاً ولا امرأة، وأن يبيد الكلّ بما في ذلك البهائم.. «اقتل أبيمالك!! اقتل الكلّ الرجال والنساء والأطفال والرضَّع والأبقار والخراف والجمال والحمير!!». وأبو مالك (أبيمالك) هو ملك الفلسطينيين آنذاك، وقال له: «حرِّم (أي: اقتل) كلّ الحثيين والعموريين والفرزيين كما أمرك الرب».

ويقول روجيه جارودي في كتابه (إسرائيل الصهيونية السياسية):

«هذا التبرير التوراتي للقتل والإبادة، وهذا الإضفاء للشرعية على العدوانات المتتالية وضمّ أرض الغير من جانب الدولة الصهيونية الحالية التي يقدّمونها على أنها الوريث الشرعي والامتداد الطبيعي لإسرائيل التوراتية، يجعل اليهود يرضون ويقبلون ما لا يمكن قبوله عقلاً، ويجعل كثيراً من المسيحيين يعتقدون بصحة بعض الأقوال الكاثوليكية وبصحة أقوال مدارس «الأحد» البروتستانتية، وهم يسيرون من غير وعي منهم على سنن الأسطورة الصهيونية (الموجودة في التوراة المحرَّفة) التي أثبت علم التفسير (والآثار المتعلِّقة بالمنطقة) منذ قرن وبخاصة في السنين الأخيرة عدم صحتها وفنّدها تفنيداً».

ويعتمد قادة إسرائيل على ما ورد في التوراة المحرَّفة من أوامر الرب إلى إسرائيل، بإقامة المذابح المروّعة لجميع الساكنين في أرض كنعان وما حولها التي وعدها الرب لإبراهيم ونسله من بعده إلى أبد الآبدين.

وتقول التوراة المحرَّفة سفر التثنية (الإصحاح ٢٠):

«وأمَّا مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلٰهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة، بل تحرّمها تحريماً (أي: تقتل كلّ نفس فيها بما في ذلك الأطفال والشيوخ والنساء والبهائم) الحثيّين والعموريين والكنعانيين والفرزيين والحوريين واليبوسيين كما أمرك الرب إلٰهك».

= يبارك غزو لبنان وتدميره وتدمير حزب الله في الغزو الأخير الذي بدأ يوم (١٢ يوليو ٢٠٠٦م) وأباحوا قتل النساء والأطفال.

نعم هكذا.. (حرب إبادة كاملة جينوسايد) ومحارق (هولوكوست) يتصاغر أمامها ما يُقال: إنَّ هتلر فعله باليهود.

فمذابح لبنان (كما يقول روجيه جارودي) وغيرها من المذابح التي تقوم بها أو ستقوم بها إسرائيل هي نتيجة طبيعية ومنطقية وحتمية لأَيديولوجيتهم وللأساطير التي يؤمنون بها، والموجودة فيما يسمَّى العهد القديم.

ولقد دعا بيغن وأنصاره إلى الحرب المقدَّسة بتأييد الحاخامات المتعصبين... واستشهدوا بالنصوص المتكررة في التوراة المحرَّفة عن شعب الله المختار.. «وإسرائيل الابن البكر للرب» تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.. كما استشهدوا بالمجازر التي ادعوا كذباً وبهتاناً أنَّ موسى عليه السلام ويشوع وشاول وداود قاموا بها ضد الشعوب الساكنة في فلسطين والأردن ولبنان وسورية.

وجاء في سفر صموئيل (الإصحاح الأول: ١٥) ما يلي: «وقال صموئيل (النبي) لشاول (وهو طالوت الذي جاء ذكره في القرآن): إيّاي أرسل الرب لمسحك ملكاً على شعبه إسرائيل (يدعى الممسوح بالزيت مسيحاً) والآن فاسمع صوت كلام الرب: هكذا يقول رب الجنود: إنِّي افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر.. فالآن اذهب واضرب عماليق وحرّم (أي: اقتل كل نفس) كلّ ما لهم ولا تعفُ عنهم.. بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، حملاً وحماراً.

وتتكرَّر قصة المذابح في التوراة حيث تزعم هذه التوراة المحرَّفة أنَّ موسى قد قام بالمجازر أولاً، ثم تبعه بعد ذلك يشوع بن نون، ثم تبعهما شاول (طالوت)، ثم جاء داود وأقام المحارق كما يزعمون، وأوقد الأتون، ورمى فيها جميع خصومه من نساء وأطفال وشيوخ ورضّع وبهائم.

فإذا كان الأنبياء بهذه الوحشية عندهم؛ فإنَّ ما يفعله بيغن أو شارون أو غيرهما من المجرمين يعتبر شيئاً تافهاً بالنسبة لتلك الجرائم السابقة!.. وهم يعلنون صباح مساء أنهم يتقرَّبون إلى الرب إله إسرائيل بدماء هذه الشعوب.. فهل يرجى سلام مع إسرائيل؟!..

هل يرجى سلام مع إسرائيل ونصوص التوراة المحرَّفة تحذّر شعب إسرائيل من إجراء أيّ معاهدة سلام مع سكان أرض فلسطين وما حولها.

«قال الرب: احفظ ما أنا موصيك اليوم. ها أنا طارد من قدامك العموريين والكنعانيين والحثيين والفرزيين والحوريين واليبوسيين. احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التي أنت آتٍ إليها لئلاَّ يصيروا فخّاً في وسطك... احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض» (سفر التكوين الإصحاح ٣٤: ١١ ـ ١٢).

وفي سفر العدد (الإصحاح ٣٣: ٥٠ ـ ٥٥) من التوراة جاء ما يلي: «وكلَّم الرب موسى في عربات موآب على أردن أريحا قائلاً: كلِّم بني إسرائيل وقُل لهم: إنَّكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان.. فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم.. تملكون الأرض وتسكنون فيها. قد أعطيتكم الأرض لكي تملكوها.. وتقسّمون الأرض بالقرعة حسب عشائركم.. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكوٰن الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس في جوانبكم ويضايقونكم على الأرض التي أنتم ساكنون فيها».

وتحدِّد التوراة المحرَّفة حدود إسرائيل بصور مختلفة، فتارة تتَّسع وتارة تضيق نسبياً، وأحياناً تكون الحدود مطاطة حسب قدرة جيش إسرائيل.. فقد جاء في سفر التثنية (الإصحاح ١١: ٢٣ ـ ٢٦) ما يلي: «يطرد الرب جميع هؤلاء الشعوب من أمامكم فترثون شعوباً أكبر منكم، وأعظم منكم. كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرية ولبنان... من النهر، نهر الفرات إلى البحر الغربي (هل هو نهر النيل كما ورد في مواضع أخرى، أم البحر الأبيض المتوسط كما دلَّت عليه عبارات أخرىٰ من التوراة؟) يكون تخومكم. لا يقف إنسان في وجهكم. الرب إلٰهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التي تدوسونها كما كلَّمكم».

وجاء في سفر التثنية أيضاً (الإصحاح ٢٠: ١٦ ـ ١٨): «وأمَّا مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلٰهك نصيباً فلا تستبق فيها نسمة، بل تحرّمها تحريماً

(أي: تبيد من فيها من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني) الحثيين والعموريين والكنعانيين والفرزيين والحوريين واليبوسيين كما أمرك إلٰهك».

ويوضِّح لهم الرب حسب زعمهم الفرائض التي ينبغي أن يعملها شعب إسرائيل.. وأهمها جميعاً «تخربون جميع الأماكن» سفر التثنية (الإصحاح ١٢: ١ ـ ٢): «قال الرب: هذه هي الفرائض والأحكام التي تحفظون لتعملوها، الأرض التي أعطاك الرب إلٰه آبائك لتمتلكها كلّ الأيام التي تحيون على الأرض: تخربون جميع الأماكن».

وجاء في سفر التثنية الإصحاح ٧ (من أوله لآخره): «متى أتى الرب إلٰهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وتطرد شعوباً كثيرة من أمامك الحثيين والجرجاشيين والعموريين والكنعانيين والفرزيين والحوريين واليبوسيين. سبع شعوب أكثر وأعظم منك. ودفعهم الرب أمامك وضربتهم فإنَّك تحرّمهم (أي: تبيد كل نفس فيها من الرضيع إلى الشيخ ومن الرجل إلى المرأة وجميع البهائم). لا تقطع معهم عهداً ولا تشفق عليهم.. لأنك أنت شعب مقدّس للرب إلٰهك. إيّاك قد اختار الرب لتكون له شعباً.. أخصّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض... مباركاً تكون فوق جميع الشعوب.. وتأكل كلّ الشعوب.. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلٰهك يدفع إليك. لا تشفق عيناك عليهم، ولكن الرب إلٰهك يطرد هؤلاء الشعوب من أمامك قليلاً قليلاً (هذه هي سياسة إسرائيل منذ أن قامت) لا تستطيع أن تفنيهم سريعاً لئلاً تكثر عليك وحوش البرية. ويدفعهم الرب إلٰهك أمامك ويوقع بهم اضطراباً عظيماً حتى يفنوا ويدفع ملوكهم إلى يدك فتمحو اسمهم من تحت السماء. لا يقف إنسان في وجهك حتى تفنيهم».

وهكذا تتَّضح معالم سياسة إسرائيل القتل والسفك والذبح لكلّ سكان فلسطين وما حولها.. دون وجود حدود دائمة.. حيثما وطئت أقدامك يا إسرائيل فهي أرضك.. وبما أنك لا تستطيع أن تبيد جميع الشعوب دفعة واحدة فإنَّ الرب إلٰهك.. إلٰه إسرائيل سيدفعهم ليدك ويطردهم من أمامك قليلاً قليلاً.. لكن الحذر أن تشفق على أحد منهم. الحذر الحذر أن توقع معهم عهداً.. لا

سلام.. لا سلام ولا عهد مع هذه الشعوب حتى تبيدها جميعاً.. ولا يبقى في أرضك منهم إنسان واحد.. فهل يطمع العرب بعد هذه التعليمات التوراتية الواضحة بسلام مع إسرائيل؟!..

سفر يشوع (سفر المجازر) وسياسة إسرائيل(*):

يعتبر سفر يشوع سفر المجازر!.. ويشوع: هو يوشع بن نون، فتى موسى، وأحد أنبياء بني إسرائيل، ولكنَّ التوراة المحرَّفة تفتري عليه الكذب كما افترت من قبل على إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وهارون.

ويبتدئ سفر يشوع من الإصحاح الأول بوعد من الرب بإعطائهم أرض الشعوب القاطنة في فلسطين والأردن ولبنان وسورية.. ثم أوامر من الرب بإقامة المذابح المتتالية.

ففي الإصحاح الأول (١ ـ ٧) جاء ما يلي:

«كلَّم الرب يشوع بن نون خادم موسى قائلاً: موسى عبدي قد مات. قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم. كل موضع تدوسه أقدامه لكم أعطيته (هكذا دون تحديد، أي: حدود لدولة إسرائيل) من البرية ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات. جميع أراضي الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخومكم لا يقف إنسان في وجهك».

وفي الإصحاح السادس من سفر يشوع يسقط سور أريحا بمجرد هتاف إسرائيل ونفخ البوق وتبدأ المجزرة، قال الرب حسب زعمهم: «فتكون المدينة وكل ما فيها محرّماً للرب (أي: إبادة يباد) راحاب الزانية فقط تحيا وكل من معها في البيت لأنها قد خبّأت الجاسوسين.. «وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحدِّ السيف. واحرقوا المدينة بالنار مع كلّ ما بها.. وحلف يشوع في ذلك الوقت ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبني هذه المدينة».

(*) نُشر هذا المقال في مجلة المجتمع الكويتية.

وفي الإصحاح الثامن من سفر يشوع: «قال الرب ليشوع: قم واصعد إلى (عاي) انظر قد دفعت بيدك ملك (عاي) وشعبه ومدينته وأرضه. وتفعل (بعاي) وملكها كما فعلت بأريحا وملكها غير أنَّ غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم».

«وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان (عاي) في الحقل وفي البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعاً بحدِّ السيف حتى فنوا أنَّ جميع إسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً، جميع أهل (عاي). ويشوع لم يرد يد التي مدّها بالمزارق حتى حرَّم جميع سكان (عاي) (أي: قتل جميع السكان بما في ذلك النساء والأطفال) لكنَّ البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذي أمر به يشوع. وأحرق يشوع (عاي) وجعلها تلّاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم».

وتتوالىٰ المجازر في أورشليم ولخيش وعجلون وحبرون ويرموت.. وجاء سكان جعبون وسلّموا أنفسهم لإسرائيل «ورضوا بأن يكونوا لهم عبيداً أبد الدهر» كما تقول التوراة المحرَّفة، ومع هذا رفض يوشع بن نون هذا العرض لولا أنَّ سكان جعبون ادعوا أنهم من أماكن بعيدة ولبسوا ثياباً رثَّة وجعلوا على أنفسهم آثار السفر البعيد.. وقد علَّل يوشع ذلك الرفض بأنَّ الرب أمره وأمر إسرائيل بعدم الصلح مع سكان أرض فلسطين وما حولها.

ثم قام يوشع وأخذ مدينة مقيّدة في ذلك اليوم وضربها بحدِّ السيف وحرَّم ملكها هو وكل نفس بها. لم يبقِ شارداً كما تقول التوراة (سفر يشوع) ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه إلى لبنة، وحارب لبنة فدفعها الرب ليد ابنه البكر إسرائيل (لعنة الله على اليهود) فضربها يشوع بحدِّ السيف وكل نفس بها. لم يبقِ بها شارداً ولا طفلاً ولا شيخاً ولا رجلاً ولا امرأة. حسب أوامر الرب فعل يشوع.. هكذا تقول التوراة المحرّفة.

ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لبنة إلى لخيش، فدفع الرب إلٰه

إسرائيل لخيش بيد إسرائيل فضربها بحدِّ السيف وكل نفس بها حسب ما فعل بكل المدن السابقة. حينئذٍ صعد هورام ملك جازر لإنقاذ لخيش.. وضربه يشوع مع شعبه حتى لم يبقِ له شارداً.

ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لخيش إلى عجلون فضربوها بحدِّ السيف. وحرَّم كل نفس بها حسب كل ما فعل بلخيش ولبنة وأريحا.

ثم صعد يشوع وجميع إسرائيل معه من عجلون إلى حبرون وضربوها بحدِّ السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفس بها.. من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني.. لم يبق شارداً.. حرمها يشوع حسب أوامر الرب إلٰه إسرائيل!!.

ثم رجع يشوع إلى دبير وحاربها وأخذها مع ملكها وكل مدنها وضربها بحدِّ السيف، وحرّم كل نفس بها لم يبقِ شارداً.

«فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها.. لم يبقِ شارداً، بل حرّم كل نسمة كما أمر الرب إلٰه إسرائيل، فضربهم يشوع من قادش برنيغ إلى غزة وجميع أرض جوشن إلى جعبون، وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة؛ لأنَّ الرب إلٰه إسرائيل حارب عن إسرائيل، ثم رجع يشوع وجميع إسرائيل معه إلى المحلَّة إلى الجلجال».

واستمرَّ يشوع في إقامة المجازر كما تزعم التوراة طوال حياته؛ فما كاد ينتهي من هذه المناطق التي ذكرتها التوراة المحرَّفة حتى انطلق إلى حاصور التي ضربها بحدِّ السيف وحرّمها بحيث لم تبقَ بها نسمة. وأحرق يشوع حاصور بالنار كما فعل بالمدن السابقة أريحا وعاي... إلخ. ولكن يشوع لم يحرق المدن القريبة من حاصور والواقعة على التلال، بل اكتفى بقتل كل نفس فيها.. النساء مع الرجال والأطفال مع الشيوخ!! (يا لها من رحمة!!).

فأخذ يشوع حسب قول التوراة المحرَّفة كل تلك الأراضي والجبل وكل الجنوب، وكلّ أرض جوشن والسهل والعربة وجبل إسرائيل وسهله من الجبل

الصاعد إلى سعير إلى بعل جاد في بقعة لبنان تحت جبل حرمون. وأخذ جميع ملوكها وضربهم بحدِّ السيف لم يبقِ بها شارداً ولا أبقىٰ على نفس بها.

«وجاء يشوع وقرض (أي: أباد) العناقين من الجبل من حبرون ومن دبير ومن عناب ومن جميع جبل يهوذا ومن كل جبل إسرائيل. حرَّمهم يشوع مع مدنهم فلم يتبقَّ عناقيون في أرض إسرائيل لكن بقوا في غزة وأشدود. فأخذ يشوع كل الأرض حسب ما كلَّم به الرب موسى وأعطاها يشوع ملكاً لإسرائيل حسب فرقهم وأسباطهم. واستراحت الأرض من الخراب» (سفر يشوع، الإصحاح ١١).

وشاخ يشوع ورغم الحروب الكثيرة التي قام بها إلاَّ أنه لم يمتلك كل أرض فلسطين ولبنان والأردن وسورية. وقال له الرب: «قد بقيت أرض كثيرة للامتلاك. هذه هي الأرض الباقية كل دائرة الفلسطينيين وكل الجشوريين من الشيحور الذي هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالاً.. من التيمن كل أرض الكنعانيين ومغارة التي للصيدونيين إلى أفيق تخم الأموريين وأرض الجبلين وكل لبنان نحو شروق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون إلى مدخل حماة جميع سكان الجبل من لبنان إلى مسرفوت مايم، جميع الصيدونيين. أنا أطردهم من أمام بني إسرائيل. إنَّما أقسمها بالقرعة لإسرائيل ملكاً كما أمرتك». (سفر يشوع، الإصحاح ١٣: ١ ـ ٦).

وفي (الإصحاح ٢٣) من سفر يشوع قام يشوع سلفاً بتقسيم الأراضي التي لم يحتلّها بعد على أسباط بني إسرائيل: «انظروا قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكاً لكم حسب أسباطكم من الأردن وجميع الشعوب الباقين وجميع الشعوب التي قرضتها والبحر العظيم نحو غروب الشمس. والرب إلٰهكم هو ينفيهم من أمامكم ويطردهم من قدامكم فتملكون أرضهم كما كلّمكم الرب إلٰهكم».

وقد تعمَّق لدىٰ اليهود وخاصة في العصور الحديثة أحقيتهم في استلاب أرض الغير وإبادتهم دون رحمة أو شفقة؛ لأنَّ تلك هي تعاليم الرب إلٰه إسرائيل.

فقد صرَّحت غولدا مائير في (١٥ أكتوبر ١٩٧١م) لصحيفة لوموند الفرنسية: «وجد هذا البلد (أي: إسرائيل) تنفيذاً لوعد الرب ذاته. ولهذا لا يصحّ أن نسأله إيضاحاً عن شرعية هذا الوجود». ويقول موشي ديان في الجيروزاليم بوست عدد (١٠ أغسطس ١٩٦٧م): «إذا كنَّا نمتلك الكتاب المقدّس، وإذا كنّا نعتبر أنفسنا شعب التوراة، فينبغي أيضاً أن نمتلك أيضاً بلاد التوراة (وهي الأسفار الخمسة من العهد القديم) وبلاد القضاة (وهو أحد أسفار العهد القديم). أرض أورشليم وحبرون وأريحا وأماكن أخرى كثيرة».

ويقول مناحيم بيغن لصحيفة دافار في (١٤ ديسمبر ١٩٧٨م): «لقد وعدنا الله هذه الأرض ولنا كل الحق فيها». . وتصرح غولدا مائير للصنداي تايمز اللندنية في (١٥ يونيه ١٩٦٩م) بالآتي: «لا وجود للفلسطينيين. . ليست المسألة أننا أتينا وطردناهم وأخذنا بلادهم، لا. . إنَّهم لم يوجدوا أصلاً، والتوراة شاهد على ذلك، فالوعد بهذه الأرض من الرب لنا منذ عهد إبراهيم».

ويبدو تأثير التعاليم التوراتية المحرَّفة واضحاً أشدّ الوضوح في تصريحات زعماء إسرائيل منذ تكوينها، وهي سياسة دولة إسرائيل منذ قيامها.

وعندما وجَّه آينشتاين (وهو يهودي) سؤالاً إلى وايزمان (أحد كبار قادة الصهيونية العالمية) قائلاً له: وما هو مصير العرب إذا ما أعطيت فلسطين لليهود؟ فردَّ عليه وايزمان: من هم أولئك العرب؟! إنَّهم لا شيء»[(١)].

وكتب أول وزير للتعليم في إسرائيل بيريون دينور: «ليس في بلادنا مكان إلاَّ لليهود! . . وسنقول للعرب: ارحلوا، فإن لم يرضوا بذلك وعمدوا إلى المقاومة فسنرحّلهم بالقوة»[(٢)].

---

(١) نقلاً عن كتاب روجيه جارودي: إسرائيل الصهيونية السياسية، وقد نقل هو ذلك عن كتاب: مستقبل الشرق الأوسط، ص ٣٤١، PERSPECTIIVE MIDDLE EAST.

(٢) تاريخ الهاجانة، نشر المنظمة الصهيونية العالمية. . نقلاً عن رجاء جارودي: إسرائيل الصهيونة السياسية.

وكتب جوزيف فايتز مدير إدارة الاستيطان غداة حرب يونيه (١٩٦٧م): «من الواضح أنه لا مكان في هذه البلاد لشعبين.. والحل الوحيد هو إسرائيل اليهودية التي تضم على الأقل إسرائيل الغربية (الضفة الغربية لنهر الأردن) بلا عرب.. ولا مخرج إلا بنقل العرب إلى مكان آخر في البلدان المجاورة».

وقد صرَّح بيغن وشارون وبيريز مراراً وتكراراً أنَّ الضفة الغربية هي يهودا والسامرة، ولا يمكن مطلقاً التنازل عن أرض هي يهودية بمقتضى أوامر الرب.. والرب قد أمر مراراً وتكراراً (في التوراة المحرَّفة) بطرد جميع سكان هذه الأرض من وجه إسرائيل، وإلاَّ وجب قتل كل نفس فيها من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني.

وقد قام الكاتب الأمريكي الساخر المشهور مارك توين (وهو يهودي) بترويج فكرة (شعب بلا أرض وأرض بلا شعب) أي: أنَّ الشعب اليهودي الموجود في الشتات (ديا سبورا) ينبغي أن يسكن أرض فلسطين التي لا يوجد فيها أيّ شعب!.. وهو كذب مفضوح، إذ إنَّ الشعب العربي في فلسطين كان يشكِّل أكثر من (٨٠) بالمئة من سكان فلسطين حتى لحظة إعلان دولة إسرائيل وقرار التقسيم.

ولكنَّ هذه الأكاذيب تنطلي على الغربيين.. ويستخدم اليهود بذكاء أساطير العهد القديم (التوراة المحرَّفة) التي يؤمن بها النصارى؛ حتى إن كثيراً من النصارى يؤيِّدون إسرائيل بسبب ما يتلى عليهم من أسفار العهد القديم.

ولهذا نجد بعض كبار رجال الدين المسيحي، مثل الكاتب الكاثوليكي جاك ماريتان يقولون: «فلسطين هي الأرض الوحيدة التي ثبت ثبوتاً مطلقاً وثبوتاً إلٰهياً أنها لشعب معين (هم اليهود) حق لا ينازع فيها»[١].

وتقول رسالة اللجنة الأسقفية الفرنسية في (١٦ أبريل ١٩٧٥م) تحت

---

(١) روجيه جارودي: إسرائيل الصهيونية السياسية، ص ١٠٢.

عنوان: «إرشاد يتعلّق بموقف المسيحيين من اليهودية: النقطة الخامسة»: «لا يمكننا أن ننسى بصفتنا مسيحيين أَنَّ الرب قد وهب في الماضي شعب إسرائيل أرضاً ليتلاقىٰ عليها».

وتقوم في الولايات المتحدة حملات منظّمة في الكنائس لدعم مواقف إسرائيل، وتبرير ذلك بما جاء في العهد القديم.

وقد بلغ الأمر أن تكوّنت لجان من بعض رجال الدين والأثرياء المتدينين في الولايات المتحدة تجمع التبرعات الضخمة لهدم المسجد الأقصىٰ.. وليبنىٰ على أنقاضه هيكل سليمان.. لأنَّ المسيح لا يظهر إلاَّ عند قيام الهيكل!!.

إنَّ سياسة إسرائيل تقوم على نصوص توراتية تدعو إلى طرد جميع سكان الأرض التي تطؤها أقدام إسرائيل، وتحرّم تحريماً تامّاً توقيع أيّ معاهدة سلام مع سكان تلك الأراضي. وتدعو بإلحاح إلى إقامة المذابح والمجازر لهذه الشعوب وإبادتها إبادة كاملة بما في ذلك النساء والشيوخ والأطفال، بل وحتى البهائم من الأبقار والأغنام والحمير تجب إبادتها وقتلها إذا ما دفعها الرب إلٰه إسرائيل ليد ابنه البكر (إسرائيل)؛ فهل يرجىٰ سلام مع إسرائيل؟!..

ولا تزال سياسة إسرائيل الصهيوينة سواء كانت تلمودية توارتية أم صهيونية علمانية تتوحد في اعتبار إسرائيل والشعب اليهودي هو الإلٰه وهو المقدّس، وهو الذي حلّت فيه جميع القداسات، وأن بقاء إسرائيل هو التعبير الحقيقي عن بقاء الإلٰه ذاته، لأن الله قد حلّ في هذا الشعب.. وعليه فإن من يهدد أمن هذا الشعب يجب أن يُباد، وأن على كل الأمم المُحبة للسلام ولشعب إسرائيل سواء كانت مسيحية متدينة تدبيرية، أم علمانية إنسانية، أن تقوم بمساندة شعب إسرائيل للحفاظ على بقائه؛ تقتل هؤلاء الفلسطينيين واللبنانيين والعرب والمسلمين الذين يهددون أمن إسرائيل وبقائها!! وما نراه من مذابح وقتل للأطفال والنساء والشيوخ (ومثالها قانا الأولى في جنوب لبنان (١٩٩٦م) عندما أمر بيريز الشاعري بهدم ملجأ الأمم المتحدة الذي لجأ إليه مئات الأطفال والنساء في جنوب لبنان من

القصف الوحشي، أو قانا الثانية التي حدثت في (٣٠ يوليو ٢٠٠٦م)، ومئات المذابح غيرها) ليست إلا تعبيراً حقيقيّاً عن جرائم هذا الشعب اليهودي الذي يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله قد حلّ فيه (حتى ولو لم يكن هناك إله). واليهود بفئاتهم كلها الدينية والعلمانية يعتقدون أن الشعب اليهودي مقدّس، وأن المساس بأمنه يستدعي قتل الكلّ وإبادة الكلّ من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني.

وللأسف: فإن المسلمين عامة والعرب خاصة لم يعرفوا بعد سياسة إسرائيل وسياسة وأهداف هؤلاء اليهود الحاقدين على البشر (ما عدا أفراد معدودين).

اليهود الأرثوذكس (التلموديون) أشدّ فرق اليهود تجبّراً وطغياناً:

أما اليهود الفريسيون الحاخاميون المؤمنون بالتلمود فقضيتهم أشدّ عسراً[1]، فهم يرون أن تعاليم الله الخالدة الشفوية الموجودة في التلمود أهم حتى من تلك الموجودة في الشريعة المكتوبة، التوراة. وقد جاء في التلمود ما يلي: «اعلم أن أقوال الحاخامات هي أفضل من أقوال الأنبياء»، وفيها: «إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله»، وفيها: «الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة. وإذا ضرب أممي إسرائيلياً فكأنما ضرب العزة الإلٰهية ويستحق الموت.. ولو لم يخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس. والفرق بين درجة الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهودي وباقي الشعوب».

«والأجانب (غير اليهود) كالكلاب، والأعياد المقدّسة لم تخلق للأجانب ولا للكلاب.. والكلب أفضل من الأجنبي، لأنه مصرّح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلاب، وليس له أن يطعم الأجنبي أو أن يعطيه لحماً، بل يعطيه للكلب لأنه أفضل منه».

---

(١) انظر كتاب: المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، للدكتور محمد علي البار، الدار السعودية - جدة؛ وإبراهيم خليل أحمد: إسرائيل والتلمود؛ وظفر الإسلام خان: التلمود تاريخه وتعاليمه، للمزيد من المعلومات عن التلمود.

«الخارجون عن دين اليهود خنازير نجسة. وقد خلق الله الأجنبي على هيئة الإنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين ما خُلقت الدنيا إلا من أجلهم».

«وتتميّز أرواح اليهود عن باقي الأرواح: بأنها من الله، كما أن الابن جزء من والده».

● جاء في التلمود أن خلافاً نشأ بين الله وبعض الأحبار حول إحدى المسائل العويصة وطال الجدل.. وأخيراً تقرر إحالة الخلاف إلى كبير الحاخامات الذي حكم بخطأ الله (تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً)، مما اضطر الرب إلى الاعتراف بخطئه علانية أمام السنهدرين (السنهدرين هو المحكمة العليا المكونة من كبار الأحبار التي تفصل في القضايا الهامة).

● إن مخافة الحاخامات هي مخافة الله.

● إن من يقرأ التوراة بدون المشنا والجماره (التلمود) فليس له إلٰه.

● من رأى أنه يجامع والدته فسيؤتى الحكمة، ومن رأى أنه يجامع أخته فنصيبه نور العقل. ومن تعاليم التلمود: أن الله يقسم اليوم إلى ليل اثنتي عشرة ساعة ينام فيها ويرتاح (نوم طويل)، وإلى اثنتي عشرة ساعة نهار يقسّمها كالتالي: الثلاث ساعات الأولى يدرس التوراة مع الأحبار، وفي الثلاث الثانية يحكم العالم ويدبّر شؤونه، وفي الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاث الساعات الأخيرة من النهار يلعب مع الحوت ملك الأسماك.

ثم لمّا شرّد الله أبناءه اليهود وخرَّب الهيكل جعل الثلاث ساعات الأخيرة للبكاء على تشريد أبنائه اليهود، ويصرخ ويزأر قائلاً: تبّاً لي لأني صرّحت بخراب بيتي، وإحراق هيكلي، ونهب أولادي. وتسقط كل يوم منه دمعتان في البحر فيسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه، وتضطرب المياه، وترتجف الأرض في أغلب الأحيان فتحدث الزلازل.

● عندما يسمع الله اليهود يمجّدونه رغم ما فعل بهم من نكبات يندم ويلطم وجهه ويصرخ: طوبى لمن يمجّده الناس وهو مستحق لذلك.. وويل للأب الذي

يمجّده أبناؤه (اليهود) مع عدم استحقاقه لذلك، لأنه قضى عليهم بالتشريد والشقاء.

وفي التلمود شتائم مقذعة لعيسى عليه السلام، ولهذا امتنع اليهود منذ بداية القرن العشرين عن طبع التلمود، وسحبوا النسخ الموجودة منه في المكتبات العامة، حتى تروّج على النصارى أكاذيبهم الكبرى مثل «الحضارة اليهودية المسيحية» و«الأخلاق اليهودية المسيحية»، وإيجاد كراسي مقارنة الأديان في الجامعات التي يتولاها اليهود وينشرون عشرات الأفلام ومئات الكتب التي تتحدّث: أن الرومان وليس اليهود هم الذين صلبوا عيسى وأهانوه وأذلوه.

وفي التلمود ما يلي من سبّ لعيسى عليه السلام:

● يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم بين الزفت والقطران. وأمّه مريم أتت به من زناها بالعسكري يوسف باندارا. ويسوع المسيح ارتد عن دين اليهود وعبد الأوثان. وكل مسيحي لم يتهوّد فهو وثني عدو لله ولليهود.

ـ الكنائس المسيحية بمثابة القاذورات والمزابل، والواعظون فيها كلاب نابحة.

ـ قتل النصارى من الأفعال التي يكافئ الله عليها. وإذا لم يتمكن اليهودي من ذلك فواجب عليه أن يتسبب في إهلاكهم في أيٍّ وقت وعلى أيّ وجه. متى تمكن من ذلك.

ـ يجب على اليهودي أن يلعن النصارى كلّ يوم ثلاث مرات، ويطلب من الله أن يبيدهم وحكامهم.

ـ على اليهود أن يعاملوا النصارى كحيوانات دنيئة غير عاقلة.

ـ المعجزات التي قام بها المسيح كانت بقوة السحر، وقد تعلّم يسوع السحر أثناء وجوده في مصر.

● وكل ما يقول يسوع تعلمه على يد حبر مطرود من الكنيس اليهودي

لهرطقته وكفره، وهو الحبر يوشع بن برخيا (Joshua ben Perachia). والغريب أن يوشع (جوشوا) هذا مات قبل أن يولد المسيح بتسعين عاماً.

● إن يسوع رمي بالأحجار حتى مات من قبل سكان القدس ثم صُلب مساء عيد الفصح بسبب كفره.

● تلاميذ المسيح ملحدون وهراطقة (Heretics)، ويتهمهم التلمود بكل الأفعال الشائنة.

● العهد الجديد أي الأناجيل تسمّى كتب الإثم والعار والذنوب.

وقد وصف يسوع في طبعة أمستردام من التلمود لسنة (١٦٤٥م): بأنه خائن وأحمق وغشاش بني إسرائيل، والمجذوم والساحر وابن الزنى... إلخ.

ومن المعلوم أن اليهود الأرثوذكس في إسرائيل، وهم الآن يشكلون الأغلبية، يؤمنون بتعاليم التلمود حرفياً، كما يؤمنون أيضاً بتعاليم التوراة (المحرّفة)، ويرى هؤلاء الأحبار أنفسهم مثل الآلهة بالنسبة لليهود.. ويرون اليهود العامة (من ذات الله) أيضاً مقدّسين، وأن الله لم يخلق العالم إلا من أجل يهود.. ولذا فإن أموال العالم وممتلكاته هي في الأصل ملك لليهود، ولذا فإن سرقتها من الأمميين لا تعدّ سرقة، بل استعادة لملك اليهودي، بل يُعتبر واجباً مقدّساً أمر به الرب ويسرُّ به.. وأن قتل الأجنبي (غير اليهودي) حتى في زمن السلم ليس بجريمة، وهم يؤمنون بمجيء الماشيح (المسيح الدجّال) وعند ظهوره تقوم دولة اليهود العالمية، ولكنه لا يظهر إلا بعد علامات كثيرة هامة، هي:

١ ـ تجمّع اليهود من الشتات في أرض إسرائيل (وقد قامت إسرائيل بالفعل منذ عام ١٩٤٨م).

٢ ـ الاستيلاء على أورشليم (القدس).

٣ ـ إعادة بناء الهيكل.

وهذا أيضاً ما يؤمن به التدبيريون الأمريكيون المتعصّبون ممن يسمّون

«ولدوا من جديد»، وعددهم قد جاوز الخمسين مليوناً، ومنهم الرئيس ريغان والرئيس كارتر والرئيس بوش الأب والرئيس بوش الابن (الصغير). . . إلخ.

ومن تعاليم التلمود ما يلي:

● يجب على كل يهودي أن يبذل جهده لمنع استملاك باقي الأمم في الأرض، وأن تتجمع الثروة كلها بأيدي اليهود، ولن يأتي الماشيح (الدجّال) إلا واليهود في غاية الثراء. . وقد حصلوا على جميع أموال العالم بواسطة الربا والغش والخداع والحروب وسائر الوسائل المشروعة وغير المشروعة. . وتحفظ هذه الكنوز في سرايات واسعة تبقى مفاتيحها أبداً بيد اليهود.

ونظرة فاحصة للوضع الاقتصادي العالمي توضّح أن اليهود قد حققوا جزءاً كبيراً من هذه المهمة، فالبنوك العالمية كلها واقعة تحت سيطرة اليهود، وبيوت المال الكبرى بأيديهم وتجارة الإعلام والإعلان والبغاء والمخدرات كلها بأيديهم. . وتجارة الذهب والماس كلها تقريباً بأيدي اليهود.

ومعظم الدول بما فيها كثير من الدول الغنية، وقعت في مشكلة الديون وترزح تحت أثقالها. وأما العالم الثالث فإن معظم هذه الدول لا تستطيع حتى أن تسدّد فوائد الديون وأقساطها، ولذا فإنها قد ارتهنت ثروتها واستقلالها ليد الدولة العظمى والبنك الدولي التي يسيطر عليهما اليهود.

وفي التلمود: «لكي يسيطر اليهود نهائيّاً على باقي الأمم يلزم أن تقوم الحرب على قدم وساق، ويهلك ثلثا العالم. . وتسمّى هذه الحرب حرب التنين (Dragon war) أو حرب هرمجدون لما فيها من الهلاك.

وصدق الله العظيم الذي وصفهم بأنهم يشعلون نيران الحروب، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارًا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًاۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

ومعظم الحروب وخاصة في القرون الثلاثة الأخيرة قد لعب اليهود دوراً في إشعالها، وفي إقراض المتحاربين من الجهتين معاً بفوائد فاحشة. وبعد كل حرب تزداد قوتهم وسيطرتهم وثراؤهم.

ومن **تعاليم التوراة**: «لليهودي لا تقرض بربا، للأجنبي لا تقرض إلا بالربا» ومن **تعاليم التلمود**: «حياة غير اليهودي ملك لليهودي؛ فكيف بماله؟!».

● «لليهودي أن يسرق مال غير اليهودي.. والسرقة من غير اليهودي لا تعتبر سرقة بل استرداداً لمال اليهودي، إذ إن العالم كله لم يخلق إلا من أجل اليهود».

● «محرّم على اليهودي أن ينجّي أحداً من الأجانب (غير اليهود) من الهلاك، أو يخرجه من حفرة وقع فيها، بل عليه أن يسدَّ الحفرة التي وقع فيها الأجنبي».

والرب لا يهتم إلا بابنه البكر إسرائيل «أنت ابني.. أنا اليوم ولدتك. اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً وأقاصي الأرض ملكاً» المزمور الثاني من مزامير داود.

تأكيد عقيدة الشعب الإلهي المقدّس عند اليهود واللوثريين والتدبيريين من النصارى:

لهذا كله لا يوجد شعب من شعوب العالم يعتقد بقداسته مثل هؤلاء اليهود!.. وهم بدون ريب أشدّ تعصّباً وعنصرية من النازية الهتلرية والفاشية الموسولونية، وعنصرية البيض في جنوب إفريقية وروديسيا.. ولهذا فإن من يضرب يهوديّاً فكأنما ضرب العزة الإلٰهية، ومن يقتل يهوديّاً محتلّاً غاصباً قاتلاً للنساء والأطفال فكأنما أباد البشرية بكاملها. ومن يأسر جنديّاً إسرائيليّاً فيستحق أن تدمر بلاده وأرضه، ويباد أطفاله ونساؤه وشيوخه وصغاره، وأن يشرّد من بقي منهم حيّاً من أرضه وبلاده. وهذا ما حدث في غزة عندما استطاعت المقاومة الفلسطينية أن تأسر أحد الجنود الإسرائيليين، وعندما قام حزب الله بأسر جنديين من جيش الدفاع الإسرائيلي الذي يقتل النساء والأطفال كل يوم (في ١٢ يوليو ٢٠٠٦م). وأدى ذلك إلى حرب الإبادة الكاملة لأرض لبنان وشعب لبنان بمباركة الولايات المتحدة الأمريكية وحكومتها التي يرأسها بوش الحقير، والذي يؤمن

بقداسة إسرائيل وشعب إسرائيل وأرض إسرائيل، وأن الله لم يخلق الكون كله إلا من أجل إسرائيل. . وأن على البشرية جمعاء أن تتمجد بلعق حذاء إسرائيل.

المرأة الكنعانية:

وكثيراً ما يوردون قصة المرأة الكنعانية التي ذهبت إلى يسوع عليه السلام ليشفي ابنتها المريضة، فأبى أن يفعل ذلك قائلاً: «لا يجوز أن يعطى عشاء الأولاد للكلاب (وإنه إنما أرسل لخراف بني إسرائيل الضالة)، فقالت المرأة: ولكن الكلاب يا سيدي تأكل من فتات المائدة. فقال لها: إيمانك عظيم أيّتها المرأة. ودعا لابنتها فشفيت» (متّى ١٥/ ٢١ ـ ٢٨)، وكما قال مارتن لوثر (١٤٨٢ ـ ١٥٤٦م) مؤسس البروتستانتية في كتابه الأول (يسوع وُلد يهوديّاً): إن الروح القدس أنزل كل أسفار الكتاب المقدّس عن طريق اليهود وحدهم. . **إن اليهود هم أبناء الله، ونحن الضيوف الغرباء، ولذلك فإن علينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل مما يتساقط من فتات مائدة أسيادها كالمرأة الكنعانية تماماً**. وهذا الكتاب الذي نشره مارتن لوثر سنة (١٥٢٣م) لا يزال يطبع ويوزّع بالملايين، خاصة في العصر الحديث من قبل المسيحيين المتصهينين.

ورغم أن مارتن لوثر أعاد النظر في المسألة اليهودية وكتب كتاباً آخر مناقضاً لكتابه الأول (يسوع وُلد يهودياً)، وأسمى كتابه الجديد (فيما يتعلق باليهود وأكاذيبهم) ونشره عام (١٥٤٤م) أي: بعد (٢١) سنة من نشر كتابه الأول، إلا أن الجماعات اللوثرية خاصة والبروتستانتية عامة والتي تدعي أنها تتبع مارتن لوثر، لا تزال تنشر كتابه الأول الذي يمدح فيه اليهود، ويقول فيه: «علينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل مما يتساقط من فتات مائدة أسيادها (اليهود) كالمرأة الكنعانية تماماً. . ويرفضون نشر كتابه الثاني (فيما يتعلق باليهود وأكاذيبهم) والذي فضح فيه اليهود وجرائمهم وأكاذيبهم، وأن الله قد نزع منهم القداسة لأنهم أعداء للمسيح ولكلِّ خيرٍ، وهم مصدر لكلِّ شر في العالم. . وقد بلغت الوقاحة بالاتحاد العالمي للوثريين أن يصدروا عام (١٩٨٣م) من استكهولم بالسويد بياناً

يعلنون فيه براءتهم من كتاب مارتن لوثر (فيما يتعلق باليهود وأكاذيبهم)، وكل ما صدر عن لوثر من إدانة لليهود في مقالاته المتأخرة بما فيها هذا الكتاب. واجتمع في نفس العام (١٩٨٣م) رؤساء الكنائس اللوثرية في سانت لويس بالولايات المتحدة، وأعلنوا أسفهم للملاحظات المهينة والمتطرفة التي أبداها لوثر عن اليهود، وأنهم لا يلتزمون بها، بل ينكرونها ويشجبونها أشدّ الشجب.. ويتمسكون بكتاب لوثر الأول (يسوع ولد يهودياً) الذي مدح فيه اليهود وجعل لهم القداسة.

وعندما تكونت الكنيسة منذ عهد قسطنطين في القرن الرابع الميلادي قامت الكنيسة بمهاجمة اليهود الذين صلبوا ابن الله وآذوه وحقّروه، واعتبروا أن القداسة قد زالت منهم ونزعت عنهم.. وأنهم كما قال عنهم يسوع في سفر متّى أنهم أبناء إبليس، وليسوا أبناء إبراهيم. ولو كانوا أبناء إبراهيم لاتبعوا ما جاء به إبراهيم.. وقد هاجم يسوع عليه السلام الفريسيين أشدّ الطوائف اليهودية بهتاناً وتجبّراً وكذباً وخداعاً كما هاجم الكتبة الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون: هو من عند الله وما هو من عند الله.. ولعنهم ووبخهم، وأعلن أنهم قد كفروا بجميع الأنبياء والرسل، وأنهم لا علاقة لهم بإبراهيم عليه السلام، وإن كانوا ينتسبون إليه بالدم، ولكن أفعالهم تجعلهم أعداء لإبراهيم وإسحاق ويعقوب والأنبياء.

يسوع عليه السلام يفضح الفريسيين والكتبة:

جاء في سفر متّى (الإصحاح ٢٣) مهاجمة شديدة لهؤلاء الفريسيين والكتبة: «حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلاً: على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون. فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه. **ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون** فإنهم يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس، وهم لا يريدون أن يحركوها بأصبعهم. وكل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس (رياء وسمعه)، فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم، ويحبّون المتكأ الأول في الولائم. والمجالس الأولى في المجامع، والتحيات في الأسواق، وأن يدعوهم الناس سيدي سيدي..

لكن ويل لكم أيّها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس، فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون. ويل لكم أيّها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل، ولعِلَّة تطيلوا صلواتكم، لذلك تأخذون دينونة أعظم، ويل لكم أيّها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً. ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً.

ويل لكم أيّها القادة العميان القائلون: من حلف بالهيكل فليس بشيء، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم. أيّها الجهال والعميان أيّما أعظم الذهب أم الهيكل؟ ومن حلف بالمذبح فليس بشيء، ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم. أيّها الجهال والعميان أيّما أعظم القربان أم المذبح الذي يقدس (يطهر) القربان؟. فإن من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكلّ ما عليه، ومن حلف بالهيكل فقد حلف بالهيكل وبالساكن فيه. ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه.

ويل لكم أيّها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تعشّرون النعنع والشبث والكمون (أي: يأخذون ضريبة العُشر التي فرضتها التوراة ويأخذونها على الأشياء التافهة ويدعون الأشياء الثمينة) وتركتم أثقل الناموس: الحق والرحمة والإيمان.

أيّها القادة العميان الذين يصفُّون عن البعوضة ويبلعون الجمل. ويل لكم أيّها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تنقّون خارج الكأس والصحفة، وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة. أيّها الفريسي الأحمق نقِّ أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجها أيضاً نقيّاً.

ويل لكم أيّها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيّضة تظهر من خارج جميلة، وهي من داخلٍ مملوءة عظام أموات وكلّ نجاسة. هكذا أنتم أيضاً من خارج تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثماً.

ويل لكم أيّها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون

مدافن الصديقين. وتقولون: لو كنّا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء. فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم قتلة الأنبياء. فاملؤوا أنتم مكيال آبائكم. أيّتها الحيّات، أولاد الأفاعي، كيف تهربون من دينونة جهنم. لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة، فمنهم تقتلون وتصلبون، ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة. لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح. الحق أقول لكم: إن هذا كله يأتي على هذا الجيل.

يا أورشليم يا أورشليم! يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين.. كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ولم تريدوا. هوذا بيتكم يترك لكم خراباً» (وقد خربه تيتس الروماني سنة ٧٠م بعد رفع يسوع بثلاثين أو خمسة وثلاثين سنة).

وفي سفر متّى (الإصحاح ٢٤) قال: «الحقُّ أقول لكم إنه لا يترك هنا حجر على حجر لا ينقض.. وفيما هو جالس على جبل الزيتون تقدم إليه التلاميذ على انفراد قائلين: متى يكون هذا؟. فأجاب يسوع: انظروا لا يضلكم أحد فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين: أنا هو المسيح ويضلون كثيرين».

وفي إنجيل متّى (الإصحاح ٢١) قال لهم: «الحق أقول لكم: إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله. لأن يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا به، وأما العشارون والزواني فآمنوا. وأنتم إذا رأيتموه لم تندموا».

وفيه أيضاً: «ودخل يسوع إلى هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام وقال لهم: مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص».

وقد عمل هؤلاء الفريسيون والكتبة كل وسيلة ليكسبوا الأموال. وكانوا في منتهى الفسوق والفجور، فكانوا يأخذون من هؤلاء الباعة رسوماً وأموالاً كما كانوا يأخذون من الصيارفة والمرابين نصيبهم. وأكثر من ذلك أنهم جعلوا لبيت

الله، الهيكل المقدّس عندهم، مجموعة من الزواني ليزني بهن رواد الهيكل إن أرادوا، وتعود الأموال لهؤلاء الفسقة الفجرة. كما أنهم جعلوا في بيت الله مأبونون (تفعل بهم الفاحشة من الشاذين جنسيّاً الذين يطلق عليهم اليوم اسم المثليين). وكانوا يفعلون هم بهم الفاحشة، كما كانوا يأخذون أموالاً مقابل السماح للزواني وللمأبونين بالعمل في داخل بيت الله!!.

ولهذا لا نستغرب اليوم أن تتكون مجموعات دينية يهودية تسمح بأن يتولى الشاذون جنسيّاً أمر العبادة، ويكونون في مناصب الأحبار والربيّين (جمع رابي Rabi) كما أن هناك بعض المعابد اليهودية التي تسمح للسحاقيات بممارسة جرائمهن في هذه المعابد، وأن يكون منهن من يتولى منصب الحبر والرابي!!.

إن هؤلاء القوم فسقة، وفسقهم وكفرهم وطغيانهم قديم جدّاً جدّاً، وقد ندَّدت بهم أسفار التوراة والعهد القديم والأنبياء، كما ندَّد بهم يسوع عليه السلام تنديداً قويّاً. ورغم ذلك كله نرى النصارى اليوم وخاصة في الغرب، وبالذات في الولايات المتحدة يمجّدون اليهود، ويكادون يعبدونهم ويلعقون أحذيتهم.

القداسة في المسيحية:

لقد تحولت القداسة التي كانت لليهود بسبب كفرهم بيسوع وإيذائه وصلبه (حسب زعمهم) ونزعت منهم لتحل في أتباع يسوع لأنهم هم الممثلون ليسوع. وصارت الكنيسة (الجامعة) ورجالها مقدّسين مكرسين بينما يعتبر العامة علمانيين (أي من أهل الدنيا، لا بمعنى أنهم ضد الدين).

لهذا كله اتفقت الكنيسة منذ تكوينها والتي انقسمت فيما بعد إلى طوائف عديدة أهمها الكاثوليكية (أي: الكنيسة الجامعة) والأرثوذكسية (بفرقها المختلفة)، اتفقت الكنيسة على لعن اليهود واعتبارهم قتلة المسيح ابن الله وأعداءه[١]، وأن القداسة التي كانت لهم قد نزعت منهم، وأعطاها الله لمن آمن بالمسيح، وبالتالي تتمثّل هذه القداسة في الكنيسة وكبار الأحبار فيها.

---

(١) قام بابا روما في الڤاتيكان بتبرئة اليهود من دم يسوع بوثيقته المشهورة عام (١٩٦٥م).

وهكذا تحوّلت القداسة عند النصارى من اليهود الذين ينتسبون بالجسد إلى إبراهيم إلى كل من آمن بيسوع مُخلِّصاً، وبالذات تمثَّلت القداسة في الكنيسة الجامعة التي حافظت، حسب زعمهم على تعاليمه.. «ونحن أبناء إبراهيم بالروح» والقداسة بالتالي تتحول إلى الأحبار والرهبان الذين يمثّلون المسيح، وازدادت هذه القداسة مع الزمن، وخاصة للبابا الذي أصبح يطلق عليه قداسة البابا، لأنه الممثَّل للمسيح، ولأن المسيح حلّ فيه.

وإذا كانت عقيدة الأفخارستيا (العشاء الرباني) وطقوسه التي يأكل فيها المؤمنون قطعة من الخبز تمثل لحم المسيح وأنها تتحول فعلاً بفعل الأفخارستيا إلى لحمه، ويشربون النبيذ الذي يتحول فعليّاً إلى دم المسيح.. وبهذا يمتزج المسيحي بربه وإلٰهه، بحيث يحلّ فيه المسيح بفعل طقوس الأفخارستيا التي يقوم بها الكاهن المقدّس الممثل ليسوع الربّ (تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً)..

إذا كانت عقيدة الأفخارستيا تجعل كلّ مسيحي يقوم ويؤمن بهذا الطقس الوثني الغريب، مقدساً، فكيف بالكاهن الذي تتم على يديه هذه العملية؛ وكيف برؤساء هذا الكاهن حتى تصل في سلّم الرقي إلى البابا المقدّس؟!.

الخلاصة:

وهكذا نجد أن القداسة عند اليهود تعني الشعب اليهودي المقدّس الذي حلّ الله فيه، وأنهم أبناء الله على الحقيقة والمجاز، وأن هذا الشعب الذي تسلسلت فيه روح الله وذاته، هو المقدّس الحقيقي في هذا الكون.

ويقرُّ النصارى بذلك، ولكنهم يقولون: إن هذه القداسة قد نزعت عن هؤلاء اليهود الذين حاربوا يسوع وأهانوه وصلبوه.

وبقيت هذه العقيدة عند طوائف النصارى (الأرثوذكس والكاثوليك) حتى ظهرت البروتستانتية على يد (مارتن لوثر، وكالفن) وابتدأ الاعتماد على كتب العهد القديم، وعادت القداسة لليهود وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن العالم يتمجّد

بلعق حذاء إسرائيل، ويكفيه ما يأتي من المائدة، تماماً كما قنعت الكنعانية بأن تكون كالكلب الذي يفرح بما يأتيه من فتات مائدة أسياده.

وازدادت هذه العقيدة شراسة عند التدبيريين المسيحيين؛ وهم نصارى انتشروا في أوروبة والولايات المتحدة؛ وهم الذين سعوا لتكوين دولة إسرائيل منذ القرن الخامس عشر الميلادي إلى اليوم.. وهم الذين يدعمونها الدعم الكامل بناء على هذه الخزعبلات الموجودة في كتب العهد القديم الذي يؤمنون به حرفياً، ومعظم رؤساء الولايات المتحدة في الخمسين عاماً الماضية هم من هذا الفريق!.. ويزدادون كثرة وتعصّباً كل يوم[١].

وهؤلاء يعتقدون اعتقاداً جازماً: بأن الشعب اليهودي مقدّس، لأنه يمثل روح الله، بل إن روح الله قد حلّت فيه، حتى ولو كان هؤلاء اليهود أعداء لابن الله يسوع المسيح، لأنهم مثل الأبناء الضالين سيعودون إلى أبيهم يوماً ما، ويسعد بهم أبوهم، فهم منه ولا غنى له عنهم.

* * *

(١) انظر تفاصيل ذلك في كتابنا: القدس والمسجد الأقصى عبر التاريخ، الدار السعودية - جدة، ٢٠٠٢م.

الفصل الرابع

اللّٰـه جلّ جلاله في أسفار العهد القديم (الكتاب المقدّس)

يتحدّث علماء الكتاب المقدّس أن التوراة وأسفار العهد القديم تتحدّث عن الله سبحانه وتعالى وكأنه إلٰه لشعب إسرائيل فقط.. وهو لا يهتم بعبادة الجوييم (غير اليهود) لآلهتهم العديدة ولا يغار من ذلك، ولكنه يغار أشدّ الغيرة ويغضب أشدّ الغضب عندما يقوم شعبه بعبادة البعليم (البعل)، وعشتروت، وملكوم، وكلّ الرجاسات الأخرى.. ورغم هذه العلاقة الوطيدة بين الله وابنه البكر إسرائيل إلا أن شعبه تركه مئات المرات، وعبد الأوثان، وتعلّق بعبادات الشعوب الأخرى المحيطة بشعب إسرائيل!.. وفي كل مرة يقرّعهم، بل ويعذّبهم فيعودون، ويندمون، ويقبلهم الرب مرة أخرى.. وهكذا دواليك.. وزعموا أن هارون هو الذي صنع لهم العجل، وأنه هو الذي أشار عليهم بعبادته، وذلك كذب وافتراء على نبي الله هارون.. ولكنهم فعلوا ذلك ليبرّروا لأنفسهم ما فعلوه من جرائم وآثام.. وفي عهد القضاة (وهم مجموعة من القضاة حكموا لبني إسرائيل لمدة ١٤٠ عاماً) ارتدوا وعبدوا الأوثان أكثر من سبع مرات، حيث عبدوا البعليم (البعل)، وعشتاروت، وملكوم، والتراقيم، وأقاموا لهذه الآلهة المعابد، وقدّموا لها القرابين والنذور، لدرجة أنهم قدَّموا أبناءهم وبناتهم قرباناً لهذه الآلهة المزعومة. ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

ثم في زمن الملكية ارتدوا عشرات المرات وعبدوا الأوثان، وقتلوا الأنبياء الذين كانوا ينهونهم عن هذه الجريمة، وعن هذا الفساد وهذه الموبقات.. واتهموا سليمان عليه السلام بأنه أقام لزوجاته وسراريه (٧٠٠ من الزوجات وثلاثمئة من

السراري) المعابد والأوثان، وعبدها معهم!.. وذلك كله بهتان وزور واتهام لأنبياء الله بعبادة الأوثان، كما اتهموا هؤلاء الأنبياء الكرام بكل نقيصة وجريمة من الكذب والزنى، بل والزنى بالبنات، وشرب الخمر وإباحة السرقة والغش والخداع والقيام بالمذابح والمجازر للآمنين وللنساء والأطفال..

ويقول علماء الكتاب المقدّس: إن أسفار موسى الخمسة (التوراة، البنتاتوك، كتب الشريعة.. الخ) ترجع إلى مصادر متعددة أهمها النص اليهوي ثم الإلٰهيمي.

أولاً ـ النص اليهوي: ويتحدّث هذا النص عن كيف خلق الله العالم (سفر التكوين) وينتهي بموت يعقوب. وفي هذا النص يظهر الله بصورة بشرية، فهو يمشي في الجنة، ويبحث عن آدم، ولا يعرف أين هو؟ ويظهر للأنبياء وغيرهم بصورة بشرية ويكلّمهم.. بل وصل إلى أن يقوم الرب (تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً) بمصارعة يعقوب طوال الليل.. ولم يستطع أن يتغلّب عليه واضطرَّ الربُّ أن يبارك يعقوب عند طلوع الفجر، وأن يعطيه ولنسله أرضاً تفيض لبناً وعسلاً.. وهو يظهر لإبراهيم ولزوجته ساره، ويقف الرب مع سارة عندما اضطهدت هاجر، ويأمره بأن يسمع لكل ما تقول «وبإسحاق يدعى لك نسل» واطرد ابن الجارية أي إسماعيل، وهكذا من هذه الخرافات والأباطيل. وآدم يخلقه الله على صورة الله مثله تماماً إلا أنه أصغر حجماً وأقلّ وزناً، وروح الله تدخل آدم، ولذا فإن آدم مقدّس. ورغم الخطيئة الكبرى التي فعلها آدم وهو أكله من شجرة المعرفة إلا أن روح الله لم تغادر آدم، وانتقلت هذه الروح إلى شيث، ومن شيث إلى نوح، ومن نوح إلى ابنه سام فقط. وسكن الله في خيام سام، ثم انتقلت روح الله إلى إبراهيم، ومنه إلى إسحاق (وليس إسماعيل)، ومن إسحاق بالخداع والحيلة تنتقل روح الله إلى يعقوب، وتبقى فيه وفي نسله إلى أبد الآبدين.

ويتميّز النص اليهوي كما تقول الرهبانية اليسوعية: بأنه تصويري وغني بالاستعارات ومليء بالأساطير. والله (يهوا) يظهر بصورة بشرية تماماً، ويعيش مع شعبه، وينتقل معهم في البرية، ويظهر لهم أحياناً بصورة عمود من نار أو عمود

من سحاب أو يجلس معهم في الخيام. وأحياناً يكلّمهم كلاماً مباشراً، وهو بصورته البشرية!! وقد وصل بهم السخف إلى أن يقولوا: إن الرب قاتل معهم كل معاركهم، ورغم ذلك كانوا ينهزمون أحياناً، رغم وجوده، بل إن الفلسطينيين أسروا الله رب الجنود هو والتابوت، وبقي عندهم أسيراً سبع سنوات، ثم أعادوه وأطلقوا سراحه!!.

ثانياً ـ النص الإلٰهيمي: يتم تصوير الله بأنه لا يمكن رؤيته، ومن ينظر إليه مباشرة يموت.. ورغم ذلك يتحدّث إليهم ويتصل بهم مباشرة.

وسندرس فيما يلي أمثلة من التوراة وأسفار العهد القديم، وكيف تصوّر الله سبحانه وتعالى:

آدم وشجرة المعرفة:

جاء في سفر التكوين، الإصحاح الثاني: «وجَبَل الرب الإلٰه آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الإلٰه جنة عدن شرقاً، ووضع هناك آدم الذي جبله، وأنبت الرب الإلٰه من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر.

وأوصى الرب الإلٰه آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها تموت موتاً».

وهكذا نجد نفس التصوّر اليوناني الوثني: زيوس رب الأرباب يمنع الإنسان من أن يأخذ النار المقدّسة، نار المعرفة، فيقوم بروميثيوس بسرقة تلك النار ويعطيها للبشر فيغضب عليه الرب فيعاقبه.

وها هنا تصوّر التوراة اليونانية (المتأثرة باليونان والتي كُتبت في الإسكندرية في عهد بطليموس الثالث) الإلٰه الخالق يخشى أن يعرف آدم الخير والشر حين يأكل من شجرة المعرفة، فحذّره من أكلها وهدّده بالموت. وخلق الله حواء من

أجل آدم.. «وكانا كلاهما عريانيين آدم وامرأته وهما لا يخجلان» وكانت الحية أصل جميع الحيوانات البرية، ثم تمضي القصة في الإصحاح الثالث من سفر التكوين كيف أغرت الحية حواء بأن تقدّم لآدم من ثمرها الشهي، وأغرته بأن يأكل منها وأكلت معه، فانتفخت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق تينٍ وصنعا لأنفسهما مآزر، وتمضي القصة الخرافية فتقول: «وسمعا صوت الرب الإلٰه ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإلٰه في وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإلٰه آدم وقال له: أين أنت؟ [إلٰه لا يعرف مكان آدم ويمشي في الجنة.. وكأنه من آلهة اليونان أشباه البشر] فقال: سمعتُ صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت. فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي أعطتني من الشجرة فأكلتُ، فقال الرب الإلٰه للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة: الحية أغرتني فأكلتُ. فقال الرب الإلٰه للحية: لأنكِ فعلتِ هذا ملعونة أنتِ من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وتراباً تأكلين». ولعن الرب الإلٰه ـ حسب زعمهم ـ الأرض قائلاً لآدم: «ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وقال الرب للمرأة: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك **وهو يسود عليك**» (التكوين، الإصحاح ٣: ١٧). وتعتبر المرأة هي سبب خطيئة آدم، ولذا هي ملعونة!!.

الخوف من خلود الإنسان:

وفي سفر التكوين (الإصحاح ٣: ٢٢ ـ ٢٤) جاء ما يلي:

«وقال الرب الإلٰه: هو ذا الإنسان قد صار كواحدٍ منا عارفاً الخير والشر. والآن لعلّه يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإلٰه من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها. فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم (وهم صنف من الملائكة الشداد)، ولهيب سيف متقلّب لحراسة طريق شجرة الحياة». إنها صورة تشبهه تماماً صور آلهة الأولمب،

وهم يرتعبون خوفاً من الإنسان حين يعلم. . ولذا يمنعون عنه العلم والمعرفة، خوفاً على نفوذهم ومملكتهم منه!. . والخوف الأكبر هو أنه يأكل أيضاً من شجرة الحياة فيصير عارفاً وخالداً مثل الإلٰه.

ونلاحظ هاهنا الرب وهو يتكلّم بصيغة الجمع كأنه في جبال الأولمب يتحدّث إلى مجموعة من الآلهة: «هو ذا الإنسان قد صار كواحدٍ منا عارفاً الخير والشر» ها هو زيوس كبير الآلهة على جبل الأولمب يتحدّث إلى الآلهة الأخرى يخوّفهم من عواقب معرفة الإنسان الخير والشر. . لذا يقرر الرب أن يطرد آدم من الجنة عقوبة له على أكله من شجرة المعرفة. . تماماً كما فعل زيوس كبير الآلهة عندما عاقب برومثيوس سارق النار المقدّسة.

القرآن الكريم يعرض صورة مختلفة:

يعرض القرآن الكريم صورة مغايرة كل المغايرة لهذه الصورة الخبيثة والحاقدة التي تصوّر التوراة بها ربَّ العالمين وكأنه بشر يتمشى في أرض الجنة ويبحث عن آدم ويحقد عليه حين يأكل من شجرة المعرفة.

وقد جاءت قصة خلق آدم في القرآن الكريم في عدة سور؛ منها سورة البقرة والأعراف والحِجْر والإسراء وطه وصّ وغيرها من السور. . ولم ترد قصة الخلق كاملة في سورة واحدة، وإنما أتت منها مقاطع هنا وهناك، ولفتات سريعة في بعض السور وتفصيل في سور أخرى. . وفي كل مرة تأتي إضافة جديدة لمعنى جديد، أو لمحة هنا لمغزى من مغازي القصة ليؤدي منها العظة والعبرة في أسلوب معجز محكم أخّاذ.

وقد خلق الله آدم ليكون خليفة في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

واختلف العلماء في معنى الخلافة، أشهرها هو أن آدم خليفة الله تعالى في إمضاء أحكامه وأوامره؛ لأنه أول نبي ورسول إلى الأرض. وقد ورد: أن أبا

ذر رضي الله عنه سأل النبي ﷺ عن آدم أنبياً كان أم مرسلاً؟ فقال: نعم. فقيل لمن كان رسولاً ولم يكن في الأرض أحد؟ قال: كان رسولاً إلى أبنائه. (رواه ابن حبان في صحيحه. وذكره ابن كثير في التفسير).

وقد خلق الله آدم عليه السلام من الطين ونفخ فيه من روحه (نفخ تكريم لا أنه من ذات الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً) وكرَّمه بالعلم وأسجد له ملائكته. ولما اعترضت الملائكة اعتراض تعجّب لخلافة آدم مع ما عرفوه بعلم ألهمهم الله إيّاه، أو بقرائن أخرى أن ذرية آدم ستفسد في الأرض وتسفك الدماء، أوضح لهم المولى الحكمة من خلق آدم وسبب خلافته، وهو علمه ومعرفته وعمارته لهذه الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١ ـ ٣٣].

ونتيجة لهذا العلم أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة أن تسجد لآدم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١ ـ ١٣].

وفي سورة صٓ ترد تفاصيل أكثر، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [صٓ: ٧١ ـ ٧٨].

وهكذا نرى التكريم لآدم من الله سبحانه وتعالى يتجاوز كلّ حدٍّ، حتى إنه أسجد له ملائكته المقرّبين.. ولكن إبليس اللعين الذي كان مع الملائكة ولم يكن منهم، فهو من نار وهم من نور، أبى واستكبر أن يسجد لآدم حيث لم يرَ سوى الطين.. ولم يرَ النفخة الكريمة، ولم يرَ هذا التكريم بالعلم والمعرفة، فكانت تلك العداوة بسبب الكبر وهو أول الخطايا وأعظمها..

وامتحن الله آدم فمنعه من شجرة معينة من شجر الجنة (لا لأنها شجرة المعرفة، فهو الذي كرّمه بالمعرفة وأسجد الملائكة له من أجلها) ونبهه إلى عداوة إبليس له ولذريته، وهو امتحان من الله سبحانه وتعالى ليهبط آدم إلى الأرض، وقد خلقه الله لها ليعمّرها هو وذريته، مزوّداً بتجربة ليحذر كيد الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٥ ـ ٣٨].

وفي سورة الأعراف تأتي قصة الشجرة بتفاصيل جديدة تكمل الصورة: قال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٥].

وها هنا نرى الضعف يعتري آدم وزوجه فيأكلان من الشجرة المحرَّمة بعد

أن صدَّقا إبليس.. ولم يَدُرْ في خاطرهما أن أحداً يقسم بالله كاذباً.. وسرعان ما عرفا خطيئتهما فتابا إلى الله ورجعا إليه، فغفر لهما وتولاهما وعفا عنهما.. وجعل ذلك درساً لهما ولنسلهما من بعدهما؛ قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وتختلف تفاصيل قصة آدم في القرآن عن التوراة المحرّفة اختلافاً بيِّناً شاسعاً، كما أنها تختلف أساساً في أهدافها وحكمها وعبرها؛ فالقصة في القرآن تكرّم آدم غاية التكريم وتجعله أهلاً للمعرفة والعلم، وبه يرفعه الله سبحانه وتعالى فوق الملائكة حتى إنه أسجدهم له.. والصورة في التوراة المحرّفة عكس ذلك، ثم إن آدم يأكل من الشجرة المحرّمة بعد أن أغراه الشيطان، وليس في التوراة المحرّفة ذكر للشيطان.. والخطيئة تتركز على المرأة التي أغرتها الحيّة، وعليهما حسب رواية التوراة تنزل اللعنة.. وسرعان ما يعود آدم وزوجته إلى الله ويتوبان إليه فيغفر لهما زلتهما ويهبطان إلى الأرض مزوّدين بهذه التجربة المريرة حتى لا يقعا في حبائل الشيطان ومكيدته.. وينقلون تلك التجربة إلى نسلهما، فالمعركة بينهم وبين الشيطان وجنده إلى قيام الساعة.

والتوراة المحرّفة تجعل حواء هي التي تتحمل الجريرة، ولهذا فالمرأة ملعونة في تعاليم التوراة المحرّفة، وهي مخلوق ممحّض للشر وداعٍ إليه، وهي تشبه في ذلك باندورا التي فتحت صندوق الشرور والأسقام والآلام على البشر ممثلاً في إيمثيوس أخ برومثيوس سارق النار المقدّسة، وقد خلقها زيوس متعمداً في صورة حسنة جميلة وأهداها لإيمثيوس حتى تكون مصدراً لمتاعبه وآلامه، انتقاماً من برومثيوس، وهي نفس الصورة تتكرر في قصة حواء في التوراة المحرّفة.

ومع هذا فيزعم الغربيون أن الإسلام يحقّر المرأة، والواقع أن دينهم المحرّف وأساطيرهم اليونانية هي التي تحقر المرأة وتعتبرها مصدر الآثام والشرور!.. وأما الإسلام فقد كرمها أعظم التكريم، ولكن هؤلاء القوم لا

ينفكّون عن التعصّب الذميم والكذب الفاضح لشدة حقدهم على الإسلام ونبي الإسلام. (ألا لعنة الله على الظالمين).

ولا ترد في التوراة المحرّفة أية إشارة لتوبة آدم وحواء، بل تصوّر الإلٰه خائفاً من آدم ولذا طرده وشدّد الحراسة على شجرة الحياة (الخلد) بالملائكة الكروبيين ولهيب سيف متقلّب لحراسة طريق شجرة الحياة حتى لا يذهب آدم ويأكل منها!.. ويجعل النصارى خطيئة آدم تلزم نسله، ولا يكفّرها إلا أن ينزل الله أو ابنه ويدخل في رحم امرأة ليخرج منها صبياً يبول ويتغوط ويلعب ويلهو، وينام ويصحو، حتى إذا كبر أسلمه أبوه لأعدائه ليصلبوه ويبصقوا في وجهه وهو يصيح ويصرخ: يا أبي لماذا شبقتني؟!.. وبهذا الصلب والعذاب والمهانة تكفر الخطيئة واللعنة على آدم ونسله. ومن آمن بهذه الخرافة الغبية ترفع عنه هذه اللعنة فيرش عليه الكاهن الماء ويعمّده فيصبح آنذاك طاهراً من الخطيئة واللعنة.. وإلا فاللعنة وراءه لا ينفك عنها أبداً إلا إذا آمن بالمخلّص الذي ذبح كالخروف (يسمونه أيضاً الخروف) ليفتدي العالم بابنه!!.

والخلافات في قصة آدم من أكله من الشجرة وسجود الملائكة والحية... إلخ، كثيرة وواسعة ما بين القرآن الكريم والتوراة المحرّفة المتأثرة بآلهة الأولمب وقصصها وأساطيرها.. وقد ذكرت معظمها في كتابي (الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم ـ دراسة مقارنة)[١] فليرجع إليه من أراد التفصيل.

الرب يحزن لخلق آدم وبنيه ويتأسّف في قلبه:

جاء في سفر التكوين، الإصحاح السادس (١ ـ ٧): «وحدث لمّا ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهنَّ حسنات، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب: لا يدين (أي: لا يبقى) روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة. كان في الأرض طغاة في تلك الأيام، وبعد ذلك أيضاً إذا دخل بنو الله على

(١) إصدار دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت، ١٩٩٠م.

بنات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذووا اسم.

ورأى الرب أن شرَّ الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كلّ تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان على الأرض وتأسف في قلبه، فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأني حزنت أني عملتهم».

صورة قميئة لهذا الرب الذي يشبه آلهة الانتقام عند الأمم الوثنية.. ثم إن الرب أغرق الأرض ونجّا منها نوحاً فقط، ثم بعد ذلك حزن أيضاً، وندم لأنه أباد البشر وكل ما على الأرض. «وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته، ولا أعود أميت كل حي كما فعلت» (سفر التكوين، الإصحاح ٨: ٢١).

ثم جعل الله حسب زعمهم قوس قزح، حتى إذا رآه تذكر أنه لا يغرق الأرض: «وقال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر، وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بني وبين الأرض، فيكون حتى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس في السحاب أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد.. فمتى كانت القوى في السحاب أبصرها لأذكرها ميثاقاً أبديّاً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض» (سفر التكوين، الإصحاح ٩: ١٢ ـ ١٧).

ويا عجباً لهذا الإله الذي لا يذكر ميثاقه حتى يرى قوس قزح في السحاب!! ولم يعلم كاتب هذه الأساطير أن قوس قزح لا يظهر إلا بعد المطر لا قبله.

الرب يخاف من اجتماع البشر فنزل ليبلبلهم ويفرّقهم:

جاء في سفر التكوين، الإصحاح (١١: ١ ـ ٩): «وكانت الأرض لساناً واحداً ولغة واحدة.. وقالوا: هلمّ نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء ونصنع

لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه كل الأرض، فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما، وقال الرب: هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل، والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه، هلمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة، لذلك دعي اسمها بابل؛ لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض، ومن هناك بدّدهم الرب على وجه كلِ الأرض».

أي صورة قميئة هذه للرب!! لا يريد للبشر أن يجتمعوا ولا أن يكون لسانِهم واحداً ولا لغتهم واحدة.. وكيف يمكن أن يرضى هذا الربُّ الحقود، الذي يشبه كبير الآلهة في جبال الأولمب، وهو يرى البشر مجتمعين متحابين متعاونين يبنون مدينتهم. فلا بد أن يخشى من اجتماعهم وتكاتفهم وإلا أخذوا منه مملكته، ولا يمكن أن يسود إلا بسياسة (فرِّق تسد) التي استخدمها الرجل الأوروبي بذكاء خارق في مستعمراته. لهذا نزل الربُّ وبلبل لسانهم وبدّدهم على وجه كل الأرض!! إنها صورة مزرية حقّاً لرب يخاف من البشر.

إنها معركة مستمرة بين الإنسان وهذا الإلٰه الحقود الذي لا يريد للبشر أن يجتمعوا، ولا يريدهم أن يتحابوا.. كما أنه قطعاً لا يريدهم أن يعرفوا، بل يريدهم جهلة أميين حتى لا يهدّدوا مملكته. ومن هنا كانت المعركة بين الله والإنسان وبين الدين والعلم فمنبعها أساطير اليونان وأساطير التوراة المحرّفة. والرب كما تصوّره التوراة وأسفار العهد القديم هو رب شعب واحد فقط هو شعب إسرائيل، يسير معه في الليل في عمود نور، ويسير معه في النهار في عمود من السحاب. ويجتمع معهم ويكلّمهم، بل ويقاتل معهم، حتى إنه في أحد المعارك أسره الفلسطينيون سبع سنوات، ولكنه ضربهم بالبواسير والفئران فأرجعوه في مركبته مع التابوت مع فدية، مجموعة من الفئران الذهبية وبواسير ذهبية.. ويومها طفر داود وغنى ورقص حتى احتقرته زوجته ميكال. ولكنه علل ذلك بفرحه العظيم بمقدم الرب وخروجه من أسر الفلسطينيين تجره سبع بقرات!!.

ولا شك أن الصورة التي ترسمها التوراة لله سبحانه وتعالى لا تفترق كثيراً عمّا هو موجود لدى اليونان عن آلهتها ولا عن ما هو موجود لدى الكنعانيين واليبوسيين والعمونيين والصيدونيين. . . إلخ. كل ما كان لدى الأمم المجاورة لليهود من عقائد وخزعبلات وعبادة أوثان فعله اليهود. . وهو ما تكرره التوراة ذاتها، وتندد به، حيث يذهب أبناء الله (اليهود) إلى البعل وعشتروت وملكوم وإلى كل الرجاسات فيعبدونها ويقدمون لها القرابين، بل ويذبحون أبناءهم تقرّباً لها.

وهكذا تمتلأ أسفار العهد القديم بتلك المعارك الطاحنة بين الإنسان والله. . وكيف أن الله يمنع الإنسان من المعرفة والعلم، ويضطرب اضطراباً شديداً عندما يعرف الإنسان الخير والشر. كما أنه يسعى كل جهده ليحطّم البشر ويمنع وحدتهم واتفاقهم، ولا يقرُّ له قرار حتى يبلبل لسانهم ويمزِّقهم ويوزِّعهم على كل الأرض ليمنع اجتماعهم وتوحُّدهم.

لهذا كله فإن من يقرأ التوراة وأسفار العهد القديم، ويكون لديه القدرة على التفكير السليم الحر سيتحوّل بدون ريب إلى عدو لهذه العقائد الأسطورية الخرافية التي تجعل الربَّ الإله عدوّاً للإنسان ومحارباً له ولا يريد له أن يتعلّم. . ولهذا فإن فكرة الصراع بين الله والإنسان فكرة أساسية. . وجاء عهد التنوير ليفكَّ الأغلال عن الإنسان وربقة الاستعباد والاستغلال المتمثلة في الكنيسة، والدين، وكتُبها التي تدعو صراحة إلى أن يبقى الإنسان جاهلاً ومستعبداً لهذه الآلهة، ومن يمثلها على الأرض من رجال الكهنوت.

الربُّ لا يهتم إلا بابنه البكر إسرائيل:

ولا يريد من بقية الشعوب أن تعبده، بل لا يرى ضيراً في أن تقوم الشعوب بعبادة آلهتها العديدة، وما يهمه فقط هو أن يعبده شعبه الذين حلّت فيهم روحه وأصبحوا مقدَّسين.

إن الرب حسب زعمهم لا يهتم إلا بإسرائيل ابنه البكر. . ولذا فقد وضع عهده معهم ليكون لهم ربّاً وليكونوا هم له أبناء. . وأن لا يعبدوا معه آلهة أخرى.

وهو لا يهتم بالشعوب الأخرى التي تعبد آلهة أخرى، بل يهتم ويحزن لأن شعبه وابنه البكر ذهب ليقدّم القرابين لآلهة أخرى غريبة.. ويستخدم كاتب العهد القديم أسلوباً بذيئاً حيث يصوّر الرب وكأنه قد تزوّج إسرائيل التي ذهبت تزني وراء البعليم وعشتروت وملكوم ـ أوثان ـ وهو يغار عليها ويرجوها أن ترجع إليه كعهدها السابق.

جاء في سفر هوشع (الإصحاح ١: ٢ ـ ٩):

«وأول ما كلّم الرب هوشع قال الرب لهوشع: اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى». هذا أمر غريب وعجيب حقّاً أن يأمر الرب نبيّه هوشع بأن يأخذ لنفسه زانية وأولاد زنى!.. وبالفعل يزعم كتاب العهد القديم أن هوشع تزوج من زانية.. ويستمر كلام الرب في هذا السفر معللاً هذا الأمر الغريب بأن الأرض قد زنت تاركة الرب.. والمقصود أن بني إسرائيل عبدوا آلهة أخرى وانتشر الزنى بينهم انتشاراً ذريعاً.

يقول كاتب سفر هوشع: «فذهب ـ أي هوشع ـ وأخذ جومر بنت دبلائم فحبلت وولدت له ابناً. فقال له الرب: ادع اسمه بزرعيل، لأنني بعد قليل أعاقب بيت ياهو على دم يزرعيل، وأبيد مملكة بيت إسرائيل. ويكون في ذلك اليوم أني أكسر قوس إسرائيل في وادي يزرعيل... لأنكم لستم شعبي وأنا لا أكون لكم». وسرعان ما يعود الرب ويناقض كلامه حسب زعمهم: «لكن يكون عدد بني إسرائيل كرمل البحر الذي لا يكال ولا يعدّ، ويكون عوضاً عن أن يقال لهم: لستم شعبي، يقال لهم: أبناء الله الحي. ويجمع بنو يهوذا وبنو إسرائيل معاً ويجعلون لأنفسهم رأساً واحداً ويصعدون من الأرض، لأن يوم يزرعيل عظيم!!».

وفي سفر هوشع (الإصحاح ٢: ٢ ـ ٢١):

يقول الرب لهم: «حاكموا أمّكم ـ أي: إسرائيل ـ لأنها ليست امرأتي وأنا لست رجلها، لكي تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها. ليلاً أجردها

عريانة وأوقفها كيوم ولادتها وأجعلها كقفر.. ولا أرحم أولادها لأنهم أولاد زنى. لأن أمهم زنت. التي حبلت بهم صنعت خزياً. لأنها قالت: أذهب وراء محبيّ الذين يعطون خبزي ومائي وصوفي وكتّاني وزيتي وأشربتي.. لكن هاأنذا أتملقها وأذهب إلى البرية وألاطفها وأعطيها كرومها من هناك.. وهي تغنّي هناك كأيام صباها وكيوم صعودها من أرض مصر.. ويكون في ذلك اليوم يقول الرب: إنك تدعينني رجلي ولا تدعينني بعد بعلي» ينفر الرب حسب زعمهم من كلمة بعل لأن إسرائيل عبدت البعل ـ أحد الآلهة الموجودة في فلسطين آنذاك وفي منطقة لبنان ـ ولهذا فهو يكره كلمة البعل، ويريد من إسرائيل أن تكون زوجته وتقول له: أنت رجلي.. ولا تزني من ورائه مع عشاق كثيرين وآلهة كثيرين، ولهذا فهو يغار منها ومن زناها.. ورغم زناها مع من هبَّ ودبَّ إلا أنه لا يزال يحمل في قلبه لها الحب والود ويريدها أن ترجع له، وينزع أسماء البعليم ـ هو نفسه البعل ـ من فمها فلا تذكرها.. «وأقطع لهم عهداً في ذلك اليوم.. وأخطبك لنفسي إلى الأبد وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم.. وأخطبك لنفسي بالأمانة فتعرفين الرب».

«وقال الرب لهوشع: اذهب أيضاً أحبب امرأة حبيبة صاحب وزانية، كمحبة الرب لبني إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى ومحبون لأقراص الزبيب» (سفر هوشع: ٣).

وهكذا يصورون الرب ـ تعالى الله عن ذلك ـ أنه مغرم بفتاته إسرائيل، ولهذا فهو يحبها رغم زناها ويدعوها إليه.. ويأمر هوشع نبيه أن يتزوج زانية وأن يخالل امرأة رجل آخر لأن هكذا فعل الرب!! ـ أعوذ بالله ـ فقد أحب الرب إسرائيل وهي تحب رجلاً آخر وتزني معه وتترك الرب إلٰهها.

شعب إسرائيل هم أبناءُ الله وأحباؤه على الحقيقة وعلى المجاز.. ومحبته لإسرائيل أشد من محبة الرجل لزوجته وحبيبته.. وهو مغرم بها جدّاً رغم خيانتها وزناها وفجورها.. ويريدها أن ترجع إليه بأيّ ثمن، ومستعدّ أن يعطيها كل ما تريد.. فقط ترجع إلى أحضانه!!.

ورغم ما في ذلك الكلام من أسلوب بذيء ووقح، إلا أنه يعبّر عمّا يعتبره كاتب العهد القديم الحقيقة الأزلية، وهي أن ألوهيم أو يهوا ـ الله ـ هو رب إسرائيل فقط وحبيبها هي، ومهما فعلت إسرائيل من جرائم ومن عبادة الأوثان فهو لا يزال يجري ويلهث وراءها.. ويريدها أن تعود إليه كما كانت أيام خروجها من مصر، مع أن خروجها من مصر عبدت فيه الأوثان أيضاً.

اللّٰه يتعب ويرتاح ـ حسب زعمهم ـ:

جاء في سفر التكوين، الإصحاح الثاني: «وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدَّسَه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً». ولهذا فيوم السبت مقدّس تجب فيه الراحة..

وهكذا تصوّر التوراة المحرّفة أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يُصاب بالتعب والنصب ويحتاج إلى الراحة!.. وقد نفى القرآن الكريم هذه الفرية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [قٓ: ٣٨].

الربّ يستيقظ وينام ويلعب كما تزعم التوراة والتلمود:

جاء في سفر زكريا من التوراة المحرّفة (الإصحاح ٢: ١٠ ـ ١٣):

«ترنمي وافرحي يا بنت صهيون؛ لأني هاأنذا آتي وأسكن في وسطك يقول الرب. فيتصل أمم كثيرة بالرب في ذلك اليوم. ويكونون لي شعباً فأسكن في وسطك. فتعلمين أن رب الجنود قد أرسلني إليك. والرب يرثُ يهوذا نصيبه في الأرض المقدّسة، ويختار أورشليم بعد. اسكتوا يا كل البشر قدّام الرب لأنه قد استيقظ من مسكن قدّسه».

رؤية الرب:

الرب في التوراة متجسّد على هيئة بشر، ولذا يمكن رؤيته في الدنيا.

ويصف أشعيا الرب (سفر أشعيا ٦: ١ ـ ١١) بعد أن رآه قائلاً:

«وفي سنة وفاة عزيّا الملك رأيتُ السيد الرب جالساً على كرسي عالٍ مرتفع، وأذيالاً تملأ الهيكل. السرافيم واقفون فوقه، لكلّ واحد ستة أجنحة، باثنين يغطي وجهه، وباثنين يغطي رجليه، وباثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال: قدوس قدوس قدوس. رب الجنود مجّده، ملأ الأرض، فاهتزت أساسات العَتب من صوت الصارخ، وامتلأ البيت دخاناً. فقلت: ويل لي!! إني هلكت لأني إنسان نَجس الشفتين، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين، لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود. فطار إليّ واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط، ومَسَّ بها فمي. وقال: إن هذه قد مست شفتيك فانتزع إثمك وكفّر عن خطيئتكَ».

وليس أشعيا وحده هو الذي رأى الرب؛ فآدم وابنه القاتل قابيل ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ صارعه أيضاً ـ وكلّ الأنبياء، وموسى والسبعين من مشايخ إسرائيل، وأخت موسى مريم.

وجاء في سفر الخروج (٢٤: ٩ ـ ١١):

«ثم صعد هارون وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إلٰه إسرائيل، وتحت رجليه منصة من العقيق الأزرق الشفاف، وكذات السماء في النقاوة. ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا».

رؤية إليا ـ النبي إلياس:

لقد رأى إليا التشي ـ (إليا: هو النبي إلياس) ـ الله حسب زعم سفر الملوك الأول بعد أن كلّمه مراراً «وعندما هرب إليا من الملك الفاسق أخاب بن عمرى ملك يهوذا، ذهب إليا إلى المغارة فجاءه الرب وقال له: ما بالك هاهنا يا إيليا؟ فقال ـ إيليا ـ: إني ثرت ثورة للرب إلٰه الجنود؛ لأن بني إسرائيل قد نبذوا عهدك،

وقوّضوا مذابحك، وقتلوا أنبياءك بالسيف، وبقيت أنا وحدي، وقد طلبوا روحي ليأخذوها. فقال ـ الرب ـ: اخرج وقِفْ على الجبل أمام الرب، فإذا الرب عابر، وريح عظيمة عاتية تتصدّع الجبال وتحطّم الصخور أمام الرب، ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة، ولم يكن الرب في الزلزلة، وبعد الزلزلة نار، ولم يكن الرب في النار، وبعد النار حفيف نسيم لطيف، فلما سمع إيليا ستر وجهه بردائه وخرج ووقف بمدخل المغارة، فإذا بصوت يقول له الرب: امضِ فارجع في طريقك نحو برية دمشق، فإذا وصلت فامسح حزائيل ملكاً على أرام، وامسح ياهو بن نمشي ملكاً على إسرائيل، وامسح اليشع بن شافاط من آبل محولة نبيّاً، خليفة لك» (سفر الملوك الأول ١٩: ٩ ـ ١٥).

الله يسير أمام بني إسرائيل ليلاً ونهاراً حتى يهديهم إلى الطريق في برية صين:

تزعم التوراة: أن الله عندما غضب على بني إسرائيل لرفضهم دخول الأرض المقدّسة التي كتب الله لهم، أتاههم في صحراء سيناء (برية صين).. ولكنه مع ذلك لم يتركهم لأنهم شعبه وابنه البكر الأثير لديه جدّاً مهما فعلوا؛ لذلك كان يسير أمامهم في الطريق ليلاً ونهاراً حتى لا يضلوا.. ورغم هذا الجهد الجبار لم يستطع حسب زعمهم أن يدلهم على الطريق لمدة أربعين عاماً.

جاء في سفر الخروج (الإصحاح ١٣: ٢٠ ـ ٢٢):

«وارتحلوا من سكوت ونزلوا في إيثام في طرف البرية. وكان الربُّ يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم، لكي يمشوا نهاراً وليلاً. لم يبرح عمود السحاب نهاراً وعمود النار ليلاً من أمام الشعب».

موسى إلـه فرعون، وهارون نبي موسى:

جاء في سفر الخروج (٧: ١ ـ ٣):

«فقال الرب لموسى: انظر: أنا جعلتك إلٰهاً لفرعون!! وهارون أخوك يكون

نبيّك، أنت تتكلّم بكلِّ ما آمرك. وهارون أخوك يكلّم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه، ولكني أقسّي قلب فرعون. وأكثّر آياتي وعجائبي في أرض مصر».

ولا بد أن كاتب التوراة كان يهذي؛ فكيف يكون موسى إلٰهاً لفرعون! وهو الذي جاء لدعوة الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد؟!.. أفيكون مثل فرعون مدعي الألوهية؟! ويكون الذي يأمره بهذا الكفر الله ذاته؟! إن هذا لشيء عجاب!! ثم كيف يكون هارون نبيّاً لموسى؟ وإنما يمكن أن يكون هارون من أنبياء الله، وقد كان كذلك بالفعل.

ولماذا يقسّي الربُّ قلبَ فرعون؟! فقط ليستعرض قوته وعجائبه، وحاشا لله أن يفعل ذلك، إنما يأمر بالخير والبر.

وجاء أيضاً في سفر الخروج في أكثر من موضع: أن فرعون قال لموسى وهارون: «صلّيا لأجلي» (سفر الخروج ٨: ٢٥، ٢٩، والخروج ٩: ٢٧).. وهكذا تزعم التوراة أن فرعون كان يريد الخير، ويريد من موسى وهارون أن يَدعُوَا له.. وكان حريصاً على الخير.. لكن الرب هو الذي قسّى قلبه!!.

الرب يكتب اللوحين بأصبعه حسب زعمهم:

جاء في سفر الخروج (٣١: ١٨):

«ثم أعطى (الله) موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سينا لوحي الشهادة.. لوحي حجر مكتوبين بأصبع الله».

ومع هذا فقد كسّرهما موسى عندما غضب ورأى بني إسرائيل يعبدون العجل الذي صنعه لهم حسب زعمهم هارون عليه السلام: «وكان عندما اقترب - أي موسى - إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص.. فغضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسّرهما أسفل الجبل». (سفر الخروج ٣٢: ١٦).

ولكن الربَّ صنع له لوحين آخرين كتبهما مرة أخرى بأصبعه:

«وفي ذلك الوقت قال لي الرب: أنحت لك لوحين من حجر مثل الأولين،

وأصعد إلى الجبل فأكتبُ على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين اللذين كسرتهما». (سفر التثنية ١٠: ١، ٢).

نزول الرب وكلامه مع بني إسرائيل:

يتكرر نزول الرب إلٰه إسرائيل إلى الأرض مرات ومرات!.. ويتكلّم الرب مع أيّ إنسان يريد أن يؤذي إسرائيل ويهدده.. تكلّم الرب مع لابان، خال يعقوب، عندما هرب يعقوب سارقاً الأغنام وبنات لابان ـ حسب زعمهم ـ وهدده. وتكلّم مع أبيمالك ومع فرعون، عندما أعطى إبراهيم زوجته سارة لهما لكي يكسب مالاً. وتكلّم مع بلعام بن باعور الذي طلب منه ملك موآب: أن يلعن بني إسرائيل: «فأتى الله إلى بلعام، وقال: من هم الرجال الذين عندكم؟ فقال بلعام: بالاق بن صفور ملك موآب قد أرسل إليَّ يقول: هوذا الشعب الخارج من مصر قد غشى وجه الأرض. الآن العن لي إيّاه، لعلّي أقدر أن أحاربه وأطرده. فقال الله لبلعام: لا تذهب معهم ولا تلعن هذا الشعب لأنه مبارك».

وتكلّم الله أيضاً مع شيوخ بني إسرائيل، بل وسمع كلّ بني إسرائيل كلامه ورأوه بأعينهم: «وأما السبعون فقد رأوه وهو واقف وتحت رجليه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة». (سفر الخروج ٢٤: ٩ ـ ١١).

ونزل الرب مئات المرات إلى خيمة الاجتماع.. وغضب الرب حسب زعمهم على هارون ومريم، شقيقي موسى، لأنهما تكلّما على موسى بسبب زواجه من الكوشية: «ونزل الرب في عمود سحاب، ووقف الرب في باب الخيمة ودعا هارون ومريم كليهما، وقال: اسمعا كلامي فلماذا لا تخشيان أن تتكلّما على عبدي موسى، فحمي غضب الرب ومضى. فلما ارتفعت السحابة عن الخيمة إذا مريم برصاء مثل الثلج». (سفر العدد ١٢: ٤ ـ ١٠).

النبي أرميا يصف الله بالخدّاع ـ تعالى الله عن ذلك ـ:

يقول أرميا النبي للرب: «فقلت: آه يا سيدي الرب. حقّاً إنك خدَّاع خدعت هذا الشعب ـ يقصد شعب إسرائيل وأورشليم ـ قائلاً: يكون لكم سلام.. وقد بلغ السيف النفس» (سفر أرميا ٤: ١٠).

الرب يأمر أشعياء بأن يتعرّى، ويدعو بني إسرائيل وهو عارٍ لمدة ثلاث سنوات:

وأما أشعيا فقد أمره الله بأن يتعرّى تماماً، ويمشي عارياً وحافياً ثلاث سنوات ليكون أعجوبة لله!! «تكلّم الرب عن يد أشعياء بن آموض قائلاً: اذهب وحل المسح عن حقويك، واخلع حذاءك عن رجليك. ففعل هكذا ومشى معرًّى وحافياً.

فقال الرب: كما مشى عبدي أشعيا معرًّى وحافياً ثلاث سنوات آية وأعجوبة». (سفر أشعياء ٢٠: ٢ ـ ٣).

قصة جدعون مع الرب وامتحانه للرب:

أراد الرب أن يخلّص بني إسرائيل، فأرسل ملاكه إلى جدعون بن يواش ليقول له: «الرب معك يا جبار البأس». ولكن جدعون لا يقتنع بكلام الملاك ويعتذر عن المهمة، ويقول بكلٍّ وقاحة: «إذا كان الرب معنا فلماذا أصابتنا كل هذه؟!» يقصد الهزائم.

ونزل الرب بنفسه وكلّم جدعون قائلاً: «اذهب بقوتك هذه. خلّص إسرائيل». ولكن جدعون أراد أن يتملص من هذه المهمة، وادعى أنه لا بد أن يتأكد أنه يخاطب الرب، فقال جدعون: «إنك أنت تكلّمني لا تبرح من هنا حتى آتي إليك. وأخرج تقدمتي وأضعها أمامك. ووافق الرب قائلاً: إني أبقى حتى ترجع».

وذهب جدعون وأتى بجدي معزى ودقيق حتى يتأكد أن الرب يتقبلهما.. لحم مشوي فأكل الرب وتنسم نسيم الرضا عند رائحة المشوي!! وقال جدعون بعد ذلك كله ليمتحن الرب: «إن كنت تخلص بيدي إسرائيل كما تكلّمت فها إني

واضع جزّة الصوف في البيدر فإن كان طلٌّ على الجزّة وحدها، وجفافٌ على الأرض كلها، علمت أنك تخلص بين يدي إسرائيل». ووافق الرب على ذلك وفي الصباح كان الطل على الجزّة وعصر منها ملء قصعة من الماء وكانت الأرض جافة. ولم يكتف جدعون بذلك وقال للرب: «لا يحمَ غضبك عليَّ، فأتكلم هذه المرة فقط، أمتحن هذه المرة فقط بالجزّة. فليكن جفاف في الجزة وحدها، وعلى الأرض فليكن الطل».

وكأنما الرب خادم عند جدعون يفعل له ما يريد. وبالفعل تزعم التوراة. (سفر القضاة ٦: ٣٦ ـ ٤٠): أن الرب فعل حسبما أمر جدعون..

وهكذا يرفض جدعون أوامر ملاك الرب فيأتي الرب إليه بنفسه ويقف أمامه ويكلّمه. ولا يقتنع جدعون حتى يرى الرب وهو يتناول التقدمة.. واقتنع جدعون أن الرب فعلاً يكلّمه، ولكنه لا بد أن يقتنع أن الرب سيحارب معه ويخلّص إسرائيل على يديه فيمتحن الرب امتحاناً وراء امتحان!! تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وجاء في سفر صموئيل الثاني (الإصحاح السادس: ١٢ ـ ١٦) من التوراة المحرّفة: أن داود وجميع الشعب أخذوا تابوت الله الذي يسمّى رب الجنود الجالس على الكروبيم. وجرّوا التابوت على عجلة والرب جالس في التابوت وهو يتفرج عليهم. وداوود وكل شعب إسرائيل يرقص ويغني ويلعب بالرباب ويضرب بالدفوف والجنوك وينفخ في المزمار ابتهاجاً بالنصر على الأعداء.

وجاء في التلمود: أن الله ينام في الليل ويعمل في النهار ويتدارس التوراة ويلعب مع الحوت ملك الأسماك.. وعندهم أن الله يقسّم اليوم إلى اثنتي عشرة ساعة ليلٍ ينام فيها ويرتاح، واثنتي عشرة ساعة نهارٍ، ويقسّمها كالتالي: في الثلاث ساعات الأولى يدرس التوراة مع أحبار اليهود، وفي الثلاث الثانية يحكم العالم ويدبّر شؤونه، وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم، وفي الرابعة يلعب مع الحوت ملك الأسماك.

الرب يبكي ويلطم وجهه كما يزعمون:

ولكنه يغيّر البرنامج بعد أن شُرّدَ أبناؤه اليهود من فلسطين وخُربَ الهيكل؛ فيجعل الثلاث ساعات الأخيرة من النهار ليبكي على تشريد أبنائه اليهود، فيصرخ ويزأر قائلاً: تَبّاً لي لأني صرّحتُ بخراب بيتي وإحراق هيكلي ونهب أولادي. وتسقط كل يوم منه دمعتان في البحر، فيُسمع دويُّهما من بدء العالم إلى أقصاه، وتضطرب المياه وترتجف الأرض في أغلب الأحيان فتحصل الزلازل.

وحينما يسمع الربّ أبناءه اليهود يمجّدونه رغم كل ما فعله بهم، يبكي ويقول بعد أن يلطم وجهه: «طوبى لمن يمجّده الناس وهو مستحق لذلك. وويل للأب الذي يمجّده أبناؤه مع عدم استحقاقه لذلك، لأنه قضى عليهم بالتشريد والشقاء».

ندم الرب:

ويتكرر ندم الربِّ حسب زعمهم. . وإليك بعض النصوص التي تؤكد ذلك بالإضافة إلى ما سبق.

وجاء في سفر الخروج (الإصحاح ٣٢): أن الرب غضب غضباً شديداً على بني إسرائيل عندما عبدوا العجل. وقال لموسى: «فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم، فأصيّرك شعباً عظيماً. فتضرَّع موسى أمام الرب إلٰهه. وقال له: ارجع عن حُمُوّ غضبك واندم على الشر بشعبك. اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم: أكثر نسلكم كنجوم السماء، وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلّمت عنها فيملكونها إلى الأبد. فندم الربُّ على الشرِّ الذي قال: إنه يفعله بشعبه». وفي سفر يونان ـ يونس ـ (٣: ٥ ـ ١٠): أن أهل نينوى نادوا بصوم لعلّ الله يندم عن حُموّ غضبه، فلما رأى الله أعمالهم «ندم الله على الشر الذي تكلّم أن يصنعه بهم».

وفي سفر العدد (الإصحاح ١٤): «قال الرب لموسى: حتى متى يهينني هذا الشعب؟!. . . حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليّ؟!. . .» ولكن

ما أن قدّم له بنو إسرائيل اللحم المشوي الذي يحبه جدّاً حتى انبسطت أساريره، وعفا عن بني إسرائيل وأعطاهم كل طلباتهم، وندم على ما نوى أن يفعله بهم.. وكتب ميثاقاً جديداً ليعطيهم أرض كنعان.

ورغم أنهم يقررون: أن الله قد ندم في مواضع كثيرة من التوراة المحرّفة، يأتي كلام مهم في سفر العدد (الإصحاح ٢٣: ١٩) «ليس الله إنساناً فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم. هل يقول ولا يفعل أو يتكلّم ولا يفي؟». وهو كلام يدل على أنه من بقايا التوراة الحقيقية وسط هذا الركام الفظيع الذي وضعه أحبار بني إسرائيل حتى غطّوا على هذه الجواهر المضيئة.

وعندما جعل الرب طالوت ـ شاول ـ ملكاً على بني إسرائيل، فعل شاول جميع الموبقات، وندم الربُّ أنه جعل شاول ملكاً.

جاء في سفر صموئيل الأول (الإصحاح ١٥: ١٠ ـ ١١):

«وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً: ندمتُ على أني قد جعلتُ شاول ملكاً، لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي، فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى الرب الليل كله»... «ولم يعد صموئيل لرؤية شاول إلى يوم موته، لأن صموئيل ناح على شاول. والرب ندم لأنه مَلَّكَ شاول على إسرائيل».

وفي سفر صموئيل الثاني (الإصحاح ٢٤): أن الرب غضب على بني إسرائيل وجعل فيهم وباء فقتل سبعين ألف رجل. «وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها، فندم الربُّ عن الشر. وقال للملاك المهلك الشعب: كفى، الآن رويدك». (رقم ١٦)... «وتقدّم داود وقال للرب: ها أنا أخطأتُ، وأنا أذنبتُ، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟. فلتكن يدك عليَّ وعلى بيت أبي»... «وقام داود وصنع اللحم المشوي الذي يحبه الرب جدّاً وحَسُنَ في عيني الرب ما فعل داود وتنسَّم نسيم الرضا عن الشعب». (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ٢٤: ١٧ ـ ٢٤).

وندم الرب مرة أخرى عندما جعل سليمان ملكاً، لأن سليمان حسب

زعمهم عبد آلهة كثيرة وصنع لها المعابد وقرَّب لها القرابين ولم يكن مخلصاً لله.

ويغيّر الرب كلامه كل خمس دقائق في سفر الملوك الأول (الإصحاح ٢١ و٢٢): «وقد غضب الرب على آخاب وأرسل الروح القدس ليضله، ولكن آخاب تواضع للرب فندم الرب على إغوائه آخاب. ثم عاد آخاب وغضب الرب على ابن آخاب بدلاً منه، وجعل الشر عليه بدلاً من أبيه»... «وندم الرب على أنه فعل الشر بابن آخاب أيضاً»...

وفي سفر عاموس (٧: ١ ـ ٣): نشر الله الجراد في أرض إسرائيل عقوبة لها فكلّمه عاموس قائلاً: «أيّها السيد الرب اصفح، كيف يقوم يعقوب ـ (إسرائيل) ـ فإنه صغير، فندم الرب على هذا»، وعندما غضب الرب على الملك حزقيا وقرر أن يميته، بكى حزقيا وقام وصلّى، فندم الرب ورجع عن قراره وزاده خمسة عشر سنة من العمر. (سفر الملوك الثاني ٢٠: ١ ـ ٦).

الربّ يجلس في التابوت ويسكن وسط بني إسرائيل:

جاء في سفر الخروج (الإصحاح ٢٥): «وكلّم الرب موسى قائلاً: كلّم بني إسرائيل أن يأخذوا لي تقدمة.. ذهب وفضة ونحاس وأسمانجوني وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة وجلود تخس وخشب سنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن المسحة وللبخور العطر وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة، فيصنعون لي مقدّساً لأسكن في وسطهم... فيصنعون تابوتاً من خشب» ثم تفصيل طويل ممل لطول التابوت وعرضه وارتفاعه وسبكه بالذهب وكيفية صنع القوائم وكيفية فرشه حتى يكون لائقاً بمسكن الله رب الجنود... ويستمر وصف التابوت والمذبح والمسكن والخيمة على مدار الإصحاح (٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠) بطريقة مملّة ومزعجة جدّاً.. ويكون الكهنة من بيت هارون أبد الدهر.. ولكن هارون عليه السلام يكذبون عليه كما سيأتي ويقولون: إنه هو الذي صنع لهم العجل ليعبدوه.. وإنه سخر من موسى، وإنه عرّى موسى ليهزأ الشعب بموسى... وغضب الرب على هارون فعزله من وظيفة الكهانة الكبرى وعيّن بدلاً منه ابنه أليعازر.. ومات هارون في البرية مغضوباً عليه من الرب..

كما مات بعد ذلك موسى مغضوباً عليه من الرب كما يدّعون! ومات في جبل موسى (مدينة مأدبا في الأردن) وهو يرى فلسطين أمام عينيه متحسِّراً متألماً ممنوعاً من دخولها.

اختلاط مفهوم ملاك الربّ والربّ:

كثيراً ما يختلط على كاتب الأسفار في العهد القديم موضوع ملاك الرب بالرب ذاته؛ فتراه تارة يتحدّث عن الملاك، ثم فجأة يصبح الملاك هو الرب ذاته؛ فقد جاء في سفر التكوين (الإصحاح ١٨) ما يلي، حكاية عن إبراهيم عليه السلام:

«وظهر له الرب عند بلوطات ممرا، وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار، فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وطلب منهم أن يدخلوا عنده ويسندون قلوبهم بوجبة سمينة، فدخلوا وأكلوا من العجل والسمن والخبز..» ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم. وكان إبراهيم ماشياً معهم، فقال الرب: هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله؟ «ثم كلّم إبراهيم بما نوى أن يفعله بأهل سدوم وعمورة، وقال الرب: إن صراخ سدوم وعموره قد كثر، وخطيئتهم قد عظمت جدّاً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إليّ وإلا فأعلم. وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم. وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب».. ويتكرر ذلك الخلط بين الرب وملاك الرب في قصة هاجر، فتارة تسميه ملاك الرب وتارة الرب. وفي قصة شمسون تكلّم ملاك الرب مع أم شمسون، ثم ذكر أن الذي تكلّم هو الرب ذاته... ويتكرر هذا الخلط في مواضع كثيرة جداً من التوراة.

الربّ يطلب من بني إسرائيل أن يضعوا علامة الدم على بيوتهم حتى يعرفهم:

جاء في سفر الخروج (الإصحاح ١١):

«وقال موسى: هكذا يقول الرب: إني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر، فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه، إلى

بكر الجارية التي خلف الرحا وبكر كل بهيمة. ويكون صراخ عظيم في أرض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله. ولكن جميع بني إسرائيل لا يُسَنِّنُ كلبٌ لسانه إليهم لا إلى الناس ولا إلى البهائم».. وطلب منهم أن يضعوا علامة على بيوتهم دماً حتى عندما يمرّ الرب وسط بيوتهم فيعرفها بعلامة الدم فلا يهلكها.. وإلا فإنه سيقع في الخطأ، حسب زعمهم، ولن يعرفها. (أيضاً سفر الخروج: ١٢).

الربّ يطلب من بني إسرائيل سرقة المصريين حسب زعمهم:

«قال الرب لموسى: تكلّم في مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب. وأعطى الربُّ نعمة للشعب في عيون المصريين. وأيضاً الرجل موسى كان عظيماً جدّاً في أرض مصر في عيون عبيد فرعون وعيون الشعب» (سفر الخروج، الإصحاح ١١).

وتمكن بنو إسرائيل بهذا أن يسرقوا أموال المصريين. وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى. «طلبوا من المصريين أمتعةً فضةً وأمتعةً ذهباً وثياباً، وأعطى الربُّ نعمةً للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين». (سفر الخروج، الإصحاح ١٢: ٢٥ ـ ٢٦).

وتزعم التوراة والتلمود أن الله أمرهم بسرقة الأجانب، لأن روح الأجنبي ملك لليهودي، فكيف بماله؟!. (سفر التثنية ٢٣: ١٩ ـ ٢٠).

كما جاء في التوراة المحرّفة (سفر التثنية ٢٣: ١٩ ـ ٢٠) أن الرب أمرهم بأن يقرضوا الأجنبي بالربا.. وفي التلمود أوامر مشددة بأن يضاعفوا الربا على الأجانب حتى يستلبوا أموالهم.. وعليهم أن يغشوا وأن يسرقوا الأجانب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وقد أوردنا جانباً وافراً من تلك التعاليم الشوهاء في كتابنا (المسيح المنتظر وتعاليم التلمود)، فليرجع إليها القارئ الكريم، وإلى غيرها من الكتب التي تعرضت للتلمود وتعاليمه، مثل: الكنز المرصود في تعاليم التلمود، للدكتور يوسف نصر الله. وكتاب: التلمود تاريخه وتعاليمه، لظفر الإسلام خان، وكتاب إسرائيل والتلمود، لإبراهيم خليل أحمد.

زوجة موسى تخدع الرب كما يزعم سفر الخروج:

تصوّر التوراة المحرّفة بأن صفورة امرأة موسى استطاعت أن تخدع الرب، وتزعم التوراة المحرّفة أن الرب قد غضب على موسى غضباً شديداً، لأن موسى مثل بقية بني إسرائيل كان جباناً ورفض أمر الرب بالذهاب إلى فرعون خوفاً وفرقاً منه.. وأعلن الرب أنه سينزل ليقتل ابن موسى البكر، لأن موسى رفض أن ينقذ ابن الله البكر من يد فرعون ـ لعنة الله أبد الدهر على هؤلاء اليهود ـ. ونزل الرب حسب زعمهم إلى الطريق وأخذ يبحث عن ابن موسى البكر ليقتله. وكان ابن موسى طفلاً صغيراً يلعب في حواري مصر وأزقتها.. وهجم الرب الإلٰه على الطفل الصغير ليقتله ولكن صفورة زوجة موسى كانت أسرع منه وأخذت الولد بسرعة. وبما أنها تعرف أن الرب يريد قتل ابنها فإنها احتالت عليه، وقطعت غُرْلَةَ الصبي بسكين كانت معها، وأخذت الدم ومست رجلي الرب بهذا الدم، وصاحت صفورة: «إنك عريس دم لي. فانفك الرب عن الصبي. حينئذ قالت صفورة: عريس دم من أجل الختان». (انظر القصة كاملة في سفر الخروج، الإصحاح ٤: ٢٢ ـ ٢٦).

موسى يخاصم الربّ حسب زعمهم:

جاء في سفر الخروج أن موسى قال لربه: «يا سيد لماذا أسأت إلى هذا الشعب ـ أي بني إسرائيل ـ لماذا أرسلتني؟ فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلّم باسمك أساء ـ فرعون ـ إلى هذا الشعب. وأنت لم تخلص شعبك» (سفر الخروج، الإصحاح ٥: ٢٢ ـ ٢٣).

الربّ يعشق المحارق واللحم المشوي، حسب زعمهم:

ترسم التوراة المحرّفة للرب الإلٰه صورة كريهة جدّاً؛ فهو رب يحبّ اللحم المشوي جدّاً!.. ومستعدّ أن يتنازل عن كل شيء في سبيل وجبة دسمة من اللحم المشوي تقدّم له كقربان.. والتوراة من أولها لآخرها تذكر القرابين المشوية، ولا يكاد إصحاح واحد يخلو من ذكر هذه القرابين، ومن اللحم المشوي. وفي

الإصحاح الواحد عشرات المرات، في بعض الأحيان لدرجة تسبب الغثيان وضيق النفس والربو من كثرة دخان اللحم المشوي.

ولا نرى الأنبياء من لدن آدم إلى آخر أنبياء بني إسرائيل يعبدون الله أو يدعون الناس إلى عبادة الإله الواحد الأحد.. ولا نراهم يأمرون بمعروف أو ينهون عن منكر.. بل نجدهم هم والكهنة مشغولين جدّاً بقضية اللحم المشوي، والذي يحصلون بموجبه على جميع طلباتهم، بمجرد أن يتنسم الرب رائحة المشوي، تنبسط أساريره، ويفعل لهم ما يشاؤون: تعذيب الأمم الأُخرى. قتلها.. حرقها، يدخل المعارك معهم في وسطهم داخل التابوت، ويقاتل معهم، يعطيهم أراضي الغير.. يجعل الكل عبيداً لهم.. ولا يهم بعد ذلك إن عبدوا الأوثان أو سرقوا الأموال، كما لا يهم أن يكون اللحم المشوي من عجول وأغنام مسروقة، كما يزعمون أن يعقوب سرق أغنام خاله وقدّم اللحم المشوي للرب فتنسم الرب نسيم الرضا بعد أن امتلأت خياشيمه بدخان المشوي.. وأعطى يعقوب العهد له ولأولاده، وأعطاهم أرض فلسطين.. وأعطاهم الأرض حولها من النيل إلى الفرات... إلخ.

ويبدأ مسلسل اللحم المشوي: بأن هابيل قرّب لحماً سميناً، بينما قدّم أخوه قابيل شيئاً قليلاً من ثمار الأرض «فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قابيل وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قابيل جدّاً» (سفر التكوين الإصحاح ٤: ٣ ـ ٦).. وأدى ذلك إلى أن يقوم قابيل بقتل أخيه وارتكاب أول جريمة على الأرض..

والمنظر الثاني يأتي بعد أن أغرق الله الأرض بالطوفان.. وما تكاد السفينة تستقر على جبل أراراط حتى يخرج نوح ويقدم قرباناً للرب: «وبنى نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح. فتنسَّم الربُّ رائحة الرضا. وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان» (سفر التكوين، الإصحاح ٨: ٢٠ ـ ٢٢).

ويظهر إبراهيم عليه السلام فلا نراه يدعو إلى الله، وإلى توحيده، ولا ينكر على

قومه ما هم فيه من عبادة الأوثان، ولا ترد قصته مع النمرود ولا مجادلته له، ولا قصته مع أبيه. بل كل ما يرد أن إبراهيم يقدّم محرقات للرب فيتنسم الرب رائحة اللحم المشوي «فيقول الرب لإبرام: اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظّم اسمك» (سفر التكوين، الإصحاح ١٢).. وبعد رحلات طويلة يعود إبراهيم من مصر وقد ملك أموالاً ضخمة من الذهب والفضة والأغنام التي أعطاها له فرعون مصر عندما قدم إبراهيم زوجته سارة ليتزوجها فرعون حسب زعمهم.

وقدّم إبراهيم اللحم المشوي مرة أخرى.. «في ذلك اليوم قطع الربُّ مع إبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات القينيين والقنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والجرجاشيين واليبوسيين». (سفر التكوين، الإصحاح ١٥: ١٨ ـ ٢٠).

دم الختان:

«وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي. أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كل ذكر. فتختتنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يختتن منكم كل ذكر في أجيالكم» (سفر التكوين، الإصحاح ١٧: ٩ ـ ١٢).. «وأما الذكر الأغلف الذي لا يُختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها أنه قد نكث عهدي».

المهم رائحة المشوي ودم الغرلة.. ولا يهمّ بعد ذلك أن يقتل أو يسرق أو يزني أو أن يعبد الأوثان.. علامة العهد دم الغرلة.. وعلامة الرضا اللحم المشوي..

ويتكرر منظر اللحم المشوي ويقدّم إبراهيم، حسب زعمهم، قرباناً وراء قربان للحصول على مزيد من المنافع الدنيوية، حتى إنه قرر أن يقدّم ابنه إسحاق قرباناً. وسُرَّ الرب جدّاً بهذا القربان، وأنزل كبشاً بدلاً منه ليذبح ويشوى..

وقطع الرب مزيداً من العهود لإبراهيم، بأنه سيعطيه أرض الكنعانيين وجميع الأراضي حولها من النيل إلى الفرات.. ستكون جميع هذه الأراضي لنسله أبد الآبدين!!.

وقام إسحاق بالدور ذاته، وقدّم المحرقات وحصل على مزيد من العهود والمواثيق. وأما يعقوب فقد قدّم اللحم المشوي عدة مرات، من الغنم الكثيرة التي سرقها من خاله لابان. جاء في سفر التكوين، (الإصحاح ٢١): «وأما لابان فكان قد مضى ليجزَّ غنمه. فسرقت راحيل أصنام أبيها. وخدع يعقوبُ قلبَ لابان الأرامي. إذ لم يخبره أنه هارب، فهرب هو وكل ما كان له. وقام وعبر النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد».. وما أن علم لابان بهروب يعقوب مع ابنتيه والغنم الذي سرقه يعقوب وتماثيل الذهب، فلحق به لابان ولكن الرب إلٰه يعقوب وإسحاق وإبراهيم كلَّم لابان في الليل قائلاً: «احترز من أن تكلّم يعقوب بخير أو شر.. ولكن لماذا سرقت آلهتي؟» وحلف يعقوب أنه لم يسرق هذه الآلهة لأن زوجته راحيل هي التي سرقت الآلهة المصنوعة من الذهب.. وقال يعقوب: «إلٰه إبراهيم وآلهة ناحور وآلهة أبيهما يقضون بيننا. وحلف يعقوب بهيبة أبيه إسحاق. وذبح يعقوب ذبيحة من الجبل»، وهكذا يبدو يعقوب وهو يقسم بمجموعة من الآلهة مع إلٰه أبيه.

ومن الواضح جدّاً أن الله حسب زعم التوراة يحب شيئين اثنين حبّاً جمّاً... وهما اللحم المشوي والدم.. ويجعل عهده مع إبراهيم دم الختان.. وتنقذ صفورة زوجة موسى ابنها من يدي الرب بأن تقطع غرلة الصبي وتمسح رجلي الإلٰه بدم الختان، وتقول له: عريس دم من أجل الختان، فينفك عن الصبي قائلاً: عريس دم... ويطلب الرب من بني إسرائيل أن يضعوا الدم علامة على بيوتهم حتى يعرفها عندما يمرّ في الليل ويهلك كلّ بكر من المصريين ودوابهم، من بكر فرعون إلى بكر الجارية التي خلف الرحا... وتتطور عقيدة الدم هذه في تعاليم التلمود، حتى تصبح عقيدة راسخة يقتلون فيها في كلّ سنة إنساناً غير يهودي، ويستحسن أن يكون نصرانيّاً. ويستخدمون دمه لصناعة الفطير المقدّس

الذي يحبه الرب جدّاً والذي يأكل منه كبار الأحبار والكهنة.

وتقول دائرة المعارف اليهودية: «إن كان هناك من أساس أقرَّ من قبل الحكماء اليهود، فهو حقيقة القرابين البشرية التي تقدم للإلٰه يهوه ملك اليهود، والتي بوشر في تقديمها في أواخر عهد الملكية اليهودية»، أي: بعد عصر سليمان عليه السلام.

ومما تقدّم نخلص إلى أن صفات الله سبحانه وتعالى في التوراة والتلمود، لا يمكن أن تكون صفات لله خالق الأكوان ومدبرها.. بل لا يمكن أن تكون إلا من صفات أراذل البشر.

هذا قليل من كثير من هذه الافتراءات والغثاء والكذب والتجديف في وصف المولى سبحانه وتعالى.. والتوراة والعهد القديم والتلمود كلّها مليئة بهذه الأوصاف المنكرة والسجايا الخبيثة التي لا يمكن أن يوصف بها إلا أحطّ البشر وأراذلهم، فكيف يمكن أن يوصف بها المولى سبحانه وتعالى؟!.

* * *

بعض الآيات الحقّة في التوراة والعهد القديم:

ورغم هذا الغثاء الموجود في التوراة والعهد القديم إلا أن فيها أيضاً بقايا من التعاليم النورانية الحقة، ففي سفر الخروج (٢٠/ ١ ـ ٢٦): «أنا الرب إلٰهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهنَّ ولا تعبدهنَّ لأني أنا الرب إلٰهك إلٰه غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع[1] من

---

(١) هذا من إضافات اليهود والكتبة، لأن الله سبحانه وتعالى عادل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال سبحانه ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]. والآيات في هذا الباب كثيرة، =

مبغضي. وأصنع إحساناً إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي. لا تنطق باسم الرب إلٰهك باطلاً، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً. اذكر يوم السبت لتقدّسه... أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلٰهك. لا تقتل. لا تزنِ. لا تسرق. لا تشهد على قريبك شهادة زور. لاتشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك... لا تصنعوا معي آلهة فضة ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب. مذبحاً من تراب تصنع لي وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك، غنمك وبقرك... وإن صنعت لي مذبحاً من حجارة فلا تبنه منها منحوتاً، إذا رفعت إليها إزميلك لا تدنسها.. ولا تصعد بدرج إلى مذبحي كيلا تنكشف عورتك عليه».

وفي سفر أشعيا: «أنا الرب وليس غيري مخلّص.. أنا الأول والآخر لا إلٰه غيري ولا رب سواي».. «أنا الرب وليس آخر، مصوّر النور وخالق الظلمة، صانع السلام خالق البشر»، وفيه: «أنا الرب ولا إلٰه غيري، إلٰه بار ومخلّص وليس سواي»، «بمن تشبهون الله، وبأي شيء تعادلون به.. بمن تشبهونني وتسوُّونني وتمثلونني لنتشابه»، «لأنني أنا الله وليس آخر.. أنا الإلٰه وليس مثلي (أحد)». «أنا إلٰه الدهر الربُّ الخالق، خالق أطراف الأرض، لا يكلُّ ولا يعيا».

ولكن هذه التعاليم الحقّة مطمورة في مزابل من القاذورات والهراء والسخف، وسبّ الله سبحانه وتعالى، وتصويره بصورة قميئة جدّاً..

ومع ذلك لم يرضَ أحبار يهود من الفريسيين وأتباعهم أصحاب القابلاه (الكابالا) والتلموديين إلا أن يحوِّروا كل ما جاء من تعاليم نورانية: فلا تسرق، لا تسرق يهوديّاً، ولا تقتل، لا تقتل يهوديّاً، ولا تزن، (لا تزنِ بيهودية، وأما بغيرها فمباح)، ولليهودي لا تقرض بربا، ولغير اليهودي لا تقرض إلا بالربا..

= وكلّ إنسان مسؤول عما قدّم وعمل. ولا تنتقل ذنوب الآباء إلى الأبناء، بل الأبناء مسؤولون عن أعمالهم وما قدّموه من خير أو شرٍّ في حياتهم الدنيا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

تعليق إسرائيل شاحاك:

يقول إسرائيل شاحاك في كتابه (الديانة اليهودية وتاريخ اليهود)[١]: إن ما يتحدثون عنه من عبارات مثل «التقاليد اليهودية المسيحية» أو «القيم المشتركة للأديان التوحيدية» هي عبارات منمّقة لخداع الأغيار (غير اليهود). ويقول عن الديانة اليهودية: إنها ليست ديانة توحيدية، بل دخلتها الوثنيات الكثيرة، وإليك نص ما قال:

«وإنني، **لاعتبارت تتعلّق بالمجال المتوفّر، سأكتفي بالتعاطي بالتفصيل، مع أهم هذه الأوهام الباطلة الشائعة في وسط عامة الناس، ألا وهي: أن الديانة اليهودية، كانت وما زالت، ديانة تؤمن بإلٰه واحد. والآن، وكما يعرف العديد من علماء التوراة، وكما تكشف بسهولة القراءة الدقيقة للتوراة، فإن وجهة النظر هذه التي لا علاقة لها بالتاريخ، وجهة نظر خاطئة تماماً؛ ففي العديد من أسفار التوراة، إن لم يكن في معظمها، هناك إقرار واضح، بصحة وجود وبقوة «آلهة آخرين»، ولكن يهوه، وهو أقوى هذه الآلهة، يشعر بغيرة شديدة من منافسيه، ويمنع شعبه من عبادتهم. أما وجود الآلهة كافة، غير يهوه، فلا ينكره إلا بعض الأنبياء اللاحقين، في فترة متأخرة جدّاً في التوراة.**

ولكن ما يهمنا ليس اليهودية التوراتية فحسب، بل اليهودية الكلاسيكية؛ ومن الواضح تماماً، ولو أن الأمر غير مُدرك على نطاق واسع، بأن اليهودية الكلاسيكية، خلال البضع مئات من السنوات الأخيرة، كانت في القسم الأكبر منها، أبعد ما تكون عن الديانة الموحّدة الصرفة. ويمكن **قول الشيء نفسه، عن المبادئ الحقيقية السائدة في الأرثوذوكسية الكلاسيكية. ولقد اندثر الإيمان بإلٰه واحد بانتشار الصوفية اليهودية (الكابالاه) التي نمت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وحققت مع نهاية القرن السادس عشر، نصراً كاملاً تقريباً، في**

---

(١) إسرائيل شاحاك: الديانة اليهودية وتاريخ اليهود. وطأة ٣٠٠٠ عام، ترجمة رضا سليمان، ط ٣، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٧م، الفصل الثالث: الأرثوذكسية والتأويل.

مراكز اليهودية كافة. وكان على عصر التنوير اليهودي، الذي نشأ من أزمة اليهودية الكلاسيكية، أن يقاتل ضد هذه الكابالاه وتأثيرها، أكثر من أيّ أمر آخر، **ولكن نفوذ (الكابالاه) بقي هو الغالب في الأرثوذوكسية اليهودية الحديثة، وخصوصاً في وسط الحاخامات. فحركة غوش إيمونيم، على سبيل المثال، تستوحي، إلى حدٍّ كبير، أفكار اليهودية الكابالية**.

لذلك، **فإن معرفة هذه الأفكار وفهمها، أمر مهم لسببين اثنين: السبب الأول: هو أن المرء لا يستطيع من دون ذلك فهم المعتقدات الحقيقية لليهودية في نهاية فترتها الكلاسيكية. والسبب الثاني: هو أن هذه الأفكار تلعب دوراً سياسيّاً معاصراً مهمّاً، بالنظر إلى كونها تشكّل جزءاً من نظام المعتقدات الجلي للعديد من السياسيين المتدينين، بمن فيهم معظم قيادات غوش إيمونيم، وبالنظر إلى تأثيرها غير المباشر على العديد من القيادات الصهيونية للأحزاب كافة، بما فيها اليسار الصهيوني**.

وبحسب **(الكابالاه) لا يحكم الكون إله واحد بل عدة آلهة، لها** شخصياتها وتأثيراتها المختلفة، **منبعثة من العلّة الأولى النائية والمعتمة، ويستطيع المرء إذا** ما حذف الكثير **من التفاصيل، أن يلخص النظام كما يلي: انبثق أو وُلد من العلّة الأولى، إله ذكر أولاً، يدعى «الحكمة» أو «الأب»، ثم إلٰهة أنثى تدعى «المعرفة» أو «الأم». وقد وُلد من اقتران هذين الاثنين، زوج من الآلهة الأصغر: الابن، ويُطلق عليه أسماء عديدة من بينها «الوجه الصغير» أو «المقدّس والمبارك»، والابنة، وتُسمّى أيضاً «السيدة» (أو «ماترونيت»، وهي كلمة مشتقة من اللاتينية) و«شخينة»، و«الملكة»، وما إلى ذلك من أسماء. وعلى هذين الإلٰهين أن يتحدا، ولكن مكائد الشيطان، وهو شخصية مهمة ومستقلة في هذا النظام، تمنع اتحادهما. أما الخليقة فقد تولتها العلّة الأولى من أجل أن تتيح اتحادهما، ولكنهما يصبحان على شقاق أكبر من أيّ وقت، بسبب السقوط، وقد تمكّن الشيطان فعلاً، من الاقتراب كثيراً من الابنة الإلٰهة، وتمكن حتى من اغتصابها** (إما في الظاهر أو في الواقع ـ فالآراء تختلف حول هذا الأمر). أما خلق **الشعب**

اليهودي فقد جرى من أجل إصلاح الكسر الذي سببه آدم وحواء، وقد أُحرز ذلك لبرهة قصيرة تحت جبل سيناء: الإلٰه الذكر الابن، الذي تقمّص موسى، اتّحد مع الإلٰهة شخينة. ولسوء الحظ فقد تسببت خطيئة العجل الذهبي مرة أخرى، بشقاق في الألوهة؛ إلا أن توبة الشعب اليهودي أصلحت ذات البين، إلى حدٍّ ما. وعلى نحو مماثل، يُعتقد بأن كلّ حادثة في التاريخ اليهودي التوراتي مرتبطة باتحاد الزوج الإلٰهي أو بشقاقه، وأن الفتح اليهودي لفلسطين والاستيلاء عليها من الكنعانيين، ثم بناء الهيكلين الأول والثاني، هما أمران ملائمان بصفة خاصة لاتحادهما، بينما تدمير الهياكل ونفي اليهود عن الأرض المقدّسة، ليس إلا مجرد إشارات خارجية تدل لا على الشقاق الإلٰهي فحسب، بل أيضاً على «العدْو الحقيقي وراء البغاء مع آلهة غرباء»: فالابنة تكاد تقع في قبضة الشيطان، فيما يصطحب الابن شخصيات أنثوية مختلفة إلى فراشه، بدلاً من زوجته الحقيقية.

وواجب اليهود الأتقياء أن يعيدوا بواسطة صلواتهم وطقوسهم الدينية، الوحدة الإلٰهية الكاملة، بشكل اتحاد جنسي بين الإلٰه الذكر والإلٰهة الأنثى. وهكذا تُتلى الكابالية التالية قبل أداء معظم الأفعال الطقوسية، التي ينبغي لكلِّ يهودي ورع تأديتها عدة مرات في اليوم: «من أجل المجمع [الجنسي] للمقدّس المبارك وشخينه. . .» وقد رُتبت صلوات اليهودية أيضاً، بحيث تشجع على هذا الاتحاد الجنسي، ولو مؤقتاً، فحسب. وتتطابق أجزاء متوالية من الصلاة تطابقاً صوفياً، مع المراحل المتوالية لهذا الاتحاد: ففي لحظة من اللحظات، تقترب الإلٰهة مع جارياتها، وفي لحظة أخرى يضع الإلٰه ذراعه حول عنقها ويداعب صدرها، وفي نهاية المطاف، يفترض أن تكون عملية الجماع قد حصلت.

فالصلوات والطقوس الدينية الأخرى، بحسب تفسير (الكاباليين)، مكرّسة لخداع ملائكة مختلفين (متخيّلين كآلهة ثانويين يتمتعون بدرجة من الاستقلال)، أو لاسترحام الشيطان. وعند لحظة معينة في صلاة الصباح، تُتلى بعض الآيات بالآرامية (عوضاً عن العبرية المعهودة أكثر). ويفترض أن تكون هذه التلاوة وسيلة لخداع الملائكة الذين يشغّلون البوابة التي تدخل منها الصلوات إلى

السماء، **والذين يملكون القوة على سدِّ الطريق في وجه صلوات الأتقياء. فالملائكة لا تفقه إلا العبرية وتستعصي عليها الآيات الآرامية؛ ولأنها بليدة الذهن إلى حدٍّ** ما (**إذ يُفترض بأنها أقلّ حذاقة من الكاباليين)، فإنها تفتح البوابة**، فتدخل **لحظة فتحها، الصلوات بما فيها الصلوات كافة التي تُليت بالعبرية**. ولنأخذ مثلاً آخر: قبل وجبة الطعام وبعدها، يمارس اليهودي التقي طقس غسل اليدين، وهو يتمتم بتبريك خاص. ويكون اليهودي في إحدى هاتين المناسبتين في حالة عبادة الله، بتشجيعه للاتحاد الإلٰهي بين الابن والابنة، ولكنه في المناسبة الأخرى، يكون في حالة عبادة الشيطان، الذي يحبّ الصلوات والطقوس اليهودية محبة كبيرة، وإلى درجة أنه عندما يُقدم له بعضها، ينشغل بها لبعض الوقت فينسى أن يضايق الابنة الإلٰهية[١]. ويعتقد الكاباليون فعلاً، بأن بعض التضحيات التي تُحرق في الهيكل هي تضحيات مخصصة للشيطان. وعلى سبيل المثال، فإن الثيران السبعة المخصية التي يُضحّى بها خلال الأيام السبعة لعيد الشهادة (Tabernacles)، يفترض أن تكون ثيراناً مقدّمة للشيطان بصفته حاكماً للأغيار كافة، من أجل إبقائه منشغلاً إلى حدٍّ لا يستطيع معه التدخل في اليوم الثامن، عندما تقدم التضحية لله. ويمكننا: أن نعطي أمثلة عديدة أخرى من هذا النوع.

وينبغي لنا أن نسجّل بضع نقاط بخصوص هذا النظام وأهميته، حتى نفهم اليهودية فهماً صحيحاً، إن في فترتها الكلاسيكية، أم في تورّطها السياسي الحالي، في الممارسة الصهيونية:

أولاً: ومهما يمكن قوله في نظام (الكابالاه) هذا، فإنه نظام لا يمكن أن

---

(١) هذه هي عقائد عبادة الشيطان؟.. وهي موجودة في اليهودية (الكابالية)، ومنها انتشرت عبادة الشيطان في الغرب، وانتقلت إلى بعض أبناء المترفين في مصر والبلاد العربية. ومصدرها المثنوية الفارسية التي تعبد الله وتعبد الشيطان. وفي العراق فرقة منهم يسمّون (اليزيديون) يعبدون الشيطان، موجودون إلى اليوم: وكذلك في العقائد الهندوسية هناك عبادة للشيطان والإلٰه المهلك سيفا، بل إن عبادته أشد وأكثر للخوف منه، وأما إلٰه الخير فليس منه خوف!!..

يُعتبر موحّداً، يؤمن بإلٰه واحد، إلا إذا كان المرء مستعدّاً لاعتبار الهندوسية أو الديانة اليونانية ـ الرومانية القديمة أو حتى ديانة مصر القديمة، ديانة تقول بالإلٰه «الواحد».

ثانياً: الذين يعيشون في فلسطين؛ والموقف الجبري إزاء محاولات الدول العربية لإحقاق السلام ـ كل هذا وسواه من سمات السياسة الصهيونية، المحيّرة لكثير من ذوي النوايا الطيّبة، والذين يكوّنون فكرة خاطئة عن اليهودية الكلاسيكية، كلّ هذا أقرب إلى فهمنا عندما ندرجه على هذه الخلفية الصوفية والدينية. ولكن عليَّ أن أحذّر من السقوط في التطرف الآخر، ومحاولة تفسير كلّ السياسة الصهيونية على أساس هذه الخلفية. إلا أنه من الواضح، بأن مدى تأثيرات هذه الخلفية يتفاوت. فقد كان بن غوريون بارعاً في التلاعب والمناورة بها، بطريقة مضبوطة من أجل غايات محددة. ولكن ما أحدثه الماضي من تأثير على الحاضر في عهد بيغن، كان أكثر من ذلك بكثير.. إلا أن ما ينبغي أن يحاذره المرء هو تجاهل الماضي وتأثيراته، لأنه بمجرد معرفته بهذا الماضي يستطيع أن يجاوز قوته العمياء».

تفسير التوراة:

سوف يتبيّن من المثل السابق أن معظم ما يعتقده الناس، الذين يفترض أن يكونوا أناساً مطّلعين بأنهم يعرفونه عن اليهودية؛ قد يكون مضللاً تماماً، إلا إذا كانوا يستطيعون قراءة العبرية؛ فكلّ التفاصيل التي وردت أعلاه يمكن العثور عليها في النصوص الأصلية، أو في بعض الحالات، في الكتب الحديثة المكتوبة بالعبرية لقرّاء متخصصين نوعاً ما. وعبثاً يحاول المرء العثور عليها باللغة الإنكليزية، خصوصاً في تلك الأماكن من النصوص التي أدى فيها حذف حقائق اجتماعية على درجة من الأهمية، إلى تشويه الصورة بكاملها.

وهناك فكرة أخرى عن اليهودية، خاطئة وشائعة، خصوصاً في وسط المسيحيين، أو في وسط أُناس متأثرين جدّاً بالتقاليد والثقافة المسيحية؛ وهذه الفكرة هي الفكرة المضللة: بأن اليهودية «ديانة توراتية»؛ وبأن للعهد القديم في

اليهودية المكانة المركزية نفسها، والسلطة الشرعية نفسها، التي للكتاب المقدّس لدى المسيحية البروتستانتية وحتى الكاثوليكية.

وهذا مرتبط، مرة أخرى، بمسألة التفسير؛ فقد رأينا تساهلاً كبيراً في الأمور المتعلّقة بالمعتقد، ولكن العكس تماماً هو الصحيح بالنسبة إلى التفسير الشرعي للنصوص المقدّسة. **فالتفسير هنا، راسخ رسوخاً صارماً ـ ولكن بالاستناد إلى التلمود وليس إلى التوراة نفسها. والعديد من الآيات التوراتية، وربما كان معظمها، الذي يوصي بالأعمال والفرائض الدينية، آيات «تفهمها» اليهودية الكلاسيكية والأرثوذكسية في وقتنا الحاضر، بمعنى مغاير تماماً، بل حتى مناقض لمعناها الحرْفي كما هو مفهوم لدى المسيحيين أو غيرهم من قارئي العهد القديم، الذين لا يرون إلا النص الصريح. والانقسام نفسه موجود في إسرائيل، في الوقت الحاضر، بين الذين تلقوا تعليمهم في المدارس الدينية اليهودية، وبين الذين تلقوا تعليمهم في مدارس عبرية «علمانية»، حيث يُدرس عموماً المعنى الصريح للعهد القديم.**

ولا يمكن فهم هذه النقطة المهمة إلا من خلال الأمثلة.. وسوف يُلاحظ بأن التغييرات في المعاني لا تتخذ كلّها الاتجاه نفسه، من وجهة النظر الأخلاقية، كما يُفهم هذا المصطلح اليوم. ويدعي **المدافعون عن اليهودية بأن تفسير التوراة، الذي يعود بالأصل، إلى الفريسيين، ليُثبت من ثمّ في التلمود،** هو تفسير متحرر دائماً، أكثر من المعنى الحرْفي.. ولكن بعض الأمثلة أدناه، تظهر بأن الأمر ليس كذلك على الإطلاق.

دعونا نبدأ بالوصايا العشر بالذات؛ يُفهم من الوصية الثامنة، **«لا تسرق»** (الخروج ٢٠: ١٥)، بأنها تنهى عن **سرقة (أي: خطف) شخص يهودي**. والسبب في ذلك أن جميع الأعمال، التي تنهى عنها الوصايا العشر في التوراة، هي بحسب التلمود، جرائم عقوبتها الموت. أما سرقة الممتلكات فهي ليست جريمة عقوبتها الموت **(في الوقت الذي يسمح فيه القانون التلمودي لليهود بخطف الأغيار)**، ومن هنا كان هذا التفسير للوصية الثامنة. ولكن جملة مطابقة تقريباً ـ

«لا تسرق» (ليفيتيكوس اللاويين ١٩: ١١) يُسمح لها بالاحتفاظ بمعناها الحرْفي. . . إلخ.

وقد سبق أن ذكرنا الوصايا العشر وكيف يفسّرها هؤلاء الأحبار والربيون (جمع رابي)، فالسرقة تتحول إلى لا تسرق يهوديّاً. ولا تقتل: لا تقتل يهوديّاً، ولا تزن: لا تزن بيهودية. . وهكذا. . .

* * *

الفصل الخامس

الصراع بين الإلـه والإنسان (حسب زعمهم)

قصة بروميثوس سارق النار المقدّسة وما ورد في التوراة المحرَّفة:

أوضحنا في الفصل الرابع ما جاء في التوراة المحرّفة وأسفار العهد القديم من صفات الله، وكيف أن الله قد منع آدم من شجرة المعرفة لكي يبقى جاهلاً «وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها تموت موتاً» (سفر التكوين، الإصحاح الثاني) وكذلك يخاف الرب من أن يأكل آدم أيضاً من شجرة الخلد، ولذا وضع عليها حراسة مشددة حتى لا يأكل منها آدم. وقد غضب الرب، حسب زعمهم، لأكله من شجرة المعرفة!! «وقال الرب الإلٰه: هوذا الإنسان قد صار كواحدٍ منّا عارفاً الخير والشر. والآن لعلّه يمدُّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإلٰه من جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخذ منها، فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة» [سفر التكوين ٣: ٢٢ ـ ٢٤].

وهذه القصة موجودة عند البابليين في قصة جلجامش، كما أنها موجودة لدى الأمم الأخرى، وهي تتخذ مفهوم الصراع بين الله أو كبير الأرباب وبين البشر الذين يريدون أن يعرفوا العلوم والحقائق، والخير والشر، بينما يريدهم هذا الإلٰه، حسب زعمهم، جهلاء أغماراً حتى لا ينافسوه على مملكته!.. ويرتعب خوفاً من معرفتهم ومن محاولتهم الحصول على الخلود، ومن اتحادهم وتعاونهم، وهو لا يريدهم كذلك، بل يريدهم مفرَّقين، لكأنما هو الرجل الأوروبي الذي أوجد سياسة «فرّق تسدْ».. وهو أمر في منتهى العجب والغرابة والسخف.

وقد جاء في (سفر التكوين، الإصحاح ١١): «وكانت الأرض كلّها لساناً

واحداً ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة في أرض شِنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: هلُمَّ نصنع لبناً ونشويه شيّاً... وقالوا: هلُمَّ نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء، ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدّد على وجه كلّ الأرض. فنزل الربُّ لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب: **هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه، هلُمَّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبدَّدهم الربُّ من هناك على وجه كلّ الأرض فكفّوا عن بنيان المدينة. لذلك دُعي اسمها بابل، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كلّ الأرض» (التكوين ١١: ١ ـ ٩).**

وهي صورة قميئة حقّاً، وما أسخف وأحقر هذا الربّ الذي يدّعون، وهو يكرهُ الإنسان عندما يكون مجتمعاً مع إخوته، وللجميع لسان واحد.. ويعملون في بناء مدينة عظيمة.. فينزل الربُّ، حسب زعمهم، هو وملائكته ليبلبل ألسنتهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض، وحتى تضطرب أمورهم ولا يبنون تلك المدينة التي دُعي اسمها بابل، لأن الرب هناك بلبل لسان كلّ الأرض وبدَّدهم هناك في كل اتجاه.

ولا يعرف كاتب السفر أن بابل مدينة عظيمة ولها أبراج، واستمرت حضارتها قروناً طوالاً. وقد تم نفي اليهود إلى بابل على يد نبوخذ نصر (بخت نصر) في سنة (٥٨٦ ق. م.) وهذه كلها من خزعبلات يهود وأحبارهم الذين كتبوا هذه الأسفار، وكانوا على جهل فاضح بالتاريخ، كما كانوا في منتهى الحقارة عندما يصوّرون الله سبحانه وتعالى بهذه الصورة القميئة.

وهم لا شك أخذوا هذه الترّهات من الأمم السابقة لهم.. كما أخذوا كثيراً من هذه القصص من أساطير اليونان عندما قاموا بترجمة توراتهم إلى اليونانية في عهد بطليموس الثاني (٢٥٨ ـ ٢٤٧ ق.م).. واختلطت قصص اليونان وأساطيرهم بما هو موجود في التوراة. ولعلّهم فعلوا ذلك متعمّدين لينالوا رضا البطالسة (خلفاء الإسكندر المقدوني وحكام مصر، وهم من اليونان).

وسنجد أن قصة منع آدم من المعرفة موجودة أيضاً لدى اليونان في القصة المشهورة المعروفة بقصة بروموثيوس سارق النار المقدّسة، نار المعرفة التي أعطاها للإنسان ليعرف الخير والشر والصنائع، رغماً من تحذيرات كبير الآلهة (زيوس) الذي يريد الإنسان جاهلاً، حتى لا ينافسه في ملكوته؟!..

مؤلف قصة بروميثوس أيسخيلوس:

يعتبر أيسخيلوس أحد أشهر كتّاب التراجيديا اليونانية، وله العديد من هذه المسرحيات التراجيدية التي كانت تُمثَّل، والتي أثَّرت في الفكر الأوروبي بصورة خاصة، وفي الفكر الإنساني بصورة عامة.

كان والد أيسخيلوس (يوفوريون) من أهل مدينة أيلوسيس مقرّ عبادة ديميتير وابنتها، ومستودع الأسرار التي ذاع أمرها.. وقد تغنَّى الأديب والمسرحي اليوناني سوفوكليس (صاحب قصة أوديب واليكترا)، وأشاد بها شيشرون الخطيب الروماني المشهور.

ولا يُعرف تاريخ مولد أيسخيلوس، ولكنه نال جائزة أدبية على أعماله المسرحية سنة (٤٨٤ ق.م)، وتم تقدير أنه وُلد سنة (٥٢٥ ق.م)، واشترك أيسخيلوس في موقعة ماراثون سنة (٤٩٠ ق.م)، كما اشترك في الحرب ضد الفرس وألف بسببها مسرحيته المشهورة (الفُرْس).

وقد كتب أيسخيلوس ما يقرب من تسعين قصة ومسرحية، وحاز على (١٣) جائزة، ولم يبقَ من مسرحياته وقصصه إلا سبع؛ منها: قصة الضارعات، وقصة (مسرحية) الفُرس، ومسرحية بروميثيوس.

وقد توفي المؤلف في صقلية التي هاجر إليها سنة (٤٥٦ ق.م)، وقيل بل سنة (٤٥٥ ق.م).

زيوس رب الأرباب عند اليونان:

إن (زيوس) نفسه هو من سلالة الآلهة، وقد حكم العالم قبله أورانوس (اسم نجم) ثم خلفه ـ حسب زعمهم ـ كرونوس الذي كان يلتهم أبناءه، حتى

أنقذت زوجته ريا ابنها زيوس منه!.. وما لبث زيوس أن شبّ وصار قوياً جداً فصارع أباه، وتغلّب عليه واعتلى عرش العالم.. وسموّه **المخلّص** (نفس الاسم ليسوع المسيح فيما بعد (Soter)، وقد انتشر في العهد الهلينستي[1] **فكرة الخلاص** حتى أصبحت المحور الذي تدور حوله الفلسفتان: الرواقية (الجادة)، والأبيقورية (مذهب اللذة)، وحتى أصبحت فكرة الخلاص هي التي يدور حولها كثير من الأديان، وفيما بعد تقمصتها المسيحية التي دعا إليها بولس.. وكانت فكرة الآلهة الذين لقوا حتفهم، ثم بعثوا من جديد، فكرة رائجة، كما أوضحنا في فصول سابقة، ومن هؤلاء الإلٰه ديونيسوس نفسه، إلٰه التراجيديا.

ولكن كيف أصبح زيوس مُخلّصاً؟ يقول أيسخيلوس: إن لكلٍّ إنسان؛ بل لكلِّ كائن حي نصيبه المحدود في متع الحياة وآلامها، فإذا تعدّى حدَّه فقد ارتكب جريمة، وحقَّ عليه العقاب.

وتوضّح قصة بروميثوس الصراع بين الإنسان الذي يريد أن يعرف وبين كبير الآلهة الذي لا يريده أن يعرف!.. وسنستعرض هذه القصة بعد قليل.. ولكن ما يهمنا أن برومثيوس، حسب المؤلف أيسخيلوس، يعرف سرّاً لا يعرفه زيوس ولا يبوح به له، ولهذا استمر زيوس في تعذيبه، وأخيراً أخبره بروميثوس أنه إن تزوج إلٰهة البحر ثيتيس (Thetis) فستلد له ولداً أقوى منه، فولدت أخيل بطل الإلياذة. واكتسب زيوس القدرة على التفكير والتعليم، وتحول من حاكم ظالم لا يفرّق بين الصالح والطالح إلى إلٰه حكيم، وبواسطة زوجته غيّر زيوس طريقته السابقة من الحكم حتى جعل أيسخيلوس الجوقة تغني وتقول:

لن يصل أحد إلى ما يتمنى

إلا إذا عرف قلبه

---

(١) يطلق لفظ الهيلينستي: على اليونان الذين سكنوا وعاشوا خارج اليونان، وأغلبهم من خلفاء الإسكندر المقدوني، ففي مصر عُرفوا باسم البطالمة (البطالسة)، وفي سورية عرفوا باسم السلوقيين.

زيوس، القاهر الصديق

زيوس، المرشد الذي وجّه الناس إلى التفكير

زيوس الذي جعل من الألم معلماً للبشر

وهي صورة مناقضة تماماً لما كتبه أيسخيلوس في قصته بروميثيوس، حيث ظهر زيوس بصورة الإلٰه الجبّار الأحمق الذي يعذّب بروميثوس لأنه أعطى النار المقدّسة نار المعرفة للبشر[١].

إن فكرة الصراع بين الإلٰه أو الآلهة والإنسان من أجل المعرفة عميقة الجذور وخاصة في الفكر الغربي (اليهودي المسيحي)، وترجع هذه القصة الخرافية إلى موروثات الأمم السابقة مثل قصة جلجامش عند البابليين، ثم ما جاء في سفر التكوين في قصة خلق آدم ومنعه من أن يأكل من شجرة المعرفة.. وبما أن التوراة الأصلية قد ضاعت ثم قام اليهود بكتابة التوراة اليونانية في عهد بطليموس الثاني (٢٥٨ ـ ٢٤٧ ق.م) فإنهم استخدموا الأساطير اليونانية المعروفة في هذا الصدد، واستعانوا بقصة بروميثوس التي وضعها أيسخيلوس في القرن الخامس قبل الميلاد.

ولا يمكن فهم الحضارة الغربية دون فهم:

(١) الحضارة اليونانية.

(٢) نصوص العهد القديم والعهد الجديد (الكتاب المقدّس).

(٣) الصراع بين الكنيسة والعلم، والصراع بين الكنيسة والدولة الحديثة والعقلانية، وما تبعها من تغيير لبنية المجتمعات الغربية.

---

(١) لخصنا هذه المادة عن أيسخيلوس وزيوس من كتاب: تراث الإنسانية: ٤/ ٦٢٠ ـ ٦٢٧: الفُرْسُ لإيسخيلوس، عرض: الدكتور محمد سليم سالم.

قصة برومثيوس (Promethius):

تقول الأسطورة: إن برومثيوس كان من الجيل الأول من أنصاف الآلهة وأنصاف البشر المعروفين لديهم باسم تيتانك (Titanic) (الجبار، الهائل، المردة)[١]، وهولاء المردة أو الجبابرة هم نتيجة تناسل الآلهة مع البشر! . . ونرى صدى لهذه العقيدة الخرافية في سفر التكوين، الإصحاح السادس: «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض، وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا أن بنات الناس حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. وبعد ذلك إذ دخل أبناء الله على بنات الناس وولدت لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة منذ الدهر ذوو اسم»[٢].

وقد تميّز برومثيوس[٣] بذكائه الخارق وقدرته على التفكير وإيجاد الصنائع. وتقول الأسطورة: إنه خدع كبير الآلهة زيوس عندما قدّم له أضحية مقسّمة قسمين، قائلاً له أن يختار إحداهما، فاختار زيوس المغطاة بالدهن ظنّاً منه أنها مليئة باللحم فلم يجد فيها إلا العظم. . أما الأخرى، التي تحتوي على اللحم فقد أخذها برومثيوس لنفسه. . وبما أن زيوس هو الذي اختار بنفسه هذه الأضحية

---

(١) قامت هوليود بإخراج فيلم أخذ شُهرة عالمية باسم السفينة (تيتانك) التي صُنعت في العشرينيات من القرن العشرين، واعتبرت وقتها السفينة التي لا يمكن أن تقهر أو تغرق. وهي سفينة مدنية ضخمة وجميلة. وفي أول رحلة لها من بريطانيا إلى الولايات المتحدة، غرقت قبالة السواحل الأمريكية، ولم ينجُ من الغرق إلا أفراد معدودون. وقد أطلق عليها اسم تيتانك، أي: السفينة الجبارة الضخمة التي لا تغرق، حسب زعمهم، فغرقت في أول رحلة لها!!.

(٢) ذكرنا هذه القصة الخرافية في الفصل الثالث: ما هوالمقدّس؟ وما هو غير المقدّس؟، ص ١٢٤، فليرجع إليها القارئ ولا حاجة لإعادتها.

(٣) جاءت قصة برومثيوس بالتفصيل في كتاب: قصة الحضارة، لـ: وول ديورانت، في مواضع متعددة ٦/ ٨٢، ١٨٦، ١٨٨، ٣٥٢ و٧/ ١٤٠، ٢٤٢، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٦، ٤٦٦، وجاءت في دائرة المعارف البريطانية، مادة بروميثيوس (Prometheus)، الطبعة ١٥، لعام ١٩٨٢م، وذكرت عَرَضاً في تراث الإنسانية: ٤/ ٦٢٠ ـ ٦٢٩، عند الحديث عن مؤلفات أيسخيلوس.

المزرية فإنه لم يستطع أن يفعل شيئاً ببرومثيوس رغم تغيظه الشديد عليه وضيقه منه.

وحانت الفرصة لكبير الآلهة **زيوس** (عند الرومان جوبتير): عندما قام برومثيوس بسرقة النار المقدّسة، نار المعرفة من جبال الأولمب، ولم يكتفِ بسرقتها، بل أعطاها الإنسان وعلّمه كيفية استخدامها والاستفادة منها، فكان ذلك هو التحدي الأكبر للآلهة ولكبيرها زيوس على وجه الخصوص.

في مسرحيته (برومثيوس مكبلاً Prometheus Bound):

ويصف أسخيليوس مأساة برومثيوس؛ حيث يقوم هفيستوس (Hephaestus) بشدِّ برومثيوس إلى صخرة وحيداً في جبال القوقاز، منفّذاً أمر زيوس كبير الآلهة ويقول له:

يا ابن ثيمس، يا حصيف الرأي يا حكيم
لقد كُتب عليك أن تُشد بالأغلال
إلى هذه الصخرة العالية التي لا يرقاها إنسان
ولا تسمع فيها صوت آدمي
أو ترى وجه أحد ممن كُنت تُحبهم
وحيث تذبل زهرة جمالك محترقة في حرِّ الشمس اللافح الصافي
وسيقبل الليل مزداناً بالنجوم وتتسلى بظلاله
فإذا طلعت الشمس بددت بأشعتها صقيع الصباح
ولكن شعورك ببلواك الحاضرة يقضُّ مضجعك
إن هذا هو الذي تجنيه من حُبِّك لبني الإنسان
لأن (زيوس) صارم شديد، ولأن الملوك المحدثين قساة غلاظ الأكباد.

ويتحدّث برومثيوس عن نفسه متحدياً آلهة الأولمب وكبيرها (زيوس).

وكيف أنه علَّمَ البشر واخترع لهم العدد؛ وهو باعث الفلسفة ومكتشف تركيب الحروف، ووهب لهم الذاكرة صانعة الإنسان، وكيف اخترع السفن لتجري في البحر لخدمة الإنسان، وكيف استطاع أن يذلل الحيوانات ويستأنسها لتكون في خدمة الإنسان، ويتحسر على نفسه؛ وكيف أنه لم يستطع رغم ذلك أن ينجّي نفسه من انتقام كبير الآلهة زيوس.

وتحزن الأرض لحزنه، حتى إن أمواج البحر تصرخ من أجله، ويخرج من أعماق البحر أنين حزين، وينبعث من كهوف الموتى عويل.. وترسل الأمم كلها تعازيها إلى هذا السجين، ولكنهم رغم ذلك لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً لإنقاذه..! وتقول له الأوقيونوسات بنات البحر: «لقد كانت تضحيتك أيّها الحبيب لا جدوى منها. ألم تر الجنس البشري ضعيفاً في جهده ونشاطه، ويتألف من حالمين خياليين مكبلين بالأغلال؟» فيغضب زيوس من تعاطف بنات البحر ويرميه في أعماق بحر طرطروس.

وفي نفس الوقت يقوم زيوس بخلق أنثى اسمها باندورا (Pandora) ويقدمها هدية إلى إبيمثيوس (Epimetheus) أخ برومثيوس، فقبلها منه وتزوجها، فقد كان شكلها جميلاً جذّاباً مغرياً، ولم يستمع إلى نصيحة أخيه من قبل الذي حذَّره من قبول أية هدية من زيوس أو من الآلهة.. وكان برومثيوس قد أعطى أخاه صندوقاً وحذَّره من أن يفتحه، فلما جاءت باندورا فتحت الصندوق (Pandora Box) فطار منه عشرة آلاف شر مع الأمراض والأسقام والآلام التي أخذت تُنغِّص على الناس حياتهم.. وبهذه الطريقة انتقم زيوس أيضاً من البشر، ووهب زيوس النساء للرجال ليكُنَّ لهم مصدر الأذى والشر[١].

---

(١) يتكرر في الآداب اليونانية وفي التوراة المحرّفة: أن المرأة هي مصدر الشرور للإنسان، وأن كبير الآلهة زيوس قدّمها للإنسان ليجعلها مصدر شقائه. وفي سفر التكوين من التوراة المحرّفة: أن حواء هي التي أغرت آدم بالأكل من الشجرة المحرّمة، وهي التي سببت له الشقاء. ورغم ذلك ترى هؤلاء الغربيين الحاقدين ـ يتهمون الإسلام بأنه أهان المرأة، ولن تجد إهانة للمرأة أشدّ من تلك الموجودة في دينهم وآدابهم.

ولم يكتفِ زيوس بكلٍّ ما أصاب برومثيوس، ولم يتركه في أعماق البحار ليموت؛ لأن برمثيوس من أبناء الآلهة، والآلهة لا تموت. ولكنه أخرجه مرة من البحر ليضعه في أعلى صخرة في قمة جبال القوقاز، وشدّ وثاقه وسلّط عليه نسراً ينهش كبده كلّ صباح، فإذا أتى الليل عادت الكبد إلى سابق عهدها. وفي اليوم التالي يأتي النسر ليكرر المأساة، وهكذا دواليك، يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، وجيلاً بعد جيل، إلى أن مرّ ثلاثة عشر جيلاً من أجيال البشر وبرومثيوس لا يزال في عذابه! . . وأخيراً ظهر في بني البشر بطل أسطوري اسمه هريكليوس (هرقل)، وعرف مأساة برومثيوس بسبب ما قدّمه للبشر، فقرر أن ينقذه. . وسافر هرقل حتى وصل إلى أعلى قمة في جبال القوقاز، وكمن للنسر الذي أراد أن ينقضّ على كبد برومثيوس كما كان يفعل منذ أجيال وأجيال. . وفوجئ النسر بيدين قويتين تصارعانه حتى تصرعه، وبعد معركة دامية استطاع هرقل أن يقتل النسر، ويفك أسر برومثيوس. . وهكذا انتصرت إرادة البشر على إرادة الآلهة. . واستطاع البشر أن يعلموا كلّ العلوم بفضل برومثيوس نصف الإِله ونصف الإِنسان (من جنس المردة التيتانيون). . كما استطاع البشر في صورة هرقل أن يردوا الجميل لبرومثيوس وينقذوه من العذاب الأبدي الظالم الذي فرضه عليه كبير الآلهة زيوس[١].

أثر هذه الأسطورة في الآداب الغربية الأوروبية:

لقد أثّرت هذه الأسطورة التي كتبها أسخيليوس عن مأساة برومثيوس في الفكر الأوروبي تأثيراً عميقاً، فقد تأثر بها شاعر الألمان الأكبر غوته، كما تأثّر بها الشاعران الإِنجليزيان ميلتون في (الفردوس المفقود Lost Paradise)، وشيلي

---

(١) تقول الأساطير اليونانية: إن هريكليوس (هرقل) هو أيضاً من جنس التيتانيك (المردة)؛ إذ إنه ابن زيوس نفسه كبير الآلهة من زناه مع الجميلة (الكامين) وهي من البشر؛ ولهذا تميّز هريكليوس بالقوة الخارقة التي لا يملكها البشر العاديون. إن الآلهة اليونان في جبال الأولمب (غريبو) الأطوار حقّاً، وهم زناة وسفلة وأوغاد وحاقدون على البشر ومجرمون.

(Percy Shelley) الذي أنشد قصيدة طويلة سماها: **بروميثيوس يفك الأغلال (Prometheus Unbound)**، وقد حيَّاه فيها وسمّاه الجبّار الثائر الذي لم يخضع قط لظلم كبير الآلهة زيوس. أما غوته الذي تحدّى الكنيسة فقد خاطب الكنيسة وآلهتها على لسان بورميثيوس قائلاً (نقلاً عن قصة الحضارة، لـ: وول ديورانت: ٧/ ٢٦٠): غطِّ سماءك يا زيوس بالضباب الملبَّد بالغيوم.

والهُ كما يلهو طفل يقطع رؤوس الشوك على شجر البلوط وقمم الجبال.

فأنت لا بد تارك أرضي قائمة، وكوخي الذي لم تبنه، ومدفأتي التي تحسدني على توهّج نارها.

لست أعرف تحت السماء من هو أفقر منكم أيّها الآلهة.

ها أنذا قاعد هنا أصنع الرجال على شاكلتي.

سلالة شبيهة بي، تحزن وتبكي، تفرح وتمرح، وتزدريك كما أزدريك.

وقد أوحت مأساة برومثيوس للموسيقار بيتهوڤن بأعمال موسيقية متنوعة، كما أوحت لمجموعة من الفنانين الرسامين بلوحاتهم، من أشهرهم الفنان الرسام النحات مايكل أنجلو الذي وضع لوحة تبين مأساة برومثيوس مع الإلٰه زيوس.

غوته واهتمامه بالإسلام:

إن هذه القصيدة التي نقلناها من قصة الحضارة لـ: وول ديورانت تعطي انطباعاً بأن غوته (شاعر ألمانيا الأعظم وأديبها الأكثر شهرة) يقف ضد كبير الآلهة زيوس ويسخر منه ويتحدّاه، وبالتالي يمكن اعتباره ممثّلاً للشعراء والأدباء والفنانين الذين أشادوا ببرومثيوس (مثل ميلتون في: الفردوس المفقود، وشيلي في قصيدته العصماء: برومثيوس يفك الأغلال، ورسوم مايكل أنجلو، وقطعة موسيقية وضعها بيتهوڤن تمجّد ما قام به برومثيوس ضد كبير الآلهة).

ولكن يوهان فولفجانج غوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢م) لم يكن ضد الدين وضد الإلٰه، وإنما كان ضد الكنيسة، وكتابها المقدّس وخرافاتها وأساطيرها.

لهذا اتجه هذا الشاعر العبقري والأديب الكبير ذو الثقافة الواسعة إلى دراسة الإسلام والقرآن والآداب العربية والفارسية لعلّه يجد فيها بُغيته. وقد وجدها بالفعل.

وقد اشتهر غوته بأعماله الأدبية والشعرية والمسرحية الباهرة، ومنها كتابه (فاوست)، وهو مسرحية طويلة أخذت زمناً طويلاً في تأليفها، وتمثل الصراع بين الإنسان والشيطان (إبليس) الذي استطاع أن يغوي أستاذاً من أهل العلم باع نفسه للشيطان في نظير أربعة وعشرين عاماً ينال فيها ألواناً من المتع والملذات، وتنفتق أمامه آفاق واسعة من المعرفة الشيطانية، مثل السحر والقبالة (الكابالاه اليهودية) والتنجيم.. ويفعل فاوست الإثم ويغري فتاة بريئة بحبّه حتى تهلك.

وبعد حياة طويلة ومغامرات كثيرة، يعود فاوست لخدمة البشر وعمل الخير ويموت قرير العين، وفي لحظة موته أراد إبليس أن يأخذه معه إلى الهاوية، ولكن ملائكة من السماء أخذت فاوست وأنقذته وصعدت بروحه إلى الملأ الأعلى. وبذلك خاب مسعى الشيطان الأكبر مع الإنسان، فبعد أن أغواه دهراً، وقتل روحه أو كاد، عاد الإنسان ليعمل الخير، ويرتفع مرة أخرى إلى السماء، فتحييه الملائكة وأرواح الصديقين والشهداء..

ومن أعماله المشهورة (آلام فرتر)، ويصف فيه قصة غرامه بخطيبة صديقة المسماة شارلوت بون.. وفيها قطع شعرية ومنها بيت يشابه تماماً البيت العربي المشهور:

لا يعرف الشوق إلا من يُكابده ولا الصبابة إلا من يُعانيها

ومن أشهر قصصه النثرية قصة (ولهلم مايستر)، وقصة شعرية (هرمن ودروثيا)، ومذكرات حياته وسمّاها (الحقيقة والخيال)، و(مسرحية ستيلا).

واتجه غوته في الثلث الأول من القرن التاسع عشر إلى دراسة ترجمات القرآن الكريم، وقرأ سيرة الرسول العظيم محمد ﷺ وأُعجب بها أيّما إعجاب،

ونظم قصيدة طويلة في مدحه ﷺ وسمّاها (نشيد محمد)[١]؛ وقد عبّرت عن إعجاب وولاء الشاعر والكاتب العظيم للنبيِّ محمد ﷺ.

وحاول أن يدرس اللغة العربية، ولكنه لم يتمكن منها، ودرس اللغة الفارسية، وأعجب أيّما إعجاب بقصائد حافظ شيرازي (كتبها بالفارسية وفيها أبيات بالعربية) الدينية الصوفية..

واهتم غوته بالشعر العربي تحت توجيه الفيلسوف المستشرق (هردر) الذي كتب قائلاً: «ألا ما أروع أشعار العرب.. إنها حقّاً مرآة لطريقتهم في التفكير وفي الحياة.. إنهم يتنفَّسون الحرية والإباء، وتملأ صدورهم روح المغامرة والشرف والفروسية والشجاعة التي طالما استفزّها الأخذ بالثأر من الأعداء وفاءً منهم للأصدقاء.. ولا يوجد شعب شجَّع الشعر وارتقى به إلى تلك المنزلة التي ارتقى إليها العرب».

وقد أعجب غوته بكل ذلك وخاصة بالمعلّقات الشعرية المشهورة التي قال عنها: إنها قصائد كُتبت بحروف من ذهب، وعُلّقت على أبواب بيت الله، الكعبة، وتعبّر عن الشعور بالشرف والرغبة العارمة بالثأر مع حزنٍ في العشق وكرمٍ وإخلاص.

وقد وضع كلّ هذه القصائد في (الديوان الشرقي) الذي نشره عام (١٨١٩م).

وقد ازداد إعجابه بالإسلام ونبيّ الإسلام بعد أن طالع ترجمتين للقرآن الكريم؛ إحداهما: بالألمانية، والأخرى: باللاتينية، وطالع مجموعة من الكتب في السيرة النبوية، وديوان حافظ الشيرازي، وكثيراً من الشعر العربي، وخاصة المعلّقات بمساعدة أصدقائه من المستشرقين، وبشرائه مخطوطات نفيسة لمكتبة الدوقية التي كان مشرفاً عليها عندما جاءه تاجر بهذه المخطوطات النفيسة، وطلب منه أن يساعده في ضيقته المادية، فكانت تلك مكسباً لكليهما.

---

(١) انظر جيته (غوته): الديوان الشرقي، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت، ١٩٨٠م؛ وكتاب: هل كان شاعر الألمان غوته مسلماً؟، لكاتب هذه السطور، إصدار كنوز المعرفة ـ جدة، ٢٠٠٧م.

وغوته ضد الكنيسة ودينها رغم أنه يؤمن بيسوع كرسول، ويقول عن نفسه: أنه يؤمن «بمسيحية لاستخدامي الخاص»(١).

وقد أثار اهتمامه وإعجابه ربط الإسلام الجزاء بالإيمان والعمل والإحسان.. وكان مهتمّاً بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، ويرى أن التقوى والإيمان الحقّ لا يظهر من خلال الاعتقاد فحسب، وإنما لا بد أن يصحبه العمل الصالح، وبرُّ الآخرين والإحسان إليهم.

وأُعجب كذلك بفكرة التسليم والاستسلام لله سبحانه وتعالى، وقال: «إن التفويض والتسليم لله تعالى هما القاعدتان الحقيقيتان لكلِّ دين: **وإذا كان الإسلام هو الاستسلام لله فكلنّا مسلمون**».

وتحدّث غوته عن القرآن بقوله: «إن أسلوب القرآن مُحكم وسام، مثير للدهشة، وفي مواضع متعددة يبلغ قمة السموّ حقّاً».. وهو للأسف لم يقرأ القرآن إلا في ترجمتيه اللاتينية والألمانية (والله أعلم بمستواهما)، فكيف لو قرأ القرآن بالعربية؟! وقد تأثر بوصف الجنة، وخاصة في سورتي: الرحمن والواقعة، ووصف الشهداء من المسلمين الذين دخلوا الجنة وأشاد بعملهم البطولي أيّما إشادة.

وفي قصيدة (**هجرة**) التي أوضح فيها أنه يرغب أن يهاجر كما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، يقول الشاعر الملهم:

إلى هناك حيث الطهر والحقُّ والصفاء

أود أن أقود الأجناس البشرية

وأنفذ بها في أعماق الأصل السحيق

حين كانت تتلقى من لدُن الرب

وحي السماء بلغة الأرض

---

(١) نقلاً عن: مراد هوفمان، في كتابه: الإسلام في الألفية الثالثة، ص ٢١٨.

أليس غوته متوجهاً إلى الإسلام توجهاً صادقاً صافياً؟ بلى، وإننا لنغمط الدعوة إلى الإسلام حين نهمل غوته ولا نعرضه على الألمان خاصة، والأوروبيين عامة.. فكم نحتاج إلى برامج تليفزيونية وإذاعية ثقافية تتحدّث عن غوته والإسلام، بلغة راقية موجهة إلى هؤلاء القوم.. وكم سنكسب منهم إلى صفّ الإسلام لو فعلنا ذلك.. وكم كنّا سنخفّف من هذا السعار المحموم ضد الإسلام وأهله واتهامهم بالإرهاب والتخلّف والجهل.ز. إلخ، لو قمنا بنشر دعوة الإسلام واستخدمنا غوته للألمان، وبوشكين وتولستوي للروس، وبرنارد شو للناطقين باللغة الإنجليزية.

يقول غوته في الديوان الشرقي، باب الحِكَم:

من حماقة الإنسان في دنياه

أن يتعصب كلٌّ منّا لما يراه

إذا كان الإسلام معناه: أن لله التسليم

فعلى الإسلام نحيا ونموت نحن أجمعين

ويقول:

إذا امتحنك القدَر فهو يعلم جيداً لماذا

إنه يريد منك القناعة فأطع دونما اعتراض

وفي قصيدته (طابت ليلتكم) يودّع الشاعر الأعظم لألمانيا قومه ومعاصريه قائلاً:

نامي الآن، أيّتها القصيدة العزيزة

على صدر شعبي

ولينشر جبريل

سحابة مسك

فوق الجسد المكدود

حتى يمضي الشاعر، وهو معافى

فيشقّ الصخر

ويجوب سعيداً

مع أبطال كلّ العصور

جنات الخلد الواسعة[١].

ووجدت في ديوان الأخ الصديق العزيز الشاعر الرقيق الدكتور المهندس شهاب محمد عبده غانم (أقمشة السماء)، وهي مختارات لشعراء عالميين اختارها وترجمها، قصيدة جميلة لغوته اسمها (الطلاسم)، وهي توضّح إيمانيات هذا الشاعر العظيم الذي اصطدم مع الكنيسة، ولم يتفق معها ولم تتفق معه.

يقول غوته:

الشرق ملك لله

والغرب ملك لله

كذلك الشمال والجنوب

كلاهما إلى سلام كفّه يؤوب

* * *

ووحده الذي في عدله الكمال

من يأمر الإنسان بالصلاح كلّ حين

---

(١) نقلت هذه القصائد والكلام عن إسلاميات غوته من المقال الرائع، لابتهال محمد البار، غوته شاعر ألمانيا والإسلام، مجلة أهلاً وسهلاً، جمادى الأولى/ جمادى الآخرة، ١٤٢٣هـ ـ أغسطس ٢٠٠٢م، ص ٥٢ ـ ٥٤.

تقدّست أسماؤه التي تُقارب المئة[١]

والعدل من أسمائه

سبحانه. . آمين

* * *

يقودني التطواف للضياع والأوهام

وأنت وحدك الذي تقدر أن تنقذني من الهيام

فدلّني يا ربّ كلما أخطُّ تلكمُ الحروف والنقاط

وكلّما أفعل أيّ شيء دلّني على الصراط[٢]

* * *

وإن تكن من هذه الحياة

تدور ما لديّ من تأملات

فإن ذاك الأمر لا يحرمني من الثبات

فالروح لن تضيع كالغبار في الرياح

بل سوف تسمو للعلى في عالم الأرواح

* * *

هناك في تنفّس الإنسان نعمتان

هنالك الإنعاش في الزفير

---

(١) واضح جداً تأثّر غوته بالإسلام وأسماء الله الحُسنى التسعة والتسعين التي لا توجد إلا في الإسلام.

(٢) (اهدنا الصراط المستقيم) هذه هي دعوة غوته ودعوة كلّ مسلم.

ثم الضغط في الشهيق

وهكذا الحياة. هكذا مزيجها العجيب والفتّان

فلتحمد الإلٰه حين تعصف الحياة

وحين تغدو من ضغوطها طليق

الحمد لله رب العالمين، لله أنت يا غوته ما أعظمك، وما أتفه أولئك المتعصّبين الذين يحاربون دين رب العالمين، ويريدون أن يطفئوا نوره، والله متمٌّ نوره ولو كره الكافرون.

هكذا نرى غوته وهو يحارب زيوس (كبير الآلهة عند اليونان)، ويسخر منه لأن زيوس وياهو (يهوا) في التوراة المحرّفة لا يريد للإنسان أن يعرف، بل يريده جاهلاً غمراً لا يثور عليه!.. وهي صورة قميئة لا بد لكلٍّ من كان له قلب أو عقل أن يرفض هذا الغثاء الذي جاءت به أساطير اليونان، وبابل، والكتاب المقدّس!! (الذي ليس فيه من القداسة شيء).

ثم ها هو غوته يقرأ القرآن (ولو بترجمة غير جيدة)، والسيرة النبوية، ويقرأ حافظ شيرازي وغيره، فيعجب بذلك أيّما إعجاب، وينطلق يدعو إلى هذا الدين الحق المتسامي المحبّ للخير وللبشرية عامة، بعيداً عن التعصب الذي ملأ حياة النصارى في أوروبة، وجعل حياتهم عذاباً وجحيماً في حروب متصلة فيما بينهم، وحروب متصلة بينهم وبين بقية البشر ليمتلكوهم ويأخذوا خيرات بلادهم، مع غرور متناهٍ ودعوات عنصرية، كانت نتيجتها محارق أوشفيتس، وسجون غوانتانامو، وعذابات سجن أبو غريب، من دولة تدّعي الحضارة والرقي والديمقراطية.. وهي في تاريخها كلّه أبعد الأمم عن الحضارة الحقّة والعدالة والديمقراطية.

* * *

الفصل السادس

الرسل والأنبياء كما تصوِّرهم التوراة وأسفار العهد القديم[1] وما يؤدي إليه من نشر الفاحشة وانهيار الأخلاق وشيوع العلمانية

في الفصول الماضية درسنا كيف صوّر «الكتاب المقدّس» وبالذات «التوراة والعهد القديم» الله سبحانه وتعالى بصورة قميئة منفِّرة (تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً).. وفي هذا الفصل سنتحدّث باختصار شديد عن الصور البشعة والمقززة التي تتحدّث فيها التوراة وأسفار العهد القديم عن الأنبياء عليهم السلام جميعاً.

وقد سبق الحديث في الفصل الثالث (ما هو المقدّس؟ وما هو غير المقدّس) عن الجرائم ضد الإنسانية التي مارسها اليهود ضد أعدائهم، وكيف زعموا كذباً وبهتاناً أن الأنبياء عليهم السلام قاموا بهذه المذابح والمجازر وقتلوا النساء والأطفال، تماماً كما تفعل إسرائيل منذ قيامها إلى اليوم في فلسطين ولبنان ومصر والأردن، وهي جرائم تقشعر لهولها الأبدان، ولكن بما أن الذين يقومون بها هم اليهود، وهم مقدَّسون ـ حسب المفهوم الأمريكي والأوروبي ـ فلا بد من مباركتهم لأن الرب ـ حسب زعمهم ـ، يقول: «ليكن مباركوك مباركين، ولاعنوك ملعونين» ولا بد لكي تحصل أمريكة (الولايات المتحدة) على البركة أن تمدّ إسرائيل بكلّ وسائل الدعم العسكرية والمادية والأدبية... وأن تكون في خدمتها ليل نهار، تماماً كما قال **مارتن لوثر في كتابه الأول (المسيح وُلد يهوديّاً)**: «**إن**

---

(١) انظر تفاصيل هذا الموضوع في كتاب: الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم، لكاتب هذه السطور (محمد علي البار)، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت، ١٩٩٠م.

اليهود هم أبناء الله. ونحن الضيوف الغرباء. ولذلك فإن علينا بأن نكون كالكلاب التي تأكل مما يتساقط من فتات مائدة أسيادها (اليهود) كالمرأة الكنعانية تماماً»[١].

وإذا كانت قداسة يعقوب (إسرائيل) قد تمَّ الحصول عليها بواسطة الخداع والكذب والغش، حسب زعمهم.. وكيف استطاع يعقوب أن يخدع أباه ويقدّم له الصيد المزعوم ويأخذ منه البركة والقداسة، وأن يكون الجميع عبيداً له بما فيه أخيه عيسو الذي سُرقت منه البكورية والبركة والقداسة «وأن تسجد لك شعوب وتستعبد لك قبائل!!». كما سبق شرحه في (الفصل الثالث).

نوح عليه السلام يسكر ويتعرّى، حسب زعمهم:

تزعم التوراة المحرّفة (سفر التكوين، الإصحاح ٩: ٢٠ ـ ٢٧) أن نوح شرب الخمر وسكر وتعرَّى، وأن حام رأى عورة أبيه، فلما أفاق نوح من سكرته قال: تبارك الرب إلٰه سام (لأن سام ويافث غطيا عورة أبيهما)، ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته.. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم. وصار حام أسود اللون، ولذا فإن نسله سيبقون عبيداً لسام وليافث. وأما كنعان بن حام فرغم أنه لم يتحوّل إلى اللون الأسود إلا أنه سكن فلسطين. وبما أن فلسطين يريدها اليهود، فلا بدَّ من لعنه ولعن نسله إلى أبد الأبدين.

ولا يوجد في التوراة المحرّفة ذكر لعبادة الله سبحانه وتعالى، ولا الدعوة إليه، ولا ذكر مطلقاً ليوم القيامة: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].. ولهذا فإن كتاب التوراة المحرّفة، كتاب يدعو إلى كافة الجرائم، ويسبُّ الله سبحانه وتعالى سبّاً مقذعاً (ألا لعنة الله على الظالمين)، كما يسبّ الأنبياء عليهم السلام، ويفتري عليهم الأكاذيب والبهتان.

---

(١) المسيح وُلد يهودياً، كتبه مارتن لوثر، ونُشر في سنة (١٥٢٣م)، ولا يزال يُطبع ويُنشر بملايين النسخ.. بينما كتابه الثاني «فيما يتعلّق باليهود وأكاذيبهم» الذي نُشر عام (١٥٤٤م) ممنوع من النشر والتداول!..

إبراهيم عليه السلام يتزوَّج أخته، حسب قولهم:

تزعم التوراة المحرّفة أن إبراهيم عليه السلام تزوج أخته من أبيه سارة!.. وأنه لمّا ذهب إلى مصر بسبب الجوع قال لها: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك.. قولي: **إنك أختي ليكون لي خير بسببك** وتحيا نفسي من أجلك... **فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون فَصُنِعَ إلى إبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال** (التكوين ١٢: ١٠ ـ ١٥).

وتكررت القصة مع ملك الفلسطينيين أبي مالك، ويقوم إبراهيم ـ حسب زعمهم ـ بتقديم زوجته إلى الملك لكي يستلم منه هدايا، عبيداً وأموالاً. وعندما علم أبو مالك أن سارة هي زوجة إبراهيم وليست أخته كما زعم قال إبراهيم: **وبالحقيقة هي أيضاً أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أبي فصارت لي زوجة.** وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي قلت لها: هذا معروفك الذي تصنعين إليَّ في كلِّ مكان نأتي إليه قولي عنّي: هو أخي. (التكوين ٢٠: ١٢ ـ ١٣).

إسحاق أيضاً يقول عن زوجته: إنها أخته، حسب زعمهم:

جاء في سفر التكوين (٢٦: ١ ـ ٧): وكان من الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم. فذهب إسحاق إلى أبي مالك[(١)] ملك الفلسطينيين... وسأله أهل المكان عن امرأته، فقال: هي أختي، لأنه خاف أن يقول: امرأتي، «لعلّ أهل المكان يقتلونني من أجل (رفقة)، لأنها كانت حسنة المنظر».

جرائم يعقوب، حسب زعمهم:

سبق أن ذكرنا كيف قام يعقوب بالكذب على أبيه إسحاق، وكيف أخذ منه العهد والبركة والقداسة ليكون سيداً على إخوته وتسجد له شعوب وقبائل. وتبقى

---

(١) يبدو أن لقب أبا مالك هو لقب لكلِّ ملك فلسطيني آنذاك (تكتب في التوراة أبيمالك ولا تتغير مثلما تتغيّر الأسماء الخمسة في الأعراب).

القداسة والبركة بعد ذلك إلى أبد الآبدين في يعقوب ونبيه.

وقام يعقوب قبل ذلك بشراء البكورية من عيسو عندما قدّم له خبزاً وطبيخ عدس (سفر التكوين ٢٥: ٢٧ ـ ٣٤). وكان عيسو رجلاً وصيّاداً ماهراً، أما يعقوب كما تصوّره التوراة فكان مدلّلاً يبقى مع أمّه (رفقة) في البيت، وكأنه فتاة يساعدها في أعمال الطبخ. مع أن يعقوب وعيسو توءمان، ولد يعقوب وهو ماسك بعقب عيسو كما يزعمون. وقد قام يعقوب مرة أخرى بأخذ البركة من أبيه إسحاق. وتزوج يعقوب راحيل ابنة خاله (لابان)، ولكن (لابان) خدعه فأعطاه أولاً ليئة السمينة القبيحة المنظر، وأدخلها عليه في الظلام بدلاً من راحيل. فلما أصبح الصباح عاتب خاله على ما فعل، فقال له: أكمل أسبوعاً ونعطيك راحيل (مقابل خدمة سبع سنوات أخرى).

وقام يعقوب ـ حسب زعمهم ـ بخداع خاله وأخذ كلّ شاة رقطاء وبلقاء ومن المعز. كذلك وأوردوا قصة سخيفة: بأن يعقوب جعل المواشي تشرب بعد أن وضع في مساقي المياه قضباناً مخططة فولدت كلّ هذه المواشي نسلاً مخططاً أخذه يعقوب. كما قام يعقوب بسرقة تمثال من ذهب كان يعبده خاله. وذلك عند سفره وهروبه من خاله، وأقسم يعقوب أنه لم يسرق آلهة لابان (لأن الذي سرقها هو زوجته راحيل ابنة (لابان)، وكان يعقوب قد وافقها على ذلك) وقال يعقوب: «إله إبراهيم وآلهة ناحور وآلهة أبيهما يقضون بيننا» (التكوين ٣١: ٥٢). وهو قسم بالآلهة العديدة وحاشا ليعقوب عليه السلام أن يحلف بهذه الآلهة.

وقد اتهمت التوراة المحرّفة يعقوب بالشرك، والكذب، والخداع، والمكر، والسرقة، ثم تزعم أن يعقوب صارع الله طوال الليل وأخذ منه العهد بأرض تفيض لبناً وعسلاً، له ولنسله إلى أبد الآبدين.. أرض فلسطين، أرض كنعان الملعون المغضوب عليه، حسب زعمهم. وعندما رجع يعقوب إلى فلسطين قدَّم لأخيه المخدوع عيسو هدايا كثيرة من الأغنام والمواشي التي سرقها من خاله وقدَّمها عبيده قائلين: «هي كلها هدية مرسلة لسيدي عيسو من عبده يعقوب» (التكوين ٣٢: ١٣ ـ ٢١).

وقام يعقوب المخادع ـ حسب زعمهم ـ بالسجود لأخيه عيسو سبع مرات (عكس البركة التي أعطاه إيّاها أبوه إسحاق). وقال له: إنه عندما رآه، فكأنما رأى الله. ولما رفض عيسو أخذ الهدية كرَّر السجود وتقبيل الأرض، وأصرّ على أن يأخذ الهدية من عبده يعقوب!! «قال يعقوب: خُذ هذه الهدايا من عبدك لأجد نعمة في عيني سيدي. إن وجدت نعمة في عينيك تأخذ هديتي من يدي، لأني رأيت وجهك كما يرى وجه الله فرضيت عليَّ. خُذ بركتي التي آتي بها إليك...» (التكوين ٣٣: ١ ـ ١٢).

وتزعم التوراة أن يعقوب ذهب إلى أرض شكيم (نابلس) وأقام هناك مذبحاً للرب «وخرجت (دينة) ابنة ليئة التي ولدتها ليعقوب لتنظر بنات الأرض، فرآها شكيم بن حمّور الحوي رئيس الأرض. وأخذها واضطجع معها وأذلّها. وتعلّقت نفسه بدينة ابنة يعقوب، وأحب الفتاة ولاطف الفتاة. فكلّم شكيم حمّور أباه قائلاً: خُذ لي هذه الصبية زوجة، فذهب حمّور وخطبها لابنه، وعرض على يعقوب ما يريد، وأن يسكنوا الأرض سوياً، وأن يتزاوجوا فيما بينهم.

فأجاب يعقوب بمكرٍ وتكلّم بنوه: لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر، أن نعطي أختنا لرجل أغلف، لأنه عار لنا، غير أننا بهذا نواتيكم إن صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر، نعطيكم بناتنا، ونأخذ لنا بناتكم، ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً.

وحسن الكلام في عيني حمّور وابنه وجماعته فاختتنوا كلّهم. ولما كانوا متوجّعين من الختان في اليوم الثالث هجم عليهم أبناء يعقوب وذبحوهم عن بكرة أبيهم، ونهبوا المدينة، وأخذوا غنمهم وبقرهم وحميرهم وكلّ ما في المدينة، وما في الحقل وسبوا ونهبوا كلّ ثروتهم وأطفالهم ونساءهم» (التكوين، الإصحاح ٣٤).

إنها جريمة بشعة بكلِّ المقاييس لا يقوم بها إلا هؤلاء اليهود المجرمون الذين يفعلون كلّ الجرائم من القتل وسفك الدماء، والخداع، والكذب، والخيانة والخِسَّة والجبن. إنها هي هي صفات بني إسرائيل كما تصفها التوراة المحرّفة إلى اليوم.

ولكن الربُّ يقف دائماً مع إسرائيل وبنيه. وقام يعقوب ـ حسب زعمهم ـ ببناء مذبح للرب وأعطاه اللحم المشوي الذي يحبّه جدّاً. فمنع الربُّ الفلسطينيين من أن ينتقموا لمقتل شكيم وأبيه حمّور وكلّ بيت شكيم. «وبارك الربُّ يعقوب وزرع الخوف في قلب أهل فلسطين وما حولها، فلم يسعوا للانتقام من يعقوب وبنيه» (التكوين، الإصحاح ٣٤، والإصحاح ٣٥).

إنها صورة بشعة حقيرة تنشرها هذه التوراة المحرّفة عن هذا الشعب المقدّس، ويكذبون في ذلك على أنبياء الله المطهرين من هذه الأرجاس لكي لا يلومهم أحد على ما يفعلونه من رجاسات وأكاذيب ومذابح وحرائق.. فإذا كان الأنبياء كذلك فلا بأس عليهم أن يكونوا هم كذلك!!.

لوط عليه السلام يفعل الفاحشة بابنتيه، كما تزعم التوراة المحرّفة[1]:

بعد أن أُهلك قوم لوط في سدوم وعامورة خرج لوط إلى البرية ولم يكن معه غير ابنتيه، وسكن الجبل معهما. فضاقت الفتاتان بحياة الوحدة والعزوبة فسقتا أباهما خمراً ثم نامت معه الكبرى وفي الليلة التالية نامت الصغرى فأنجبتا من أبيهما نسلاً!.. وإليك نص ما ذكرته التوراة المحرّفة (سفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر: ٣٠ ـ ٣٨): «وصعد لوط من صوغر وسكن الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلمّ نسق أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها. ولم يُعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي فاضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا

---

(١) نقلت هذا الفصل من كتابي: الإيدز وباء العصر، إصدار دار المنارة ـ جدة، ١٩٨٧م، بالاشتراك مع الدكتور محمد أيمن صافي، الفصل الأول: دور اليهود في انتشار الفاحشة والشذوذ الجنسي ونكاح المحارم.

أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً. وقامت الصغرى واضطجعت معه ولم يُعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بن عمّي وهو أبو بني عمّون إلى اليوم».

ألا لعنة الله على اليهود إلى أبد الآبدين.. لم يسلم منهم أنبياء الله.. اتهموا إبراهيم بأنه تزوج أخته من أبيه سارة.. واتهموا إسحاق وإبراهيم بالدياثة.. واتهموا يعقوب بالمكر والخداع وسرقة بركة أخيه.. واتهموا لوطاً عليه السلام بالزنى مع ابنتيه.. واتهموا جميع الأنبياء بشرب الخمور.. واتهموا مريم عليها السلام بالزنآ.. وقتلوا زكريا عليه السلام.. وقتلوا يحيى.. وقدّموا رأسه مهراً لبغي.

إن الدماء تغلي في العروق عند مطالعة هذا البهتان، ولكن لنحتمل قليلاً حتى نرى ما يقوله هؤلاء اليهود عن أنبيائهم، وكيف أنهم لصوص جبناء كذبة زناة مرتكبو الفواحش مع ذويهم، شاربو الخمر، مستحلو كلّ كبيرة من الذنوب والمعاصي.

زنى أولاد يعقوب، (حسب زعمهم):

فإذا كانت هذه صفات الأنبياء من لدن نوح إلى عيسى كما هو مدوّن في التوراة والتلمود؛ فإنه يحق لليهود أن يفعلوا بالتالي جميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن ينشروا الزنى واللواط ومقارفة الفاحشة مع الأطفال والأخوات والأمهات.. ولا يخشوا شيئاً، فهم أبناءُ الله وأحباؤه، وشعبه المختار من دون العالمين.

نصوص التوراة المحرّفة تقول: إن راؤبين الابن البكر ليعقوب يزني بزوجة أبيه:

جاء في (سفر التكوين، الإصحاح ٣٥: ٢٢) أن راؤبين ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه وأم إخوته. وسمع يعقوب (إسرائيل) بذلك ولم ينزعج بل بارك راؤبين.

يهوذا أسد إسرائيل وأحد الأسباط يزني بزوجة ابنه:

يهوذا هو أحد الأسباط وأشجع أبناء يعقوب. والأسباط هم أبناءُ يعقوب عليه السلام (ويعقوب يُدعى أيضاً إسرائيل)، وهم أنبياء أيضاً كما يزعمون.

وقد جاء في سفر التكوين من التوراة المحرّفة (الإصحاح ٣٨: ١ ـ ٢٦) قصة زنى يهوذا بزوجة ابنه كما يلي:

«وأخذ يهوذا زوجة لعير (ابنه الأكبر) اسمها ثامار. وكان عير بكر يهوذا شريراً في عيني الرب فأماته الرب، فقال يهوذا (لابنه الثاني) أونان: ادخل على امرأة أخيك وتزوّج، وأقم نسلاً لأخيك (أي: أن النسل سيدعى لعير، فغضب أونان وسفح ماءه على الأرض، فكان بذلك أول من مارس العزل). فعلم أونان أن النسل لا يكون له فكان إذا دخل على امرأة أخيه أنه أفسد في الأرض لكيلا يعطي نسلاً لأخيه. فقبُحَ في عيني الرب ما فعله (غريب أمر هذا الرب الذي يغضب من الحق والخير)، فأماته أيضاً. فقال يهوذا لثامار كنته: اقعدي أرملة في بيت أبيك حتى يكبر شيلة ابني».

وهكذا قعدت ثامار تنتظر شيلة؛ إذ لم يكن للمرأة من حق في نفسها بل يرثها إخوته واحداً بعد الآخر، وتحبس على الصغير حتى يكبر فيتزوجها إن شاء أو تفتدي نفسها منه. فلما كبر شيلة لم يزوجها إياه يهوذا.

«وخلعت (ثامار) عنها ثياب ترمّلها وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل عينايم التي على طريق تمنه لأنها رأت أن شيلة قد كبر وهي لم تُعطَ له زوجة، فنظرها يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد غطت وجهها. فمال إليها على الطريق وقال: هاتي أدخل عليك؛ لأنه لم يعلم أنها كنّته. فقالت: وماذا تعطيني لكي تدخل عليّ؟ فقال: إني أرسل جدي معزي من الغنم. فقالت: هل تعطيني رهناً حتى ترسله؟ فقال (يهوذا): ما الرهن الذي أعطيك؟ فقالت: خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك، فأعطاها ودخل عليها، فحبلت منه ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترمّلها».

«ولما كان نحو ثلاثة أشهر أخبر يهوذا وقيل له: قد زنت (ثامار) وها هي حبلى أيضاً من الزنى. فقال يهوذا: أخرجوها فتحرق. أما هي فلما أُخرجت أُرسلت إلى حميّها قائلة: مَنِ الرجل الذي هذه له أنا حبلى. وقالت: حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه. فتحققها يهوذا وقال: هي أبرُّ مني لأني لم أعطها لشيلة ابني»، نعم لم يخجل يهوذا من فعلته بل بارك (ثامار) وزوّجها لابنه الثالث شيلة.

الأمر فظيع فظيع.. ولم تعد أعصابنا تحتمل مواصلة قراءة هذه التوراة المحرّفة والتي كانت هدى ونور عندما أنزلها الله تعالى، فأصبحت رجساً وظلمات بعضها فوق بعض بسبب تحريف يهود وأكاذيب يهود وتزوير يهود، ولكن لنحتمل قليلاً ولنمضِ في قراءة التوراة المحرّفة والتلمود الذي كتبه أحبار يهود حتى نرى الصورة ناصعة واضحة جلية، وكيف يعمل اليهود لتدمير العالم والاستيلاء عليه والتحكم فيه تحكماً مباشراً، لأن الله خلق العالم كله من أجل يهود.. والبشر جميعاً عبيد، والعبيد يكونون لبني إسرائيل مهما فعلوا وأجرموا لأنهم أبناءُ الله وأحباؤه، ولأن العهد قد أُعطي لهم من الرب حيث أُعطي لإبراهيم ثم إسحاق ثم يعقوب رغم إنحرافهم كما تصوّره التوراة المحرّفة.

لقد ألحقوا بالأنبياء كلّ وصف ذميم، وكلّ نقيصة حتى يتسنى لهم أن يرتكبوا الموبقات جميعاً، ويقولوا: إذا كان أنبياء الله آباؤنا قد فعلوا هكذا فنحن مثلهم نعمل بعملهم.. ومع ذلك نبقى مقدّسين لأننا نحن أبناء الله وأحباؤه وروح الله قد حلّت فينا. ومهما فعلنا فنحن مقدّسين.

هارون يصنع العجل ويعبده:

لقد بلغت الوقاحة والافتراء باليهود حدوداً لا يكاد يتخيّلها عقل إنسان!.. ففي التوراة المحرّفة (سفر الخروج، الإصحاح ٣٢: ١ ـ ٦) ما يلي:

«ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذي

أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وائتوني بها (وهي التي سرقوها من المصريين عند خروجهم من مصر، وقد زعمت التوراة أنهم أُمروا بسرقة المصريين من الرب).

فنزع كلّ الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه (أي: أمام العجل) ونادى هارون وقال: غداً عيد الرب. فبكّروا في الغد واصعدوا محرقات وقدّموا ذبائح (للعجل). وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للّعب».

ويا لها من صورة مزرية تلصقها التوراة المحرّفة زوراً وبهتاناً بهارون عليه السلام، وانظر إلى القرآن الكريم يبرِّئ هارون من هذه التهمة الشنيعة.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ [طه: ٨٣ ـ ٩٤].

وكم آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا!.. وكم كذبوا على الأنبياء، وكم رموهم بالعظائم.. وكم قتلوا، وكم سفكوا من دماء الأنبياء!.. قال تعالى:

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٧ ـ ٨٨].

كُتب العهد القديم المحرّفة تتهم داود بالغش والكذب والزنى بحليلة جاره:

لقد جاء في سفر صموئيل الثاني من التوراة المحرّفة، أن داود عليه السلام كان يمشي ذات مساء على سطح قصره فوقع بصره على المنزل المجاور فإذا امرأة جاره وقائد جنده تستحم عاريةً. . فشغف بها حبّاً فبعث داود في طلبها وزنى بها. وإليك النص الخبيث:

«وكان في وقت المساء أن داود قام وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جدّاً. فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت إليه واضطجع معها وهي مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود أنها حبلى». (سفر صموئيل الثاني الإصحاح ١١: ٢ ـ ٥).

ولمّا كانت هذه المرأة زوجة أحد قواده ويدعى أوريا الحثي أرسل داود خطاباً مقفلاً مع أوريا نفسه إلى قائد الجيش يؤاب، وكتب في المكتوب: «اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت» (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ١: ٦ ـ ١٥).

وهكذا زنى داود ـ حسب زعمهم الكاذب ـ بالمرأة، ثم حاول أن يخدع رجلَها وطلب منه أن يذهب إلى زوجته حتى لا يبدو أنها حملت سفاحاً، فأبى الرجل أن يذهب إلى زوجته لأنه مشغول بالجهاد في سبيل الله. فما كان من داود إلا أن أرسل لقائد الجيش مع أوريا نفسه خطاباً يحتال فيه على قتله حتى يأخذ امرأته.

«فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمّها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً» (سفر صموئيل الثاني ١١: ٢٦ ـ ٢٧).

داود حسب زعمهم يتزوج امرأة متزوجة ويأخذها قسراً من زوجها:

وجاء في (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الثالث): أن الصراع قام بين داود وشاول من أجل الحصول على الملك. وكان داود قد خطب ابنة شاول، فلما قام الصراع بينهما زوجها شاول إلى فلطيئيل بن لايش. واستطاع داود أن يغري كبير قواد شاول بالانضمام إليه وهو ابنير.. فلما رأى شاول ذلك علم أنه لا طاقة له بداود فأرسل يصالحه، فأجاب داود بأنه لكي يقبل الصلح على شاول أن يرسل ابنته ميكال التي كان قد خطبها من قبل والتي أصبحت متزوجة من فلطيئيل، وهكذا أخذت ميكال قسراً من زوجها فلطيئيل وهو يمشي خلفها يبكي لكي تعطى لداود. (التوراة المحرّفة، سفر صموئيل الثاني: ١٢ ـ ١٦)[١].

داود يرقص أمام الرب الذي جلس في التابوت:

وجاء في (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح السادس): أن داود وجميع الشعب أخذوا تابوت الله الذي يسمّى رب الجنود الجالس على الكروبيم، وجرُّوا التابوت على عجلة والرب جالس فيه وهو يتفرج عليهم، وداود وكل شعب إسرائيل يرقص ويغني ويزمِّر ويلعب بالرباب والدفوف والجنوك.

داود، حسب افتراءاتهم، يعتدي على الشعوب الأخرى ويقتلهم بالمناشير ويحرقهم في أتون:

وفي (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الثاني عشر) من التوراة المحرّفة: يظهر داود بصورة جبّار فظ غليظ؛ حيث حارب داود بني عمون وباغتهم وأخذ مدينة المملكة. «وأخرج الشعب الذي فيها ووضعهم تحت مناشير وبوارج حديد وفؤوس حديد. وأَمَرَّهم في أتون الآجُرّ فأحرقهم، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم».

---

(١) الغريب حقاً أن المهر الذي طلبته ميكال بنت شاول (خالوت) من داود وهو مئة غلفة من الفلسطينيين ـ والغلفة هي الجلدة التي تكون على القضيب وتُزال أثناء الختان. وقد ذهب داود واغتال مئة من الفلسطينيين وجبَّ مذاكيرهم. وقدّمها لميكال كما طلبت (سفر صموئيل الأول: الإصحاح: ١٨).

افتراء اليهود على سليمان واتهامه بعبادة الأوثان:

جاء في (سفر الملوك الأول من التوراة المحرّفة، الإصحاح ١١: ١ ـ ٩):

وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرات مع بنت فرعون، موآبيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم ولا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبعمئة من النساء والسيدات، وثلاثمئة من السراري فأمالت نساؤه قلبه. وكان في زمان شيخوخةِ سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى. ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلٰهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتروت (وهي ڤينوس أو نجمة الصباح والمساء التي صنع لها البابليون تماثيل وعبدوها) إلٰهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشرّ في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه.

حينئذ بنى سليمان مرتفعة (معبداً) لكموش (إلٰه) رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولمولك (إلٰه) رجس بني عمون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كنَّ يوقدنَ ويذبحن لإلٰهتهن، فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إلٰه إسرائيل.

وهكذا جعل اليهود ـ عليهم لعائن الله أبد الآبدين ـ سليمان عليه السلام عابداً للأوثان معظّماً لها مقيماً لها المعابد.

نكاح المحارم لدى اليهود:

جاء في التلمود: «من رأى أنه يجامع والدته فسيؤتى الحكمة، ومن رأى أنه يجامع أخته فمن نصيبه نور العقل»، ويستمدون لذلك سنداً من التوراة المحرّفة حيث ذكرت الوقائع المرعبة التالية:

١ ـ أن إبراهيم تزوج أخته من أبيه سارة، وقد تقدّم تفصيل ذكر القصة.

٢ ـ أن راؤبين زنى بزوجة أبيه بلهة، وقد تقدّم ذكر ذلك.

٣ - أن يهوذا زنى بزوجة ابنيه عير ثم أونان وهي ثامار، وقد تقدّم ذكر ذلك.

٤ - أن أمنون بن داود زنى بأخته بنصيحة الحكيم يونا داب ابن عمه. جاء في (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الثالث عشر) ما يلي:

«وجرى بعد ذلك أنه كان لأبشالوم بن داود أخت جميلة اسمها ثامار فأحبها أمنون بن داود وأحصر أمنون للسقم من أجل ثامار أخته لأنها كانت عذراء وعسر في عيني أمنون أن يفعل لها شيئاً (ولو كانت متزوجة لهان عليه الأمر). وكان لأمنون صاحب اسمه يوناداب بن شمعي أخي داود. وكان يوناداب رجلاً حكيماً جدّاً. فقال له: لماذا يا ابن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح إلى صباح؟ فقال له أمنون: إني أحب ثامار أخت أبشالوم أخي. فقال يوناداب: اضطجع على سريرك وتمارض. وإذا جاء أبوك ليراك فقل له: دع ثامار أختي فتأتي وتطعمني خبزاً وتعمل أمامي الطعام لأرى فآكل من يدها. فاضطجع أمنون وتمارض وجاء الملك ليراه فقال أمنون للملك: دع ثامار أختي فتأتي وتصنع أمامي كعكتين فآكل من يدها... فذهبت ثامار إلى بيت أخيها أمنون وهو مضطجع... وعملت كعكاً أمامه.. وقال أمنون: أخرجوا كل إنسان عني. فخرج كلّ إنسان عنه. ثم قال أمنون: إيتي بالطعام إلى المخدع فآكل من يدك. فأخذت ثامار الكعك.. وقدّمته له ليأكل فأمسكها وقال لها: تعالي اضطجعي معي يا أختي. فقالت له: لا يا أخي لا تذلّني لأنه لا يفعل هكذا في إسرائيل، لا تعمل هذه القباحة، أما أنا فأين أذهب بعاري، وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل. والآن كلّم الملك (داود أباك) لأنه لا يمنعني منك!! فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها. ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة جدّاً حتى إن البغضة التي أبغضها إيّاها كانت أشدّ من المحبة التي أحبّها إيّاها. وقال لها أمنون: قومي انطلقي. فقالت: لا، سبب هذا الشر بطردك إيّاي هو أعظم من الآخر الذي عملته بي، فلم يشأ أن يسمع لها بل دعا غلامه وقال: اطرد هذه عني خارجاً، وأقفل الباب وراءها» (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ١٣: ١ - ١٦).

وغضبت أخته لطردها واشتكت لأخيها أبشالوم الذي قام بعد ذلك باغتيال أمنون بعد أن شرب الخمر. والغريب أن داود غضب على أبشالوم لقتله أمنون ثم رضي عنه بعد سنين. واستطاع أبشالوم بعد فترة أن يستميل إليه قلوب رؤساء بني إسرائيل وأعلن نفسه ملكاً، وقامت الحرب الضروس بينه وبين أبيه، واستعان أبوه بالمكر والخداع حتى استطاع أن يقضي على ابنه أبشالوم.

التوراة المحرّفة والتلمود يدعوَان لكافة الرذائل الجنسية:

جاء في التلمود: «اليهودي لا يخطئ إذا اعتدى على عرض الأجنبية، لأن كل عقد نكاح عند الأجانب فاسد، لأن المرأة غير اليهودية تعتبر بهيمة والعقد لا يوجد بين البهائم»[(١)].

- «لليهود الحق في اغتصاب النساء غير اليهوديات»[(٢)].
- «إن الزنى بغير اليهوديات واللواط بغير اليهود لا عقاب عليه، لأن الأجانب من نسل الحيوانات»[(٣)].
- «لليهودي أن يسلّم نفسه للشهوات إذا لم يمكنه مقاومتها»[(٤)].
- «ليس للمرأة اليهودية أن تبدي أيَّ شكوى إذا زنى زوجها بأجنبية في المسكن المقيم فيه مع زوجته؛ لأنه لم يزن إلا بحيوان لا كرامة له»[(٥)].
- «اللواط بالزوجة جائز لليهودي. لأن الزوجة مثل قطعة لحم اشتراها من الجزار ويمكنه أكلها مسلوقة أو مشوية حسب رغبته»[(٦)].

وجاء في التوراة المحرّفة (سفر القضاة، الإصحاح ١٩: ٢٠ ـ ٢١): «فقال الرجل الشيخ: السلام لك، إنما كل احتياجك عليّ ولكن لا تبت في الساحة. وجاء به إلى بيته وعلف حميرهم فغسلوا أرجلهم وأكلوا وشربوا. وفيما هم يطيبون قلوبهم إذا هم برجال المدينة، رجال بني بليعال أحاطوا بالبيت قارعين.

---

(١) إلى (٤) نقلاً عن كتاب: إسرائيل والتلمود، لإبراهيم خليل أحمد، ص ٧٥ ـ ٧٧.
(٥) (٦) راجع: المصدر السابق، ص ٧٥ ـ ٧٧.

وكلّموا الرجل صاحب البيت الشيخ قائلين: أخرج الرجل الذي دخل بيتك فنعرفه. فخرج إليهم الرجل صاحب البيت وقال لهم: لا يا إخوتي لا تفعلوا شرّاً. بعدما دخل هذا الرجل بيتي لا تفعلوا هذه القباحة. هو ذا ابنتي العذراء وسريته دعوني أخرجهما فأَذِلُّوهما وافعلوا بهما ما يحسن في أعينكم، وأما هذا الرجل فلا تعملوا به هذا الأمر القبيح؛ فلم يرد الرجل أن يسمعوا له». وفعلوا منكرهم، وبهذه القصة يُبيح اليهود اللواط.

دور اليهود في العصور الحديثة في نشر الزنى واللواط والمخدّرات ونكاح المحارم:

لقد قام اليهود بتنفيذ تعليمات التوراة المحرّفة والتلمود لإفساد العالم بكافة الطرق واستخدموا في ذلك كل وسيلة يمكن أن تخطر بالبال، وحاربوا الأديان ونشروا الإلحاد.. وتحدّثوا عن ثورة الجنس والحرية الجنسية.. وتمكنوا من استلام وسائل الإعلام بأيديهم فأشاعوا الفاحشة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وارتبطت الجرائم بعضها بعنق بعض.. وكلما تقرّب اليهود من الوصول إلى أهدافهم التي ذكرت في التوراة المحرّفة والتلمود اللذين ينصّان على أن العالم كلّه لم يخلق إلا لليهود وأن البشر جميعاً لا يصلحون سوى أن يكونوا عبيداً لليهود.

وسيطر اليهود سيطرة تامة على الفكر الإنساني في العصور الحديثة.. فالفكر الماركسي نتاجهم.. والفكر الرأسمالي الربوي من صنع أيديهم.. وتجارة البغاء والجنس تدر لهم ملايين الملايين. وكذلك يسيطرون على تجارة الخمور والمخدرات.

ويلخص كل ذلك (بروتوكولات حكماء صهيون) التي نُشرت في بداية القرن العشرين والتي حاربها اليهود وأحرقوا جميع نسخها مراراً. وقد اعترف بعض اليهود ومنهم هنري كلين في جريدته (صوت المرأة) في شيكاغو عام (١٩٤٥م) بحقيقة هذه البروتوكولات قائلاً: «إن البروتوكولات، وهي الخطة التي وضعت للسيطرة على العالم، أمر حقيقي، وإن زعماء الصهيونية يكوّنون مجلس سانهدرين

الأعلى الذي يرمي إلى السيطرة على حكومات العالم. وقد طردني اليهود من صفوفهم لأني أنكرت عليهم خططهم الشريرة»[1].

وقد تُرجمت البروتوكولات إلى عدة لغات، ومنها اللغة العربية، إلا أن هذه النسخ سرعان ما تختفي بطريقة مريبة. وجاء في هذه البروتوكولات فضائح كثيرة نذكر منها بعض الأمثلة:

١ - إن جواز المرور لدينا هو القوة والكذب والادعاء. إن حقنا في قوتنا لا عيب ولا عار في أن تكون جاسوساً أو دساساً، بل هذه فضيلة.

٢ - الحرية لدينا هي حقّ الإقدام على ما تسمح به القوانين.. وسنسيطر على جميع الحريات ونقيم القوانين حسب هوانا ومشيئتنا.

٣ - نحن نحكم الطوائف والشعوب باستغلال مشاعر الحسد والبغضاء التي يؤججها الضيق والفقر، وهذه المشاعر هي وسائلنا التي نكتسح بها الأمم.

٤ - إننا نملك في أيدينا أعظم قوة في هذا العصر وهي الذهب.

٥ - إن دولاب الأعمال المختلفة في كافة الحكومات يسير بقوة الآلة التي نديرها بأنفسنا، وهذه الآلة هي الذهب.

٦ - يجب أن تكون الصحافة تافهة كاذبة بعيدة عن الحق. إنها تعمل لتحريض وإثارة المشاعر التي نحن في حاجة إليها من أجل أهدافنا.

٧ - لقد ذكر الأنبياء: أن الله اختارنا بنفسه لنحكم العالم كلّه، ولهذا أمدنا بنوع من النبوغ يتفق مع مهمتنا هذه وينسجم معها.

٨ - أمامنا الآن بضع سنوات قليلة لتحل اللحظة التي يتم فيها تحطيم الديانة المسيحية تحطيماً كاملاً، وعلينا أن ننزع فكرة الله ذاتها من عقول المسيحيين.

٩ - يجب أن لا نتردد لحظة في أعمال الرشوة والخديعة والخيانة إذا كانت تخدم أغراضنا.

---

(١) الحكومة السرية في بريطانيا، لجورج سكوت. ترجمة: دار الكتاب العربي، ١٩٥٧م.

١٠ - **إن الغاية تبرر الوسيلة**، وعلينا ونحن نضع خططنا ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد لأهدافنا وغاياتنا.

١١ - عندما نصل إلى مملكتنا يصبح من غير المرغوب فيه لدينا وجود عقيدة غير عقيدتنا؛ وعلى ذلك يتعيّن علينا أن نكتسح جميع العقائد والأديان الأخرى.. وإذا كان هذا يؤدي إلى وجود ملحدين ينكرون وجود الله فإن هذا لا يتعارض مع وجهة نظرنا ويعتبر في ذاته مرحلة تطور وانتقال.

١٢ - لقد خدعنا الجيل الناشئ من الأمميين (الجنتايلز Gentiles) وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمنا؛ من مبادئ ونظريات معروف لدينا زيفها التام.

١٣ - لقد عبثت أيدينا في التشريعات وفي سنِّ القوانين وفي الصحافة ووسائل الإعلام وفي توجيهها والسيطرة عليها.

وتمكن اليهود بالفعل من السيطرة على أجهزة الإعلام وخاصة في الولايات المتحدة وأوروبة، وأقام مردوخ اليهودي الأسترالي إمبراطورية صحفية حيث اشترى معظم الصحف المشهورة في بريطانيا، وقد نشرت الصن (Sun) اللندنية رسوماً ساخرة تجعل العرب كالخنازير، فلما احتج أحد البريطانيين على هذا الأسلوب البذيء صدّرت صفحتها الأولى برسم ساخر تحتج فيه الخنازير وتثور لأنهم شبهوها بالعرب.

والرئيس الحالي لهيئة الإذاعة البريطانية يهودي.. وكل أجهزة الإعلام الحساسة في معظم دول العالم إما بيد اليهود مباشرة أو بطريقة ملتوية.

كما سيطر اليهود على الفكر الإنساني في العصر الحديث: فرويد في علم النفس، ماركس في الاقتصاد والسياسة، دور كاريم في الاجتماع، وغيرهم كثير.

وعمل اليهود على نشر الفاحشة والسيطرة عليها والاستفادة منها.. وبواسطة النساء والذهب والخمر تمكنوا من السيطرة على معظم ساسة العالم وتهديدهم إن هم حاولوا الخروج عن مخططاتهم وسيطرتهم.. وبلغ من وقاحة

اليهود وسخريتهم بالمسيحيين أن تظاهر بعضهم بالدخول في المسيحية، وبلغ مرتبة رئيس القساوسة؛ فمثلاً: أسقف باريس هو يهودي.

ولم يكتفوا بذلك بل ألّف قسيس من الولايات المتحدة أصله يهودي كتاباً سمّاه (المسيح شاذ جنسي) افترى فيه الملعون على المسيح ﷺ البهتان واتهمه بالشذوذ الجنسي.. وألّف قسيس آخر أيضاً سنة (١٩٧٠م) من الولايات المتحدة كتاباً ادعى فيه أن المسيح خرافة، وأنه لم يوجد أصلاً شخص يُدعى يسوع المسيح.. ثم قامت هوليود بإخراج فيلم في منتهى الوقاحة وأسمته (غراميات المسيح)، ولم يحتجَّ نصراني واحد على إهانة المسيح.. وجاءت الاحتجاجات من بعض البلاد الإسلامية فقط.

وظهر كتاب أيضاً بعنوان (التجربة الأخيرة للمسيح) ونشرته دار سيمون وشوستر[١]، جاء فيه اتهام المسيح ﷺ بأنه زنى بمريم المجدلية (ص ٤٥٠): «أمسك بها (أي: مريم المجدلية) يسوع وطبع على فمها قبلة ملتهبة. وامتقع لونهما واصطكّت ركبهما فتساقطا تحت شجرة ليمون مزهرة، وبدأا يتدحرجان على الأرض. طلعت الشمس ووقفت فوقهما. وهب نسيم عليل أسقط أزهار الليمون على جسديهما العاريين. وضمت المجدلية يسوع إليها وألصقت جسده بجسدها الملتهب».

وتنص تعاليم الماسونية اليهودية السرية على تقديس الجنس والإباحية الجنسية ونشرها بين الأمم كما نص على ذلك كتاب (الماسونية) لأرنولد ليز[٢]. ونشرت مجلة (Le Symbolisme) اليهودية عدد (يوليه ١٩٢٨م): «إن أعظم واجب للماسوني هو تمجيد الجنس»[٣].

وقد عمل اليهود على انتشار الزنى في العالم بصورة رهيبة[٤]؛ بحيث إن

---

(١) نقلاً عن كتاب: إسرائيل والتلمود، لإبراهيم خليل أحمد، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) نقلاً عن المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) انظر تفصيل ذلك في كتابنا: الأمراض الجنسية أسبابها وعلاجها، فصل: مدى انتشار الزنى.

الزنى هو الشيء الطبيعي، وإنّ العِفّة هي الأمر المستنكر. حتى إن مجلس الكنائس البريطاني أصدر تقريراً جاء فيه: «**إن مجلس الكنائس البريطاني ضد الاستغلال الجنسي، ويبارك الصلة الجنسية في الزواج. ولكنه يرفض رأي الإنجيل الداعي إلى العفة قبل الزواج أو الالتزام به بعده**»، نشرت ذلك مجلة التايم الأمريكية في عددها الصادر (٢٨ أكتوبر ١٩٦٦م)، (ص ٣٨) ويدعو ذلك التقرير إلى التراخي في إجراءات الإجهاض وإلى استخدام وسائل منع الحمل للفتيات الصغيرات.

وأصبحت وسائل منع الحمل تدرّس في الجامعات، فوجدوا أن طلبة الثانوية هم الذين يقعون في المشاكل، فنزلوا بتدريس الجنس ووسائل منع الحمل إلى الثانوية ثم إلى الابتدائية، وقد صدرت دراسات متعددة عن مدى انتشار الزنى في العالم بصورة عامة وفي الولايات المتحدة وأوروبة بصورة خاصة.. واتضح من تلك الدراسات أن المشكلة واسعة النطاق بشكل لا يتصور، وتتمثل المشاكل الناتجة عنها فيما يلي في أوروبة والولايات المتحدة والعالم:

١ ـ (٧٥ بالمئة) من الأزواج يخونون زوجاتهم، ونسبة أقل قليلاً من الزوجات يَخُنّ أزواجهن (الشرق الأوسط ٢٩/ ٥/ ١٩٨٠م) في أوروبة والولايات المتحدة.

٢ ـ (٩٠ بالمئة) من غير المتزوجات يمارسنَ الزنى إما بطلاقة أو من حين لآخر (في أوروبة والولايات المتحدة).

٣ ـ عدد حالات الإجهاض الجنائي غير الطبي وصل عام (١٩٨٣م) إلى (٥٠ مليون) طفل في العالم (التايم الأمريكية ٦ أغسطس ١٩٨٤م) منهم (٢٥ مليون) طفل فيما يسمّى العالم الثالث. و(٢٥ مليون) طفل في الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وأوروبة.. وفي الولايات المتحدة أكثر من مليون حالة إجهاض سنوياً رغم انتشار استخدام وسائل منع الحمل.

٤ ـ الحمل لدى المراهقات أصبح مشكلة كبيرة في الولايات المتحدة وأوروبة.. ففي الولايات المتحدة أكثر من مليون فتاة صغيرة تحمل سنوياً.

٥ ـ الأطفال بدون آباء (أي نتيجة الزنى أو الطلاق) يبلغون (١٢,٥ مليون) طفل في الولايات المتحدة (تقرير لجنة الكونجرس برئاسة السناتور جورج ميلر ونشرت ملخصاً له الشرق الأوسط في ١٣/ ٩/ ١٩٨٣م).

٦ ـ انتشار الأمراض الجنسية في العالم. يقول مرجع (مرك) الطبي الطبعة الثالثة عشر (١٩٧٧م) (وقد ارتفع العدد الآن): «إن الأمراض الناتجة عن الجنس هي أكثر الأمراض المعدية انتشاراً في العالم اليوم، ويزداد كل عام عدد المصابين بهذه الأمراض وذلك منذ عقدين من الزمن. وتقدّر هيئة الصحة العالمية عدد الذين يصابون بالسيلان بأكثر من (٢٥٠ مليون) شخص سنويّاً. وعدد الذين يصابون بالزهري (السيفلس) يفوقون (٥٠ مليون) شخص سنويّاً».

وتقول المصادر الأخرى: إن هناك أكثر من (٣٠٠ مليون) يعانون من التهاب مجرى البول من غير السيلان (الكلاميديا وغيرها) سنويّاً في العالم. وفي الولايات المتحدة فإن عدد المصابين بالكلاميديا يبلغون ستة ملايين حالة سنويّاً، والمصابين بالسيلان ثلاثة ملايين. وفي عام (١٩٨٢م) كان عدد المصابين بالهربس التناسلي قد بلغ عشرين مليوناً مع وجود نصف مليون حالة جديدة من الهربس التناسلي كل عام، ونصف مليون حالة جديدة من الزهري سنويّاً. وقد بلغ عدد المصابين بمرض الإيدز حتى نهاية عام (١٩٨٥م) أكثر من (٢٠ ألفاً)، حظيت الولايات المتحدة بأكثر من سبعة عشر ألف حالة. وبحلول عام (٢٠٠٧م) كان عدد حالات الإيدز قد وصل إلى خمسين مليوناً، توفي منهم أكثر من عشرة ملايين شخص.

انتشار الشذوذ الجنسي[1]:

لم يكتف اليهود بنشر الزنى على نطاق واسع في العالم أجمع، بل قاموا أيضاً بنشر الشذوذ الجنسي على نطاق واسع والدفاع عنه. وقد قنّنت الدول

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في فصل: العلاقات الجنسية الشاذة، من كتابنا: الأمراض الجنسية أسبابها وعلاجها.

الغربية تحت تأثير اليهود قوانين تبيح الشذوذ الجنسي طالما كان دون إكراه. . وتكوّنت آلاف الجمعيات والنوادي التي ترعى شؤون الشاذين جنسيّاً. وكما تقول دائرة المعارف البريطانية (طبعة ٨٢ المجلد ١٦/ ٦٠٤) فإن الشاذين جنسيّاً خرجوا من دائرة السرية إلى الدائرة العلنية، وأصبح لهم نوادٍ وبارات وحدائق وسواحل ومسابح خاصة، حيث يلتقي الشاذ جنسيّاً مع الشاذين. وتعرف دوائر الشرطة هذه الأماكن ولكنها مأمورة بعدم الإزعاج طالما أنهم لم يسببوا أيّ فوضى أو اضطراب في المجتمع.

وتقول الإحصائيات الحديثة: إن عدد الشاذين في الولايات المتحدة يتراوحون ما بين (١٨ و٢٠ مليوناً). وهناك معابد وكنائس خاصة في الولايات المتحدة تقوم بتزويج الرجال بالرجال والنساء بالنساء في حفلات خاصة. . وقد نشرت الصحافة (الشرق الأوسط ٢٧/ ٥/ ١٩٨٠م) أن السناتور كيندي اجتمع بممثلي الشاذين جنسيّاً وتعهّد لهم بأنه سيدافع عن حقوقهم وسينفذ تعهداته إذا ما انتخب رئيساً للجمهورية.

وقد خصصت بعض الجامعات في الولايات المتحدة منحاً دراسية خاصة للشاذين جنسيّاً، ومنها جامعة سير جورج وليامز.

ويتجمع الشاذون جنسيّاً في المدن الكبيرة، مثل: نيويورك ولوس أنجلوس وسان فرانسيسكو، وهي بؤر مرض الإيدز الأساسية في العالم.

وتعترف بعض الكنائس بالشذوذ الجنسي، وقد ذكرت «الديلي ميل» و«الديلي ميرور» عام (١٩٧٠م) أن (٤٠ بالمئة) من الرهبان يمارسون الشذوذ الجنسي وأن (٨٠ بالمئة) منهم زناة أيضاً.

ونشرت مجلة التايم الأمريكية قصة ضابط صف يهودي علّق لوحة ضخمة خلف مكتبه وكتب فيها: أنا شاذ جنسي. فما كان من إدارة الجيش الأمريكي إلا أن طردته. وآنذاك قامت قيامة أجهزة الإعلام ضد الجيش المتعصب الرجعي. . واضطر الجيش لإعادة هذا الشاذ اليهودي!. . كما دُعي هذا اليهودي لإلقاء محاضرات عن الشذوذ في أكبر الجامعات الأمريكية.

ونتيجة انتشار الشذوذ الجنسي انتشرت أمراض جنسية أشدّ خطورة مما يصيب الزناة، فبالإضافة إلى الأمراض الجنسية العديدة التي تصيب الزناة، هناك مجموعة من الأمراض الجنسية التي تكاد تقتصر على الشاذين جنسيّاً، نذكر منها:

١ - مرض الإيدز.

٢ - ورم كابوسي ساركوما من غير الإيدز.

٣ - التهاب الكبد الفيروسي من نوع (B) وعلاقته بسرطان الكبد.

٤ - سرطان الفم واللسان.

٥ - زيادة في سرطان الشرج والمستقيم.

٦ - تنتشر الأمراض الجنسية الأخرى بحوالي عشرين ضعفاً على ما هي عليه عند الزناة، ومثالها: الزهري، والسيلان، والكلاميديا، والورم البلغمي الحبيبي الزهري (Lympho Granuloma Venerium)، والورم الحبيبي المغبني (Granuloma Inguinale)، والقرحة الرخوة (Chancroid)، والثآليل التناسلية والمليساء المعدية، وفطريات وطفيليات الجهاز التناسلي والهضمي، مثل: الجيارديا والأميبا والكانديدا وقمل العانة والجرب التناسلي.

وطء المحارم والأطفال:

ولم يكتف اليهود بنشر الزنى واللواط والخمور والمخدّرات، ولكنهم قاموا أيضاً بنشر نكاح المحارم. وأول من حاول نشر نكاح المحارم في العصر الحديث هو فرويد اليهودي، حيث جاء بنظريات غلّفها بالأساطير اليونانية، **وخلاصتها**: أن حبّ الطفل لأمه ليس إلا حبّاً جنسيّاً محضاً، وأن عملية الرضاعة ليست إلا عملية جنسية لأن الغريزة الجنسية تتركز في الطفولة في الشفتين ثم تنزل بعد ذلك إلى الأعضاء التناسلية.

ولهذا يكره الابن أباه؛ وسمّى ذلك الكره عقدة أوديب، لأنه ليس من اللائق أن يظهر كرهه لأبيه وحبّه الجنسي لأمه. واستخدم فرويد أسطورة يونانية

تقول: «إن ملكاً في اليونان جاءه الكاهن فأخبره أن زوجته ستلد ذكراً سيقوم بقتله ونكاح أمه، فلما ولد الطفل أمر بقتله.. ولكن الشخص الذي أوكل إليه قتل الطفل رقّ له وتركه في الغابة، وكبر الولد وصار شجاعاً، وكوّن جيشاً وهجم على مملكة أبيه دون أن يدري فقتل أباه وتزوج أمه». وصدقت بذلك نبوءة الكاهن والعرّاف.. والأمر كله خرافة، أوردها الأديب اليوناني سوفوكليس.

واستخدم فرويد أسطورة أخرى، هي: أن البنت تحبّ أباها جنسيّاً، وتكره أمها، وسمّى ذلك عقدة أليكترا.

وعندما يكبر الطفل يحب نفسه جنسيّاً، وسمّى ذلك النرجسية نسبة إلى أسطورة يونانية تزعم: أن نارسيس الذي كان آية في الجمال عشق نفسه عندما رأى وجهه في الماء.

وكل هذا الهراء والغثاء يدرّس في الجامعات ـ ومن بينها الجامعات في العالم الإسلامي عرباً وعجماً ـ على أنه علم نفس.

ثم تطورت المسألة أكثر، وقامت هوليود بإخراج عشرات الأفلام التي تنادي بنكاح الأمهات والأخوات.

وأخيراً نشرت التايم الأمريكية تحقيقاً واسعاً عن نكاح المحارم (عدد إبريل ١٤/ ٤/ ١٩٨٠م)، واستضافت فيه مجموعة من علماء الجنس والأنثروبولجي وأغلبهم يهود.

وقد جاء في ذلك التحقيق تصريحات الأنثروبولجي يهودي كوهين (نعم هذا هو اسمه) ما يلي:

«إن منع نكاح المحرّمات من الأمهات والأخوات والبنات، بل والأبناء ليس إلا من مخلّفات الإنسان البدائي الذي احتاج لإجراء معاهدات واتفاقات تجارية خارج نطاق الأسرة، فقام عند ذاك بمنع نكاح المحارم. وبما أن ذلك لم يعد له أية أهمية فإن هذا المنع يصبح أمراً قد عفى عليه الزمن».

ويقول الباحث جون موني من جامعة هوبكنز وأحد أشهر الباحثين في الجنس في الأمة الأمريكية، وهو يهودي أيضاً: «إن تجارب الطفل الجنسية مع أحد أقاربه الكبار أو غيرهم لا يشكّل بالضرورة ضرراً على حياة الطفل».

ويشكو هذا الباحث وعشيقته جيرترود وليامز في كتابهما «الأفعال الجنسية الضارة وإهمال الأطفال» من أن الجمهور الأمريكي في غالبيته لا يزال يعتبر أيّ اتصال جنسي بالطفل وكأنه اتصال ضار ومحطّم للطفل..

«وبما أن المجتمع الأمريكي قد استطاع التغلب على مشكلة الدين بحيث لا ينظر إلى الإنسان بازدراء إذا مرق من دينه، فإن على المجتمع الأمريكي أن يتسامح أيضاً في موضوع نكاح المحرّمات من الأمهات والأخوات والبنات».

ويقول الباحث الجنسي وادل بومري كما تنقله عنه التايم: «لقد آن الأوان لكي نعترف بأن نكاح المحرّمات ليس شذوذاً ولا دليلاً على الاضطراب العقلي. نعم قد يكون نكاح المحرّمات وخاصة بين الأطفال وذويهم أمراً مفيداً لكليهما».

ويقول الأنثروبولجي سيمور باركر من جامعة يوتاه: «إنه من المشكوك فيه أن يكون الثمن الذي يدفعه من يقوم بنكاح المحرّمات من الشعور بالذنب والجفوة بين أفراد الأسرة الواحدة أمراً ضرورياً أو حتى مرغوباً فيه، وعليه ينبغي إزاحة هذا الشعور بالذنب عندما يقوم شخص ما بنكاح أمه أو ابنته أو أخته.. وما هي الجدوى التي ستعود من ربط نكاح المحرّمات بهذا الشعور من عدم الارتياح بدلاً من المحبة والدفء الذي يشعّه نكاح المحرّمات».

وطالبت لجنة سيسكي: بأن يباح نكاح المحرّمات، وأن يزاح هذا التابو (المحرّم المقدّس) المقيت!!.

ويقول المؤلف والباحث الجنسي جيمس رامزي: «إنّنا نقف اليوم من نكاح المحرّمات نفس الموقف المتأخر الذي كنّا نقفه منذ مئة عام من العادة السرية، إنّنا قد اكتشفنا أن العادة السرية غير ضارة ولا تؤثر على الصحة، فإنَّ علينا أن نمارس المزيد من الاتصال الجسدي والجنسي بين أفراد الأسرة، لأن ذلك

سيحقق الدفء وسيخفف من هذا السعار الجنسي المحموم في سنِّ المراهقة!!».

وتقول التايم في بحثها الجامع عن نكاح المحرّمات في الولايات المتحدة: «إنَّ الباحثة جوان نيلسون قد أنشأت بالاتفاق مع السلطات معهداً لدراسة السلوك الجنسي، وقد قام معهدها بإجراء بحث ميداني للتفريق بين نكاح المحرّمات المفيد.. ونكاح المحرّمات الضار. وانتهت: بأنَّ الضرر الحقيقي هو في الشعور بالذنب وتحطّم الأسرة. أمَّا إذا أزيح هذا الشعور بالذنب فإنَّ نكاح المحرّمات يصبح مفيداً!!».

وتقول التايم: «إنَّ الجمهور بدأ يتقبل فكرة نكاح المحرّمات، وتدلل على ذلك بزيادة الإقبال على الأفلام التي تعرض نكاح المحرّمات وتمجده، ففي عام (١٩٧٩م) أنتجت هوليود ستين فيلماً يشيد بنكاح المحرّمات ويعرضه عرضاً صريحاً، بينما لم تنتج هوليود إلاَّ ستة أفلام عام (١٩٢٠م)».

ويقول الباحثون الجنسيون في أمريكة، كما تنقله عنهم التايم: «إنَّ جميع الاتصالات الجنسية مفيدة ولو كانت بين الأب وابنته أو ابنه، وبين الأم وابنها، وبين الأخ وأخته، نعم كلّها مفيدة، ولكن الضار فقط هو الشعور بالذنب والإحساس بالخوف، وأخطر شيء هو الكبت!! نعم هو الكبت الجنسي!!».

وتقول التايم معلِّقة على ذلك: «إنَّ مثل هذا الاتجاه سيقود حتماً إلى إقامة حملات صليبية ضد جميع أنواع المنع الجنسي شاملاً بذلك نكاح المحرّمات».

وقد افتتحت التايم تحقيقها البارع بقولها: «يحبُّ علماء الجنس أن يصدموا الجمهور من حين لآخر، ولكن يبدو أنَّه أصبح من العسير عليهم أن يفعلوا ذلك؛ فقد تعودت الجماهير في الغرب أن تنظر إلى العلاقات الجنسية حتى الشاذة منها نظرة باردة. ولكن الباحثين يعملون الآن بجدٍّ تساندهم في ذلك بعض الأكاديميات لإزاحة آخر صنم في المجال الجنسي، وهو نكاح المحرّمات من الأمهات والأخوات والبنات».

وقد نشرت صحيفة الهيرالد ـ تربيون في عددها الصادر (٢٩/ ٦/ ١٩٧٩م)

ملخّصاً لأبحاث قام بها مجموعة من الأخصائيين من القضاة والأطباء وعلماء النفس في الولايات المتحدة حول ظاهرة نكاح المحرّمات في الولايات المتحدة خاصة والمجتمعات الغربية عامة. ويقول الباحثون: إنَّ نكاح المحرّمات لم يعد نادر الحدوث، وإنَّما هو منتشر لدرجة يصعب تصديقها، فهناك عائلة من كل عشر عائلات أمريكية يمارس فيها هذا الشذوذ. والغريب حقّاً: أنَّ الغالبية العظمى (٨٥ بالمئة) من الذين يمارسون هذه العلاقة الشاذة مع بناتهم وأولادهم أو بين الأخ وأخته أو بين الأم وابنها هم من العائلات المحترمة في المجتمع والناجحة في أعمالها، والتي لا تعاني من أيّ مرض نفسي، وليسوا من المجرمين ولا من العتاة ولا من السيكوباث، وإنَّما هم في الغالب من رجال الأعمال أو الفنيين الناجحين في أعمالهم وحياتهم.

ويذكر التقرير: أن حالة واحدة من بين كل عشرين حالة هي التي تصل إلى القضاء أو إلى الدوائر الصحية، ومعظم هذه الحالات هي حالات اعتداء من الأب على ابنته، ولا يقتصر الاعتداء على البنت البالغة، وإنَّما يمتد ليشمل الصغيرات. وقد سجلت حالات من اعتداء الأب على ابنته ابتداء من سنّ ثلاثة أشهر إلى سنّ البلوغ!! وينتج عن ذلك الاعتداء أمراض تناسلية وتهتكات في الجهاز التناسلي للطفلة، بالإضافة إلى الإصابات النفسية البالغة للطفلة. كما أنَّ هناك عدة حالات حمل قد سجلت نتيجة اعتداء الأب على ابنته، وفي كثير من هذه الحالات كانت العلاقة بين الأب وابنته تمتد إلى سنوات عديدة.

ويعتبر التقرير أشدّ أنواع هذه الاعتداءات خطورة هو اتصال الأم بابنها جنسيّاً؛ ويعتبر ذلك محطِّماً للأسرة ومهدّماً للبنيان النفسي للابن والأم على السواء.

أما الاتصال الجنسي بين الأخ وأخته فيعتبره التقرير شيئاً يسيراً، وربما كان حميداً!! وينبغي على الآباء والأمهات أن لا يهتموا بهذه العلاقة إذا لاحظوها، بل يتركونها للزمن فهو كفيل بعلاجها. أمَّا دائرة المعارف البريطانية (طبعة ٨٢، مجلد ١٦، صفحة ٦٠٧) فتعتبر نكاح الابن لأمه هو أشدّها خطراً وأكثرها ندرة،

وأن الحالات المسجلة هي في الغالب لأمهات مريضات نفسيّاً، وأنَّ بعضهن سايكوبات، وفي الغالب يكون الابن مراهقاً وأحياناً دون البلوغ.

وأما نكاح الأب لابنته فتقول دائرة المعارف البريطانية: إنه أكثر شيوعاً، وإنَّ هناك عدداً لا يحصى من الحالات تسجل كل عام، وفي الغالب يكون الأب سكِّيراً أو مضطرباً نفسيّاً، ولا يقوم الأب بالاعتداء على ابنته البالغة فقط، وإنَّما يحصل الاعتداء على طفلته الصغيرة. وقد سجلت كثير من حالات الاعتداء على الأطفال الرضّع من آبائهن. وفي كثير من الحالات تمتد العلاقة بين الأب وابنته إلى عدة سنوات، ولا تقتصر العلاقة على ابنة واحدة وإنما تشمل بناته كلهنَّ، وإن كان الأب في الغالب يفضل واحدة منهن. وتقول دائرة المعارف: إن هذه العلاقات غالباً ما تتوقف عندما تكبر البنت وتغادر المنزل وذلك عند بلوغها ثماني عشرة سنة أو قبل ذلك. ونادراً ما تستمر العلاقة بعد وصول البنت إلى العشرينيات. وتقول دائرة المعارف البريطانية: إنَّ هذه العلاقة الشاذة لا تسبب الشعور بالإثم لدى الأب أو البنت إلاَّ عندما تعلم الأم بتلك العلاقة وتثور، وعندئذٍ تبدأ المتاعب.

أمَّا العلاقة بين الأخ وأخته فلا ترى دائرة المعارف البريطانية فيها ضرراً كبيراً، وتعتبرها مرحلة غير دائمة ولا ضرر يخشى منها في الغالب.

وإذا علمنا أنَّ لورد بيرون الشاعر الإنجليزي المشهور كان يخالل أخته ويتغزل فيها ويعيش معها عيشة العشاق ويفخر بذلك، والمجتمع الإنجليزي يرى ذلك ويسكت عنه، وذلك في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي (ولد بيرون عام ١٧٨٨م وتوفي عام ١٨٢٤م) فإننا لا نستغرب أن يسكت المجتمع الغربي عن نكاح الأخ لأخته، وأنْ لا يرى في ذلك غضاضة في القرن العشرين بعد أن أُصيب الغرب بلوثة الثورة الجنسية، ولوثة الولوغ في الزنى واللّواط ونكاح الأطفال وأخيراً المحرّمات.

ولم تكتفِ الدول الغربية بإباحة الزنى في قوانينها بل أباحت اللواط أيضاً،

وها هي السويد الآن تدرس إصدار قانون يبيح رسميّاً أن ينكح الفتى أخته، وعمّا قريب سيمتد ذلك إلى بقية الدول الغربية.

وها هي صيحات اليهود وكتاباتهم كما نقلناه عن الهيرالد تربيون والتايم ودائرة المعارف البريطانية (طبعة ٨٢). وهي تتحدث عن نكاح الأخ لأخته باعتباره شيئاً غير ضار.

بل لقد بلغت بهؤلاء اليهود الوقاحة أن يقولوا: إنَّ كل الاتصالات الجنسية بين المحارم مفيدة ولو كانت بين الأب وابنته والأم وابنها، وإنَّ الضارّ فقط هو الكبت وعقدة الشعور بالذنب!!.

ونشرت صحيفة الاتحاد الأسبوعي في (١٢ يناير ١٩٨٤م) الخبر التالي نقلاً عن وكالة الأنباء الفرنسية:

«تابع الأمريكيون بشغف على شاشات التليفزيون في الأسبوع الماضي (أي بداية يناير ١٩٨٤م) فيلماً يصوّر علاقة محرّمة بين أب وابنته». وطوال فترة عرض الفيلم ومحطة (A. B. C) تتلقى مكالمات تليفونية من فتيات كنَّ ضحايا لنزوات آبائهن.

ويقدر عدد الفتيات اللاتي كانت لهن علاقة جنسية بآبائهن بـ (١٢ إلى ١٥) مليون فتاة.. وأن نسبة الفتيات المراهقات اللاتي لهنَّ اتصالات جنسية مع آبائهن تتراوح ما بين (١٥ و٣٤) بالمئة.

وتزخر المحاكم الأمريكية بقضايا ضد آباء اعتدوا على أطفالهم من سنِّ الثانية حتى المراهقة.

وقد تبيّن: أن الرجال الذين يقومون بهذه العلاقة الشاذة المحرّمة هم من الناس العاديين وأحياناً من الناجحين المرموقين في المجتمع... وليسوا من مدمني الخمر ولا المخدّرات ولا المجرمين. والغريب حقّاً، أن يكون بين هؤلاء الطبيب والمهندس ورجل الأعمال ورجال البوليس!!.

وهكذا استطاع اليهود أن ينشروا الفواحش من الزنى واللواط والسحاق ونكاح الأطفال ونكاح المحارم.. وتجارة الخمور والمخدرات، وبثوا شباكهم الماكرة المخادعة وسيطروا على أجهزة الإعلام بأكملها، كما سيطروا على البنوك والاقتصاد!.. وأصبح رجال السياسة لعبة بأيديهم يحركونهم كيف يشاؤون.. وهم متجهون خطوة خطوة نحو تنفيذ حلمهم القديم بإقامة حكومة عالمية تحت سيطرة اليهود، ولن يتم لهم ذلك كما صرّح التلمود إلا بإقامة حرب عالمية يهلك فيها ثلثا سكان العالم!.. وبعدها يظهر المسيح (الدجّال) ملك يهود ويحكمون به العالم.

مليون حالة من الاعتداء على الأطفال سنويّاً في الولايات المتحدة:

إنَّ الشيء المرعب حقّاً هو أنَّ الغرب لم يكتفِ بالفوضى الجنسية العارمة التي تجتاح مجتمعاته، ولم يكتف بانتشار الزنى بصورة لم يسبق لها مثيل، وتعدى الزنى إلى الشذوذ الجنسي بحيث بلغ عدد الشاذين جنسيّاً أكثر من (١٧ مليون) شخص في الولايات لمتحدة الأمريكية فقط.

ولم يكتفِ بكلِّ ذلك، بل تعداه إلى الهجوم على الأطفال الأبرياء؛ تقول مجلة الريدرز دايجست في عددها الصادر (أغسطس ١٩٨٣م) تحت عنوان (أطفال للبيع.. العالم المظلم الجديد لفنِّ الدعارة): «إنّ استخدام الأطفال جنسيّاً لم يعد أمراً شاذّاً ولا أمراً شخصيّاً، وإنما أصبح تجارة منظمة يبلغ دخلها ما بين خمسمئة إلى ألف مليون دولار، ويعمل فيها آلاف المصوّرين والكتّاب بل والأطباء وعلماء النفس!!».

وقد أصبح لدى هؤلاء الذين يتاجرون بدعارة الأطفال وصورهم العارية والرجال يفعلون بهم الفاحشة الجرأة لتكون جمعيات علانية في الولايات المتحدة؛ ففي لوس أنجلوس كما تقول الريدرز دايجست: تقوم جمعية رين جيون التي يدعمها خمسة آلاف عضو بما فيهم بعض الأطباء وعلماء النفس، بل وبعض الآباء الذين يعتقدون أن الجنس نافع لأطفالهم!! وترفع هذه الجمعية شعارها في كل مكان (الجنس في الثامنة قبل فوات الأوان sex by eight or it's too late).

وأما (جمعية مخاللة الرجال للصبيان في أمريكة الشمالية: (The North American Man/Boy Love Association). فتقول الريدرز دايجست: «إنَّ لها فروعاً في جميع أنحاء الولايات المتحدة، كما أن لها مجموعة من المحامين للدفاع عن أعضائها عندما يقفون أمام القضاة بتهمة الاعتداء على الأطفال. كما أنَّ لها صندوقاً ماليّاً لإعانة من يسجن من أعضائها». وتقول الريدرز دايجست: «إن البوليس قد هاجم أحد مراكز هذه الجمعية في ماساتشوسيتس في (ديسمبر ١٩٨٢م)، فوجد مئات الصور لرجال هذه الجمعية وهم ينكحون الأطفال».

ورغم أن القانون لا يزال يمنع تجارة الدعارة بالأطفال في الولايات المتحدة، إلاّ أنه من النادر أن يقع هؤلاء تحت قبضة القانون، وإذا وقعوا فإنَّ جمعياتهم كفيلة بتوكيل أحسن المحامين لإخراجهم من المأزق، وإذا فرض وحكم على أحدهم بالسجن بضعة أشهر أو بضع سنين، فإنَّ أموال الجمعية الوفيرة تقوم بإعالته.

وتشتكي المجلة المذكورة من الإجراءات الفيدرالية القضائية الموزعة بين الحكومات المدنية والقوانين الفيدرالية والجهات العديمة المسؤولية، بحيث لا يمكن وصول هذه الحالات إلى القضاء إلا فيما ندر. وإذا رفع الأمر إلى القضاء كانت العقوبة تافهة، وتذكر ـ المجلة ـ مثالاً على ذلك قضية القسيس دونالد جليسر الذي اعتدى على الطفل جوني آثوود؛ فقد طلب القسيس منه أن يساعده في تنظيف منزله لقاء أجر، ففرحت الأم بذلك وسرعان ما اكتشف الأبوان أن القسيس المحترم لم يكن فقط يستخدم ابنهما جنسيّاً بل كان يصوّرهُ في أوضاع شائنة ويبيع تلك الصور للمجلات الجنسية الداعرة، وعندما هجم البوليس على منزل القسيس وجد ألبوماً حافلاً بصور القسيس وهو يضاجع الطفل في أوضاع شائنة، ولما رفعت الدعوى إلى القضاء حكم القاضي بأن يقوم القسيس بخدمة المجتمع لمدة مئتي ساعة، وعندئذٍ صرخت الأم: لقد قمت بفضح ابني على الملأ ليحكم على القسيس المحترم بمئتي ساعة عمل لخدمة المجتمع!!.

ولسنا ندري أي نوع من الخدمات سيقدّمها القسيس!! وتقول الريدرز

دايجست: «إن سين بروكشار كان في فترة المراقبة (وهذا هو الحكم الذي صدر ضده عندما اعتدى على طفلة جنسياً!!) قام مرة أخرى بالاعتداء على الأختين الصغيرتين من عائلة كراندون. وعندما ألقي عليه القبض اعترف، ولكن البوليس أطلق سراحه!!». وللمرة الثالثة قام بالاعتداء على طفلين آخرين، وعندما رفع الأمر للقضاء كانت العقوبة أربع سنوات ونصف سجن.

وذكرت المجلة عشرات من قصص الاعتداءات على الأطفال، وعن استخدامهم استخداماً جنسيّاً ليس فقط من قبل المعتدين، بل إن الأمر اتسع وأصبح تجارة واسعة باسم الفنّ الإباحي (بورنوجرافي) بحيث إنّ هؤلاء الأطفال يُصوَّرون في هذه الأوضاع الشاذة، ويقوم هؤلاء التجار بتوزيع هذه المجلات وبيعها، حيث يبلغ ثمن العدد الواحد من هذه المجلات اثني عشر دولاراً ونصف.

وتقول المجلة: إن الأمر لم يعد محدوداً ولا ضيّق الانتشار، وإنما أصبح يهدد كل بيت وكل طفل.. إنَّك تجدهم في المدرسة وفي المجتمعات الخيرية وبين القسس، وفي الجمعيات الرياضية وفي الكشّافة، وفي الرحلات التي تنظم للأطفال.. وتذكر المجلة قصة مدير روضة الأطفال الذي اعتدى على الطفلة جوبي رميش البالغة من العمر ثلاثة سنوات، ولم يكتف بذلك بل أخذ لها صوراً أثناء فعله الفاحشة بها!.. واستطاع البوليس أن يجد إحدى عشر قضية ضد ميشام هذا بصورها وأبطالها.. ولذا فقد حكمت عليه المحكمة أقسى حكم في الولايات المتحدة صدر في قضية متعلقة بالاعتداء الجنسي على الأطفال، فقد حكمت عليه المحكمة بالسجن لمدة (٢٦) عاماً.

وتقول الريدرز دايجست: إنَّ هناك مليون حالة من الاعتداء على الأطفال جنسيّاً في كل عام في الولايات المتحدة الأمريكية، ولا يكتفي المجرمون في هذه الحالات بالاعتداء الجنسي على هؤلاء الأطفال، بل يقومون بتصويرهم في أوضاع شائنة، وسرعان ما يتحول الأطفال إلى بغايا في عالم البغاء الواسع.

ولم تعد تجارة البغاء مقتصرة على البالغات، بل اتسعت لتشمل الأطفال.

وذكرت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة: أنَّ خمسمئة طفل يباعون في كل أسبوع إلى محلات الدعارة في تايلند، وأنَّ ثمن الطفل يتراوح ما بين سبعة إلى خمسين دولاراً اعتماداً على جاذبية الطفل وجماله. (نشرت ذلك صحيفة الأخبار القاهرية في ١٩/ ٨/ ١٩٨٠م).

وذكر التقرير لهذه اللجنة التابعة للأمم المتحدة: أنَّ هناك عصابات متخصصة في اختطاف الأطفال وخاصة من الأرياف في تايلند، وأنَّهم يقومون بالاعتداء على هؤلاء الأطفال جنسيّاً، ثم يقومون ببيعهم إلى أماكن الدعارة، كما يصورونهم في أوضاع شائنة، وتستخدم هذه الصور في تجارة البورنو، أي: الفنّ الإباحي أو فنّ الدعارة.. وعندما كنت في نيويورك في (ديسمبر ١٩٨٢م) جاء في نشرة الأخبار في التليفزيون ست حالات اعتداء على الأطفال الصغار جنسيّاً في ليلة واحدة، وفي نيويورك فقط!!.

لقد ارتعبت عندما رأيت الأطفال الصغار يصرخون مضرجين بدمائهم والتليفزيون يعرضهم ويعرض الأمهات وهنَّ يصرخنَ: إلى أين نذهب؟ إلى أين نفر؟ هل يمكن العيش في مثل هذه الأوضاع؟.. يذهب الطفل إلى الروضة.. فلا يعود!! وإذا وجده البوليس حيّاً يجده مضرجاً بدمائه!!.

وما هو أخبث أن يقوم المدرّس في الروضة بالاعتداء على الطفل أو الطفلة ثم يصورها في أوضاع شائنة، وما هو أفظع وأفحش أن يقوم القسيس الذي يدعو الناس إلى الرب فيخدع هؤلاء الأطفال الأبرياء ثم يعتدي عليهم، ثم يصورهم ويشترك في تجارة البورنو ويوزع صورهم على المجلات الداعرة!!.

وما هو أفظع من كل ذلك أن يقوم شخص يسمّى باحثاً وعالماً وأستاذاً في جامعة، ويقول في أوسع المجلات انتشاراً (التايم الأمريكية ١٤/ ٤/ ١٩٨٠م): «إنّ تجارب الطفل الجنسية مع أحد أقاربه الكبار أو غيرهم من البالغين لا يشكل بالضرورة ضرراً على الطفل!!».

ويقول جيمس رامزي: «إنَّ مزيداً من الاتصال الجنسي بين أفراد الأسرة

سيحقق الدفء، وسيخفف من هذا السعار الجنسي المحموم في سنّ المراهقة!!».

ويقول لاري قسطنطين، الأستاذ المساعد في قسم الأمراض النفسية في جامعة تفتس بالولايات المتحدة: «إنَّ للأطفال الحق في أن يعبّروا عن أنفسهم جنسيّاً مع أي فرد حتى ولو كان أحد أفراد عائلته». ويعاني الأطفال في المجتمعات الغربية من الاعتداءات المتكررة عليهم سواء كانت تلك الاعتداءات بدنية أو جنسية. (The Abused Child Vol. 29, No. 5, 1977).

ويقول كتاب (الطفل المعتدى عليه)[1]: «يقدّر عدد الأطفال الذين يواجهون اعتداءات بدنية وجنسية في الولايات المتحدة بـ (١,٦٠٠,٠٠٠) طفل سنوياً. وترفع بعض الدوائر هذا التقدير إلى أربعة أو خمسة ملايين طفل!! ونرى أنَّ الرقم الأقرب إلى الواقع هو ما ذكرناه أي (١,٦٠٠,٠٠٠)».

والواقع أنَّ انتشار الاعتداء على الأطفال من آبائهم وذويهم أمر واسع الانتشار في الغرب، فمن كل عشرة أطفال يدخلون المستشفيات هناك واحد دخلها بسبب اعتداء ذويه عليه، ويأتي الاعتداء على الأطفال كثاني سبب لوفيات الأطفال ما بين ستة أشهر وعام. وما بين سنة وخمس سنوات فإنَّ وفيات الأطفال الناتجة عن الاعتداء هي السبب الثاني للوفيات، ويأتي مباشرة بعد الحوادث التي تعتبر قضاءً وقدراً، والغريب: أن ثلثي حالات الاعتداء على الأطفال دون الثالثة، بينما غالبية ضحايا الاعتداء الجنسي يكونون قد جاوزوا السابعة. وإن كانت هناك حالات اعتداء على الأطفال الرضّع!!.

وتقول مجلة هيكساجون الطبية (Aexagon Vol 6, No. 5, 1978): «إنّه لا يكاد يوجد مستشفى للأطفال في أوروبة وأمريكة إلا وبه عدة حالات من هؤلاء الأطفال المضروبين ضرباً مبرحاً من آبائهم وأمهاتهم».

وفي عام (١٩٦٧م) دخل إلى المستشفيات البريطانية أكثر من (٦٥٠٠) طفل

---

(١) إصدار شركة سيبا، مجلد ٢٩، العدد الخامس، سنة ١٩٧٧م.

مضروب ضرباً مبرحاً أدَّى إلى وفاة ما يقرب من (٢٠٪) منهم، وأصيب الباقون بعاهات جسدية وعقلية مزمنة. وقد أصيب المئات منهم بالعمى، كما أصيب مئات آخرون بالصمم. وفي كل عام يصاب المئات من هؤلاء الأطفال بالعته والتخلف العقلي الشديد والشلل نتيجة هذا الاعتداء.

وتقول مجلة هيكساجون: «إنّ الاعتداءات الجنسية على الأطفال من آبائهم هي أكثر بكثير مما هو معروف ومدوّن، كما أن كثيراً من الآباء والأمهات يقومون بتسميم أطفالهم بإعطائهم السموم والعقاقير الخطيرة».

ويقول كتاب (الطفل المعتدى عليه The Abused Child): إن الاعتداء الجنسي على الأطفال من آبائهم هو أكثر بكثير مما هو مسجّل في الدوائر الطبية ولدى المحاكم؛ وذلك لأن هذه الحالات لا تصل إلى الدوائر الطبية أو إلى البوليس إلاّ نادراً. ويقسّم الكتاب المذكور الاعتداءات الجنسية إلى نوعين: وهي: الاعتداءات المصحوبة بالعنف، والاعتداءات الغير مصحوبة بالعنف. وبعض الحالات من الفئة الأولى هي التي تصل إلى الأطباء، أمَّا الفئة الثانية فنادراً جدّاً وصولها إلى الأطباء.

ويقرر الكتاب: أنَّ الاعتداءات الجنسية هي في الغالب من الأب، أمَّا الاعتداءات البدنية الأخرى فأغلبها من الأم؛ وذلك نتيجة للتوتر النفسي والقلق الذي تعيشه المرأة العاملة في الغرب. وفي بعض الحالات يكون الاعتداء على الطفل من المشرفين على تربيته، أو من الحاضنة، وأحياناً من المدرّس في الروضة أو في المدرسة.

ويوضّح الكتاب أنواع الاعتداءات الجنسية التي ينبغي على الطبيب أن يبحث عنها، وهي في الغالب على شكل تهتكات بالشرج أو الفرج، وفي بعض الأحيان يجد الطبيب شيئاً من مني المعتدي وهو الأب في غالب الحالات.

وكثيراً ما يصاب الطفل ذكراً كان أو أنثى بالأمراض التناسلية، ويُعتبر ذلك دليلاً قاطعاً على الاعتداء الجنسي.

ويوضّح الكتاب أنواع الاعتداءات البدنية، وكسور العظام، وارتجاج المخ الناتج عن الضرب، أو رمي الطفل إلى الأرض، وأنواع الشلل التي يصاب بها الطفل، وإصابات العين، والصدر وكسور الأضلاع وما يصحبها أحياناً من دخول الهواء إلى البلورا مما يسبب انكماش الرئة في الجهة المصابة، وأنواع النزف الخطير الذي قد يصحبها.

هذا قليل من كثير وغيض من فيض مما يفعله هؤلاء اليهود بالإنسانية عن طريق الحضارة الغربية التي يتحكمون فيها تحكماً غريباً شبه تام.. ولا نجاة للبشرية من هذا الانهيار إلا بأنوار الإسلام التي ستشرق وستصل إلى كل بيت بعزّ عزيز أو ذلِّ ذليل.. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أسفار الحكمة والشعر: المصدر الأول للعلمانية الشاملة والإلحاد:

تشمل الكتابات، أو ما يسمّى أسفار الشعر والحكمة مجموعة من الأسفار؛ هي المزامير (وأغلبها منسوب إلى داود)، والأمثال (منسوب إلى سليمان)، وأيوب، ونشيد الأنشاد وراعوث ومراثي أرميا والجامعة وأستير. وهذه الخمس الأخيرة تعرف بالمجلات الخمس.

ولا شك أن في هذه الأسفار شيئاً غير قليل من الحكمة، ولكن فيها أيضاً كثير من الغثاء والشك في وجود الله وحكمته، ومخاصمته واتهامه بالظلم والحيف، كما أن فيها سبّاً مقذعاً للمرأة، وهي جميعاً لا تذكر اليوم الآخر، بل ولا تعترف به، كما أن (نشيد الأنشاد) شعر جنسي فاضح على مستوى الأدب المكشوف.

من سفر سليمان المدعو سفر الأمثال: عن المرأة:

- خنزيرة هي المرأة الجميلة العديمة العقل.
- لإنقاذك من المرأة الأجنبية، من الغريبة المتملقة بكلامها، التاركة ألق صباها، والناسية عهد إلٰهها، لأن بيتها يسوخ إلى الموت وسبلها الأخيلة.. كلّ من دخل إليها لا يؤدب ولا يبلغون سبل النجاة.

ومن سفر الجامعة (الإصحاح ٧):

- المرأة الجاهلة صخّابة حمقاء ولا تدري شيئاً.
- امرأة فاضلة من يجدها، إن ثمنها يفوق الآلي.
- حكمة المرأة تبني بيتها، والحمقاء تهدمه بيدها.
- فم الأجنبيات هوة عميقة، ممقوتُ الربِّ يسقطُ فيها.
- أمرّ من الموت المرأة التي هي شباك، وقلبها أشراك، ويداها قيود.
- رجلاً واحداً بين ألف وجدت. أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد.

يركّز القول على المرأة الأجنبية رغم أنهم يزعمون أن سليمان تزوج سبعمئة امرأة وتسرى بثلاثمئة كلهنَّ تقريباً أجنبيات، ويزعمون كذباً وبهتاناً أنه بنى لهنَّ المعابد الوثنية وعبد معهنَّ الأوثان.

- لحفظك من المرأة الشريرة، من ملق لسان الأجنبية، لا تشتهينّ جمالها بقلبك، ولا تأخذك بهدبها، لأنه بسبب امرأة زانية يفتقر المرء إلى رغيف الخبز. وامرأةُ رجل آخر تقتنص النفس الكريمة.

«. . . أما الزاني بامرأة فعديم العقل. المهلك نفسه هو يفعله. ضرباً وخزياً يجد، وعاره لا يمحى، لأن الغيرة هي حمية الرجل فلا يشفق في يوم الانتقام. لا ينظر إلى فدية ما، ولا يرضى ولو أكثرت الرشوة» [وكانت حمية الرجل قد اختفت أو كادت عند بني إسرائيل بعد أن انتشر الزنى بينهم انتشاراً فظيعاً].

ويصف غلاماً عديم الفهم يذهب إلى المرأة الزانية. . «صخابة وجامحة. . في بيتها لا تستقر قدماها، تارة من الخارج وتارة من الشارع، وعند كل زاوية تكمن فأمسكته وقبّلته. . هل نرقد إلى الصباح نتلذذ بالحب لأن الرجل ليس في البيت؟!».

«لا يملْ قلبك إلى طرقها ولا تشرد في مسالكها، لأنها طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلاها أقوياء. طرق الهاوية بيتها، هابطة إلى خدور الموت».

وفي سفر الجامعة:

«باطل الأباطيل، الكل باطل. ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس، دور يمضي ودور يجيء والأرض قائمة إلى الأبد، والشمس تشرق، والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها من الشرق... كل الأنهار تجري والبحر ليس بملآن..».

«أنا الجامعة، كنت ملكاً على إسرائيل في أورشليم.. ووجَّهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عُمل تحت السموات. هو عناء رديء.. رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح.. الأعوج لا يمكن أن يقوّم، والنقص لا يمكن أن يُجبر.. ووجهت قلبي لمعرفة الحكمة، ولمعرفة الحماقة والجهل، فعرفت أن هذا أيضاً قبض الريح، لأن في كثرة الحكمة كثرة الغمّ، والذي يزيد علماً يزيد حُزناً».

إنها صورة شديدة القتامة والسواد.. والمتحدّث لديه يأس من كل شيء، فلا شيء يمكن إصلاحه، ولا خير حتى في الحكمة.. ولا يرى الحكمة في أي شيء، وكل ما خلقه الله باطل الأباطيل، وقبض الريح، ولا شيء غير الهاوية..؟!.

هل يمكن أن يكون هذا الكاتب هو سليمان عليه السلام.. حاشا لله، فالكاتب فيلسوف يائس من كل شيء، لا يرى حكمة الله في الإيجاد ولا في الموت والحياة، ولا في خلق السموات والأرض.. كل شيء عنده باطل لأنه ينتهي بالموت، وليس بعد الموت شيء.. فهو النهاية وهو الهاوية التي تنتظرنا جميعاً الغني والفقير، الملك والصعلوك، الذي يعمل الخير والذي يعمل الشر. نهايتهم واحدة.. ولا حساب ولا عتاب ولا آخرة ولا جنة ولا نار..!!

بعد أن يئس الجامعة من الحكمة (في كثرة الحكمة كثرة الغم) ذهب يجرّب

اللهو والفرح والخمر، لعلّه يرتاح من القلق المدمّر الذي أنشب أظفاره في قلبه، فإذا به يكتشف أيضاً أن الفرح والسرور باطل أيضاً: «قلت في قلبي: هلّم أمتحنك بالفرح فترى خيراً، وإذا هذا أيضاً باطل.. افتكرت في قلبي أن أعلّل جسدي بالخمر، وأن آخذ بالحماقة حتى أرى ما هو خير لبني البشر حتى يفعلوه، فاقتني الأموال، والعبيد والقصور والجواري، والمغنيات والراقصات وشرب الخمر وجمع الذهب والفضة والأموال الوفيرة». «ومما اشتهته عيناي لم أمسكه عنها، لم أمنع قلبي من كل فرح، لأن قلبي فرح بكل تعبي».. وهكذا انطلق الجامعة يعبُّ من الشهوات عبّاً، وينطلق في الغيّ مليّاً (وحاشا لسليمان عليه السلام أن يفعل ذلك) فلم يزدد الجامعة بذلك إلا تعباً، وإذا كل الذي فعله باطل وقبض الريح، لأن الموت والهاوية تنتظره.. وهو كبني إسرائيل يرتعب من الموت، ويود أن يعمّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، ولكنه مثلهم لا يؤمن بالحساب ولا البعث ولا النشور، ولا الجنة ولا النار.. وهذا هو سبب قلقه الممضّ، وحيرته البالغة..

وكتاب الجامعة يمثّل هؤلاء القوم من الأدباء والشعراء الغربيين الذين يعيشون التفاهة، ويمضغون اليأس، ويأكلون الحصرم. الكل باطل وقبض الريح.. وقد ظهر في القرن العشرين عدد كبير منهم: ألبير كامي، وسارتر، وهمنجواي، وصموئيل بيكيت (لعبة الكراسي)، وكتّاب الحداثة، وما بعد الحداثة والتفكيكيون من أمثال دريدا.. إلخ، ونظرتهم كلها تنتهي بسوداوية قاتمة، نهايتها الانتحار كما فعل ألبير كامي، وأن يمضغ المرء نفسه من التفاهة ويتحول إلى صرصار، ثم إلى ذرات متناثرة.. عبث في عبث.. الكل باطل وقبض الريح، وخواء، والنهاية هي في الانتحار السريع (وهو أنجع في العلاج)، أو الانتحار البطيء، والإقبال على المخدّرات، في انتظار جودو الذي لا يأتي أبداً... مع انشغال مرضي في الفنّ والشعر بالأعضاء التناسلية والبول، بل والتبرز أحياناً!!.

إنها فلسفة العدم والحيرة والشك تمثلها في اللغة العربية قصيدة إيليا أبو ماضي التي غنّاها محمد عبد الوهاب (وهذه مستواها أعلى بكثير من أدباء ما بعد

الحداثة من التفكيكيين، من أمثال دريدا وكتّاب الحداثة من أمثال صموئيل بيكيت وألبير كامي وسارتر).

يقول إيليا أبو ماضي:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيتُ

ولقد أبصرتُ قُدّامي طريقاً فمشيتُ

وسأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أبيتُ

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري

والجامعة أشدّ حيرة من إيليا أبو ماضي، فالجامعة يرى الموت والهاوية نهاية كلّ حي، الغنيّ والفقير، والملك والصعلوك، والحكيم والفدم الغبي كلهم ينتهون نفس النهاية ويصبحون تراباً من تراب، والكل قبض الريح.. فلا حساب ولا عقاب ولا بعث ولا نشور.

يقول الجامعة: «وكيف يموت الحكيم كالجاهل؟! فكرهت الحياة لأنه رديء عندي العمل الذي عُمِلَ تحت الشمس، لأن الكل باطل وقبض الريح، فكرهت كل تعبي الذي تعبت فيه تحت الشمس حيث أتركه للإنسان الذي بعدي».

إن الجامعة لا يريد لأحد أن يستفيد مما ترك، لا مال ولا حرث ولا علم ولا حكمة.. إنه شخص أناني جداً.. يريد كل شيء لنفسه، ويريد لها الخلود في الدنيا لأنه لم يسمع بالآخرة ولم يؤمن بها. وازداد همّاً وغمّاً عندما رأى موضع الحق ظلماً، وموضع العدل جوراً. وبما إن الإنسان يموت كالبهيمة فلا فرق بين ظلم وعدل، وبين حقٍّ وباطل. يقول الجامعة: «لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة، وحادثة واحدة لهم؛ موت هذا كموت ذاك، فليس للإنسان مزيّة على البهيمة لأن كليهما باطل. كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعودون».

صدق الله العظيم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وهل هناك كفر أشدّ من هذا الكفر؟ أيعقل من نبي كريم مثل سليمان عليه السلام أن يقول هذا

الغثاء؟ لا حساب ولا عقاب، العدل مثل الجور، والحقّ مثل الباطل.. الكلُّ باطل، وقبض الريح. لأن الموت يسوّي بين الظالم والمظلوم، والخيّر والشرّير، ينتهيان جميعاً إلى التراب كما تنتهي البهيمة؟! وأيّ فائدة ترجى من عمل الخير إذا كانت نهايته التراب؟.

ويستمر الجامعة على هذا المنوال حتى امتلأت نفسه غمّاً وحزناً وغبط الأموات؛ قال: «فغبطت أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد، وخير من كليهما الذي لم يولد بعد».

الإنسان يولد ويموت ولو عاش ألف سنة: «في الباطل يجيء وفي الظلام يذهب، اسمه يُغطّى بالظلام، وإن عاش ألف سنة مضاعفة.. أليس إلى موضع واحد يذهب الجميع؟.. كل تعب الإنسان لغمِّه، ومع ذلك فالنفس لا تمتلئ.. لأنه ماذا يبقى للحكيم أكثر من الجاهل؟».. إذن الكل باطل الأباطيل وقبض الريح. فيوم الممات خير من الولادة. الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة لأنه بكآبته يصلح القلب.. لا تكن بارّاً كثيراً ولا تكن حكيماً بزيادة!! لماذا تُخرِّب نفسك؟ لا تكن شريراً كثيراً (غريبة، بل كن شريراً بقدر معقول!!) ولا تكن جاهلاً. لماذا تموت في غير وقتك؟ حسن أن تتمسك بهذا أيضاً، وأن لا ترخي يدك عن ذاك». أي فليكن لك في الشر نصيب كما لك في الخير نصيب، وتمتع بحياتك فالموت آت.. ولا مفرَّ منه.. والنهاية التراب ولا حساب ولا عقاب.

ومما يزيد في حيرة الجامعة أن يرى الأشرار يدفنون في الهيكل (قدس الأقداس وبيت الله)، بينما الذين عملوا بالحق ذهبوا ونُسوا في المدينة. ويصرخ قائلاً: «هذا أيضاً باطل أن يوجد صدِّيقون يصيبهم مثل عمل الأشرار، ويوجد أشرار يصيبهم مثل عمل الصدّيقين. فقلت: إن هذا أيضاً باطل. فمدحتُ الفرح لأنه ليس للإنسان خير تحت الشمس إلا أن يأكل ويشرب ويفرح» [صدق الله العظيم حيث يقول ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾] وعلى الإنسان حسب قول الجامعة أن يكون مثل الأنعام والبهائم تأكل وتشرب ولا تفكر، إذ إن الفكر هو سبب الغم

والحكمة هي سبب الهلاك.. حادثة واحدة للجميع، يأتيهم الموت جميعاً.. لكلٍّ الأحياء يوجد رجاء، لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون، أما الموتى فلا يعلمون شيئاً وليس لهم أجر بعد، لأن ذكرهم نُسي ومحبّتهم وبغضتهم وحسدهم هلكت منذ زمان، ولا نصيب لهم بعد إلى الأبد في كل ما عمل تحت الشمس.

إن عقيدة البعث والنشور والحساب والجزاء أساسية للإنسان، وإلا فالموت خير له من الحياة، والذين لم يولدوا بعد هُمُ السعداء.

يصرخ الجامعة ما دام الأمر كذلك، وما دامت الهاوية ستأخذ الجميع: «أذهب كلّ خبزك بفرح واشرب خمرك بقلب طيب.. التذّ عيشاً مع المرأة التي أحببتها.. كل ما تجده يدك لتفعله فافعل بقوّتك، لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها». هذه فلسفة أبيقور، فلسفة اللذة والتمتع بها (Hedonism).

إن سفر الجامعة يمثل الفكر العبثي والحداثة وما بعد الحداثة.. ويمثل العلمانية الشمولية التي تحدّث عنها الدكتور عبد الوهاب المسيري طويلاً في كتابه، ولكنه لم يعرف أن مصدر هذه العلمانية الشاملة المدمّرة هي سفر الجامعة، وسفر الأمثال وسفر أيوب.. وأن ما سمّاه الاهتمام المرضي بالأعضاء التناسلية مصدره أسفار العهد القديم، وبالذات سفر نشيد الأنشاد، فهو سفر جنسي وقح، من نوع الأدب المكشوف الذي ليس فيه سوى الاهتمام بالأعضاء الجنسية!!.

والغريب حقّاً: أن الدكتور عبد الوهاب المسري على اهتمامه الواسع باليهود واليهودية، حتى إنه يعتبر اليوم أكثر من كتب عنها دراسات باللغة العربية، وهو صاحب الموسوعة اليهودية (من ثمانية مجلدات كبار)، إلا أن المسيري إما أنه لم يقرأ كتاب العهد القديم وأسفاره العديدة (٣٩ عند البروتستانت، و٤٦ عند الكاثوليك)، أو أنه قرأها وتجاهلها.. وكلاهما أمر معيب جدّاً من شخص يُعتبر اليوم أوسع الناس علماً باليهود.

وإذا لم يقرأ المسيري التوراة والعهد القديم، وإذا لم يقرأ التلمود؛ فماذا قرأ إذن؟!.. إن كل ما قرأه لا يساوي شيئاً إذا فاته قراءة العهد القديم

والتلمود.. ولا يمكن فهم اليهودية واليهود مطلقاً بدون دراسة معمقة لكتبهم الدينية، ومراجعهم الأولى في حياتهم وفكرهم وتاريخهم.

والقول: بأن هذه كتب مقدّسة، وأنها دين سماوي، يدل على أن صاحب هذا القول لم يقرأ هذه الكتب بعد أن حُرِّفت تحريفاً شديداً، لم يبق من الأصل سوى شذرات تلمح هنا وهناك. وهي مثل الجواهر والألماس الملقاة في مزبلة.

وإذا لم نقرأ هذه الكتب قراءة فاحصة وندرسها دراسة عميقة، فإننا لا يمكن أن نفهم اليهود وسياسة إسرائيل ومذابح قانا الأولى والثانية، ومئات المذابح قبلها.. والمئات التي ستأتي بعدها!! كيف يمكن أن تعرف سياسة إسرائيل وهي تقوم على أوامر سفر يشوع والأسفار الأخرى: «اقتل الكل من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني».. وهي التي تقول: «لا تعقد سلاماً مع سكان الأرض التي أنت ذاهب إليها والتي يعطيك الرب إيّاها.. لا تعقد سلاماً معهم فيكونون قذى في عينك ومناخس في جنبك، بل تقتلهم وتحرّمهم.. الجميع من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفاني.. لا تترك منهم أحداً».

وكيف يمكن أن نفهم سياسة أمريكة التي تقوم على ما جاء في التوراة: «فليكن مباركوك (يا إسرائيل) مباركين. وليكن لاعنوك ملعونين». ولا بركة ولا حياة للولايات المتحدة الأمريكية إلا بلعق حذاء إسرائيل، والتمجد بأكل فتات المائدة، كما تفعل الكلاب، كما يقول يسوع للمرأة الكنعانية، حسب زعمهم: «لا يعطي عشاء الأولاد للكلاب فقالت: ولكن الكلاب يا سيدي تأكل من فتات مائدة أسيادها..».

والمسيري لا يفهم أبداً إلا أن إسرائيل هي أداة الأمبريالية الأمريكية، ولا يتصوّر أبداً أن التدبيريين المسيحيين والجماعات البيوريتانيه (سواء كانوا من أتباع كالفن أم من أتباع مارتن لوثر) لا يعترفون إلا بكتاب مارتن لوثر الأول الذي كتبه عن اليهود بعنوان: يسوع (المسيح) وُلد يهودياً. وأن كل الأنبياء والرسالات والوحي والنور الذي جاء للبشر إنما هو عن طريق يهود، وأن على البشرية

جمعاء، وعلى المسيحيين التدبيريين خاصة أن يسعدوا بأن يكونوا كالكلاب التي تأكل من فتات مائدة أسيادهم اليهود!!.

المسيري لا يرى ذلك كلّه ويتعامى عنه، رغم أنه لا شك قد درسه وعرفه وإلا فكيف يكون مصدراً لفهم هؤلاء القوم؟!.. ولماذا يسعى المسيري دائماً لإظهار يهود بصورة بريئة من المؤامرات؟.. والله قد أخبرنا عنهم أنهم يسعون في الأرض فساداً.. وأنهم كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله!! ولماذا يريد المسيري أن يبرئهم من جرائمهم التي لا تعدّ ولا تحصى؟!.. فالماسونية عند المسيري حركة توحيدية أوروبية، ولا شأن لليهود بها سوى أنهم دخلوا فيها وأسسوا معظم محافلها الماسونية.. والصهيونية حركة علمانية لا علاقة لها باليهودية ولا باليهود!!.

تصريحات بيغن العديدة التي تنادي: بأن الصهيونية واليهودية شيء واحد.. ولذا استطاع أن يزيل من الأمم المتحدة قرارها الذي يدين الصهيونية ويلحقها بالعنصرية.. لماذا دائماً يقف المسيري موقف الساخر المقهقه عندما يتحدّث عن الواهمين وأصحاب نظرية المؤامرة اليهودية وبروتوكولات حكماء صهيون؟!.

لماذا لا يدرس المسيري ما يسمّى الكتاب المقدّس بشقّيه العهد القديم والعهد الجديد ليعرف أن العلمانية ليس لها مصدر غير هذا الكتاب غير المقدّس؟! وعلى المسيري أن يعيد النظر في كتاباته التي أصبحت مرجعية لكثير من المثقفين، وأن يعتمد ما جاء من القرآن عن اليهود.. وأن يقرأ تاريخهم قراءة جديدة مبنية على ما جاء في القرآن الكريم عنهم، وأن يقرأ سيرتهم مع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

ونحن لا نشك في إيمانه، ولكننا نرى أن خلفيته العلمانية القديمة، واتصاله الوثيق باليهود وصداقاته الواسعة معهم أدّت إلى هذا الاضطراب في المفاهيم لديه. ولولا أنه أصبح مرجعاً أساسيّاً وهامّاً لكل من يريد أن يعرف عن اليهود شيئاً لما ركزنا القول عليه؛ فهو واسع العلم بتفاصيل حياة اليهود، ولكن نظرته

الكلية تحتاج إلى مراجعات كثيرة وإلى مرجعية القرآن والسنّة التي افتقدناها في كتبه ومقالاته.

سفر أيوب لا يؤمن بالآخرة ولا بعدل الله ويتشكك في وجوده:

يعتبر سفر أيوب من الأسفار الأدبية، أسفار الشعر والحكمة. ويظهر أيوب في هذا السفر على صورة رجل ناقم على الله كافر بأنعمه، شديد اللوم والعتاب إلى حدِّ التقريع والتوبيخ. وحاشا لأيوب عليه السلام أن يفعل ذلك.

ويبدأ السفر بقصة سخيفة؛ وهي أن أبناء الله مثلوا أمام الله وجاء معهم الشيطان ومدح الرب عبده أيوب فقال الشيطان: هل مجاناً يتقي الله أيوب؟ وذكر أنه لا يعبد الله إلا لأن الله قد أعطاه الأموال الكثيرة والذرية الصالحة والزوجة البرّة الوفية والصحة والخدم والحشم.. فغضب الرب وقال: هو ذا كل ماله في يدك وإنما لا تمدّ إليه يدك. وخرج الشيطان ليبتليه: وفجأة ذهبت أمواله التي سباها السبئيون والكلدانيون.. وأن ريحاً شديداً صدمت البيت الذي فيه أولاده وبناته فماتوا جميعاً. فقام أيوب ومزَّق جبَّته، وجزَّ شعره وخرّ على الأرض وقال: عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى هناك، الرب أعطى والرب أخذ، ورغم غرابة المشهد حيث يجتمع أبناء الله عند الرب مع الشيطان. ويطلب الشيطان من الرب أن يبتلي أيوب الذي مدحه الرب فيفعل الرب ويأذن له.. والمشهد الأول يُرينا أيوب وهو صابر على هذا البلاء الأول فيعود الشيطان إلى الرب، ويقول الرب للشيطان: هل جعلت قلبك على عبدي أيوب؟ لأنه ليس مثل من الأرض.. وقد هيجتني عليه لأبتلعه بلا سبب.

كلام عجيب وغريب لا يتصور أبداً أن يصدر عن الله سبحانه وتعالى. على أيّة حال استطاع الشيطان مرة أخرى أن يهيّج الربّ على أيوب، وأن يسمح له الربّ بأن يبسط يده عليه، ويمس عظمه ولحمه، فخرج الشيطان من اجتماعه مع الرب وأبناء الله مبتهجاً.. وبدأ أيوب يفقد إيمانه حسب زعمهم. وذهب أصحابه الثلاثة ليعزوه «فرفعوا أصواتهم وبكوا ومزّق كل واحد ثيابه، وقعدوا معه على الأرض سبعة أيام ولم يكلّمه أحد منهم؛ لأنهم رأوا أن كآبته عظيمة. بعد هذا

فتح أيوب فاه وسبَّ يومه وقال: ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه، والليل الذي قد حبل برجل. ليكن ذلك اليوم ظلاماً.. ليملكه الظلام وظل الموت.. هوذا الليل ليكن عاقراً.. وليلعنه لاعنوا اليوم المستعدون لإيقاظ التنين.. لتظلم نجوم عشائه.

ثم يقول: لمَ لمْ أمت من الرحم؟ عندما خرجت من البطن لِمَ لمْ أسلم الروح؟ لماذا أعانتني الركب، ولم الثدي حتى أرضع؟..

«لم يُعطَ لشقي (أيوب) نور وحياة لمرّي النفس.. الذين ينتظرون الموت وليس هو.. لأنه مثل خبزي يأتيني أنيني ومثل المياه تنسكب زفرتي.. لأني ارتعاباً ارتعبت فأتاني، والذي فزعت منه جاء عليَّ.. وقد جاء الرجز (العذاب)».

ويبدأ أحد أصدقائه الثلاثة وهو أليفاز في الرد عليه يذكّره بنعم الله الكثيرة عليه، أين تقواك وبرّك يا أيوب؟! (وفيه أيضاً كلام غريب مثل قوله: هوذا عبيده لا يأتمنهم، وإلى ملائكته ينسب حماقة، ولست أدري ما هي حماقة الملائكة؟).

ويواصل كلامه: ادع الآن يا أيوب فهل لك من مجيب؟ وإلى أيّ القديسيين تلتفت؟ (غريب ألا يدعو الله سبحانه وتعالى، ولماذا الشرك ودعوة القديسين؟!). «لأن الغيظ يقتل الغبيّ والغيرة تميت الأحمق. إن البلية لا تخرج من التراب، والشقاوة لا تنبت من الأرض، ولكن الإنسان مولود للمشقة»!! ثم يقول له: «طوبى لرجل يؤدبه الله فلا ترفض تأديب القدير»، ويحاول أن يطمئن أيوب ويبعث فيه الأمل والثبات، وأن يصبر ويحتسب ويلجأ إلى الله. فردَّ أيوب، حسب زعمهم، فقال: «ليت كربي وُزِنَ. ومصيبتي رُفعت في الموازين جميعها لأنها الآن أثقل من رمل البحر.. أهوال الله مصطفّة ضدّي.. يا ليت أن يعطيني الله رجائي.. أن يسحقني ويطلق فيقطعني (أي يدعني أموت).. ما هي قوتي حتى أنتظر؟ وما هي نهايتي حتى أصبّر نفسي؟ هل قوتي قوة الحجارة؟ هل لحمي نحاس؟.. حتى متى أصبر؟.. إذا اضطجعت أقول متى أقوم؟ الليل يطول وأشبع

قلقاً حتى الصبح. لبس لحمي الدود مع التراب، أيامي أسرع من الوشيعة (نوع من الدود سريع المشي) وتنتهي بغير رجاء. السحاب يضمحل ويزول، هكذا الذي لا ينزل إلى الهاوية لا يصعد». أيعقل أن يقول أيوب النبيّ الكريم هذا وأنه نازل إلى الهاوية، لأن الموت لديهم هو الهاوية ولا حياة بعدها ولا نشور؟!.

ويواصل أيوب حديثه ـ حسب زعمهم ـ قائلاً: أنا أيضاً لا أمنع فمي من التجديف (والكفر بالله والعياذ بالله) أتكلّم بضيق روحي، أشكو بمرارة نفسي.. ويوجه أيوب صرخة نحو الرب، حسب زعمهم، قائلاً: ما هو الإنسان حتى تعتبره وحتى تضع قلبك عليه؟ وتتعهده كل صباح! متى لا تلتفت عنّي، ولا ترخيني ريثما أبلع ريقي؟ أأخطأت؟ ماذا أفعل لك يا رقيب الناس؟ لماذا جعلتني عاثوراً لنفسك؟ لماذا لا تغفر ذنبي ولا تزيل إثمي؟ لأني الآن أضطجع في التراب تطلبني فلا أكون قريباً، سأهرب منك بالموت (لأن الموت عندهم هو النهاية فلا بعث ولا نشور ولا قيامة ولا جنة ولا نار).. ستطلبني فلا تجدني.

ويرد صديقه الثاني يلدد الشوحي ويحذّره من التجديف والكفر، ولكن أيوب يرد عليه متبرّماً من هذا الابتلاء قائلاً: «لو دعوت فاستجاب لي لما آمنت بأنه سمع صوتي: (أعوذ بالله من الكفر)، ذاك الذي يسحقني بالعاصفة ويكثّر جروحي بلا سبب. لا يدعني آخذ نَفَسي، ولكن يشبعني مرائر، إن كان من جهة قوة القوي يقول: ها أنذا، وإن كان من جهة القضاء يقول: من يحاكمني؟ إن تبرّرت يحكم عليَّ فمي، وإن كنت كاملاً يستذنبني».

«أيفعل ذلك لأنه قوي وأنا ضعيف؟ ويبتهج بقوّته ويقول من يحاكمني؟ وإن أردت التكلّم إليه أحكم فمي وأقفله بالرتاج ويعاملني كمذنب مع أني كامل وبار. أين عدله؟ أين رحمته؟! ألأنه قوي وأنا ضعيف يظهر جبروته عليّ؟».

ثم يقول: «كامل أنا لا أبالي بنفسي.. رذّلت حياتي.. أيامي أسرع من عدّاء، تفرُّ ولا ترى خيراً.. عالم أنك لا تبرّني. أنا مستذنب فلماذا أتعب عبثاً؟.. لأن ليس هو إنسان فأجاوبه، فنأتي جميعاً إلى المحاكمة.. ليرفع عني

عصاه ولا يبغتني رعبه.. إذاً أتكلّم ولا أخافهُ». كذا يتحول أيوب ﷺ إلى كافر متبجح يعلن أنه لا يخاف الله ويتحدّاه!! (ألا لعنة الله على كاتب هذا السفر الكذّاب الأفّاق المجرم المفتري على أنبياء الله). ثم يقول، حسب زعمهم: «قد كرهت نفسي حياتي.. أتكلّم في قرارة نفسي قائلاً لله: فهّمني لماذا تخاصمني؟ أحسنٌ عندك الظلم؟ (أعوذ بالله)، أن ترزل عمل يديك وتشرق على مشورة الأشرار (أي إنك استمعت لمشورة إبليس)».

ويتحدّث بوقاحة: «لماذا تبحث عن إثمي وتفتش على خطيئتي؟ في علمك أني لست مذنباً ولا منقذ من يدك». ثم يقول: «يداك كونتاني أفتبلعني؟ اذكر أنك جبلتني كالطين أفتعيدني إلى التراب؟.. إني شبعان هواناً ومذلة. إن ارتفعت تصطادني كأسد ثم تعود وتتجبر عليَّ. فلماذا أخرجتني من الرحم؟ كنت قد أسلمت الروح ولم ترني عين، فكنت كأني لم أكن فأقاد من الرحم إلى القبر. أليست أيامي قليلة؟ اترك. كفَّ عنّي قبل أن أذهب فلا أعود.. إلى أرض ظلمة وظل الموت». (الموت عندهم هو النهاية ولا بعث ولا نشور ولا قيامة).

ويرد أيوب على صاحبه النعماني مذكّراً له ولأصحابه أن الحكمة التي معه تفوق حكمتهم، ولكنه يتكلّم الآن بمرارة نفس لأنه مبتلى، وأما أصحابه فمعافون ولذا يتكلمون بالحكمة.. وقد دعا الله مراراً فلم يجبه، بل زاده هواناً وعذاباً؛ فأين الله إذن؟! وأين رحمته إن كانت له رحمة؟!.

يقول أيوب: أريد أن أكلّم القدير وأن أحاكم الله. أما أنتم فملفقو كذب. اسمعوا الآن حجتي، أتقولون لأجل الله ظلماً؟ [أي: تتكلّمون بالظلم من أجل الله لأن الله ظلمني؟. (أعوذ بالله)] وتتكلّمون بغشٍّ لأجله؟ أتحابون وجهه أم عن الله تخاصمون؟!

ويقول لهم: أين هذه الحكمة؟ لماذا يعذّبني أنا البار الكامل ويغدق النعم على عباد الأوثان؟ أتدافعون عن الله وقد ظلمني وجار عليَّ؟ [أعوذ بالله من الكفر الصراح].

ويصرخ أيوب: «اسكتوا عني فأتكلّم أنا وليصيبني مهما أصاب. لماذا آخذ

لحمي بأسناني، وأضع نفسي في كفي. هو ذا يقتلني لا أنتظر شيئاً». . ويكلّم الرب قائلاً له: «أعلمني ذنبي وخطيئتي. لماذا تحجب وجهك وتحسبني عدوّاً لك؟. لماذا تحصي عليَّ خطواتي. معصيتي مختوم عليها في صرّة، وتلفّق عليَّ فوق إثمي» حاشا لله، ولا يظلم ربك أحداً. . ويخاصم ربه قائلاً: «هكذا أنت تبيد رجاء الإنسان، تتجبر عليه أبداً!!».

أليست هذه دعوى العلمانية وتحدّي بروميثوس لزيوس؟ أليس هذا هو الصراع بين الله والإنسان الذي تتحدث عنه الآداب والفلسفات الغربية منذ أيسخيلوس إلى اليوم؟. .

ويتحدث أيوب عن الله إلى أصحابه: «إنه الآن ضجّرني، خرّب كل جماعتي، قبض عليَّ، قام عليّ، هزالي يجاوب في وجهه. غضبه افترسني واضطهدني. دفعني الله إلى الظالم ونصبني له غرضاً، وفي أيدي الأشرار طرحني. كنت مستريحاً فزعزعني، وأمسك بقفاي فحطّمني ونصبّني له غرضاً. أحاطت بي رماته. شقَّ كليتي ولم يشفق. سفك مرارتي على الأرض». ويدعي أن الله ظلمه رغم أنه كان باراً.

ثم يقول أيوب، حسب زعمهم: «رجوت الهاوية بيتاً لي، وفي الظلام مهدت فراشي، وقلت للقبر: أنت أبي، وللدود: أنت أمي وأختي. . من يهبط إلى مغاليق الهاوية، إذ نرتاح معاً في التراب!!.

ويردّ أيوب على أصحابه: «اعلموا إذن أن الله قد عوّجني ولفَّ عليَّ أحبولته، ها أني أصرخ ظلماً فلا أستجاب. أدعو وليس حَكَم. قد حوّط طريقي فلا أعبر، وعلى سبلي جعل ظلاماً. أزال عني كرامتي ونزع تاج رأسي. هدمني من كل جهة وقلع شجرة رجائي، وأضرم عليّ غضبه وحسبني كأعدائه. .

لماذا تحيا الأشرار ويشيخون ويتجبرون؟ نسلهم قائم أمامهم وذريتهم في أعينهم. بيوتهم آمنة من الخوف وليس عليهم عصا الله. الله يخزن إثمه لبنيه. لتنظر عيناه هلاكه. . فما هي مسرَّته في بيته وقد تعيّن عدد شهوده؟. .

آالله يعلم وهو يقضي على العالمين؟ هذا يموت في عين كماله. أحواضه ملآنة لبناً ومخ عظامه طري. وذلك يموت بنفس مرّة ولم يذق خيراً. كلاهما يضطجعان معاً فى التراب والدود يغشاهما». كلام مثل كلام الجامعة.. الكلّ باطل وقبض الريح ما دامت النهاية هي الموت.

ويزداد كفر أيوب ـ حسب زعمهم ـ فيقول: «اليوم شكواي تمرّد.. من يعطيني أن أجد (أي: الله) فآتي إلى كرسيِّه.. أبكثرة يخاصمني؟ كلا. ولكنه كان ينتبه إليّ وكنت أنجو إلى الأبد من قاضيّ.

ها أنذا أذهب شرقاً فليس هو هناك، وغرباً فلا أشعر به، شمالاً حيث عمله فلا أنظُره، يتعطف الجنوب فلا أراه».

هكذا انتهى أيوب ـ حسب زعمهم ـ إلى الكفر الكامل فليس هناك إلٰه. لقد ذهب أيوب شرقاً يبحث عنه فلم يجده، وغرباً فلم يجده. وكذلك لم يجده لا في الجنوب ولا في الشمال.

أليس هذا السفر مثالاً كاملاً للعلمانية الشمولية الكافرة بالله، حتى بوجوده بعد أن يئس من العثور عليه لمحاكمته، حسب زعمهم، على ظلمه له وإذلاله إيّاه.

ويسخر أيوب من هذا القدير الذي لا يرى من يعبده ويخلص في عبادته. ويترك الأشرار يغتصبون ويسرقون أموال اليتامى ويرتهنون ثور الأرملة، ويصدّون الفقراء عن الطريق فلا يتحرك ولا يغضب ولا يفعل بهؤلاء الأشرار شيئاً، بل يزيدهم قوة إلى قوة ومالاً إلى مال، ويعطيهم الصحة والبنين، ويمدّهم بالسعادة ليزدادوا تجبراً وطغياناً على الفقراء والمساكين، وبما أنه ليس هناك آخرة ولا قيامة ولا بعث ولا نشور، فإن هذا هو عين الظلم حيث يحابي الربُّ أعداءه والظلمة ويعذّب من يعبده ويبرّه. الأغنياء الفجرة تفيض حياتهم لبناً وعسلاً، أما مساكين الأرض فيختبئون جميعاً ويعملون ويكدحون ليزداد الشرّير غنًى، يبيتون عراة بلا لبس، جياعاً بلا طعام. والأشرار يخطفون اليتيم عن الثدي.. والمساكين عراة يذهبون، جياعاً يبيتون، يدروسون المعاصر، ويعطشون. من

الوجع أناس يئنون، ونفس الجرحى تستغيث. والله لا ينتبه إلى هذا الظلم!..

ويطيل الحديث عن القتله والزناة واللصوص ومع هذا فالرب يعطيهم ويمدُّهم بكلٍّ ما يريدون.. أين العدل؟ أين الرب؟ لماذا يُعطي الأشرار ويمنع الأخيار الأبرار؟ والنتيجة الحتمية والمنطقية أن كلّ من يقرأ هذا السفر ويؤمن به ينتهي إلى العلمانية الشاملة والكفر التام. وإلى الثورة ضد هذا الظلم من الطبقة الكمبرادورية والإقطاعية والرأسمالية للفلاحين والعمال والفقراء وعبيد الأرض.. وإلى أن الله، حسب زعمهم، اخترعه هؤلاء المجرمون ومعهم رجال الكهنوت ليتمكنوا من سرقة هؤلاء المساكين من الفلاحين والجياع والعمال وعبيد الأرض.

ولكأننا نقرأ المانفستو الشيوعي بكلّ علمانيته.. أين أنت يا دكتورنا المسيري؟.. ألا تقرأ هذا الكفر؟!..

ألا تعرف أن هذه العلمانية الشاملة التي تحدّثت عنها طويلاً مصدرها هذا الكتاب غير المقدّس؟!..

لماذا تتجاهل ذلك وتزعم أن هذه الكتب الباطلة كتب نورانية وروحانية؟!..

وأين هي النورانية والروحانية فيها؟!..

ألم تقرأها قط في حياتك؟!..

كيف وأنت المرجع الأول عن اليهود واليهودية في العالم العربي؟! إن هذا لشيء عجاب!!.



الفصل السابع

العلمانية والعلم

أوضحنا في الفصل الأول أن العلمانية نسبة إلى العالم (الدنيوي)، وليست نسبة إلى العلم، ويبدو أن هناك تعمّداً في ترجمة كلمة (Secularism)، التي تعني الاهتمام بالعالم الآني الدنيوي (في مقابل الأخروي)، بلفظة العلمانية، لمعرفة هؤلاء المترجمين من العلمانيين بأن الترجمة الحقيقية ستكون منفِّرة جدّاً. وأن العلمانية هي الاهتمام بالدنيا فقط، والابتعاد عن الدين والغيبيات والآخرة. (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر).

لهذا كله تم إيجاد لفظ العلمانية. وقام بعضهم بنُطقها بكسر العين (عِلمانية) ليوهم ارتباطها بالعلم. وبما أن كل العلمانيين الأوائل في البلاد العربية هم من نصارى الشام، فقد فضلوا هذا الترتيب، ريثما يوجد علمانيون (مسلمون بالوراثة)، ويعترف العلمانيون المحدثون بذلك.

ويرى **حسن حنفي** كما ينقله عنه المسيري[1]: «**أن العلمانية ظاهرة تنتمي إلى الحضارة الغربية، وهي تعني فصل الكنيسة عن الدولة**». ولهذا كان العلمانيون الأوائل في بلادنا الإسلامية كلهم من النصارى، وغالبيتهم من نصارى الشام ممن تربوا في المدارس الأجنبية، وفي إرساليات التبشير. (وهو أمر عجيب أن يتخرج من إرساليات التبشير الدينية ومدارسها من يدعو إلى العلمانية والبعد عن الدين. ولكن العجب يزول حين نعرف أن الهدف الأساسي هو إبعاد شباب المسلمين ومتعلميهم في المدارس الحديثة عن الإسلام، لأن إدخالهم إلى

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة: ١/ ٨١ ـ ٨٣.

المسيحية مباشرة أمر يكاد يكون مستحيلاً. لذا كان من الواجب كما قال كبار المبشّرين مثل (زويمر) إبعاد المسلمين عن دينهم، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون. وهو أمر شاهدناه في مواقع كثيرة. وعرفنا كيف أن تلامذة المبشرين في اليمن الجنوبية عندما كانت مستعمرة، تحولوا إلى الشيوعية والماركسية. وهو أمر قد لوحظ في الهند وفي غيرها من المستعمرات الأوروبية.

والعلم بمعنى (Science) أي: العلوم التجريبية، يقوم على المنهج التجريبي ولا يتقبّل الأشياء والأحكام إلا بعد إجراء التجارب عليها والتوثق من نتائجها. والنسبة إليه هي العلمية (Scientism) وليست العلمانية.

وهذا **المنهج التجريبي العلمي قد أشاده (أي: بناه) المسلمون الأوائل،** واهتموا به اهتماماً بالغاً، وعن طريق المسلمين عرفت أوروبة هذا المنهج. وقد اعترف أساطين العلماء في الغرب بهذه الحقيقة الناصعة، وهي أن العلم التجريبي (Science) إنما قام على يد المسلمين (المقصود الحضارة الإسلامية التي ساهم فيها العرب والعجم والمسلمون والنصارى واليهود والصابئة، ضمن المنهج الإسلامي الذي يُشجّع على البحث العلمي).

ومن الكتب الجيّدة في هذا الصدد لمن أراد المزيد من الاطلاع كتاب (نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأموي)، تأليف المهندس لطف الله قاري (دار الرفاعي، الرياض)، وللمؤلف نفسه: (إضاءة زوايا جديدة للتقنية العربية الإسلامية)، (مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض)، وكتاب: (فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية)، للدكتور عز الدين فراج، دار الفكر العربي، وكتاب (تاريخ العلوم عند العرب)، للدكتور عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، (وهو من أشهر الكتب في هذا المجال). وهناك مئات الكتب في هذا الصدد، وفي كل فرع من فروع العلوم هناك العديد من الكتب التي توضّح فضل المسلمين في العلوم، وإجراءَهم التجارب في الطب والصيدلة، وعشرات الكتب في الهندسة، ومثلها في الفلك والرياضيات وعلوم البحار، والزراعة وعلوم النبات، والبيولوجيا، والجغرافيا، والاكتشافات البحرية... إلخ، وهناك

كُتب متخصصة كثيرة تعالج موضوعاً معيناً فقط عند أحد العلماء المسلمين؛ مثل كتاب الدكتورة دولت عبد الرحيم إبراهيم: (الاتجاه العلمي والفلسفي عند ابن الهيثم)، إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب، كما أن هناك مجلاّت متخصصة، مثل (**مجلة تاريخ العلوم العربية**) التي تصدر من معهد التراث العربي، جامعة حلب (سورية).

ولا يسمح لنا المجال بذكر المزيد، فمن اليسير جدّاً العثور على ببلوجرافيا تضم مئات إن لم نقل آلاف الكتب، والمقالات التي تتحدّث عن دور العرب والمسلمين في نشأة العلوم وتطورها، وتأثر روجرز باكون وعلماء أوروبة بهذا المنهج الإسلامي الأصيل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وبما أنني طبيب مهتم بتاريخ الطب عند المسلمين فسأنقل هاهنا ما قدّمته في بحثي: (الضوابط الشرعية للبحوث الطبية البيولوجية)، لمجمع الفقه الإسلامي الدولي في دورته السابعة عشرة في عمّان، الأردن (يوليو ٢٠٠٦م) عن اهتمام المسلمين بإجراء التجارب الطبية والصيدلانية، وهو بحث يمكن أن يتحول إلى كتاب بكلٍّ سهولة[١]. ولكن هذه النبذة اليسيرة تُغني في هذا الصدد.

التجارب الطبية عند المسلمين:

كان أبو بكر الرازي قد استخدم الزئبق في المراهم بعد تجربته على القردة واستعمل العرب «عفن الخبز» والعشب الفطري في المراهم لعلاج القروح المتعفنة بعد تجربته على الحيوانات، وبذلك كان لهم فضل السبق في استخدام المضادات الحيوية.

وتوصّل المنصور الموفق: إلى أن الجبس متى سُخِّن وخُلط بزلال البيض

(١) قد تحوّل بالفعل إلى كتاب بمشاركة الأخ العزيز الدكتور حسان شمسي باشا، والكتاب الآن في المطبعة.

يكون مادة قوية في تجبير كسور العظام، واكتشف جابر بن حيان استخدام نترات الفضة (حجر جهنم) لإحراق الفضلات الفاسدة، كما كان هو أول من قام بتحضير الزئبق المصعد الذي يزيل العفونة ويسهل البطن، كما كان أبو بكر الرازي أول من قام بتحضير الكحول (الغَوْل) النقي بتقطير مواد سكرية ونشوية مخمرة واستعمله في الصيدليات[١].

وذكر أبو المنصور الموفق: أن النحاس متى تعرض للهواء غطته طبقة خضراء تتحول إلى مادة سوداء بالتسخين، وتفيد في صبغ الشعر.

وكان الأطباء العرب والمسلمون أول من استعمل التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتذويب، وحضّروا بواسطتها كثيراً من العقاقير الجديدة، وإضافة السواغات ذات الطعم المقبول في الأشربة، وتغليف الحبوب بالورق المذهّب والمفضض، وفصلوا بين الطب والصيدلة فصلاً تامّاً، وأقاموا نظاماً للتجارب الطبية.

حيث نجد **ابن سينا** يجعل القسم الأول من الجزء الثاني من القانون «في التجارب» وكيفية استنباط العقاقير والتجارب التي يمكن إجراؤها[٢]. أما القسم الثاني فيسرد فيه (٧٦٠) عقاراً بالترتيب الأبجدي[٣]، وفي كل عقار يضع النقاط التالية:

- كيفية التعرّف على العقار.
- الجزء المستعمل.
- الخصائص المزاجية لهذا العقار.
- تأثير العقار على كل جهاز من أجهزة الجسم وعلى أمراض معينة.

---

(١) د. محمود الحاج قاسم: الموجز إلى إضافة المعرب في الطب والعلوم المتعلقة به، مطبعة الإرشاد ـ بغداد، ١٩٧٤م؛ وجاك ريسلر: الحضارة العربية، ص ١٩٦.

(٢) القانون في الطب، لابن سينا، تحقيق د. إدوار القش، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ـ بيروت، ١٩٨٧م، المجلد الأول، ج٢/ المقالة الثانية، ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(٣) المصدر السابق: ٢/٣٧٦، ٧٩٩.

ـ تأثيرات العقار النوعية.

ـ هل العقار ترياق (أي: ضد السموم)؟.

ـ ما هو العلاج البديل عند عدم توفر هذا العقار؟.

ـ ما هي المواد المساعدة لتأثيره؟

وفي المقالة الثانية من الجزء الثاني يقول ابن سينا: الأدوية تعرف قواها من طريقين: أحدهما: طريق القياس، والآخر: طريق التجربة. ولنقدّم الكلام في التجربة فنقول: إن التجربة إنما تهدي إلى معرفة قوة الدواء بالثقة بعد مراعاة شرائط:

أحدهما: أن يكون الدواء خالياً عن كيفية مكتسبة..

الثاني: أن يكون المجرّب عليه عِلَّة مفردة، فإنها إن كانت عِلَّة مركبة وفيها أمران يقتضيان علاجين متضادين، فجرِّبَ عليهما الدواء، فنفع، لم يدر السبب في ذلك.

الثالث: أن يكون الدواء قد جُرِّب على المضادة، حتى إن كان ينفع منهما جميعاً لم يحكم أنه مضاد المزاج لمزاج أحدهما، وربما كان نفعه من أحدهما بالذات، ومن الآخر بالعرض.

الرابع: أن تكون القوة في الدواء مقابلاً بها ما يساويها من قوة العِلّة.

الخامس: أن يراعي الزمان الذي يظهر فيه أثره وفعله، فإن كان مع أول استعمال أقنع أنه يفعل ذلك بالذات.

السادس: أن يراعي استمرار فعله على الدوام أو على الأكثر.

السابع: أن تكون التجربة على بدن الإنسان، فإنه إن جُرِّب على غير بدن الإنسان جاز أن يتخلّف من وجهين:

أحدهما: أنه قد يجوز أن يكون الدواء بالقياس إلى بدن الإنسان حارّاً، وبالقياس إلى بدن الأسد والفرس بارداً، إذا كان الدواء أسخن من الإنسان وأبرد من الأسد والفرس...

الثاني: أنه قد يجوز أن يكون له بالقياس إلى أحد البدنين خاصية ليست بالقياس إلى البدن الثاني؛ مثل البيش (نبات كالزنجبيل) فإن له بالقياس إلى بدن الإنسان خاصية السميّة وليست له بالقياس إلى بدن الزرازير. فهذه القوانين التي يجب أن تُراعى في استخراج قوى الأدوية عن طريق التجربة، فاعلم.

ابن البيطار[1]: عبد الله بن أحمد المالقي:

قيل: وُلد سنة (٥٧٥هـ)، وقيل: أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ووفاته (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، وابن البيطار هو أشهر عشابي العرب والمسلمين، وصاحب كتاب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) والذي وصف فيه (١٤٠٠) عقَّار، منها (٤٠٠) عقّار لم يسبق إلى وصفها وتصنيفها لا من قِبَل اليونان ولا من قِبَل العرب أو غيرهم.

ويذكر فيه ماهية الدواء، وقوامه، ومنافعه، ومضاره، وكيفية إصلاح ضرره، والمقدار المستعمل منه من النبات، وأيّ جزء من النبات يستعمل؟ وكيفية تحضيره، وما يقوم مقامه من الأدوية والعقاقير عند فقده، وما هي العقاقير التي تساعد على فعله؟ وتلك التي تضاد فعله؟..

وقد توخّى في ذلك ستة أهداف:

١ - استيعاب القول في الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام.

٢ - تجربة ما ذكره الأقدمون من اليونان والعرب والمحدثون المعاصرون له من خصائص تلك الأدوية والعقاقير، والتأكد من ذلك بنفسه؛ حيث يقول: فما صحَّ عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لديَّ ادَّخرته كنزاً ثريّاً، وأما ما كان مخالفاً في القوى والكيفية والمشاهدة الحسيّة في المنفعة والماهية نبذته ظهريّاً، ولم أحابِ في ذلك قديماً لسبقه ولا محدثاً اعتمد غيري على صدقه.

---

(١) د. محمد علي البار: دور المسلمين في تطوير العلاج بالأعشاب والصيدلة، دار المنارة ـ جدة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٤٤ ـ ٤٦.

ثم ذكر بعد ذلك ترك التكرار، ووضعه على حروف المعجم، وذكر الأدوية بكافة اللغات المشهورة في زمنه.

البيروني[1]: أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٥١ ـ ٤٤٠هـ/٩٦١ ـ ١٠٤٦م):

أعجوبة الزمان، له مئات الكتب في مختلف الفنون، وله كتاب (الصيدلة)، وفيه يقول: «إن التقدّم في المهنة (أي: الصيدلة) يحصل بتلمذة على المهرة، ثم دوام المزاولة، **ولا بد من العلم والتجربة، فهما مثل الجناحين للطائر، ولا يستطيع الصيدلاني أن يطير إلا بهما**»، وقد انتقد التقليد والأخذ بالسماع انتقاداً شديداً، وطالب بالتدرّب على يد المهرة من الصيادلة ثم استخدام التجارب على نطاق واسع.

موسى بن ميمون (أبو عمران) (٥٢٩ ـ ٦٠١هـ/ ١١٣٥ ـ ١٢٠٤م):

يعتبر موسى بن ميمون المعروف لدى الغرب باسم ميمونيدس من أشهر الأطباء والفلاسفة ورجال الدين اليهود الذين ظهروا في العالم الإسلامي، فهو من مواليد قرطبة، ثم ذهب إلى فاس في المغرب وأعلنت عائلته الإسلام وأبطنت الكفر، ويقال: إنه حفظ القرآن ودرس الفقه المالكي، وقد ادّعى هو فيما بعد أنه أُكره على الإسلام.. وظهر نجمه في القاهرة بعد أن داوى القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني الذي قدّمه لصلاح الدين الأيوبي حتى صار أكبر أطبائه، وتولى أيضاً في القاهرة رئاسة اليهود في الدولة الأيوبية، وشرح التوراة والتلمود. ولم يكن مجيداً في الطب رغم شهرته فيه، فقد قال عنه ابن القفطي في كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء): بأنه كان يشارك الأطباء ولا ينفرد برأي لقلة مشاركته، ولم يكن رفيقاً في المعالجة والتدبير.

وقيمة ابن ميمون هي في شروحه للتوراة والتلمود واعتباره المرجع الأول لليهود الأرثوذكس إلى اليوم في دينهم، ونرى عند ابن ميمون النظرة العنصرية

---

(١) كتاب: الصيدلة في الطب، للبيروني، تحقيق الحكيم محمد سعيد، ود. رانا إحسان إلٰهي، مؤسسة همدرد كراتشي ـ باكستان، ١٩٧٣م (صورة من كتاب مخطوط مع بعض التعليقات والهوامش البسيطة)، ص ١، ٢، ٩.

البغيضة في احتقاره لكثير من الأمم، وقوله عنهم كما ينقله عنه إسرائيل شاحاك في كتابه (الديانة اليهودية وتاريخ اليهود)[١]: بعض الأتراك والبدو في الشمال والسود والبدو في الجنوب، وأولئك الذين يشبهونهم في أقاليمنا، فطبيعة هؤلاء البشر كطبيعة الحيوانات البكماء، وهم بحسب رأيي ليسوا في مستوى البشر.

ويقول عن الأغيار (أي: غير اليهود) كما ينقله عنه شاحاك: «أن واجب المرء أن يقتلهم بيديه» إذا استطاع ذلك، ولم يجلب عمله أيّ ثورة ضد اليهود.. ورغم أنه كان طبيب سلطان المسلمين صلاح الدين الأيوبي، وتُضرب له الطبول عند دخوله القلعة إلا أنه كتب كما ينقل عنه شاحاك: أن على الطبيب اليهودي أن يُجري التجارب الطبية على الأغيار (غير اليهود) ولو أدى ذلك إلى قتلهم بشرط أن لا يعلم بذلك أحد، ولا يثير الناس ضد اليهود. وينبغي الامتناع عن مساعدة امرأة من الأغيار في حالة الولادة يوم السبت حتى ولو كان ذلك لقاء أجر كبير إلا أن تكون المرأة من الطبقة الحاكمة أو ذات النفوذ، وسيلحق بالطبيب اليهودي أو باليهود أذًى من هذا التصرف.

ويقول موسى بن ميمون كما ينقله عنه إسرائيل شاحاك (أحد أشهر كتّاب إسرائيل): «ومن المسموح به تجربة عقار من العقاقير على كافر إذا كان ذلك يفي بغرض ما». وهذا ما يكرره حسب قول إسرائيل شاحاك الحاخام الشهير موسى إيرلس، وبالتالي يجوز أن يجرّب على الأغيار حتى قبل أن يجرب على الحيوانات حتى لو أدى ذلك إلى ضرر أو وفاة الأغيار الذين لا يوجد ما يمنع من الأضرار بهم بشرط أن لا يكتشف هذا الأمر.

العلمانية والعلم الحديث:

ونحن نقرّ بأن الخروج على الكنيسة إبّان عصر النهضة والتنوير في أوروبة، وظهور العلمانية قد أديا إلى ظهور المنهج العلمي التجريبي، واستخدام العقل

---

(١) **إسرائيل شاحاك**: كان أستاذاً في جامعة تل أبيب، وزميلاً لـ: بن غوريون، ولكنه تحوّل إلى انتقاد إسرائيل وسياستها العنصرية، ووضع عدة كتب في ذلك، منها كتابه المشهور: اليهودية وتاريخ اليهود، انظر: ص ٥١ ـ ١٤٥.

والفكر والتجارب، بدلاً من منهج الكنيسة الاستبدادي الغبي الذي حارب العلوم والفكر العقل.

وقد اعتمدت العلمانية في أوروبة في مواجهة الكنيسة مبدأ فصل الدين عن الدولة، ثم فصل الدين عن الحياة. واتخذت أوروبة منهجاً مغايراً لمناهج الكنيسة التي كانت تدعي لنفسها القداسة والعصمة، واعتماد الوحي والغيبية. وبالتالي اعتمد المنهج العلماني ما يسمّى العقلانية (Rationalism) كمنهج لتغيير حياة ومبادئ ونظم الإنسان، كما اعتمد العلمية (Scientism) أي: اتخاذ العلوم التجريبية، أو المنهج التجريبي المبني على الشك في كل شيء، وعدم اعتماده إلا بعد إجراء التجارب العديدة عليه، والخلوص إلى النتائج الموضوعية.

وتوسع المنهج العلمي من العلوم التجريبية مثل الكيمياء والفيزياء والعلوم البيولوجية والفلك والبحار والطب... إلخ، وامتد ليشمل علوم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والنفس... إلخ، وبالتالي يعتبر المنهج الوحيد المقبول، باعتباره يتخذ التجارب وعلوم الإحصاء والمنطق والعقلانية، وسيلة للوصول إلى الحقيقة، أو ما نعتبره الحقيقة.

وقد استفادت أوروبة في عصر النهضة من المنهج العلمي الإسلامي، وطبّقته، ثم وسّعت مداه ومرّت بالمسلمين ظروف تاريخية أدت إلى تأخّرهم، وبُعدهم عن العلوم والمنهج العلمي الذي دعا إليه الإسلام والقرآن، وطبَّقه المسلمون في أوج حضارتهم تطبيقاً أنار للعالم سبل التقدم والرفاهية، بينما أخذت أوروبة بحظّها الوافر من العلوم الحديثة، وأوجدت علوماً جديدة حديثة. ولا يجادل في هذا إلا مكابر.

ولكن المشكلة ليست هاهنا، **بل المشكلة في المنهج العدائي للدين**، ومنهج الكنيسة الذي وقف في أوروبة موقفاً معادياً للعلم، متمثلاً في موقف الكنيسة، ومحاكم التفتيش والحروب الدينية، ووقوف الكنيسة ورجالاتها مع الأنظمة الإقطاعية، ونظام العبودية (Serfdom)، ومع الاستعمار، وفي إهابه سعت الكنيسة لتنصير البلاد المستعمرة، وقام تحالف غير مقدّس بين الكنيسة والاستعمار والأمبريالية!!.

وأدى هذا كلّه إلى ازدياد النفور بين العلمانية والكنيسة إلى أن حدثت الفجوة والهوة الواسعة بينهما، واضطرت الكنيسة إلى التراجع، وإلى القبول بمبدأ «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» وذلك للحفاظ على ما بقي من المكاسب المادية، وإعفاء ممتلكات الكنيسة من الضرائب. ولا تزال الكنيسة في أوروبة والولايات المتحدة والغرب عموماً، من أغنى الأغنياء، ولديها من الأموال والأراضي والعقارات والبنوك ما يوازي ما لدى أغنى الرأسماليين.

واعتبرت **الداروينية (نظرية النشوء والارتقاء)، ونظريات فرويد في النفس، وماركس في الاقتصاد، ودوركايم في الاجتماع.. من النظريات التي ساهمت مساهمة فعّالة في تقويض الإيمان بالكنيسة والغيبيات، وكل ما تمثله الكنيسة.**

شبلي شميل ينشر الإلحاد والعلمانية:

ولهذا حرص الدعاة إلى العلمانية في العالم العربي على إدخال هذه المفاهيم منذ أول لحظة. وكان حامل لواء الداروينية اللبناني المسيحي العلماني **شبلي شميل** الذي قدم إلى مصر، وكان أحد الرواد المسيحيين (الشوام) الذين نشروا العلمانية في مصر بتأييد ودعم كامل من الاستعمار البريطاني الذي كان مهيمناً على مقاليد الأمور آنذاك.

بل إننا نجد أن كل رجال الإعلام ورجال ما يُسمّى التنوير، ورجال ونساء الفن، كلهم مسيحيون قدموا من الشام (سورية ولبنان) ووجدوا الدعم الكامل من الاستعمار البريطاني، وهم الذين أسسوا الصحافة (الأهرام ـ الهلال ـ أخبار اليوم... إلخ)، كما أنهم هم الذين أسسوا المسرح وفنون الرقص والغناء.. ومنهم ظهرت مجموعة كبيرة من الممثلين والممثلات والفنانين والفنانات.. ثم بعد أن توطن ذلك في مصر ظهر المصريون، أولاً من المسيحيين، مثل سلامة موسى، ثم بعد ذلك من المصريين المسلمين مثل لطفي السيد وتلاميذه.. وقل مثل ذلك في الفن والأدب والمسرح... إلخ.

واعتبر شبلي شميل وتلميذه سلامه موسى أن نظرية التطور (الداروينية) هي

حجر الأساس في محاربة الدين، ولذا بذلت كل الجهود الضخمة لنشر هذه النظرية وتدريسها حتى في المدارس الابتدائية (وأنا أحد الذين تم تدريسهم نظرية التطور في السنة الرابعة ابتدائي في مدارس عدن).

دور اليهود في نشر الماركسية:

وأما **الاشتراكية والماركسية اللينينية** فقد كان أول دعاتها في العالم العربي يهوداً ونصارى. وقد كان لليهود دور بارز في إنشاء الأحزاب الماركسية في العالم العربي، **فالحزب الشيوعي المصري أسسه مليونير يهودي إيطالي مصري هو (هنري كوريل)**، وقُل مثل ذلك في الحزب الشيوعي العراقي، والحزب الشيوعي السوري، والحزب الشيوعي الفلسطيني.. وكان الحزب ينادي بالأخوّة بين الاشتراكيين الماركسيين العرب واليهود. وبما أن الحركة الماركسية اللينينية قامت على أكتاف اليهود في روسيا وأوروبة. وكان روتشيلد المليونير اليهودي الأمريكي ـ الأوروبي يدعم لينين دعماً ماليّاً ضخماً. وكانت روزا نورنبرج اليهودية الألمانية الثائرة، زعيمة الحزب الشيوعي الألماني، فإن اليهود سيطروا على الثورة البلشفية منذ ولادتها.

ولينين نفسه هو اليهودي كيوربوم، أما تروتسكي فهو اليهودي برونشتاين.

وكان لينين يصدر البيان تلوَ البيان يدعو فيه المسلمين للثورة من أجل دينهم وقرآنهم (هاها!! هل يستطيع أن يفعل ذلك سوى يهودي؟!) **استمع إلى بيان لينين إلى المسلمين بعد الثورة البلشفية الذي صدر في (٢٢ نوفمبر ١٩١٧م): «يا مسلمي روسيا.. يا مسلمي الشرق.. أيّها الرفاق.. أيّها الإخوة!..** إن أحداثاً عظيمة تحدث الآن في روسيا.. إن العهد الدموي (الحرب العالمية الأولى) الذي بدأ بسبب أطماع الاستعماريين والأمبرياليين في أرضكم قد قارب النهاية... إن عهد الرأسماليين والأمبرياليين يتداعى، وإن الأرض تميد من تحت أرجلهم وتشتعل الثورة من تحت أقدامهم. وفي خضم هذه الأحداث العظام نلتفت إليكم يا مسلمي روسيا والشرق الذين استرقكم الاستعمار واستلب أموالكم وأراضيكم.

يا مسلمي روسيا ويا تتار الفولجا والقرم، وأيّها القرغيز وسكان سيبيريا

والتركستان.. ويا سكان القوقاس الأبطال وقبائل الشيشان وسكان الجبال الأشداء! أنتم يا من هُدِّمت مساجدكم، وحُطِّمت معابدكم، ومزَّق الطغاة قرآنكم وحاربوا دينكم وثقافتكم وعاداتكم ولغاتكم: ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم وحرياتكم في العبادة. إننا هنا نعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم.. وإن عاداتكم وتقاليدكم حُرّة لا يمكن المساس بها. ابنوا حياتكم الحُرَّة الكريمة المستقلة دون أيّ معوقات، ولكم كل الحق في ذلك، واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية مصونة بقوة الثورة.. لهذا نطلب منكم تأييد الثورة ومساندتها لأنها تقوم من أجلكم ومن أجل حريتكم الدينية والمدنية».

ونحن نعرف كيف فعل بهم لينين بعد نجاح ثورته وبعدما انضموا إليه بعشرات الآلاف، بل بمئات الآلاف، وكيف كانت نهاية زكي ولدي طوقان، وعدد كبير ممن صدّقوا لينين وانضموا إلى الحزب الشيوعي، فكانت نهايتهم الذبح. وماذا فعل لينين بالقوقاس وبشكيريا وتتاريا، ثم ماذا فعل بالتركستان، وكيف أقام المذابح والمجاعات. وكيف قام كالينين اليهودي، ونائب لينين في القرم، بإقامة المذابح والمجاعات في القرم حتى أكلوا جثث موتاهم وأطفالهم. وقد نشرت جريدة أزفستيا السوفييتية في عددها الصادر (١٥ تموز ١٩٢٢م) تقريراً للرفيق كالينين عن القرم بعد أن حاصرها وسبب فيها المجاعة: «بلغ عدد الذين أصابتهم المجاعة في (يناير ١٩٢٢م) (٣٠٢,٠٠٠) شخصاً، مات منهم جوعاً (١٤,٤١٣)، وفي مارس أصيب (٣٧٩,٠٠٠) بالمجاعة، مات منهم (١٩٩٠٢)، وفي أبريل بلغ عدد الذين أصابتهم المجاعة (٣٧٧,٠٠٠)، مات منهم (١٢,٧٥٤)» وهكذا يستمر التقرير بأن الذين أصيبوا بالمجاعة مليون من سكان القرم، مات منهم أكثر من مئة ألف مسلم. وفي نفس التقرير يقول كالينين: إن أكل لحم الأطفال، بل والموتى لم يكن من الحوادث المستغربة أثناء تلك المجاعة.

وكان سكان القرم المسلمين عند دخول القوات الروسية البلشفية خمسة ملايين؛ أُبيد أكثرهم حتى لم يبق عام (١٩٤٠م) إلا أربعمئة ألف فقط!.. وكان المفروض أن يتضاعفوا خلال عشرين عاماً.. ثم جاء ستالين وقتل من قتل،

وطرد سكان القرم المسلمين إلى سيبيريا، وأصدر قانوناً يعاقب بالإعدام كل من قبض عليه من التتار المسلمين سكان القرم الأصليين في القرم!.. وهكذا منع المسلمون من دخول بلادهم وقُتلوا وشُردوا وهُدِّمت مساجدهم ومدارسهم وصودرت أموالهم وأراضيهم وبيوتهم واحتلها الروس والأوكرانيون.. ثم تحولت القرم كلها إلى محافظة تابعة لأوكرانيا!!.

وحاول بعض تتار القرم بعد المجاعة أن يخفف من الويلات فانضم إلى الحزب الشيوعي وتولى قيادته من القرم حتى وصل ولي إبراهيم إلى مركز رئيس جمهورية القرم، إلا أن لينين أمر بقتل ولي إبراهيم هذا وجميع وزرائه عام (١٩٢٨م). وفي عام (١٩٣٠م) أعدموا رئيس الجمهورية الذي تلاه وهو محمد توباي مع جميع وزرائه. وفي عام (١٩٣٧م) تكرر نفس المشهد الأليم حيث أُعدم رئيس الجمهورية إلياس طرخان مع جميع أعضاء حكومته.

وهذا غيض من فيض، ومثل واحد من أمثلة كثيرة متعددة على طول الساحة من قازان واستراخان وبشكيريا إلى قازاقستان وقرغيزيا وتركمنستان وأوزبكستان.

وقد استعرضت الكثير من هذه الثورات والدماء والأشلاء والمذابح المروعة التي قام بها لينين اليهودي وعصابته الحاكمة (أغلبهم من اليهود)، والتي استمرت بعد ذلك بصورة أشدّ وأعني في عهد ستالين وبريا القتلة السفّاكين. وقد استعرضت أمثلة وافية من هذه المجازر للمسلمين واضطهادهم ومصادرة أموالهم وأراضيهم وأوقافهم ومساجدهم ومدارسهم في كتابي: (المسلمون في الاتحاد السوفييتي)[1].

واعتمدت العلمانية العربية على نشر النظريات الحديثة مثل الداروينية (النشوء والارتقاء والبقاء للأصلح)، ونظريات فرويد في علم النفس، والاشتراكية العلمية اللينينية في الاقتصاد ثم تحولت بعد ذلك إلى الرأسمالية بعد تحطم الاتحاد السوفييتي ونهايته غير السعيدة. وكما أسلفنا **كان شبلي شميل المسيحي**

---

(١) إصدار دار الشروق ـ جدة، ١٩٨٣م، وقد نفذ الكتاب منذ زمن ولم يُعَد طبعه للأسف، واكتفى الناشر بالطبعة الأولى ٥٠٠٠ نسخة.

العلماني اللبناني أحد الرواد الكبار في هذا الموضوع، وبذل جهده في مصر، بتأييد من الاستعمار البريطاني الذي فتح له كافة المجالات، **وقام بنشر نظرية النشوء والارتقاء (الداروينية)، وقرر أن المعرفة ليس لها إلا مصدر واحد هو الحواس. «وجميع المعارف الإنسانية اكتسابية صادرة عن الحواس»**[١]، **والعقل ذاته مادي وليس إلا أثراً من آثار الموجات الكهربائية التي تتنقل عبر الأعصاب إلى الدماغ (المخ)**[٢].

وفي نظر شبلي شميل: «الإنسان الطبيعي» هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة. ويترتب عليها الإفصاح بكل وضوح عن تعارض أساسي تغاضت عنه الإصلاحية الإسلامية والمسيحية، وهو **تعارض العلم والدين**، أي: عدم إمكان التوفيق بين الأفكار الدينية كالبعث والروح والمعجزة ونتائج العلم[٣].

«**وبذلك ليس للإنسان شرائع منزلة إلا ما أنزل عليه من الخرافات والأوهام، فشرائع الإنسان من صنع الإنسان وهي تابعة لحالة من الانحطاط والارتقاء..**
ويرى في الدين شعوراً يتطور بتطور المجتمع.. ويضيف عليه رأيه في نشأته (أي: الدين) عن شعور بالخوف من الأشياء الطبيعية التي رأى الإنسان لها تأثيراً وسلطاناً عليه، فتذلّل لها. ثم جعل هذه القوى روحاً، وجعل الروح إلٰهاً. وترقى الدين من أصول الضحية عند الإنسان الهمجي المستمرة في العالم الحديث في الأولياء. ثم اشتمل على نظم اجتماعية لردع الأقوياء، حتى انقلب ذلك إلى تسلط»[٤] (وهي نفس النظرة العلمانية الأوروبية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي).

---

(١) شبلي شميل: المجموعة الكاملة: ١/ ٤٧. **شبلي شميل (١٨٥٠م - ١٩١٧م)**: طبيب وعالم طبيعي، لبناني، علماني، عدو للدين وخاصة الإسلامي. اعتبر نيوتن ودارون إمامين عظيمين من أئمة المادة، ونشر كتابه: فلسفة النشوء والارتقاء، وأشاد بنيتشه وفكرة موت الإلٰه، ونشر مقالاته في المقتطف وغيرها، وأثّر على مجموعة كبيرة من الشباب.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٧.

(٣) د. محمد الجبر: رؤية معاصرة في قضايا التحديث والعلمانية، دار علاء الدين - دمشق، ٢٠٠٣م، ص ٩٨.

(٤) المصدر السابق نفسه.

وقد جعل شميل الداروينية نموذجاً عامّاً لقانون تطوري يشمل نشوء وترقي الإنسان واللغة والشرائع. وقال: إن تاريخية المجتمعات كتاريخية الطبيعة. واعتبر فكرة الألوهة هامشية في الحياة العقلية. بل وزاد على ذلك أن التمسك بها إنما هو تعطيل للعقل والتنوير والتحديث والتقدم!![١] (وتبنّى فكرة موت الإلٰه التي نادى بها نيتشه).

وقد أطلق جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده على هؤلاء اسم «الدهريين»، ووضع الأفغاني رسالته في (الرد على الدهريين). وتحدّث الأفغاني طويلاً عن العقل الذي جعله الله فاصلاً بين الإنسان والحيوان.. وكلما ارتقى الإنسان سما بروحه إلى العالم العقلي[٢]. لذلك كان للعقل عند الأفغاني دور أخلاقي يتمثل في تهذيب النفس، وتطهيرها من دنس الرذائل.

وللأسف فإن التيار العلماني في البلاد الإسلامية عرباً وعجماً وجد دعماً قويّاً من القوى الاستعمارية، ونمت حركة «تركيا الفتاة» إلى «الاتحاد والترقي»، ثم إلى الحكم الاستبدادي العسكري الطاغوتي العلماني لكمال أتاتورك الذي لا يزال يهيمن إلى حدٍّ ما على الأمور في تركيا العلمانية، بعد مرور أكثر من ثمانين سنة على إلغائه الخلافة ومحاربته للإسلام. ورغم أن كل الأصنام الطاغوتية قد سقطت في الاتحاد السوفييتي ونُبش قبر ستالين، وانتهت ثورة ماوتسي تونج في الصين إلا أن الغرب يدفع الجيش التركي للتمسك بالعلمانية بقوة السلاح، رغم أن الشعب التركي المسلم قد لفظها، ودعا إلى رحاب الإسلام قولاً وعملاً.

وقد كان العلمانيون في البلاد الإسلامية يحذون حذو كمال أتاتورك، وقد قام رضا بهلوي الضابط الأميّ بالاستيلاء على الحكم في إيران من بقايا الدولة القاجارية بدعم وتأييد من الدول الغربية، ثم جاء بعده ابنه محمد رضا بهلوي آخر شاهات إيران الذي قضت عليه الثورة في إيران بقيادة الخميني (١٩٧٩م).

وفي أفغانستان حاول أمان الله خان أن يسير على نفس الخط العلماني

---

(١) شبلي شميل: المجموعة الكاملة: ١/ ٧٧.

(٢) جمال الدين الأفغاني: رسالة الرد على الدهريين، ص ١٤٢.

فواجه ثورة الشعب، ثم جاء نادر خان وخفَّف من تلك النزعة العلمانية، ولكن ابنه محمد ظاهر شاه الذي جاء بعده سار على نفس الخط العلماني حتى تحوّلت أفغانستان إلى الشيوعية، والتدخل السوفييتي، وما أعقبه من حرب انتهت بخروج الروس مدحورين، مع نفوذ ضخم للولايات المتحدة، مما أدى إلى عرقلة إيجاد دولة إسلامية، وإلى إثارة الحروب الأهلية بين الفرقاء المتنازعين على السلطة ممن كانوا يسمون «المجاهدين»، ثم ظهور طالبان.. وما تبعها من غزو أمريكي سافر لأفغانستان بعد أحداث (١١ سبتمبر ٢٠٠١م) وقيام أمريكة والحلف الأطلسي باحتلالها عسكرياً وبالحكم شبه المباشر بواسطة العميل كارزاي.

وفي البلاد العربية كانت الأنظمة كلها قد اتخذت النظام الغربي الأوروبي الذي أدخله الاستعمار، وتم إقصاء الشريعة عن حياة الناس وقوانينهم، وأخذ هذا المنحى درجات مختلفة في الشدَّة من بلد لآخر. فعلى سبيل المثال كان الوضع في تونس، ولا يزال علمانياً خالصاً، بينما هو في البلاد الأخرى يتأرجح بين الإسلام والعلمانية. وبقيت المملكة العربية السعودية واليمن تحكم بالشريعة، ثم تبعتها السودان، وبدأت إصلاحات عديدة نحو الشريعة في الكويت، وبدرجة أقل في دول الخليج الأخرى ومصر.

والشاهد أن الشعوب اتجهت بقوة إلى الإسلام بما في ذلك خريجو الجامعات وخاصة الكليات العلمية، مثل الطب والبيولوجيا والهندسة، والعلوم، والفلك، وعلوم البحار، والجيولوجيا.. وشكَّل هؤلاء العلماء العمود الفقري للحركات الإسلامية. وهو ما سبَّب صدمة مريعة للعلمانيين الذين يتشدَّقون بالعلمية (Science) فوجدوا أن رجال العلم في غالبيتهم الساحقة يرفعون راية الإسلام، ويحاربون راية الكفر والعلمانية.

ويتحدّث العلمانيون بألفاظ فضفاضة عن التقدم والنهضوية واتّباع أوروبة وتقليدها في كل شيء. ويقول د. محمد الجبر[(١)]: و«العلمانية قدَّمت نفسها في

---

(١) د. محمد الجبر: رؤية معاصرة في قضايا التحديث والعلمانية، ص ١٠٠ ـ ١٠٥.

الفكر العربي بأنها البديل عن الهيمنة الدينية في المجتمع العربي، وهي تمثل وجهاً من أوجه التحول الذي كان دعاة العلمانية يطمحون إلى تحقيقه.. فأصبحت بهذه العلمانية شعاراً لتحقيق طريق التقدم».

ويتحدّث عن **المجتمع المدني والعلمنة** قائلاً: «**إن فكرة المدنية والعلمانية في المجتمع تعتبر من مظاهر عقلنة الوجود البشري، والعلمانية مثل العلم هي إحدى نتائج العقل (دعوى بلا دليل)**. ومن هذه النظرة نستطيع أن نرى أن المجتمع المدني هو عبارة عن المجتمع المستقلّ الذي يهدف إلى تنظيم المدنيّة بمنأى عن أيّ احتمالات سابقة... وتحاول العلمانية والمجتمع المدني ترتيب علاقات وحياة المجموعات سلميّاً. **وجَعْل العقل والعلم هما القاسم المشترك، أي: الاعتراف المتبادل بالمصالح وحرية الاعتقاد[1]، لذا هناك رؤية ترى أن العلمانية والمجتمع المدني هما مهمة تاريخية تقتضي إنجازها (نعم قد رأينا كيف أنجزها كمال أتاتورك بالحديد والنار، وكيف طبقتها الأنظمة الماركسية في التركستان والقوقاس والقرم وبشكيريا وقازان... إلخ، ثم كيف طبّقوها في البلاد العربية والإسلامية.. وكلها مجازر وطغيان ودماء، ومع ذلك يستمرون في كذبهم وتشدّقهم باسم الحرية والديمقراطية والمساواة والعلمانية... إلخ، وما رأينا منهم إلا الطغيان والاستبداد حتى انهارت بفضل الله تلك الأنظمة الطاغوتية).. ويتحدّث محمد الجبر: بأنه لم يعد هناك مجال موضوعي لاستمرار المجتمع والدولة على الدين، وأن ذلك هو عين التأخُّر والانغلاق والتدهور والظلامية.. ولا بد من الاستفادة من كل ما وقع في أوروبة من تقدم، ومواكبة المدنية الحديثة القائمة على العقل والعلم والتكنولوجيا!! ولا سبيل للتطور والتقدم إلا بفصل**

---

(١) لقد استطاعت المجتمعات الإسلامية منذ العهد المدني في أيام الرسول ﷺ إلى الدولة العثمانية أن تقيم مجتمعات تعددية المذاهب والأديان والأعراق، وعاشوا جميعاً في سلم وسلام وتعاون ليس له نظير إلى اليوم، ولا يشترط في ذلك النظام العلماني لتحقيق ذلك بل الإسلام نفّذه بالفعل على أعلى درجات التسامح الذي لم تعرف له الدنيا نظيراً إلى اليوم.. انظر كتابي: معاملة غير المسلمين، دار القلم ـ دمشق.

الدين عن الدولة وفصل الدين عن المجتمع، وفصل العلم عن الدين. والعلمانية هي وجه من أوجه التحديات الثقافية التنويرية في المجتمع العربي المعاصر..
وينقل عن ألبرت حوراني في أن العلوم الأوروبية والمدنية الأوروبية هي الخير والتقدم والنور، وأساس النظام الخُلقي، والاجتماعي، ولا سبيل لنا إلا بأخذ كل ما جاءت به أوروبة ومحاربة موجة التدين المتخلفة!!».

«**وكما يرى شبلي شميل**[1] **فإن الدين والعقل ضدان لا يلتقيان مطلقاً..**» ولا مجال للتوفيق أو الجمع بين الاثنين؛ فالديانات تتشابه من حيث الوحي أو ما هو بمعناه (هو أصلاً يُنكر الوحي وكل الغيبيات)، فإنك لا ترى ديانة اضمحلت أو انحطت ولا تزال قائمة إلا وسندها الحي وقاعدتها الإيمان.. وباطلاً يتعب البشر على إقامة الأدلة العقلية والبراهين الفلسفية لتأييد ذلك، والأولى لهم أن لا يخرجوا من وراء حصن الإيمان والتسليم.. على العكس من ذلك فهؤلاء القوم يدّعون العقلانية والعلمية وقبول الرأي الآخر، وهم على العكس من ذلك كما هو واضح من مقالاتهم وأفعالهم وتاريخهم الدموي الهمجي في تركيا العلمانية، والأنظمة البوليسية القمعية، والتجارب الماركسية التي حصلت في المناطق الإسلامية من الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية والبلاد العربية والإسلامية، لا يقبلون لا منطقاً ولا حواراً ولا عقلاً ولا علماً ولا جدلاً.. وسيلتهم الوحيدة عندما يملكون القوة القتل للآخرين، وإبادتهم وتصفيتهم الجسدية باعتبارهم من مزبلة التاريخ، ولا بد من تصفيتهم، وإذا تحنّنوا وأصابتهم الرقة والإنسانية (والمفروض أن العلمانية ضد هذه الأخلاق المتخلّفة البدائية) فإن أقصى ما يسمحون به هو أن يترك لهؤلاء حرية الذهاب إلى المسجد والصلاة فيه.. ولكن لا يسمح لهم بالدعوة إلى دينهم ولا يمكّنوا أبداً من الوصول إلى أجهزة الإعلام التي ينبغي أن تبقى دائماً وأبداً بيد العلمانيين المتنوِّرين، لا بيد الجهلة الظلاميين أعداء الإنسانية، والذين يدعون إلى العودة إلى الدين!!.

---

(١) شبلي شميل: فلسفة النشوء والارتقاء: ١/ ٤٩.

وتمَّ تقديس الثورة الفرنسية باعتبارها الثورة العلمانية الأولى، واعتبار الغزو الفرنسي لمصر على يد نابليون بونابرت هو بداية حركة التنوير والنهضة.. وتمجيد المحتل والخضوع له، ولا شك أن هؤلاء كانوا يحصلون على المكانة اللائقة بهم في المجتمع من المستعمر الغاشم لأنهم أداته ووسيلته إلى تثبيت حكمه ونشر ثقافته.

وللأسف: فإن تاريخ العلمانيين هو تاريخ الخيانة التامة للوطن وللدين وللأمة. وكم ساروا في ركاب المستعمر، وكم صنعوا عملاء وذيولاً له في مقابل ما يقدّمه لهم المستعمر من مناصب وتعليم حديث لأولادهم وأموال ومراكز هامة في الدولة والإعلام.

وقد لاحظ رفعت السعيد نفسه: أن الجيل الأول من هؤلاء العلمانيين قدموا إلى مصر من الشام وكانوا كلّهم من النصارى، وعملوا في خدمة المستعمر الذي مكَّن لهم من الإعلام والصحافة والجامعة والفن والأدب.. واعترف رفعت السعيد: بأنهم كانوا في ركاب المستعمر ضد الشعب المصري المناضل البطل الذي وقف في وجه نابليون بونابرت ثم في وجه الاستعمار البريطاني.. ولعب الأزهر والدين في ذلك الدور الأساسي.. وكان الأزهر دائماً قلعة الصمود الوطنية ومكافحة الاستعمار. وأما هؤلاء العلمانيون فكانوا دائماً أذناباً للمستعمر ويعملون في خدمته: (شبلي شميل، فرح أنطون، يعقوب صرّوف، بطرس بطرس غالي الجد، ثم الأب).

والتقى الرافد العلماني في المسيحي القادم من بيروت ودمشق بالمستعمر في مصر، وعمل في خدمته حتى تم إنجاز المهمة وإيجاد جيل من المصريين ومن المسلمين ممن أمكن تغريبهم وعلمنتهم! ولكن هذا التيار العلماني كان بعيداً عن عمق المجتمع المصري وعن الشعب، وكان مجتمعاً نخبويّاً دُفع إلى المناصب الهامة في الجامعة والإعلام والفن والأدب، ورغم ذلك لم يحقق هذا التيار أيّ تقدم شعبي، بل على العكس من ذلك بدأ يتآكل بمرور الزمن، وبتخرج الملايين

من الجامعات والكليات العلمية، والذين اتجهوا اتجاهاً مغايراً تماماً للعلمانية إلى نقيضها، وهو الإسلام.

والعلمانية اليوم تعرف ضعفها وبعدها عن الشعوب المسلمة المؤمنة فتتقوّى دائماً بالأجنبي؛ سواء كان مستعمراً استعماراً مباشراً، أو أمبرياليّاً يتحدّث عن الديمقراطية كما تفعل الولايات المتحدة اليوم وليس لديها إلا المذابح والمجازر والسجون في العراق وأفغانستان وغوانتينامو، ودعم المذابح الإسرائيلية في فلسطين ولبنان.

ويعترف محمد الجبر[١] بأن «العلمنة في فكرنا العربي الناهض المعاصر تبدو إشكالية أكثر منها حدثاً أو تاريخاً، وهي أولى المفارقات الأساسية التي تقوم بينها وبين العلمنة في المجتمعات الأوروبية عامة، فالعلمنة في سياقها الأوروبي عبارة عن واقع تاريخي فكري واقتصادي واجتماعي وسياسي، بينما هي في الفكر العربي إشكالية نظرية وسياسية لم تجد من التحولات التاريخية ما يكفي لتحليلها إلى وقائع، لرفعها من مستوى الطموح إلى الصيرورة والحتمية».

وهو اعتراف يعني أن العلمانية العربية أُستوردت استيراداً مع المستعمر الأوروبي الذَي استخدم مجموعة من نصارى الشام لنقلها إلى مصر، أكبر البلاد العربية وأشدّها تأثيراً، ولكن هذه العلمانية المنقولة بقيت على السطح في مجتمع النخبة الذي صنعته الإدارات الاستعمارية المتتالية، ولم يستطع قط أن يلتحم بالشارع وبالشعب الذي كان دوماً مرتبطاً بالمسجد وبالأزهر.. ومما زاد موقفهم خزياً وذلة وعاراً وشناراً موقفهم المؤيّد للمستعمر ومحاربتهم للمدِّ الوطني، فكانت النتيجة وبالاً عليهم، مما جعلهم يستدركون ذلك ويحاولون الالتفاف عليه ويدّعون محاربة الاستعمار والأمبريالية... إلخ.. ولهذا اتجه كثير منهم إلى الاشتراكية والماركسية.. ولم يمانع الاستعمار في ذلك، بل سمح لهم بهذه الأحزاب الاشتراكية التي كان مؤسسوها من اليهود المليونيريين؛ مثل هنري

---

(١) د. محمد الجبر: رؤية معاصرة في قضايا التحديث والعلمانية، ص ١١١.

كورييل (وهو أمر مناقض للمنطق والعقل؛ إذ كيف يقوم رأسمالي قذر بتأسيس حزب شيوعي ماركسي لينيني يدعو للقضاء على الرأسمالية والكبمرادورية والإمبريالية...؟!) ثم تولى أمرها بعض الأقباط النصارى في مصر مثل سلامة موسى الذي أنشأ حزباً اشتراكيّاً سنة (١٩٢٠م) مع دعوة صريحة للعلمانية، ونبذ الدين ومحاربته ومحاولة القضاء عليه بكل وسيلة ممكنة[1].

وهكذا كانت العلمانية مقصورة أول الأمر على نفرٍ من الكتاب المسيحيين وتبعاً لمصالحهم الخاصة، ثم انتشرت لدى النخبة المثقفة ثقافة غربية شملت عدداً من المصريين المسلمين.

نظرية التطور (نظرة النشوء والارتقاء، الداروينية):

بما أن العلمانيين اعتمدوا اعتماداً كبيراً على نظرية التطور في محاربتهم للدين، فإننا سندرس هاهنا نظرية التطور، وكيف أنها نظرية قديمة قال بها اليونان (وسبقهم ببعض جوانبها الهنود)، ثم أخذت منحى واسعاً لدى المسلمين.. وهو أمر سيصدم هؤلاء العلمانيين صدمة كبيرة، إذ إن نظرية التطور عند المسلمين استخدمت لتدعيم الإيمان بالله وبالوحي وبالرسالات، وهو مناقض تماماً لما فعلته أوروبة في العصر الحديث؛ حيث استعملت نظرية التطور لإثبات الكفر والإلحاد ومحاربة الدين.

وبما أني قد كتبت فصلاً طويلاً عن هذه النظرية في كتابي (خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الطبعة ١٣) فإنني سأنقل منه ما يناسب المقام هاهنا.

المسلمون الأوائل ونظرية التطور:

لقد استخدم كثير من فلاسفة المسلمين ومفكريهم نظرية التطور لإثبات النبوّة، ولم تكن نظرية التطور عندهم مدعاة للكفر والإلحاد، كما فعل اليهود

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٥.

بنظرية دارون؛ حيث جعلوها معولاً لهدم الأديان، وخاصة المسيحية التي يحتقرونها ويعادونها (سرّاً) أشدّ العداء.

ولم ير علماء الشريعة والدين في هذه النظرية مدعاة للكفر، بل وقفوا منها موقفاً محايداً، وهو إن صحَّت هذه النظرية فهي توضح قدرة الخالق سبحانه وتعالى، ويكفي ما ذكره الفخر الرازي في تعليقه على ما نُسِبَ إلى الإمام محمد الباقر أنه قال: «قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر». وقال الرازي: «وهذا لا يقدح في حدوث العالم، بل الأمر كيف كان، فلا بد من الانتهاء إلى إنسان هو أول الناس. وأما أن ذلك الإنسان هو أبونا آدم فلا طريق إلى إثباته إلا من جهة السمع».

أحمد بن سهل البلخي[١]: لعلَّ أحمد بن سهل البلخي كان أول من ذكر نظرية التطور من المسلمين فقال في كتابه (البدء والتاريخ): «إن الحيوان قد تولَّد من الرطوبة، وإنه كان يغشاه مثل قشور السمك، ولما أتت عليه السنون صارت إلى الجفاف واليبس فانقشر عنه ذلك القشر.. فهذا جملة قولهم في ظهور الحيوانات، وآدم حيوان. فعند بعضهم: أن آدم تولَّد من رطوبة الأرض، كما يتولّد سائر الهوام، وكان جلده كجلد السمك، وعند آخرين أنه (أي: آدم) ظهر شيئاً بعد شيء، ثم تركب على مرور الأزمان وصار إنساناً».

أحمد بن محمد مسكويه[٢]: يقول في كتابه: (تهذيب الأخلاق وتطهير

---

(١) **أحمد بن سهل البلخي**: البدء والتاريخ: ٨/ ٧٥. ولد أحمد بن سهل في إحدى قرى بلخ بشمال أفغانستان سنة (٢٣٥هـ/ ٨٤٩م)، وجمع بين علوم الشريعة والفلسفة والآداب والفنون. عرض عليه حاكم بلخ الوزارة فرفضها. له العديد من المؤلفات أشهرها: البدء والتاريخ، وأخلاق الأمم، وكتاب السياسة (الكبير والصغير)، ونظم القرآن، وكتاب شرائع الأديان.. وكانت وفاته سنة (٣٢٢هـ/ ٩٣٤م). انظر: الزركلي: الأعلام: ١/ ١٣٤؛ وياقوت: معجم الأدباء ١/ ١٤١؛ ودائرة المعارف الإسلامية: ٤/ ٨٤.

(٢) **أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه**: وفاته سنة (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، مؤرّخ أصله من الري (قرب طهران)، ووفاته بأصبهان (إيران)، اشتغل بالفلسفة والكيمياء والتاريخ والأدب. من كتبه: تهذيب الأخلاق، وتجارب الأمم وتعاقب الهمم.

الأعراق): «إن الموجودات كلها سلسلة متصلة، وكل نوع من الموجودات يبدأ بالبساطة ثم يترقى ويتعقد حتى يبلغ أفق الذي يليه، فالنبات في أفق الجماد، ثم يترقى حتى يبلغ أعلى درجة، فإذا زاد عليها قَبِلَ صورة الحيوان، وكذلك الحيوان يبدأ بسيطاً ثم يترقى حتى يصل إلى مرتبة قريبة من الإنسان».

ويزيد الموضوع تفصيلاً في كتابه (تهذيب الأخلاق)، ويتحدّث عن التطور من الجماد إلى أول أفق النبات والحشائش وما لا بذر له الذي يتطور حتى يصل أقصى مداه في النخل والكرمة، الذي تتمايز فيه الذكورة والأنوثة. ثم ينتقل إلى الحيوان الذي يبدأ من المرجان والحلزون، ثم يتطور ويتمايز حتى يصل إلى مختلف درجات الحيوان، فيصل إلى أقصى مداه في القرد الذي يحاكي الإنسان من تلقاء نفسه ويتشبه به من غير تعليم.. ويبلغ من ذكائها أن تستكفي بالتأديب بأن ترى الإنسان يعمل عملاً فتعمل مثله.. وهذه غاية أفق الحيوان التي إن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن أفقه وصار في أفق الإنسان الذي يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التي يستعملها والصور التي تلائمها.

ولا يقف التدرج عند أفق الإنسان بل يتفاضل الناس بين أمم لا تتميز عن القرود إلا بمرتبة يسيرة، وأمم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم، فيصير فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل.. ثم يستعد الإنسان بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالإرادة والسعي والاجتهاد، الذي ذكرناه فيما تقدّم، حتى يصل إلى آخر أفقه.. فإذا صار إلى آخر أفقه اتصل بأول أفق الملائكة، وهذه أعلى مرتبة الإنسان.. وعندها تتأحَّد الموجودات ويتصل أولها بآخرها، وهو الذي يسمّى دائرة الوجود، لأن الدائرة هي التي قيل في حدّها: إنها خط واحد يبتدئ بالحركة من نقطة وينتهي إليها بعينها. ودائرة الوجود هي المتأحِّدة التي جعلت الكثرة وحدة، وهي التي تدل دلالة صادقة برهانية على موجدها، وحكمته وقدرته تبارك اسمه وتعالى جدُّه، وتقدَّس ذكره..

إلى أن يقول، مخاطباً طالب المعرفة: «وحدث لك الإيمان الصحيح وشهدتَ ما غاب عن غيرك من الدهماء وبلغت أن تتدرج إلى العلوم الشريفة..

وحينئذٍ تستعد لقبول مواهب الله عزَّ وجلَّ وعطاياه، فيأتيك الفيض الإلٰهي فتسكن عن قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية وتلحظ المرتبة التي ترقَّيت منها. . وعلمت أن الإنسان لا يتم كماله إلا بعد أن يصل إلى ما قبله. وإذا صار إنساناً كاملاً، وبلغ غاية أفقه أشرق نور الأفق الأعلى عليه وصار إما حكيماً تامّاً، تأتيه الإلهامات فيما يتصرَّف من المحاولات الحكمية والتأييدات العلوية في التصويرات العقلية، وإما نبيّاً مؤيَّداً، يأتيه الوحي على ضروب المنازل التي تكون له عند الله تعالى ذكره. فيكون حينئذٍ واسطة بين الملأ الأعلى والملأ الأسفل، ولذلك تكثر حاجات الناس إلى المقوِّمين والمنفعين».

وهكذا يستخدم ابن مسكويه هذه النظرية في إثبات أن الإنسان عندما يترقى إلى أعلى درجاته في حالة النبوّة، يستطيع أن يتصل بأفق الملائكة، ويستطيع أن يفهم عن الملك ويتلقى عنه الرسالة، وهو في ذلك كله لم ينسلخ عن بشريته؛ إلا أن قوة روحانية النبوّة تجعله يستطيع أن يتلقى عن الملك.

ونرى نفس هذا الاتجاه عند **الفارابي**(١)، وإن كان الفارابي أسبق منه في الوجود؛ يقول الفارابي: «إن الله سبحانه وتعالى خلق الموجودات على ترتيب من الأبسط والأخس والأدنى إلى المعقَّد والأعلى، إلى أن تنتهي إلى أفضلها الذي لا أفضل بعده (وهو الإنسان). فأخسها المادة الأولى المشتركة، والأفضل منها الإسطقسات، ثم المعدنية، ثم النبات، ثم الحيوان غير الناطق، وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه».

إخوان الصفا(٢): جاء في الرسالة العاشرة من رسائل إخوان الصفا: «اعلم

---

(١) **الفارابي**: أبو النصر محمد بن محمد بن طرخان، من مواليد فاراب في أوزبكستان (اليوم). من أشهر فلاسفة المسلمين، وأول من نقل كتب أرسطو وشرحها وعلَّق عليها، ولذا سُمِّي بالمعلّم الثاني (لأن أرسطو، حسب زعمهم، هو المعلم الأول). له نحو مئة كتاب في مختلف أبواب الفلسفة التي كانت تشمل الإلٰهيات والطب والرياضيات والسياسة والمنطق والفلك والموسيقى. ودرس الحديث النبوي على يد هشام بن عمار وعبد الله بن بشير ودحيم وغيرهم. ورُوي عنه الحديث. كانت وفاته سنة ٣٣٩هـ.

(٢) **إخوان الصفا**: جماعة دينية سياسية فلسفية، وهم شيعة إسماعيلية، اتخذوا البصرة مقرّاً، =

يا أخي، أن أول مرتبة النباتية أو دونها مما يلي التراب هي خضراء الدمن (طحالب المستنقعات)، وآخرها وأشرفها مما يلي الحيوانية النخل.. وإن أدون الحيوان وأنقصه هو الذي ليس له إلا حاسة واحدة، وهو الحلزون.. وليس لها سمع ولا بصر ولا شم إلا ذوق اللمس فحسب، وهكذا أكثر الديدان التي تكون في الطين.. لأن الحكمة الإلٰهية لم تعطِ الحيوان عضواً لا يحتاج له».

ويرون أن النبات متقدّم على الحيوان في الوجود، والحيوانات البسيطة والناقصة الخلقة متقدّمة في الوجود على الحيوانات التامة الخلقة، وأن حيوان الماء وُجد قبل حيوان البر بزمان طويل.. والحيوانات كلّها متقدمة على الإنسان، وأن أعلى الحيوانات القرد الذي يحاكي الإنسان، ثم يرتفع المقام إلى صاحب الفكر والرؤية وهو الإنسان. ويتفقون في ذلك مع أحمد بن سهل البلخي والفارابي وابن مسكويه: بأن الإنسان يرتفع في قوة روحه عند الأنبياء حتى يستطيع أن يتصل بالملأ الأعلى، وأن يأخذ عن الملك.

القزويني: ونجد نفس الاتجاه فيما بعد عند زكريا القزويني، المتوفى سنة (٦٨٢هـ)، تولى القضاء في واسط والحلة بالعراق، وأشهر كتبه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات). ويقسّم القزويني الأجسام إلى نامٍ وغير نامٍ، وهو يقابل تقسيمها اليوم إلى مواد عضوية ومواد غير عضوية. «وإن أول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة. فإن المعادن متصلة أولها بالتراب أو الماء وآخرها بالإنسان، والنفوس الإنسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية».

ونجد الاتجاه ذاته عند **محمد بن شاكر الكتبي** المتوفى سنة (٧٦٤هـ)،

= وكان ظهورهم في القرن الرابع الهجري، وظهرت لهم (٥٢) رسالة لمؤلفين مختلفين. وأكثر تأثرهم بالفلسفة اليونانية، ولكنهم يجمعون معها فلسفة الهنود والفرس. ويرون أن العلم قد صدر عن الله كما يصدر الكلام عن المتكلم، وهي نظرية الفيض المعروفة التي قال بها أفلاطون وتوسّع فيها من بعده أفلوطين، وقَبِلَها معظم فلاسفة المسلمين.

الذي يقول عن طبائع القرد: «إن هذا الحيوان (أي: القرد) عند المتكلّمين في الطبائع مركَّب من إنسان وبهيمة. وهو من تدرج الطبيعة من البهيمة إلى الإنسان».

والحديث عن القرد يمتد إلى **الإمام جعفر الصادق** (المتوفى سنة ١٤٨هـ)[١]. فقد نقل الأستاذ العقاد في كتابه (الإنسان في القرآن) عن الشيخ محمد رضا آل التقي ما جاء عن جعفر الصادق في القرد وشبهه الظاهر بالإنسان في كثير من أعضائه الظاهرة والباطنة، «وخُصَّ مع ذلك بالذهن والفطنة.. ويحكي كثيراً مما يرى الإنسان يفعله، حتى إنه ليقرب من خلق الإنسان وشمائله أن يكون عبرة للإنسان نفسه، فيعلم أنه من طينة البهائم وسنخها (أي: أصلها)، إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب. وأنه (أي: الإنسان) لولا فضيلة فُضِّلَ بها في الذهن والعقل والنطق كان كبعض البهائم.. على أن في جسم القرد فضولاً أخرى تفرِّق بينه وبين الإنسان كالخطم والذنب المسدل والشعر المجلِّل للجسم كله، وهذا لم يكن مانعاً للقرد أن يلحق بالإنسان لو أعطي مثل ذهن الإنسان وعقله ونطقه».

ولمحمد بن موسى الدميري (٧٥٠ ـ ٨٠٨هـ)[٢] كلام مطوّل عن القرد في

---

(١) **الإمام جعفر الصادق:** بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين السبط شهيد كربلاء ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين بنت خير البرية محمد ﷺ. مولده بالمدينة المنورة سنة (٨٠هـ)، ووفاته بها سنة (١٤٨هـ)، وقبره معروف بالبقيع مع آبائه. من أجلاَّء التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم. أخذ عنه كبار الأئمة؛ منهم الإمام أبو حنيفة النعمان والإمام مالك، وكانت بينه وبينهم مودة وطيدة. لُقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه أنه كذب ولو مزاحاً قط، لا في صغره ولا في كهولته، وكان جريئاً في الحق مع خلفاء بني العباس رغم زهده الشديد في الدنيا. وكان من تلاميذه جابر بن حيان، أشهر كيميائيي العرب والمسلمين. وللإمام جعفر أقوال في الطب تدل على سعة علمه وعمق فهمه، وأما في علوم الدين والشريعة فهو المرجع فيها في زمنه.

(٢) **محمد بن موسى الدميري** (٧٥٠ ـ ٨٠٨هـ/ ١٣٤٩ ـ ١٤٠٥م): المنسوب إلى دميرة في دلتا مصر. درس الفقه والحديث ودرَّسهما في القاهرة ومكة، وشرح منهاج النووي في الفقه الشافعي. وأشهر كتبه: (حياة الحيوان). وكان زاهداً فاضلاً كثير الصيام.

كتابه الموسوعي (حياة الحيوان)، وأنه أشبه الحيوانات بالإنسان، وأنه يقبل التلقين ويمشي على رجليه حيناً، ولشعر عينه الأسفل أهداب، ويأخذ نفسه بالزواج ويغار على أنثاه، وهما من مفاخر الإنسان (لم يعد ذلك في هذا الزمان النكد، حيث ذهبت الغيرة وخاصة في الغرب، واستبدل الزواج بالمخاللة مع انتشار الشذوذ الجنسي).

جلال الدين الرومي[١] (٦٠٤ ـ ٦٧٢هـ/ ١٢٠٧ ـ ١٢٧٣م): يعتبر جلال الدين الرومي من الصوفية الشعراء ذوي الحس المرهف مع تمتعه بثقافة واسعة جدّاً، يشهد عليها ديوانه الضخم (ستة مجلدات بالفارسية ترجمت إلى العربية) المعروف باسم المثنوي. وقد نقل لنا الشاعر الفذّ محمد إقبال في كتابه (تجديد الفكر الديني)[٢] ما قاله جلال الدين الرومي، وهو يصور نظرية التطور عند المسلمين، وكيف استطاع هذا الشاعر الموسوعي أن يصيغها في قالب شعري ينبض بالحياة. يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«عشتُ تحت الثرى في عوالم من تبر وحجر، ثم ابتسمتُ في ثغور زهرات عديدة الألوان، ثم جبتُ مع الوحش والزمان المتنقل فوق ظهر البسيطة، وعلى متن الهواء وفي مناطق المحيط، وفي ميلاد جديد غطستُ في الماء، وحلَّقتُ في الهواء، وحبوتُ على بطني، وعدوتُ على قدميَّ، وتشكَّلَ سرُّ وجودي كله في صورة أظهرت كل ذلك للعيان، فإذا أنا إنسان. ثم أصبح هدفي أن أكون في صورة ملاك في ملكوت وراء السحاب، وراء السماء، حيث لا يمكن لأحد أن يتبدل أو يموت. ثم أعدو بعيداً، وراء حدود الليل والنهار، والحياة والموت،

---

(١) **جلال الدين الرومي**: ينتسب إلى أبي بكر الصديق ﷺ. ولد ببلخ بشمال أفغانستان، وانتقل به أبوه إلى نيسابور، وتنبأ له الشاعر العطار بمستقبل باهر وهو ابن ثلاث سنين.. وتنقل في البلاد مع والده إلى بغداد ودمشق ومكة، واستقر في قونية تحت كنف الأمير السلجوقي علاء الدين قيقباذ، ومن هنا لقب بالرومي. والتقى شمس الدين التبريزي الذي كان له عليه أعظم الأثر. أسَّس الطريقة المولوية المنسوبة إليه والموجودة إلى اليوم في تركيا.

(٢) د. محمد إقبال: تجديد الفكر الديني، ص ٢١٤.

مرئية كانت أم غير مرئية، حيث كان ما هو كائن، كان دائماً واحداً وكلّاً».

وهكذا نرى قصة التطور في صورة شعرية أخّاذة تبدأ من التراب أو الحجر، أما التبر فيشير فيه إلى الروح.. وتظهر الحياة في صورة نباتات بسيطة أولية، ثم تتعقَّد حتى تصل آخر أفقها في النباتات ذوات الأزهار، وخاصة منها ما يتمايز إلى ذكر وأنثى. ثم تنتقل إلى أفق الحيوان ابتداء من المرجان والحلزون، ثم يتمايز ويتطور حتى يصل إلى الزواحف والأسماك، ثم يطير في الهواء مع من طار من مخلوقات، ثم عاد إلى الأرض ليحبو على بطنه مثل الزواحف، ثم بلغ منتهى تطوره في الرئيسات (Primates) من أمثال القردة وما بعدها من أشباه الإنسان، وعدا على قدميه، وهو يصور الإنسان الواقف على قدميه منطلق اليدين، ثم تشكل سرّ وجوده وبلغ مرحلة الإنسان العاقل الحكيم (Homo Sapiens). ولم يكتفِ بذلك، بل انطلق مع النظرية التطورية الإسلامية ليصل إلى عالم الملائكة مع رفرفات الروح وألَق الأنفس الطاهرة لتتجاوز السحاب وراء السماء، ولتبقى الروح خالدة وراء الحياة والموت متصلة بخالق الكل في ذلك النور السرمدي.

الفخر الرازي (محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ): يقول في كتابه (المباحث المشرقية)[١]: **إن بدن الإنسان إنما وجد لأنه أجزاء مخصوصة المقادير من العناصر تفاعلت تفاعلاً مخصوصاً، وذلك التفاعل تبع لاجتماع تلك الأجواء المخصوصة المقادير**. ولا شك أن حصول تلك الأجزاء على تلك المقادير ممكن، وتفاعلها على الوجه المخصوص ممكن، والمعلَّق حصوله على الممكن ممكن. فإذاً، حصول بدن الإنسان ممكن على طريق التوليد، وستعرف أنه متى حصل البدن على كمال استعداده فاضت النفس المدبرة والقوى المتصرفة عن واهب الصور (وهو الله سبحانه وتعالى)، فإذاً حدوث الإنسان بالتولد ممكن.

ابن خلدون[٢] (عبد الرحمٰن بن محمد بن خلدون الحضرمي ٧٣٢ ـ

(١) المباحث المشرقية، للفخر الرازي، طبعة حيدر آباد الدكن، سنة ١٣٤٣هـ: ٢/ ٢١٩.

(٢) **عبد الرحمٰن بن خلدون**: الحضرمي الأصل، من ولد الصحابي الجليل وائل بن حجر، =

٨٠٨هـ/ ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م): يقول ابن خلدون في **المقدّمة** تحت باب «**تفسير حقيقة النبوّة**»، وهو يشرح كيف يصل الإنسان إلى مرتبة النبوة بفضل الله سبحانه وتعالى ليتلقَّى عن الملك: «ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش، وما لا بذر له، وآخر أفق النبات، مثل النخل والكرم، متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال الغريب في هذه المكونات أن آخر أفق كل منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده. . . واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرويَّة، ترتفع إليه من عالم القردة[1] الذي اجتمع فيه الحسُّ والإدراك، ولم ينتهِ إلى الرويَّة والفكر بالفعل، وكان ذلك أول أفق الإنسان بعده. وهذا غاية شهودنا.

ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة. ففي عالم الحسِّ آثار من حركات الأفلاك والعناصر، وفي عالم التكوين آثار متنوعة من حركة النمو والإدراك تشهد كلها بأن لها مؤثراً مبايناً للأجسام فهو روحاني، ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها، ولذلك هو النفس المدركة والمحرّكة. ولا بد من فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة، ويتصل بها أيضاً، ويكون ذاته إدراكاً صرفاً وتعقلاً محضاً، وهو عالم الملائكة.

= مولد عبد الرحمٰن بن خلدون في تونس ونشأته بها ثم استقر في مصر، وتولى القضاء. اشتهر بالمقدّمة وهي مقدمة كتابه في التاريخ: (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر)، في سبعة مجلدات، ويعتبر أول من أسس علم الاجتماع وفلسفة التاريخ. ومن كتبه: شرح البردة، وكتاب في الحساب، ورسالة في المنطق، وشفاء السائل في تهذيب المسائل. كتب عنه كثيرون في ترجمته وأعماله؛ منهم: طه حسين وساطع الحصري ومحمد عبد الله عنان ومحمد الخضر بن الحسين.

(١) في معظم النسخ المطبوعة كتبت من «عالم القدرة» ما عدا طبعة لجنة البيان العربي فكتبت من عالم القردة. والسياق يدل على القردة بدلاً من القدرة. وهذا ما ألمح إليه ساطع الحصري، والشيخ محمد أحمد باشميل في كتابه: الإسلام ونظرية دارون.

فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعدادٌ للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات في لمحة من اللمحات، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد، ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه».

وهكذا نرى كثيراً من علماء المسلمين، ابتداءً من الحسن البصري والإمام محمد الباقر وابنه الإمام جعفر الصادق، ثم أحمد بن سهل البلخي، وانتهاء بابن خلدون يدعمون نظرية التطور بأشدّ مما جاء به دارون في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين، ولكنهم ـ عكس ما فعل ـ لم تكن دافعاً لهم للكفر وإنكار الدين، بل كانت دافعاً هامّاً من دوافع الإيمان، وشرح حقيقة النبوّة حسب تصورهم، وإمكان أن يترقى الإنسان، بفضل الله سبحانه وتعالى وكرمه لأولئك العباد المخصوصين، فيستطيعوا الاتصال بالملأ الأعلى والأخذ عن المَلَك فضلاً من الله ونعمة، وهم هم في بشريتهم لم يخرجوا عنها، وإن كانت أرواحهم قد ارتقت إلى مستوى الملائكة في لحظات الاتصال.

موقف المفكّرين المسلمين المعاصرين من نظرية دارون:

ويؤكد هذه الحقيقة الشيخ محمد أحمد باشميل، رحمه الله، في كتابه: ﴿الإسلام ونظرية دارون﴾[1]: «غير أن الذي يمكن استخلاصه من أقوال هؤلاء العلماء المسلمين، وخاصة الإمام الحسن البصري والعلّامة ابن خلدون، هو أنه ليس في القول: بأن الله (سبحانه وتعالى) قد رقَّى الإنسان وطوَّره من حيوان بسيط إلى إنسان كامل، أيّ تكذيب للقرآن أو مساس بعقيدة المسلم الذي يترجَّح لديه القول بهذا الرأي. إذ لو كان الأمر كذلك لما سكت المسلمون على قول ابن خلدون الذي صرَّح به في مقدّمته، والذي أعلن فيه القول بنظرية التطور والارتقاء. بل ذهب فيه إلى القول: بأن الإنسان قد تحوَّل، أثناء مراحله التطورية، من عالم القردة إلى عالم الإنسان».

---

(١) الإسلام ونظرية دارون، للشيخ محمد أحمد باشميل، الطبعة الثانية، ص ١٤٣.

ويقول باشميل: «ولو كان في القول بأن أصل الإنسان يرجع إلى الحيوان أيّ تكذيب للقرآن، أو مساس بعقيدة المسلم لما نقل الفخر الرازي هذا القول عن كبير أئمة التابعين الإمام الحسن البصري، دون أن يبدي أيّة مناقشة أو اعتراض». وينتهي الشيخ باشميل إلى القول: «إنه ليس في نصوص القرآن أو السنَّة النبوية الثابتة ما ينفي قواعد هذه النظرية (أي: نظرية التطور) أو يثبتها، وهذا في نظرنا كافٍ لعدم وجوب الزَّجِّ بالإسلام عند الأخذ والرد حيال هذه النظرية بحيث لا نصدر نحن المسلمين حكماً في حقها باسم الإسلام (لا بنفي ولا بإثبات)، بل نترك الأمر على سبيل الجواز، باعتبار أن ما جاء في وقائع نظرية دارون جائز أن يكون قد حدث».

وفي موقع آخر من الكتاب[١]: «فليس مما ينافي الإسلام أو يهدم التوحيد القول: بأن الله تعالى قد بدأ خلق الإنسان بجرثومة[٢] صغيرة أنبتها حول المستنقعات ثم طوَّرها بقدرته، وحوَّلها من حيوان إلى آخر، إلى أن صارت إنساناً كاملاً (كما هو زعمُ دارون)، كما أنه ليس مما ينافي الإسلام القول: بالوراثة أو المطابقة أو تنازع البقاء أو الاختيار الإلٰهي (الذي يسميه الماديون الانتخاب الطبيعي)، وهو أن البقاء في ميدان الصراع لا يكون إلا للأقوى والأصلح، وهي القواعد الأربع التي بنى عليها دارون نظريته.. فأكثر هذه القواعد حقائق واقعة شهدها الناس قبل أن يخلق دارون بآلاف السنين».

ويقول في موقع آخر من الكتاب نفسه: «فالذي يؤمن بصحة نظرية دارون على هذا الاحتمال ليس في قوله ما ينفي أن الله خلق الإنسان من طين ما دام يفرض بأن الجرثومة الأولى، التي صدر منها الإنسان، قد تولَّدت من الطين حول المستنقعات بقدرة الخالق».

والغريب حقّاً أن نجد العلَّامة أحمد بن سهل البلخي، الذي عاش في القرن

---

(١) الإسلام ونظرية دارون، لباشميل، ص ١٥٢.

(٢) **جرثومة الشيء**، في اللغة: أصله ومبدؤه.

الثالث الهجري، يؤكد هذا الكلام قبل أكثر من ألف ومئة عام في كتابه (البدء والتاريخ) حيث يقول، عند تعليقه على كون الإنسان تطور من حيوان: «من جملة القول: إن كل ما روي في هذا الباب عن القدماء وأصحاب النجوم مما لم يكن نقضاً للتوحيد، وإبطالاً للشريعة أو جحداً للعيان، فموقوف على سبيل الجواز والإمكان»، أي: أنه لا ينبغي الجزم بنفيه أو حدوثه.

وممن قال بهذا الرأي **الأستاذ محمد فريد وجدي** صاحب (دائرة المعارف)[١]، في مادة «الإنسان»؛ حيث قال ما نصه: «ولسنا نجزم بصحة مذهب داروين.. ولكننا نُهدِّئ من رَوْع الذين يخشون من تحقق هذا المذهب في يوم من الأيام على الإسلام، وما ورد في آدم عليه السلام، فنقول لهؤلاء: ليهدأ رَوْعُكم، فإن كل ما ورد في خلق آدم عليه السلام يمكن صرفه عن ظاهره على مقتضى أسلوب القرآن نفسه»...

وعلى هذا المنوال سار **الأستاذ العقاد في كتابه: (الإنسان في القرآن)**[٢]؛ حيث يقول: «هل يصيب الذين يحرِّمون باسم الإسلام مذهب النشوئيين المؤمنين بالخالق؟..

وليس يخالجنا كثير من الشك ولا قليل في خلوّ كتاب الإسلام مما يوجب القول بتحريم هذا المذهب.. فقد يثبت غداً أن المذهب صحيح كله، أو باطل كله، أو يثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل. ولكن كتاب الإسلام لا يصدُّ عن سبيل العلم في أيّ وجهة من هذه الوجهات.

إن مذهب التطور، أيّاً كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع، ليس فيه ما يصح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين، أو إنكار الخالق، أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير».

ويقول الأستاذ العقاد: إن داروين وزميله ألفريد والاس كانا مؤمنَيْن

---

(١) محمد فريد وجدي: دائرة المعارف: ١/ ٧٣٤، مادة: إنسان.

(٢) عباس محمود العقاد: الإنسان في القرآن، ص ١٣٨.

بوجود الله، خالقاً لهذا الكون «وعاش داروين بقية حياته على هذا الرأي، مؤمناً بأن مذهبه لا يقتضي من العقل أن ينفي وجود الله ولا أن يمسَّ عقائد المؤمنين بوجوده. وإن الإيمان بأيّ ديانة من الديانات لا يتوقف على الفصل في قضية التطور إلى الرفض أو إلى القبول. أما **ألفريد والاس**[1]، شريك داروين في القول بتعدد الأنواع... فقد كان مؤمناً قوي الإيمان بوجود الإلٰه.. وكانت مراقبته لعوامل الطبيعة سبباً لتصديقه بالمعجزات وخوارق العادات... وإنما هي الإرادة الإلٰهية التي أوجبت هذا النظام نتيجة لتلك العوامل، فليست المعجزة التي يريدها الله أغرب من نظام العوامل المطَّردة في ظواهر الكون، ومرجعهما جميعاً إلى الإرادة الإلٰهية على اطراد (في القوانين الكونية) أو على استثناء (في المعجزات والخوارق)».

ويقول الأستاذ العقاد في كتابه (الفلسفة القرآنية)، (ص ١٧٤)، تحت عنوان: بين البحث والتخمين، عند تعرضه لقصة خلق آدم في قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [صٓ: ٧١ ـ ٧٢]:

«إن قواعد اللغة العربية تقضي بأن اللفظ لا يصرف عن معناه الظاهر إلا لضرورة تقتضي ذلك، وإلا كان صرف اللفظ عن معناه ضرباً من التخمين»، وهذا مبدأ يقرره المفسّرون وأصحاب أصول الفقه، وكل باحث في معاني القرآن الكريم، بل كل باحث في معاني اللغة في كل كلام مفيد.

ثم يقرر العقاد أن الكلمات معلومة، والكيفيات مجهولة، وخاصة

(١) **ألفريد رسل والاس (١٨٢٣ ـ ١٩١٣م)**: أحد أعلام التطور، بعد أن اتصل به داروين يستعين به كعالم أحياء متخصص. ويقول والاس: «إن ما نتطلبه إطلاقاً، ولا مناص من الاستدلال عليه، هو ذلك العقل الذي هو أسمى وأعظم وأقوى من كل هذه العقول المتفوقة التي نراها حولنا. وإنه لعقل لا يقدر على تسيير هذه القوى العاملة من الأنواع الحية، وعلى إرشادها وتدبيرها وحسب، بل لهو بذاته ينبوع تلك القوى والعوامل، وينبوع لما هو الأساس لكل ما في هذه العوامل المادية».

مما ينسب إلى الخالق سبحانه وتعالى من الصفات والكلام والعمل (مثل الاستواء، مثلما قال الإمام مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة).

ويقول العقاد: إني لا أجد أحداً يعلم كيفية التسوية. ومن التخمين أن يزعم قارئ القرآن أن التسوية الإلٰهية كالتسوية التي نعهدها في أعمالنا نحن المخلوقين، وأن النفخ في خلق آدم من الطين كالنفخ في الأفواه[1]، وأن طينة آدم كطينة التمثال الطيني الذي يصوِّره المثَّالون مشابهاً للإنسان بالأعضاء ولكنه بغير حراك ولا وظائف. «إن الذي يزعم ذلك يخمِّن في فهم اللفظ والمعنى بلا جدال، لأن أعمال الإلٰه، جلَّ وعلا، تنزَّهت عن مشابهة الأعمال الآدمية، وعن كل عمل محدود من أعمال المخلوقات. فليست معاني الكلمات في المعجمات اللغوية هي مدار البحث عن تفسير هذه الآيات، لأن الأمر فيها يرجع إلى الكيفيات المجهولة التي نجزم بحقيقة واحدة منها، وهي أنها كيفية منزَّهة عن مشابهة أعمال المخلوق؛ ما التسوية؟ وما النفخ؟ وما الروح؟ وما مدلول الآية الكريمة بعد التحقق من معاني هذه الكلمات إذا كانت الكيفيات مجهولة هنا؟ فالمعلوم الذي لا خفاء به قطعاً أنها ليست تسوية باليدين على مثال تسوية المصورين الآدميين، وأنها ليست نفخاً بالأفواه، كما ينفخ الإنسان الهواء في الطين أو غير الطين.

وإن الروح ليست بالروح الإنسانية، وليست على أي حال بالكيفية

---

(١) قال محمد بن يوسف (أبو حيان الأندلسي) في تفسيره (البحر المحيط: ٥/ ٤٤١) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]: ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾: أكملتُ خِلقَتَهُ. والتسوية عبارة عن الإتقان وجعل أجزائه مستوية. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾: أي خلقت الحياة فيه، ولا نفخ هناك ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه، وأضاف الروح إليه على سبيل التشريف، نحو بيت الله، وناقة الله، أو الملك، إذ هو المتصرف في الإنشاء للروح ومودعها حيث يشاء». ونحن نقرر وجود النفخ والتسوية، ولكنها دون ريب ليست مشابهة للنفخ والتسوية عند المخلوقين، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

المحدودة بالقواميس والمعاجم، لأن روح الإنسان المخلوق مجهولة، يعلمها الله وحده، كما نفهم من آيات القرآن، وندع الكلام فيما هو أعظم من ذلك وأخفى على العقل من معنى الروح منسوبة إلى الله.. كل ما يجوز أن نفهمه من معنى النفخ أنه بثُّ قوة الحياة في الطين. وفي كم من الوقت حدث هذا؟ أفي لمحة واحدة؟ أفي الدهر المتطاول؟ من جَزَم بشيء من ذلك، فإنما يخمِّن ويجزم على التخمين. بل لو قيل: إن هذا كله تمَّ في وقت كلمح البصر لما جاز لأحد أن يحصره في اللمحة المعهودة لدينا ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: ٧٧].. وهذه اللمحة مقرون بها في القرآن خلق كل شيء وتقديره: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٤٩ - ٥٠]. وإذا قيل: إن بحث الحياة في طينة آدم تمَّ في يوم واحد، فإن اليوم الواحد مجهول المقدار في علم الله: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقد يكون اليوم خمسين ألف سنة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٤]. وهذا من حيث الموعد المقدور لبث الحياة في طينة آدم بعد تسويتها، فما هي التسوية؟ وكم من الزمن قدَّره الله تعالى لإظهار هذه التسوية في خلق الطين، وفي خلق البنية الآدمية فيه؟ مَنْ جزم بوقت محدَّد لهذه التسوية فذلك هو التخمين بغير دليل، ومثله في التخمين بغير دليل أن يزعم الزاعم كيفية هذه التسوية يمتنع ما عداها، ويحرم علينا أن نفهمه من مدلول الآيات»..

ثم يقول الأستاذ العقاد: «وعلى المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى بثَّ روح الحياة في الطين، وسوَّى الطين سلالة خرج منها آدم عليه السلام، ولكن ليس لأحد أن يفرض عليه كيفية للتسوية والنفخ والخلق يلغي كل ما عداها، وأن يقرر للتسوية والنفخ والخلق وقتاً محدوداً باللمحة أو اليوم أو الدهر، ويكون بمقدار يوم واحد ولا يكون بغير ذلك المقدار».

ويقول **الشيخ محمد آل رضا العلَّامة التقي الأصفهاني**، ينقله عنه الأستاذ العقاد في كتابه **(الإنسان في القرآن)**: إن فلسفة النشوء والارتقاء «ليست مما ينافي

الدين. إذ الذي يجب علينا اعتقاده هو أن جميع الموجودات، بأرضها وسماواتها، وما فيها من صنوف المخلوقات، من نباتاتها وحيواناتها، والبشر على صنوفها واختلاف لغاتها، صنع إلٰه قادر حكيم، قد وسع كل شيء علماً، وأتقنه صنعاً.. خلق جميع الأصناف عن قصد واختيار، وهذا أمر متفق عليه في جميع الأديان. وأما كيفية الخلق، وأن هذه الأنواع كلها خُلقت خلقاً مستقلاًّ، ووُجدت من كتم العدم ابتداءً، وأنها لم تتغير عما وجدت عليه في أوائل الخلق، فهذا أمر لم يرد فيه نص صريح من الكتاب ولا متواتر من السنَّة. وسواء كانت آباء الجمال جمالاً أو كانت صفادع تنقُّ في الماء، والجد الأعلى للفيل فيلاً أو «سنونواً» يطير في الهواء، فإن أدلة الصنع عليهما في الحالين ظاهرة، وفيهما على وجود الصانع الحكيم آيات باهرة. ففرحة الملاحدة بهذه الآراء، وجعلها أساساً للإلحاد من أغرب الأشياء».

ثم يقول المؤلف، كما ينقله عنه الأستاذ العقاد: «إن هذه الآراء ليس فيها إلا بيان ترتيب المخلوقات، وكيفية الصنع فيها. ومتى كان أهل الدين ينكرون ذلك ويدَّعون أن الله تعالى خالق جميع الأشياء في وقت واحد خلقاً مستقلاًّ عن الآخر، وهم يرون الله تعالى، بلطيف حكمته وبديع صنعته، يخلق الثمر من الشجر، والشجر من النواة، ولا يجعل الصنف حلواً إلا بعدما يجعله حامضاً، ولا يجعله حامضاً إلا بعد أن يجعله مرّاً». ثم يستطرد ويذكر ما جاء عن جعفر الصادق عليه السلام في صفات القرد وشبهه بالإنسان، وقد تقدّم. ثم يذكر بعض أقوال علماء الإسلام من القدماء مما قد مرَّ معنا، ثم يقول: «إن نظرية دارون ينقصها كثير من الأدلة»، ويدحض ما فيها من آراء بالنقد العلمي الهادئ. ويرى أن ما يسمى بالأعضاء الأثرية التي تعتمد عليها النظرية فيما تعتمد، أنها من باب الشذوذات التي تعرض لتركيب بعض الأحياء وهي أجنة في بطون أمهاتها، أو تعرض لها خلال نموها.. وعدَّدَ من ذلك ما يولد وله أربعة أيدٍ، أو ما يولد وله جوف واحد ورأسان، وأربعة أقدام، أو ما يولد وقلبه في غير موضعه. ثم قال: «فهل يمكن تعليل هذه الشواذ المشنوعة بحيوانات كانت كذلك في العصور

الجيولوجية، فانتقلت إلى هؤلاء التعساء بناموس الأتاڤيسم (Atavism) (القول بالرجعة إلى الأسلاف والعودة إلى صفاتها بعد أن ابتعدت عنها الأنسال السابقة)، فإن لم يمكن ذلك، فلتكن الشواذ التي فيها بعض الشبه بالحيوانات من هذا القبيل». وينهي الشيخ نقده للنظرية بأنها ناقصة الإسناد، ولا توجد فيها حجة قاطعة غير قرائن بُنيت على الظنون والترجيح، ولا غنى لها عن مزيد من البحث والتنقيب.

ويذهب **الأستاذ محمد قطب** في كتابه (الإنسان بين المادية والإسلام)[1] إلى قريب مما ذهب إليه العقاد وفريد وجدي وباشميل، حيث يقول: «ولست هنا بصدد عرض نظرية دارون، ولا أنا أحب أن أخطئ خطأ الكنيسة الأوروبية حين كانت تعارض نظريته العلمية بنظرياتها الفلسفية، والتي أثبت العلم **أن معظمها صحيح**». وينتهي إلى القول: إن هناك جوانب عديدة من نظرية دارون لها مجالها العلمي، ولكنها أُخرجت عن المجال العلمي بواسطة اليهود الذين اعترفوا، في (بروتوكولات حكماء صهيون)، بأنهم رتَّبوا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم.. وتحويل ذلك إلى تحطيم للأديان والأخلاق والقيم لتتم لهم السيطرة على العالم حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى حكم العالم والتمهيد لمجيء المسيح الدجّال، ملكهم الأعور، الذين يؤمنون به ويرون أنه قادم، حسب نبوءات التوراة (المحرّفة).

ويقول الأستاذ محمد قطب في كتابه (التطور والثبات)[2]: بذل اليهود جهود الجبابرة لتوسيع الهوة التي قامت بين الدين والداروينية على أمل تحطيم الدين في النهاية، تحقيقاً لحقدهم القديم ضد غير اليهود عامة، وحقدهم في أوروبة على المسيحيين بصفة خاصة من أجل ما لاقوهُ من اضطهادها، واستغلت اليهودية العالمية نظرية دارون أبشع استغلال..

---

(١) محمد قطب: الإنسان بين المادية والإسلام، ص ١٦ وما بعدها إلى ص ٢٢.

(٢) محمد قطب: التطور والثبات، ص ٣٣ ـ ٣٩.

«وليس هنا المجال ـ ولا هو من همي في أيّ بحث ـ أن أناقش نظرية دارون. . وإنما أنا دائماً أناقش إيحاءاتها، وليست هذه الإيحاءات نظرية علمية، ثم إني أكتفي في مناقشتها دائماً بإيراد رأي الداروينية الحديثة (Neo Darwinism) التي تؤمن بالتطور كدارون، ولكنها مع ذلك لا تؤمن بحيوانية الإنسان ولا ماديته الكاملة، إنما تؤمن بتفرُّد الإنسان، تفرُّده بيولوجيّاً وسيكولوجيّاً (نفسيّاً)، وتفرُّده كذلك في طريقة تطوُّره، فهو يتطوَّر على قاعدة الإنسانية الخاصة لا على قاعدة الحيوان».

ويقول: «ومع ذلك فلم يكن حتماً أن تتجه (نظرية دارون) هذا الاتجاه في التأثير لو تلقَّفتها أيد أخرى مخلصة للحقيقة مؤمنة بالله، أو في القليل مقدرة للإنسان وخيره الإنساني».

ويقول: «ولقد عرف المسلمون التطور معرفة وثيقة، وصاحبوه مصاحبة عميقة في تاريخهم الحي كله، فلم ينحرفوا به عن سواء السبيل. . . وعرفوه في علمهم. يقول دريبر الأمريكي في كتابه (النزاع بين العلم والدين): إننا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنَّا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر، ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية، الذي يعتبر مذهباً حديثاً كان يدرَّس في مدارسهم، وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه، وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن، وظلوا مع ذلك مؤمنين بإنسانية الإنسان ومؤمنين بالأخلاق، ذلك أنهم كانوا يؤمنون بالله».

ويتحدّث الأستاذ محمد قطب عن دور اليهود في تحوير نظرية التطور لمحاربة الدين، ودور ماركس وفرويد ودوركايم (اليهود الثلاثة) في دعم نظرية التطور من جهة، وتوسيع نطاقها في دعم حيوانية الإنسان وماديته، ومحاربة الأديان والعقائد والأخلاق ليتم لهم السيطرة على العالم!. . ثم يقول: «لم يقل دارون كل ذلك ولا شيئاً من ذلك، ولا كان همُّه أن يقول، ولكن العالم اليهودي الذي أخذ إيحاء نظريته المسموم قد مدَّهُ مَدَّةً واسعة فشملت الحياة كلها تحت ستار البحث العلمي. . . لقد التقت توجيهات العلماء الثلاثة (ماركس وفرويد

ودوركايم) ـ وغيرهم بطبيعة الحال، ولكنهم هم في المقدمة ـ التقت عند نقط رئيسة متصلة ومتصاحبة: الحملة على الدين والأخلاق والتقاليد، ونفي القداسة عنها، وتشويه سمعتها، أو التشكيك في قيمتها، والقيام بهذه الحملة باسم العلم والبحث العلمي والربط بين هذا التحلُّل الديني والانحلال الخلقي وبين التطور، والإيحاء بأن هذا التطور والانحلال أمر حتمي، لأن التطور حتمي لا قِبَلَ لأحد بوقفه عن طريقه المرسوم»(١).

رأي سيد قطب في (ظلال القرآن) حول التطور:

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]: «وهذا النص يشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا يحددها، **فيفيد أن الإنسان مرَّ بأطوار مسلسلة، من الطين إلى الإنسان؛ فالطين هو المصدر الأول، أو الطور الأول، والإنسان هو الطور الأخير**.. وهي حقيقة نعرفها من القرآن، ولا نطلب لها مصداقاً من النظريات العلمية التي تبحث عن نشأة الإنسان أو نشأة الأحياء.

إن القرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالاً للتدبر في صنع الله، ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان»، المتسلسل في نشأته من ذلك الطين، ولا يتعرض لتفضيل هذا التسلسل لأنه لا يعنيه في أهدافه الكبيرة. أما النظريات العلمية فتحاول إثبات سُلَّمٍ معيَّنٍ للنشوء والارتقاء لوصل حلقات السلسلة بين الطين والإنسان، وهي تخطئ وتصيب في هذه المحاولة التي سكت القرآن عن تفصيلها. وليس لنا أن نخلط بين الحقيقة الثابتة التي يقررها القرآن، **حقيقة التسلسل**، وبين المحاولات العلمية في البحث عن حلقات هذا التسلسل، وهي المحاولات التي تخطئ وتصيب، وتثبت اليوم وتنقض غداً كلما تقدمت وسائل البحث وطرائقه في يد الإنسان.

ويقرر الأستاذ سيد قطب، رحمه الله: أن العلم قد يكشف جوانب كثيرة

---

(١) التطور والثبات، لمحمد قطب، ص ٥٦، ٥٧.

مجهولة تؤدي إلى تغيير نمط التسلسل الذي تقول به النظرية، وربما غيَّرت النظرية من أساسها. والفرق الأساسي بين القرآن الكريم وهذه النظريات أن القرآن هو من عند الله، فهو الحق الذي لا مرية فيه.. وأن قيمة الإنسان الحقيقية ليست في الطين وإنما في تكريم الله له بنفخ الروح فيه.

ويتحدث الأستاذ **سيد قطب**، رحمه الله، في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، عن نشأة الإنسان الأولى من الطين عبر تسلسل في مراحل النشأة: «وقد يكون ذلك إشارة إلى بدء نشأة الخلية الأولى في هذه الأرض، وأنها نشأت من الطين، وأن الطين كان المرحلة السابقة لنفخ الحياة فيها بأمر الله، وهذا هو السرُّ الذي لم يصل إليه أحد، لا ما هو؟ ولا كيف كان؟. ومن الخلية الحية نشأ الإنسان، ولا يذكر القرآن الكريم كيف تمَّ هذا، ولا كم استغرق من الزمن ومن الأطوار، فالأمر في تحقيق هذا التسلسل متروك لأيّ بحث صحيح. وليس في هذا البحث ما يصادم النصَّ القرآني القاطع بأن نشأة الإنسان الأولى كان من الطين، وهذا هو الحد المأمون بين الاعتماد على الحقيقة القرآنية القاطعة وقبول ما يسفر عنه أي تحقيق صحيح».

ثم ينبِّه سيد قطب، رحمه الله، إلى أن القول: بأن الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة إلى الإنسان في أطوار متتالية، وأن هناك حلقات نشوء وارتقاء متصلة تجعل أصل الإنسان المباشر حيواناً فوق القردة العليا ودون الإنسان.. **إن هذا القول غير صحيح في هذه النقطة**، وأن كشف عوامل الوراثة التي لم يكن دارون قد عرفها فتجعل هذا التطور من نوع إلى نوع ضرباً من المستحيل. فهناك عوامل وراثية كافية في خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه، وتحتم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ منه، ولا يخرج قط عن نوعه ولا يتطور إلى نوع جديد، فالقط أصله قط وسيظل قطّاً على توالي القرون، والكلب كذلك.. والثور، والحصان، والقرد، والإنسان، وكل ما يمكن أن يقع حسب نظريات الوراثة هو الارتقاء في حدود النوع نفسه دون الانتقال إلى نوع آخر، **وهذا يبطل القسم**

الرئيس في نظرية دارون التي فهم ناس من المخدوعين باسم العلم أنها حقيقة غير قابلة للنقض في يوم من الأيام» (انتهى كلام سيد قطب).

وهناك العديد من كتّاب المسلمين في العصر الحديث الذين تعرّضوا لهذه النظرية، وقد أوضح الكثيرون، كما أسلفنا، أن نظرية التطور والنشوء والارتقاء ليست جديدة، بل هي قديمة جدّاً، ثم إن كثيراً من علماء المسلمين القدامى قالوا بها وجعلوها دليلاً لإثبات النبوّة، مثل أحمد بن سهل البلخي وابن مسكويه وابن خلدون، وهم ربطوا بين الموجودات من الجماد إلى النبات إلى الحيوان إلى الإنسان إلى التلقي عن الملك..

ولا شك أن نظرة علماء الإسلام إلى التطور أعمق وأشمل من نظرة النشوئيين المعاصرين، إذ تمتد نظرة هؤلاء العلماء من المسلمين، الذين قالوا بهذه النظرية، عبر الزمان والمكان فتصل بين جميع العوالم السفلية والعلوية في سلسلة متصلة من التدريج والترقي، حتى ترتفع من عالم المادة البحت والتراب الخالص إلى عالم الروح الألق الممتد عبر الكون على رحابته،.. وشتان ما بين النظرتين، على ما بينهما من اتصال في بعض الحلقات.

ونجد من الكتّاب المعاصرين المؤيدين لنظرية التطور **الدكتور مصطفى محمود**، وخاصة في كتابه (القرآن محاولة لفهم عصري) حيث أفرد فصلاً بعنوان «قصة الخلق» لهذا الموضوع، وبدأ بدارون ورحلته على السفينة بيجل، وهو يجمع العيّنات من البر والبحر، يدرس ويتأمل ويدوِّن الملاحظات. ورغم أن الكائنات تبدو مختلفة أشدّ الاختلاف إلا أن الحيوانات كلها أصلها واحد، ثم تطور هذا الأصل وتباين بسبب الظروف والبيئات. الحيوانات التي دبَّت على الأرض طوَّرت لأنفسها أرجلاً، والتي نزلت إلى البحر تحوَّرت فيها الأرجل إلى زعانف، والتي طارت في الجو تحوَّرت فيها الأطراف إلى أجنحة، وكشف التشريح أن الأجنحة مشابهة للأطراف العليا عند الثدييات والإنسان، وزعانف الأسماك هي الأطراف المتحورة، وحتى الثعبان له أرجل ضامرة مختفية في هيكله العظمي.

ثم إن الثدييات تتشابه تماماً في تشريحها مع الإنسان، نفس عدد الأصابع في اليد والقدم، مع تحورات هنا وهناك. . نفس الأثداء لترضع الأبناء، نفس طريقة الحمل ووجود الرحم والمشيمة. ونفس نظام الدورة الدموية، ونظام القلب متشابه لدى الفأر والحوت (وهو حيوان ثديي) والقرد والإنسان، حتى الجهاز العصبي يتشابه في هذه الثدييات في تركيبه ووجود دماغ وحبل شوكي وأعصاب حسية وحركية وجهاز إرادي ولا إرادي، والاختلاف في درجة التخصص وحجم الدماغ الذي يبلغ أقصى مداه في الإنسان.

ويكشف التشريح في الهيكل العظمي للإنسان نفس فقرات الذيل الموجودة لدى القرد، ولكنها التحمت عند الإنسان لانعدام وظائفها، وفقرات الرقبة سبع في الفأر والكلب والحوت والزرافة والقرد والإنسان.

ثم يكشف لنا علم الأجنة التشابه الكبير بين جنين السمكة والكلب والقرد والإنسان. . وتكشف الحفريات (الأحافير = الإحاثة) تشابهاً كبيراً بين جماجم الإنسان وبعض أنواع الرئيسات من أنواع القرود العليا وأشباه الإنسان.

ولم يقل دارون إن الإنسان انحدر من قرد أو من شمبانزي أو نسناس، وإنما هي أجهزة الإعلام التي روَّجت ذلك. ولا تقول النظرية: إن جنساً خرج من جنس آخر، وإنما كل جنس هو بذاته فرع خرج من الشجرة الأم، يرتدَّان إلى أصل واحد ومنبع واحد.

وابتكر دارون تفسيراً يوضّح الترقِّي في هذه المخلوقات، من البسيط إلى المعقّد، وقال: إنه قد حدث بحوافز داخلية مادية بحتة دون يدٍ هادية من الخارج، وأسمى ذلك الصراع من أجل البقاء. . وهكذا عاش الأصلح ومات الأقل صلاحية.

ويقول الدكتور مصطفى محمود، بعد أن لخَّص النظرية بأسلوبه السهل الممتنع: «وعاش من نظرية دارون بعضها، ومات بعضها، حكاية أن الأنواع انحدرت من أصل واحد، وأنها تباينت إلى شجرة من الفصائل والأنواع نتيجة

تباين الظروف والبيئات، كانت احتمالاً مرجحاً أقرب إلى الصحة تقوم عليه الشواهد... أما حكاية أن الترقي حدث بالحوافز الحياتية وحدها وبدون يدٍ هادية فلم تعد مقنعة.. وسقطت من غربال الفكر المدقق.. ونشوء هذه الأنواع لا يمكن أن يفسِّره قانون بقاء الأصلح»، ويذكر أمثلة كثيرة على ذلك؛ مثل الجمال الموجود في الكون وفي الحيوانات والنباتات، دون أن يكون له غرض مادي ظاهر. والجناح المنقوش ليس أصلح للطيران من الجناح السادة (بلا لون ولا نقش).. وما نراه من جمال في ورق الشجر وألوان الأزهار وأجنحة الفراش وريش الطواويس لا يخدم غرضاً ظاهراً في معركة البقاء للأصلح.. ويعدِّد الأمثلة من الدقة العجيبة التي نراها في الأحياء من نبات وحيوان.. وأن النظرية الداروينية تعجز تماماً عن تفسيرها. وأنه لا بد من وجود خالق حكيم مدبّر قدير يهندس الوجود ويصممه وينشئه إنشاءً، ويبدعه إبداعاً، ولا يتوقف سبحانه عن هذا الخلق والإبداع والتدبير والقيومية.

ثم يستعرض مصطفى محمود بعض آيات القرآن الكريم في خلق الكون وكروية الأرض وخلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم.. وإرساء الجبال وإنزال الماء، وأهمية الماء الذي جعل الله منه كلّ شيء حي: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥]، ثم قصة خلق الإنسان من التراب، ثم التراب المختلط بالماء حتى أسن: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

ويذكر أن أيام الله ليست كأيامنا: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، ويفسّر قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، بأنها أطوار قبل آدم عليه السلام، كما ذكر قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. والحين من الدهر فترة زمنية طويلة، وبائدة لم يكن الإنسان فيها شيئاً يذكر.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]، يوضّح ظهور الإنسان مثل النبات من الأرض على مراحل، وربط بين الإنسان والنبات والحيوان.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وهي دلالة على أن الإنسان خُلق من سلالات جاءت من الطين، وهي سلالات متلاحقة عديدة كانت تمهيداً لظهور الإنسان. . ثم انتقل إلى علم الأجنة وما ورد فيه من آيات باهرات.

ويفسّر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾ [البقرة: ٣٠]، بأن الملائكة قد رأت أسلاف آدم وهي تسفك الدماء وتتصارع بالمخلب والناب، ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لهم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٢]، وهكذا أنبأهم آدم بأسماء الأشياء كلها، وظهر فضله على الملائكة فسجدوا له أجمعين، إلا إبليس الذي كان مع الملائكة ولم يكن منهم، فهو من نار وهم من نور، واستكبر إبليس وتجبّر وطغى، فطرده الله من رحمته وأبلس منها وأيس.

ويستمر مصطفى محمود في توضيح إكرام الله لآدم بنفخ الروح وبالعقل وبالعلم ووجود الروح قبل إيجاد الأجساد.

وقصة الخلق ما زالت من أمور الغيب، وهي محل اجتهاد ونظر، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وآدم كان في جنة أرضية، أُهبط منها إلى مكان جديب على الأرض، وقد هبط من مقام الرضا إلى مقام المعصية، ثم اجتباه ربه وهدى بعد توبته المخلصة. وآدم وذريته لم يبرحوا الأرض ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧ ـ ١٨]. . إنها الأرض لم نبرحها. . وآدم وجد على الأرض ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وهو خلقٌ تمَّ على مراحل وأطوار بأمر الله وقدرته.

المعارضون لنظرية التطور:

هناك عدد كبير من الكتَّاب الذين عارضوا نظرية التطور وهاجموها بشراسة، ويرجع السبب في ذلك إلى استخدام الملحدين لهذه النظرية، وتحويلها من جانبها العلمي البحت القابل للنقاش، إلى جانب إلحادي يُنكر وجود الله، ويُرجع عملية الخلق كلّها إلى الطبيعة والصدفة، وهو أمر مناقض للعقل وللدين وللمنطق.

وبما أن عدد الذين كتبوا يفنّدون هذه النظرية على هذا الأساس الإلحادي كثير، فإننا سنقتطف بعض الأمثلة:

السيدة منيرة الغاياتي وكتابها **(مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين)**، وهو كُتيِّب قدَّم له الدكتور محمد البهي. وقد استدلت الكاتبة الفاضلة بعدد كبير من الكتّاب الغربيين، منهم: سير آرثر كيث، الذي يقول: «إن نظرية النشوء لا زالت حتى الآن بدون براهين، وستظل كذلك، والسبب الوحيد في أننا نؤمن بها هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر، وهذا أمر غير وارد على الإطلاق». وتنقل ما قاله البروفسور واطسن (Watson) من جامعة لندن: «إن علماء الحيوان يؤمنون بالنشوء لا كنتيجة للملاحظة أو الاختبار أو الاستدلال المنطقي، ولكن لأن فكرة الخلق المباشر بعيدة عن التصور».

ويؤكد ذلك البروفسور د. هـ. سكوت (Scott) بقوله: «إن نظرية النشوء جاءت لتبقى، ولا يمكن أن نتخلّى عنها، حتى لو أصبحت مجرد عمل من أعمال الاعتقاد». ويضيف السير ج. داوسون (Sir Dawson): «هذا الاعتقاد هو نوع من الإيمان الأعمى الممتزج بالسذاجة والخرافة».

ويقول البروفسور مور (T. C. Moore) من جامعة سينسناتي بالولايات المتحدة: «كلّما تعمقنا في دراسة الباليونتولوجيا (علم الأحافير = الإحاثة)، كلما اكتشفنا أن نظرية النشوء ترتكز على الاعتقاد، نفس الاعتقاد الذي تتطلبه الأسرار العظمى للدين».

ويقول ج. بيب (J. Beebe) في كتابه (الطائر): «إن التغيرات الإعجازية

التي تفترض أنها قاصرة على القصص الخرافية، أمور عادية جدّاً في نظرية النشوء والارتقاء».

ويقول الدكتور ماكنير ويلسون (McNair Wilson) في منشورات أوكسفورد الطبية (Oxford Medical Publications): «إن نظرية النشوء لا تقل عن أيّ قصة خرافية حافلة بأغرب المخلوقات، كالغيلان والقنتورات (كائنات خرافية نصفها رجل ونصفها فرس) والسيرانات (كائنات خرافية لها رؤوس نسوة وأجساد طيور).

ويعتمد أصحاب نظرية النشوء والارتقاء على دليل الأجنة وتشابهها الظاهري بين السمكة والفأر والإنسان، وهي التي قدّمها أرنست هيكل (Ernest Haeckel) الذي يقول: «إن تاريخ الجنين هو إعادة لتاريخ الأنواع».

ويعترف آرثر كيث (Arthur Keith) بقوله: «إننا كنا نتوقع أن يكرر الجنين الصفات المميِّزة لأسلافه، من أدنى أشكال الحيوان إلى أعلاها، ولكن بعد دراسة الجنين في كل مراحل تكوينه، خابت آمالنا، فالجنين (الإنساني) لم يكن قرداً في أيّ مرحلة من مراحله».

ويعتمد أصحاب نظرية التطور على الأعضاء المندثرة، ويصل عددها عند بعضهم إلى مئة وثمانين عضواً. . ولكن البروفسور جودريتش (E. S. Goodrich)، من جامعة أوكسفورد، يقول: «من الحماقة القول: بأن أيّ جزء من جسم الإنسان لا فائدة له». ولو كانت هناك ثمة بقايا أعضاء، فإنها حينئذٍ تكون شاهداً على التدهور لا على التطور والارتقاء.

الغش عند أصحاب نظرية التطور:

ظهرت علامات الغش عند النشوئيين، فإنسان جاوه، الذي اكتشفه دبوا سنة (١٨٩١م)، ليس سوى قطعة من جمجمة بها بضعة أسنان، وقد أثبت البروفسور فيرشاو (Virchow): أنها قطعة من جمجمة شمبانزي، أما الفخذ فقد ثبت أنه

لرجل. أما إنسان بيلتدو (Piltdow man) فقد بني من شظايا جمجمة، ثبت فيما بعد: أنها لإنسان، ثم ركِّبت على عظم فك شمبانزي. أما فكّ إنسان هيدلبرج (Heidelburg man) فإنه مماثل لفك الإنسان المعاصر من الأسكيمو، وفكّ إنسان بكين (Peking man) له نفس ملامح قبائل الفيدا المعاصرين الذين يعيشون في سيلان (سيرلانكا) اليوم.

ويقول البروفسور برانكو (W. Branco): «إن علم الإحاثة (الباليونتولوجيا) لا يعرف للإنسان أسلافاً». ويقول الدكتور إيريك واسمان في كتابه: (البيولوجيا الحديثة ونظرية النشوء (Eric Wasman: Modern Biology and the Theory of Evolution): «إن البقايا المكتشفة في الحفريات لا تؤيد، من وجهة نظر علم الوراثة، أيّ نظرية عن أصل الإنسان». ويقول البروفسور فيرشاو (Virchow): «إن فكرة: القرد ـ الإنسان، هي محض خرافة».

وقد استخدم أرنست هيكل (Ernest Haeckel) رسوماً للتدليل على التماثل بين الجنين البشري والحيوان، ولكنه اعترف فيما بعد: بأن «عدداً من رسومي كانت تزويراً محضاً، وأن مئات من علماء الحيوان قد ارتكبوا نفس الخطيئة».

ويعترف دارون نفسه: بأن الجيولوجيا لا ترينا دليلاً على عملية التدرّج، وهذا هو الاعتراض الرئيس الذي يواجه نظرية التطور «كما أنه ظل محتاراً لماذا لم تتطور البكتريا القديمة أو المخلوقات القديمة إلى اليوم، رغم مرور ما يقرب من ألف مليون سنة على وجودها؟!».

ويقول البروفسور لوك (Lock): «إن الاختيار، سواء كان طبيعيّاً أو اصطناعيّاً، لا يمكن أن يخلق شيئاً جديداً». ويبدو أنه من المستحيل خلق أنواع جديدة من خلال الصفات المكتسبة أو الاختيار الطبيعي، أو من خلال التحولات (الطفرات) الجنينية. قد ثبت أن الطفرات (Mutations) الجنينية الصغيرة تُضعف في الغالب النوع وتؤدي إلى تشوُّهه أو إيجاد مرض فيه، أما الطفرات الكبرى فتؤدي إلى قتله.

وأما نظرية الصدفة وخلق الكون أو المخلوقات بالصدفة فيرد عليها عدد كبير من علماء الغرب، وفي ذلك يقول العلّامة آينشتاين: «لا أستطيع أن أصدق أن الكون قد نتج عن رمية زهر». ويحوي كتاب (الله يتجلّى في عصر العلم) لمجموعة كبيرة من العلماء الغربيين، أدلة قاطعة حول هذا الموضوع، ونحيل القارئ الكريم عليه.

وقد نشرت المجلة الطبية البريطانية (British Medical Journal)، في عدد (مارس ١٩٤٦م)، مقالاً جاء فيه: «**لقد عثر الأثريون على بقايا بشرية تعود إلى زمن ما قبل الطوفان. وتدل هذه البقايا على طول أعمار غير عادية لأصحابها.. وكان أكثر ما لفت الأنظار هو أن أسنانها بُريت حتى وصلت إلى اللثة من طول استعمالها. وثمة دلائل قديمة وفيرة تؤكد: أنه قد عاش على ظهر هذه الأرض جنس من نوع أروع في كماله الجسدي وجمال عضلاته وأكبر في حجم جمجمته من الإنسان المعاصر إلى حدٍّ كبير**»[1].

وتزعم نظرية التطور: أن اللغة قد تطورت عن الخوار والزئير والأصوات المبهمة، بينما تقول مجلة العلوم المصورة (Science Illustrated): «إن أقدم أشكال اللغات الموجودة حالياً كانت أكثر تعقيداً من صيغتها المعاصرة».

وفي كتاب (**خلق لا تطور**)، **تعريب الدكتور إحسان حقي**، جمَعه من مجموعة من الكتب الغربية التي تعارض التطور، يقول رئيس الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم في مقال نشره في مجلة (العلوم): إن العلماء يعترفون بأن مراحل التطور إنما بنيت على الحدس والتخمين والتأويل، وهي نوع من الفرضيات. وفي كتاب دارون نفسه: (أصل الأنواع) أكثر من (٨٠٠) جملة ارتيابية، مثل: قد نستطيع أن نستنتج، قد يمكن أن يكون.. وهذا يدل على أن مراحل التطور افتراضية.

ويقول العالم الفسيولوجي تهميسيان (T. Tahmisian): «إن العلماء الذين

---

(١) ورد في الأحاديث: أن طول أبينا آدم أربعون ذراعاً، كما أن عمر نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، كما نصَّ عليه القرآن الكريم.

يؤكّدون أن التطور واقع علمي هم منافقون، وإن ما يروونه من أحداث إنما هو من الشعوذات التي ابتُدعت ولا تحتوي على نقطة من الحقيقة»، ويقول عن نظرية التطور: بأنها خليط مضطرب من الأحاجي وشعوذة الأرقام.

وقال الدكتور كلوتز (J. Klotz): «إن الاعتقاد بالتطور يحتاج إلى كثير من السذاجة».

وكتب **الدكتور جان روستان في كتابه (التطور)**، يرد على أصحاب الداروينية الحديثة الذين يُرجعون مراحل التطور إلى الطفرات (Muatation) في عالم الجينات، فقال: «إن الطفرة التي نعرفها تؤدي إلى الحرمان من عضو أو زيادة عضو أو فقدان وظيفته، ولا تأتي بشيء جديد. ولا أستطيع أن أعتقد بأن هذه الهفوات الإرثية، حتى مع مساعدة ما يسمّى الاصطفاء الطبيعي، وحتى مع طول الزمن بأن تنشئ كل عالم الأحياء بما يحويه من ثراء ولطافة ومن مؤهلات عجيبة».

وتقول نظرية التطور: بأن الحياة الأولى ظهرت من الجماد بوسائلها الخاصة، وهذا أمر غير منطقي ولا معقول، فلو أخذنا مكوِّنات السيارة من الحديد والزجاج والنحاس والمطاط وغيرها، وجعلناها في برميل، وحركنا البرميل ملايين المرات لملايين السنين، فلن تنتج لنا سيارة!.. والخلية الحية أعقد بكثير من السيارة، فكيف تحوَّل الجماد فجأة إلى خلية حيَّة بمجرد الصدفة؟!.. والخلية العصبية أشدّ تعقيداً من أضخم الكمبيوترات.. والفيروس وهو مرحلة بين الجماد والحيّ ومكوَّن من أحد الحامضين النوويين الـ (DNA) أو الـ (RNA) وهو مخلوق في غاية التعقيد، وتُبذل الجهود الجبّارة المتخصصة لمعرفة آثاره، وهو دائماً يعيش متطفلاً داخل الخلايا من البكتريا (Bacteriophage) إلى الإنسان مروراً بالنبات والحيوان. إن تصور أن يخلق ڤيروس بذاته بمحض الصدفة هرطقة وخرافة لا يمكن قبولها بأي منطق علمي أو حتى إدراك عقلي، إذ لا بد لهذه المخلوقات من خالق حكيم قدير مبدع مصور عالم خبير لطيف.

ويتحدث **شمس الدين آق بلوت في كتابه (دارون ونظرية التطور)** (ترجمة أورخان محمد علي) عن نظرية التطور، وكيف تحولت إلى عقيدة تؤدي بأصحابها إلى التعصب وإلى الغش والخداع، وتزوير الأدلة مثل قصة إنسان بلتداون (Piltdown)، والصور المزيفة التي اعترف أرنست هيكل بتزويرها للأجنة (سبق الإشارة إليها في كلام منيرة الغاياتي).

ويركز الكتاب على موضوع الصدفة، وخلق الكون والأشياء بمحض الصدفة، ويورد مئات الأدلة العقلية والحسابية على استحالة وجود هذه المخلوقات بمحض الصدفة، إذ لا بدَّ لها من خالق مدبر حكيم عليم قدير. ولهذا فإننا نرى أن هذا الكتاب يردُّ على الاتجاه الإلحادي الذي استخدمه التطوريون، لا على نظرية التطور ذاتها؛ إذ إن هناك من يؤمن بأن هذه المراحل كلها خلقها الله سبحانه وتعالى وجعلها تطورية، فإذا قلنا بذلك وآمنا بالله سبحانه وتعالى بأنه خالق لهذا الكون، ولهذه المخلوقات كلها سفليها وعلويها، فلا يوجد ما يمنع أن تكون هذه كلها قد خلقها الله سبحانه وتعالى على التدريج، ولم يخلقها دفعة واحدة بأنواعها المستقلة.

وكذلك يفعل **كتاب (مصرع الداروينية) للأستاذ محمد علي يوسف**، إذ يركز ردَّه كله على الإلحاد والملحدين الذين يستخدمون نظرية دارون لنفي الخالق سبحانه وتعالى، ويطيل الرد عليهم، ولكنه في الواقع لا يناقش ذات النظرية، وإنما يناقش الاتجاهات الإلحادية التي استخدمها هؤلاء الملحدون لإثبات الخلق بمحض الصدفة، وهو أمر يردُّه المنطق والعقل والافتراضات الحسابية، وعدد غفير من علماء الغرب نفسه، ومنهم المجموعة الكبيرة التي نشرت مقالاتها باسم (الله يتجلى في عصر العلم)، ومن هذا الكتاب نقتطف الآتي:

يقول إدوارد لوثركيسيل، أستاذ علم الأحياء في جامعة سان فرانسيسكو: «إنني واثق أن كلمة التطور قد أُسِيءَ فهمها في كثير من الدوائر، حتى صار مجرد النطق بها يثير التعجب!.. إنني أفهم ما يصفه هؤلاء الأصدقاء، بل أتفق معهم في أن التطور المقصود هنا هو التطور المادي أو الميكانيكي، الذي ينبغي أن

نفرِّق بينه وبين التطور الخلقي أو الإبداعي كل التفرقة. . ولو أن جميع المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس الروح والأمانة والبعد عن التحيز الذي ينظرون به إلى نتائج بحوثهم، ولو أنهم حرَّروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم فإنهم سوف يسلِّمون دون شك بوجود الله، وهذا هو الحلُّ الوحيد الذي يفسر الحقائق، فدراسة العلوم بعقل متفتح سوف تقودنا دون شك إلى إدراك وجود السبب الأول، الذي هو الله.

وكما ينبغي أن يتدبر العالِم المتفتح العقلِ وجود الله ويسلِّم به، فإن غير المشتغل بالعلوم ينبغي له أن يفحص هو أيضاً هذه الأدلة، ويدرك أن التطور الإبداعي هو وسيلة الخالق في خلقه، وأن الله هو الذي أبدع هذا الكون بقدرته، وسنَّ القوانين الطبيعية، فالخلق الإبداعي هو التفسير الوحيد الذي يوضح لنا سِرَّ هذا الوجود، ويوفق بين ظواهره المختلفة التي يبسطها لنا كتاب الطبيعة التي نقرأ صفحاتها في جميع العلوم المختلفة.

والانتخاب الطبيعي هو أحد العوامل الميكانيكية للتطور، كما أن التطور ليس إلا أحد السنن الكونية، والقوانين الطبيعية، وهو كسائر القوانين العلمية الأخرى، يقوم بدور ثانوي، لأنه هو ذاته يحتاج إلى من يبدعه، **ولا شك أنه من خلق الله وصنعته. والكائنات التي تنشأ بطريق الانتخاب الطبيعي قد خلقها الله أيضاً كما خلق القوانين التي تخضع لها؛ فالانتخاب الطبيعي ذاته لا يستطيع أن يخلق شيئاً**، وكل ما يفعله هو أنه إحدى الطرق التي تسلكها بعض الكائنات في سبيل البقاء أو الزوال عن طريق الحياة، والتكاثر بين الأنواع المختلفة. أما الأنواع ذاتها التي يتم فيها هذا الانتقاء، فإنها نشأت عن طفرات تخضع لقوانين الوراثة وظواهرها، وهذه القوانين لا تسير على غير هدى ولا تخضع للمصادفة العمياء كما يتوهم الماديون، أو يريدوننا أن نعتقد.

إن الطفرات والتغييرات الفجائية ليست خبط عشواء، كما يدَّعي بعض الباحثين، ولكنها تثبت طلاقة المشيئة الإلٰهية وعدم حدِّها في السنن والقوانين الكونية. . والانتخاب الطبيعي الذي يعتمد على الطفرات لا يقضي إلا على

الأعضاء الضارة، ومع ذلك فإننا نشاهد أن الأعضاء التي ليس لها ضرر ولا نفع تتضاءل هي الأخرى، ما يثبت أن الطفرات ليست دائماً عشوائية، وأن التطور لا يعتمد على المصادفة العمياء.. ولا مفرّ من التسليم بأن هناك حكمةً وتدبيراً وراء الخلق ووراء القوانين التي توجهه، ولا مفرّ لنا من التسليم كذلك بأن التطور ذاته قد صُمِّم بحكمة، وأنه هو أيضاً يحتاج إلى خالق يُبدعه».

ويقول: «**ليس التطور إلا مرحلة الخلق.. وإن فكرة التطور الخلقي لا يمكن أن تكون منافية للعقيدة الدينية، بل على النقيض من ذلك نجد من الحماقة والتناقض في الرأي أن يُسلّم الإنسان بفكرة التطور، ويرفض أن يسلّم بوجود الخالق الذي أوجد هذا التطور**».

وهكذا تتحول نظرية التطور عند إدوارد كيسيل وأضرابه إلى دليل إيمان، بدلاً من أن تكون دليل كفر.

والخروج على السنن الكونية يثبت طلاقة المشيئة، لا كما تَصوَّرها السير مدور (وهو من أصل لبناني، والحاصل على جائزة نوبل في علم الأحياء) الذي يرى أن هذا الخروج على السنن الكونية في علم الأحياء يورث شكّاً في قضية الألوهية.

ولو علم أن من صفات الله سبحانه وتعالى أن مشيئته طليقة ولا تتقيد بالقوانين، وأنه قد جعل النار المحرقة برداً وسلاماً على إبراهيم، وجعل العصا بيد موسى حيّة تسعى، لعلم أن ذلك دليل إيمان لا دليل كفر، وهو أحد أدلة المعجزات الخارقة للقوانين الطبيعية.

والمخلوقات جميعاً محتاجة إلى رعايته وقيوميته، فلا تقوم السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من المخلوقات إلا به، وكلما صعدنا من عالم المادة والجماد إلى عالم الأحياء، كلما ظهر ذلك جليّاً واضحاً. فعالم المادة والجمادات لا يكاد يخرج منها شيء عن السنن الكونية إلا فيما ندر، أما في عالم الأحياء، وبالذات في عالم الإنسان المعقد التركيب، تزداد الحاجة إلى رعاية الله

وقيوميته له في كل لحظة ولمحة وثانية، وكلما ازداد التعقيد في الخلق كلما خفيت علينا القوانين التي تحكمه وتسيِّره. . فالقوانين الكيميائية والفيزيائية التي تحكم عالم المادة واضحة بصورة عامة (وإن كانت الأبحاث الأخيرة تجعلها أشدّ تعقيداً مما كنّا نظن)، أما القوانين التي تحكم عالم الجينات وعالم الإنسان فهي معقَّدة أشدّ التعقيد، وتبدو وكأنها خبط عشواء (وهي ليست كذلك في واقع الأمر)، وهذا كلّه ما دفع الدكتور السير مدور، أحد أشهر علماء الأحياء في القرن العشرين، بالقول: إنها خفية وغير واضحة. . وهي كذلك. فالإنسان المعقّد التركيب يحتاج في كل ثانية ولمحة إلى رعاية الله وقيوميته، فلا يقوم إلا بربه، وهو دائماً وأبداً مفتقر إليه تمام الافتقار، لا يستطيع أن يحرّك أنملة أصبعه إلاَّ بهذه العناية الربانية المستمرة والرحمة الإلٰهية الفيّاضة، وهو مع ذلك لا يعلم شيئاً عن تلك الرعاية ولا يحسُّ بها ولا بأثرها إلا من رحم ربك، وفتح الله بصره وبصيرته لإدراك هذه الرحمة، وهذه العناية وهذه الرعاية وهذه القيومية المستمرة الدائمة.

ولما كانت ثقافة علماء الغرب ـ في معظم أصولها ـ إغريقية، فهي لا تستطيع أن تتصور الإلٰه إلا كما تصوِّره فلسفات أرسطو وأفلاطون، منعزلاً يتفكر في ذاته. . وأنه وضع لهذا الكون نواميسه وقوانينه، فهي تسير لا تحيد عن هذه القوانين قيد أنملة. والأمر غير ذلك على حقيقته، والله سبحانه وتعالى يدبِّر هذا الكون ولا يُخليه من رحمته وقيوميته لحظة ولا ثانية. ولهذا نرى (مدور) وأمثاله من العلماء يحتارون عندما يرون علوم الأحياء وكأنها لا تنتظمها هذه القوانين الصارمة إلا لتخترقها الاستثناءات، ويؤدي ذلك لديهم إلى الشك في قضية الألوهية ذاتها، وهي نظرة مبنيَّة على فلسفة أرسطو وأفلاطون التي تتخيل أن الله (تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً) منعزل عن مخلوقاته، متفكّر في ذاته، قد ترك كونه هملاً.

ولو علم (مدور) وأمثاله أن صفات الله سبحانه وتعالى، كما أوضحها القرآن الكريم والسنَّة المطهرة، لعلم أن من صفاته سبحانه وتعالى (القيومية)،

وأنه يرعى مخلوقاته في كل لمحة وثانية لا تأخذه سنة ولا نوم، وهذه الرعاية تتجلّى في مخلوقاته الحيّة أكثر مما تتجلّى في الجمادات.. وكلّما تعقّد التركيب في الكائن الحيّ ظهرت تلك الرعاية والقيومية بجلاء أكثر؛ فهي في أعلى صورها وأشدّها نقاءً في الإنسان الذي كرَّمه الله بنفخ الروح فيه والتسوية بيده وإسجاد الملائكة له، ففيه تتجلّى صفات المولى سبحانه وتعالى من الرحمة والعدل والقيومية والكرم والفيض.. وهو لا يقوم إلا بربه ولا يزال مفتقراً إليه في كلّ لحظة وآن.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

دارون وكتابه (أصل الأنواع):

شارلز دارون (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م): ولد شارلز دارون في إنجلترا في شروسبري من أسرة اشتهرت بنزعتها العلمية، وكان جده أرازمس دارون، طبيباً ناجحاً وباحثاً في حياة الحيوان وهيكل الطبيعة.. وكان ضمن علماء القرن الثامن عشر الذين آمنوا بنظرية التطور، ووقفوا ضد الكنيسة في تصوراتها عن الخلق، وسبق (لامارك) في آرائه؛ حيث آمن أن التغييرات التي تقوم بها الحيوانات أو النباتات لتوائم بيئتها تورث إلى نسلها.

وكان والد شارلز دارون طبيباً ناجحاً، وأرسل ابنه لدراسة الطب في إدنبرة، ولكنه ترك دراسة الطب والتحق بكلية اللاهوت بكمبردج، ولم يدرس اللاهوت هناك وإنما اهتمّ بالعلوم الطبيعية، وحضر كثيراً من المحاضرات فيها، وساعده أستاذه في علم النبات (هنسلو) على الحصول على وظيفة عالم طبيعي ضمن بعثة علمية في المحيط الهادي والأطلسي في السفينة (بيجل)، التي غادرت بريطانيا في ديسمبر عام (١٨٣١م) وعادت عام (١٨٣٦م)، واستطاع شارلز دارون أن يجمع

ثروة عظيمة من الملاحظات التي نشرها في كتابه (رحلة عالم طبيعي) عام (١٨٣٩م)، ثم بعد ذلك في كتابه (أصل الأنواع) الذي نشره عام (١٨٥٩م)، وقد اشتهر دارون بتنظيم وقته تنظيماً دقيقاً، وصبره على العمل الدؤوب.

ورغم أن لدارون العديد من الكتب العلمية، مثل كتاب: (تركيب وتوزيع طبقات الفحم) (١٨٤٢م)، و(وصف حياة المحار) (١٨٤٥م)، و(النباتات آكلة اللحوم) و(حركات وعادات النباتات المتسلقة) ودراسته (للإخصاب بالطريق المباشر وطريق التهجين) و(قدرة النباتات على الحركة)، إلا أن أهمّ كتبه على الإطلاق وأكثرها انتشاراً ورواجاً كتابه (أصل الأنواع)، يليه كتابه (أصل الإنسان فيما يتعلّق بالجنس)، ثم يليه كتابه (التعبير عن الانفعالات عند الإنسان والحيوان) (١٨٧٢م).

ورغم أن كتاب (أصل الأنواع) أثار ضجة كبرى، واستُخدم لمهاجمة الكنيسة وعقائدها، ويعتبره الإلحاديون أهم أسلحتهم، في مواجهة الدين، إلا أن دارون نفسه لم يكن ملحداً؛ فقد جاء في مذكراته: «ولقد ترددت كثيراً في حياتي بين كثير من المعتقدات، وتأرجحت عاطفتي الدينية بين الصعود والهبوط، ولكني في أشدّ اللحظات لم أشعر قط بأني كنت ملحداً، ولم أنكر قط وجود الله، وأعتقد، بصفة عامة وخصوصاً عندما أخذت أقترب نحو الشيخوخة، أن اللاأدرية (Agnosticism) هي المبدأ الذي ينطبق أكثر من غيره على آرائي الدينية»[1].

وقد كتب دارون بشأن مؤلفه (أصل الأنواع): «لا شك أن هذا الكتاب كان يلحقه كثير من الضرر، بل ما كان ليصادف أيّ نجاح لو أنني استعرضت فيه آرائي التي اقتنعت بها بالنسبة لأصل الإنسان، دون أن أدعمها بالبراهين، ولكني حين وجدت أن عدداً كبيراً من المشتغلين بالتاريخ الطبيعي قد أصبحوا يتقبلون مبدأ تطور الأنواع، وجدت من المناسب أن أستغل البيانات والملاحظات التي

---

(١) د. سيد بدوي: أصل الأنواع لداروين: كتاب تراث الإنسانية، دار الرشاد الحديثة: ٤/ ٩٧٤.

جمعتها من قبل، فعكفت على ترتيبها وتفصيلها حتى كان هذا الكتاب»[١].

وكان دارون يجمع ملاحظاته وتجاربه والبيانات التي يمده بها مراسلوه في بطاقات، فإذا فرغ من كتابتها بعث بها إلى معلّمٍ للغة الإنجليزية لينقِّحها ويعيد نسخها بأسلوبه، ثم يلقي دارون عليها نظرته الأخيرة قبل نشرها، وهو يعترف بأنه لم يكن يتمتع ـ مثل بوفون الفرنسي ـ بأسلوب أدبي مشرق، بل كان يحتاج إلى مدرِّسٍ للغة الإنجليزية ليصحّح له عباراته ويحسِّنَ من أسلوبه[٢].

وقد لاحظ دارون أن المزارعين ومربي المواشي قد أنتجوا، بجهودهم الخاصة، أنواعاً جديدة من النباتات وحيوانات مهجَّنة لها صفات لم تكن لأسلافها. وكان دارون يرى أن عملية مماثلة من الانتخاب والاختيار قد حدثت في الطبيعة بشكل أدت إلى الوجود المتكاثر لكلٍّ هذه الأنواع من النباتات والحيوانات، وسمّى هذا الانتخاب الطبيعي.

وأوضح دارون أن الكائنات الحية تنتج أجيالاً أخرى كثيرة مشتركة ليحل بعضها محل بعض، وأن الأرض لا تستطيع أن تتحمل أعباء حياة كل هذه الكائنات، ولذلك فإن عليها أن تتنافس في الحصول على الطعام والمكان. وبما أن الطبيعة تنتج مجموعات كبيرة تختلف في بعض التفاصيل عن مثيلاتها، فإن تلك التي تمتلك هذه الصفات المطلوبة هي التي تستطيع البقاء، وسمّى ذلك البقاء للأصلح، وهو في هذا يختلف في منهجه عن لامارك، ولنضرب بذلك المثل المشهور، وهو الزرافة، حيث كان لامارك يقول: إن الزرافة اضطرت لأكل أوراق الأشجار العالية في ظروف مناخية محددة أنهت العشب الموجود، فأدَّى ذلك إلى استطالة رقابها، ثم ورَّثت هذه الصفة لنسلها. أما دارون فقد سخر من هذا التعليل، وقال: بل كان هناك مجموعة من الزرافات لها عنق طويل من الأساس، ومجموعات أخرى ذات عنق قصير، فلما حصلت الظروف المناخية

(١) المصدر السابق، ص ٩٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٧٩ ـ ٩٨٠.

التي أدت إلى هلاك العشب، مع بقاء الأشجار العالية، هلكت جميع أنواع الزرافات ذوات العنق القصير، ولم يبقَ منها إلا ذوات العنق الطويل، وهي التي تكيَّفت في هذه الظروف بناء على ما وهبتها الطبيعة (حسب تعبيره) من خصائص مناسبة، وبالتالي تناسلت هذه الزرافات، ولم يبقَ من الزرافات إلا تلك المجموعة من ذوات العنق الطويل.

وكان دارون نفسه يتساءل عن الأسباب التي تُحدث هذه التغييرات الفجائية أو الطفرات؟ وما هي الوسيلة أو الوسائل التي تنتقل بها هذه التغييرات إلى الذرية؟ وكان يعترف صراحة: أنه لا يستطيع الإجابة على هذه الأسئلة، وإنما يتركها ليجيب عنها العلماء من بعده، وهو ما فعله أصحاب الداروينية الحديثة (Neo Darwinism) الذين أرجعوا ذلك إلى الطفرات في الجينات، وما يحدث فيها بانتظام من تغييرات طفيفة تتراكم على مدى الأجيال لتحدث تغييرات عميقة كبيرة، وهذه التغييرات لا تحدث في جيلٍ أو جيلين بل على مدى آلاف، وربما ملايين السنين.

ويركّز دارون على ما أسماه الانتخاب أو الانتقاء الطبيعي الذي غايته تحسين الأنواع الموجودة بالفعل، ومعاونتها على التكيف بالبيئة بدون أن يكون في ذلك أيّ اتجاه محدد لخلق صفات جديدة. ولاحظ دارون أن الفلّاح البسيط يمارس هذه العملية بالسليقة حين لا يختار للتناسل إلا أقوى ما عنده من الحيوانات، وفي حالة المجاعة يبدأ هذا الفلّاح بالتضحية بأضعف الحيوانات لديه، وما يحدث للحيوان يحدث أيضاً للنبات، وهذا في رأي دارون ما تفعله الطبيعة، وهو ما سمَّاه «البقاء للأصلح»، و«الصراع من أجل الحياة». . «فبفضل هذه الصراعات تنزع التغيرات التي تطرأ على الكائنات مهما كانت ضئيلة، ومهما كانت أسباب حدوثها للمحافظة على أفراد النوع، وتنتقل من جيلٍ إلى جيل بشرط أن تكون نافعة لهؤلاء الأفراد في علاقاتهم العديدة مع الكائنات الأخرى، وملائمة للظروف الطبيعية لحياتهم»[1].

---

(١) د. سيد بدوي: أصل الأنواع لداروين: كتاب تراث الإنسانية، دار الرشاد الحديثة: ٤/ ٩٨٦.

ويرى دارون أن الصراع من أجل الحياة لا يتم إلا بواسطة الانتقاء الطبيعي الذي قدمته الطبيعة بطريقة تلقائية للحفاظ على الأصلح.

وهذه الآراء توضّح مدى تأثر دارون بنظريات مالثوس (Malthus) عن السكان، والتي سنتعرض لتأثيراتها عند التعليق على نظريات دارون.

أهمية نظرية دارون لأوروبة الاستعمارية:

ويقول دارون: «إن النظام الذي نراه في الطبيعة ليس نتيجة لتدخل قوة عليا خارجية، ولكنه نتيجة للتوافق أو للتكيف بين أعضاء الكائن الداخلية وبين ظروف البيئة التي يعيش فيها». هذا الصراع من أجل الحياة ينطوي بلا شك على صور وحشية ومخزية، ولكننا ـ كما يقول دارون ـ «نستطيع أن نعزِّي أنفسنا حين نوقن أن الحرية ليست حالة دائمة من حالات الطبيعة، وأن موت الكائنات التي يكتب عليها الفناء يحدث في كثير من الحالات بسرعة وبدون ألم، وأن الكائنات القوية الصحيحة السعيدة هي التي تستطيع أن تعيش وتتكاثر».

وهكذا نرى **أهمية هذه النظرية لأوروبة** التي كانت في قمة مجدها في القرن التاسع عشر وخاصة إنجلترا، وهي تستعبد العالم وتمتص ثرواته، وتقتل الملايين من البشر في الأمريكيتين وغيرها. وقد أباد الرجل الأبيض، كما تقول دائرة المعارف البريطانية، أكثر من مئة مليون من سكان الأمريكيتين، كما أباد أكثر من سبعين مليوناً من الأفارقة الذين جلبهم ليزرعوا له ويحرثوا ويموتوا تحت سياطه، وفي مصانعه ومناجمه!.. وقد قام الرجل الأبيض بجلب أكثر من مئة مليون إفريقي إلى الأمريكيتين وإلى الجزر المحيطة بهما... وتسبَّب في شقاء وآلام لم تعرف البشرية لها مثيلاً في كل تاريخها الطويل المليء بالمآسي...

وكان الضمير الأوروبي قد مات إلَّا لدى قلة من الأفراد كانوا يحاولون بعثه من جديد، فكان لا بد من إيجاد نظرية تتصف بالعلمية لتبرر هذه الإبادات للبشر، ولم يكن هناك أفضل من نظريات دارون «البقاء للأصلح». فالرجل الأوروبي هو الأصلح، والدليل على صلاحه هو بقاؤه على هذه الأرض وسيطرته عليها.. وهو

أمر تُحدثه الطبيعة، وليس للرجل الأوروبي أيّ دور فيه، بل علينا أن نتقبله كما نتقبل ما يحدث في الطبيعة من الصراع بين النباتات بعضها مع بعض، والحشرات بينها وبين بعض.. والحيوان بكافة درجاته، فهذا كله عمل الطبيعة المبدعة الخلاَّقة للحفاظ على الحياة، ولتطويرها وإذكاء شعلتها والسير بها قُدماً إلى الأمام، والذي يسقط في الطريق هو الذي يستحق الفناء.. ومما يعزِّينا أن الموت يحيق بهؤلاء بأقل درجة من الألم، بل وفي كثير من الأحيان بدون ألم.

وقد سعدت أوروبة والرجل الأبيض بهذه النظرية أيّما سعادة، فهي تبرر لها كل جرائمها نحو البشرية، وأوجد هؤلاء ما أسموه الداروينية الاجتماعية، وأن الأفراد والمجتمعات يتنافسون من أجل البقاء، وأن المتفوِّقين من الأفراد والمجموعات والسلالات يصبحون ذوي نفوذ وثراء، ونتيجة الانتخاب الطبيعي لا يبقى إلا الأفراد الأكثر استعداداً وملاءمة، وهم الذين يتكيَّفون مع المجتمعات الجديدة، بينما يفشل الآخرون الذين لا يصلحون للبقاء.

ويؤكد الداروينيون الاجتماعيون أن الأفراد الذين يستطيعون البقاء يكدِّسون الثروات بأيديهم، ولذا فالفقر دليل على عدم كفاءة الفرد أو المجموعة.. واعتمد هربرت سبنسر البريطاني هذه النظرية ونشرها وفلسفها[١]، ولقيت من الرواج ما لقيته نظريات دارون في الطبيعة، لأن منهجهما واحد، ويتجه لتبرير جرائم الرجل الأبيض والرأسمالية البشعة بوجه خاص.

وظهر مفهوم (Business is Business: العمل هو العمل) ولا أخلاق فيه، وبالتالي لا بد أن يكون القوي هو الأكثر ذكاء وخداعاً وكذباً... وهو في ذلك يحقق الطبيعة، ولا لوم عليه ولا تثريب، وإنما يقع اللوم والتثريب على المغفّلين والسذّج والفقراء الذين يمتص دماءَهم.

ثم ظهرت العولمة.. وهي تعمل لمزيد من سيطرة الأغنياء على الفقراء،

---

(١) الداروينية الاجتماعية: الموسوعة العربية العالمية: ١٠/٢٢٨.

حتى يزداد الأغنياء غنى وقوة، ويزداد الفقراء فقراً وضعفاً. . . وإذا ثاروا أو تألموا فيكفي أن نقول لهم: إن هذه هي قوى السوق، أو قوى الطبيعة. وأن البقاء للأصلح، والطبيعة تفعل فعلها، فهناك انتخاب طبيعي قد قرَّره دارون منذ قرن ونصف من الزمان، وما علينا إلا طاعة عوامل الطبيعة، وعوامل السوق، وهي التي تقرر من يبقى ومن يذهب؟ ومن يعيش ومن يموت؟ والذكي المخادع الكاذب، الذي يستخدم كافة الوسائل القذرة للحصول على الثروات والقوة، هو الأحق بالحياة، وهو صاحب الفضل، لأن ذلك ما قررته الطبيعة على لسان دارون، ومن قبله مالثوس، أستاذ دارون والمؤثر فيه وفي أفكاره رغم أنهما لم يلتقيا، فبينهما نصف قرن من الزمان تقريباً.

وأما (مالثوس) هذا فهو قسيس إنجليزي. . الغريب حقّاً أن كِلا دارون ومالثوس درسا اللاهوت، أما دارون فقد تركه غير آسف عليه، وأما مالثوس فاستمر فيه مع دراسته للاقتصاد والسكان.

ولد توماس روبرت مالثوس (Malthus) عام (١٧٦٦م)، في منطقة سري ببريطانيا، ودرس اللاهوت في جامعة كمبردج، وعمل أستاذاً في كلية شركة الهند الشرقية التي استعمرت الهند، وكانت تعدُّ رجالاتها في هذه الكلية الخاصة التي كان مالثوس من أبرز أساتذتها، والتي بقي فيها من عام (١٨٠٥م) حتى وفاته عام (١٨٣٤م)، عندما كان دارون يجوب البحار في سفينة الأبحاث (بيجل).

وفي عام (١٧٩٨م) نشر مالثوس مقالته عن مبادئ علم السكان، التي جعلها بعد ذلك في كتاب، وكان مالثوس يرى أن السكان يزدادون على هيئة متواليات هندسية (٢، ٤، ٨، ١٦)، بينما لا تزداد موارد الطعام إلا على هيئة متواليات حسابية (١، ٢، ٣، ٤)، وعليه فإن البشرية ستواجه ـ حسب وجهة نظره ـ ندرة في الطعام، ولذا لا بد من إيجاد عوائق لهذا النمو المطرد في السكان، والعوائق الإيجابية هي الحروب والمجاعات والأوبئة. . . وهذه يمكن استخدامها لمواجهة الإنسان البدائي (وهو ما فعلته أوروبة والرجل الأبيض بالنسبة لإفريقية وآسية والهنود الحمر في الأمريكيتين). أما الرجل الأبيض المتحضر فينبغي أن يستخدم

العوائق الوقائية وهي الرهبنة، وتأخير سنّ الزواج، والامتناع الطوعي عن مباشرة الزوجة فترة من الزمن، وكلّها كان يحبذها حسب ثقافته الكنسية، أما وسائل منع الحمل فكانت تعتبر لديه لا أخلاقية.

ومن آراء مالثوس أن فقر الفقراء ليس إلا نتيجة لكسلهم، وأن غنى الأغنياء ليس إلا نتيجة كدِّهم وعملهم واجتهادهم، ولهذا ينبغي أن نحدَّ بصورة جليَّة عدد السكان من الفقراء، وأن البقاء بالتالي ليس إلا للأصلح، وهم في نظره الأغنياء والأقوياء.

وأوضحت هذه النظرية الاستعمارية الرأسمالية القذرة مدى أخلاقيات رجل الكنيسة الذي سار في ركاب الرأسمالي الجشع.. وكانت أفكار مالثوس هي الدافع الحقيقي لشارلز داروِن الذي اعترف بتأثير مالثوس عليه تأثيراً عميقاً، حيث أوضح مالثوس أن جميع الكائنات الحية تنزع إلى التكاثر بسرعة كبيرة، ولكن القليل من نسلها هو الذي يكتب له البقاء والنماء والوصول إلى سن النضج، وأوضح بجلاء أن حبوب اللقاح أو بويضات الحشرات والزواحف والأسماك والطيور من الكثرة بحيث لا يمكن أن تترك لغيرها أي مجال للبقاء لو نمت كل واحدة منها، ولهذا لا بد أن تعتريها عوامل الفناء من كلِّ حدبٍ وصوبٍ حتى تُبقي المجال للبقاء للأصلح. وأخذ داروِن هذه الفكرة «البقاء للأصلح» واعتمدها اعتماداً كاملاً في نظريته، حيث وجد أن هناك صراعاً على البقاء بين الكائنات المختلفة، ثم هناك صراع شديد على البقاء، بين كل نوع من الأنواع مع أفراد نوعه، وخاصة إذا كانت هناك ظروف بيئية قاسية مثل الجفاف أو الثلوج أو الكوارث..

وعدَّدَ داروِن الأمثلة لهذا الصراع، وانتهى إلى القول: بأن النظام الذي نراه في الطبيعة ليس نتيجة لتدخل قوة عليا خارجية، ولكنه نتيجة للتوافق أو للتكيف بين أعضاء الكائن الداخلية وظروف البيئة.

وهكذا التقت آراء مالثوس مع آراء داروِن لتدعم النظام الرأسمالي الجشع البشع، وتوجد له الفلسفة النظرية التي تدعمه باسم العلم والطبيعة ونظريات البقاء

للأصلح. . والأصلح عندهم ـ دون ريب ـ هو الرجل الأوروبي الأبيض الذي استعمر العالم وأخذ خيراته واستغلها لنفسه. . ثم في داخل أوروبة ذاتها هناك تفاوت بين العمال الفقراء والأغنياء الأثرياء الأذكياء، أصحاب رأس المال الذي ينبغي أن تُمهَّد لهم الطرق، أو على الأقل أن تبرر جميع سلوكياتهم المناقضة لكل الدوافع الإنسانية والخيِّرة التي تنادي بها الأديان، على اعتبار أن هذا السلوك الإجرامي ليس إلا ما أفرزته الطبيعة ذاتها، وعلينا أن نسمع ونطيع لهذه الطبيعة بقوانينها القاسية، والتي فيها الخير للأجناس كلها، في نهاية المطاف، لأنها تُزيح الأضعف وتُبقي على الأقوى والأصلح!!.

وكما استخدم الرأسماليون نظريّاً (مالثوس وداروف) لدعم اتجاهاتهم وفلسفاتهم، كذلك استخدم كارل ماركس آراء دارون في الصراع والبقاء للأصلح في نظرياته حول الصراع الطبقي، وجعلت الماركسية دارون من أكابر مؤيديها، وكانت روسيا البلشفية تدعم بكل قوتها آراء دارون وتقيم له المتاحف الكبرى. . وقد بنيت علوم الطبيعة والبيولوجيا في الاتحاد السوفييتي على آراء دارون، وتمّ تطويرها على يد أوبارين الروسي.

والواقع أن نظرية التطور أُخرجت من سياقها العلمي لتُحقق أغراضاً أخرى لا علاقة لها بالعلم، وهذه هي المأساة في نظرية التطور.

الخلاصة، وملاحظات عامة على نظرية التطور:

(١) إن نظرية التطور نظرية قديمة قال بها اليونان، وتوسّع فيها المسلمون وحوَّلوها إلى نظرية لإثبات النبوَّة وإثبات الألوهية، وإيجاد حلقات الاتصال من الجماد [المتمثل بالذرات المنطلقة في طاقة مكتومة تبلغ أقصى سرعتها في سرعة الضوء (ثلاثمئة ألف كيلومتر في الثانية)، ثم تتحول المادة إلى أول مظاهر الحياة في المخلوقات الأولية، ووحيدات الخلية، والبكتريا]. ويحتار العلماء اليوم حيرة شديدة في الفيروسات، أيضعونها في سلّم الجمادات أم في سلّم الأحياء؟ فهي خارج الممالك الخمس من الأحياء، ولا تدخل حتى في أدناها وهي مملكة

البدائيات (Monera)؛ فهي جماد خارج الخلايا، فإذا دخلت أية خلية من الخلايا تحكمت في سرِّ السرِّ منها وهو الـ: (DNA)، واستعبدتها وجعلتها تأتمر بأمرها وتصنع لها ما تريد، بل تجعلها تصنع أعداداً متكاثرة منها حتى تحطمها، وتنطلق إلى غيرها، وهي متطفلة على البكتريا والطحالب والنباتات ووحيدات الخلية والديدان والحشرات والحيوانات بأجمعها، إلى الإنسان الذي تسبِّب له العديد من الأمراض (التهاب الكبد الفيروسي بأنواعه A, B, C . . . إلخ)، ومرض الإيدز (HIV)، والجدري والجديري والحصبة والحمّى الصفراء وحمّى الوادي المتصدّع، ومئات الأمراض الوبيلة والخطيرة والأقل خطورة مثل: النزلات (البردية) والمعوية والأنفلونزا.

وما هو أشدّ من الڤيروسات تسبباً لحيرة العلماء ما يسمّى البرايون (Prions)، وهي عبارة عن بروتينات أو أجزاء من تبروتينات، فهي جماد بدون ريب، وليس فيها أيّ حامض نووي (على عكس الفيروسات المكوّنة من أحد الحامضين النوويين (DNA) أو (RNA)). . ومع ذلك تسبب أمراضاً خطيرة أشهرها جنون البقر، الذي يصيب الإنسان أيضاً، ويعرف باسم مرض كرتزفيليد جاكوب. . وفي هذا المرض يصبح الدماغ مثل الإسفنجة، ويفقد الإنسان أو الحيوان قدراته كلها، ويصاب بالجنون والشلل والتخلج حتى يموت. . وهناك مرض كورو (Kuru) الذي كان منتشراً في جزر غينيا الجديدة (في المحيط الهادي بالقرب من أستراليا)، حيث كانوا يأكلون أدمغة موتاهم على اعتبار انتقال الأرواح بواسطتها من الأسلاف إلى الأبناء، فأدى ذلك إلى انتشار هذا المرض بينهم، ثم اختفت هذه الطقوس منذ عام (١٩٦٠م)، وبدأ المرض في الاختفاء أيضاً.

وتنتقل الحياة من البسيط إلى المعقَّد حتى تصل أقصى مداها في الإنسان، الذي أكرمه الله بالعقل والفكر والروية. . والإنسان ينتقل في لحظة من اللحظات إلى أفق الملائكة ليتلقَّى النبيّ الكريم عن الملك، والملائكة خلق من نور. . وهكذا تتوحد الدائرة، فهي طاقة نورية مكتومة في الذرة، تنطلق بأقصى سرعتها في الضوء أو النور، ثم تتكثف وتتطور عبر ملايين الأنواع حتى تصل إلى أقصى

مداها إلى عالم النور السرمدي في الأفق الأعلى مع الملائكة وعالم الأرواح الألق.

والدورة تتكرر في كل لحظة وآن، فالطعام الذي نأكله، وهو جماد، يتحول في أجسادنا إلى طاقة وإلى خلايا حيّة بها نعيش وبها نتناسل وبها تظهر عجائب الخلق كلها المكنونة والظاهرة... وهو أمر عجب، فالتراب يتحول إلى نبات، والنبات إلى غذاء، والغذاء إلى خلايا في جسم الإنسان والحيوان لتكتمل الدائرة.

(٢) استخدمت نظرية التطور لمحاربة الكنيسة خصوصاً والأديان عموماً، ولليهود في ذلك دور كبير، وقد سبق الإشارة إلى ذلك، وأيدناه بما ذكره الأستاذين محمد قطب وسيد قطب رحمهما الله، وغيرهما...

(٣) النظرية في ذاتها ليست دافعاً للكفر، بل يمكن أن تكون دافعاً للإيمان، كما قرره المسلمون الأوائل، وكما قرره الدكتور إدوارد كيسيل، أستاذ علم الأحياء في جامعة سان فرانسيسكو، والدكتور موريس بوكاي (رحمه الله، فقد أسلم وسمعت ذلك منه شخصيّاً)، وما ذكره في كتابه: أصل الإنسان (What is the Origin of Man) يوضّح منهجه وطريقته، بل إن والاس، شريك داروِن في هذه النظرية، رجل شديد الإيمان بالله.

(٤) لا تزال النظرية فروضاً في كثير من جوانبها وتفتقد إلى الأدلة العلمية، حتى لو أزلنا جانبها الإلحادي، فموضوع الطفرات (Mutation) في الجينات التي تعتمدها الداروينية الحديثة غير مقنعة على الإطلاق في إيجاد مجموعات متباينة أشدّ التباين من المخلوقات.. والطفرات تؤدي إلى الأمراض في معظم الحالات، وإلى التشوّهات لا إلى الترقي وإيجاد أنواع جديدة.

ومما يحيّر العقل أن تبقى البكتريا القديمة (Arche bacteria)، منذ أكثر من ألفي مليون عام، دون تطور، بل مما يزيد الأمر تعقيداً وجود الفيروسات، وما هو أشدّ منها وجود البرايونات (Prions) المسببة لجنون البقر!.. ففي أي رتبة

يمكن أن نضع هذه المخلوقات؟ أي هي حية أم جماد؟ والعلماء في ذلك في (حيص بيص)، ولا شك أن الفيروسات أيضاً قديمة قِدَم الحياة على الأرض، فلماذا لم تتطور خلال ألفي مليون عام أو تزيد؟.

ثم انظر إلى عالم الأوليات البروتوزوا والطحالب الخضراء المزرقة، ما بالها لم تتغير، ولم تتطور خلال ألف مليون عام أو تزيد؟ وهي موجودة اليوم في سلّم الحياة الأدنى، تؤدي وظائفها المنوطة بها في هذه الأرض، وحفظ توازن الأحياء متطفلة ورميَّة وصانعة للغذاء.

(٥) حماسة التطوريين التي تدفعهم إلى الغشّ والخداع، كما حدث من آرنست هيكل في رسومه للأجنة، وتلفيق العظام كما في إنسان بيلتدو (Piltdow Man) وإنسان بكين وإنسان هيدلبرج، وكلها تدل على مستوى منحطٍّ ولا أخلاقي ليس له مثيل في أي فرع من فروع العلم الأخرى.

والدافع لهؤلاء إلى الغشّ والخداع والكذب هو أن النظرية قد تحولت إلى دوجما (عقيدة) يجب الدفاع عنها بأي شكل من الأشكال، حتى لو وصل إلى التزوير أو اعتساف الأدلة، والسبب الحقيقي الحرب بين الكنيسة والعلم، وما تبع ذلك من مآسٍ في القرون الوسطى وعصر النهضة.

(٦) ينبغي أن تبقى النظرية في مجالها العلمي البحت، فقد يصحّ منها جوانب، كما يسقط منها جوانب، وكلما تقدّم العلم تغيّرت المعلومات، وعليه، فلا ينبغي أن نتحمس لدرجة التعصب لهذه النظرية أو ضدها.

وأما الجانب الإلحادي في النظرية فهو مضاف إليها، وليس منها في شيء. فصاحب النظرية ـ دارون ـ لا ينكر الإيمان بالله، وإن كان قد أصابه الدوار وأصبح متشككاً، أما زميله والاس فرجل شديد الإيمان بالله، ولم تزده النظرية إلا إيماناً.

(٧) وجدت نظرية دارون والبقاء للأصلح دعمَ أوروبة كلها والرجل الأبيض، وذلك لأنها تبرِّر للرجل الأبيض كل جرائمه في سرقة الشعوب واحتلال

بلادهم واستغلال خيراتهم وإثارة الحروب بينهم.. فهذا كله من ضمن الصراع من أجل البقاء.. والبقاء دائماً للأصلح، والأصلح هو الذي يستطيع أن يتغلب على الآخرين بأي وسيلة من الوسائل مهما كانت قذرة ولا أخلاقية. فالطبيعة لا تعرف الأخلاق، والخير كل الخير للكائنات، أن يبقى الأقوى أو المخادع الكاذب المخاتل، اللص الحقير، ما دام يستطيع أن يخدع غيره ويستولي على ماله!.. ولا تزال الرأسمالية سعيدة جدّاً بآراء داروين ومالثوس في هذا المجال، بل وازدادت الحاجة إلى هذه النظريات بدخول عصر العولمة.

العلم الحديث يُزلزل العلمانية:

لقد كان التقدم العلمي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كبيراً لدرجة أن ابتدأ العلماء يشعرون بالثقة الزائدة في هذا العلم، وأن هذه الحقائق لا يمكن أن تدحض أو تتبدّل وتتغير، ولكن هذه الثقة بدأت تهتز بتقدّم العلوم نفسها. وأصبحت الحقائق كلها هلامية نسبيّة، وابتدأ ذلك بصورة واضحة بنظريات ماكس بلانك الذي طلع بنظريته المعروفة في الطبيعة باسم النظرية الكمية (Quantum Theory)، ثم بنظرية آينشتاين النسبية.

وبدأ من حقيقة بسيطة معروفة، وهي: أنك إذا سخّنت قضيباً من الحديد فإنه يحمرّ أولاً، ثم يتحول إلى اللون البرتقالي، فاللون الأبيض المتوهج. وهناك علاقة بين الطاقة التي يشعّها الحديد الساخن وطول أو ذبذبة الموجات الضوئية المنبعثة منه.

وهذه الطاقة تنبعث من كميات ودفقات متتابعة على هيئة حبيبات (Particles) أو جسميات من الطاقة أطلق عليها اسم (الفوتونات). وتختلف السرعة والكمية على مقدار الطاقة ونوعية الموجات الضوئية (فالبنفسجية ذات ذبذبات عالية وتختزن طاقة أكبر).

وتمّت الاستفادة من ذلك في التليفزيون؛ حيث تنقل الصورة على هيئة نقط من الظل ونقط من النور إلى اللوح المعدني الحسّاس الذي يطلق سيلاً من

الإلكترونات.. وهذه الخفقات الإلكترونية الكهربائية تنتقل إلى عمود إرسال وتذاع على شكل موجات مغناطيسية كهربائية إلى أجهزة الاستقبال التي تحولها إلى الصورة مرة أخرى.

وبدأ السؤال عن هذه الفوتونات.. هل هي كرات من الطاقة لها حيِّز أم هي أمواج؟ وهل الضوء موجات كما كان مقرراً طوال القرن التاسع عشر أم هو أجسام صغيرة جدّاً؟ واستمر الجدل وتبيّن أن كلا النظريتين هام لتفسير نشاطات الطاقة الضوئية، فهل هناك حقيقة واحدة للضوء أم حقيقتان؟ وكيف يمكن الجمع بينهما؟ ورغم أن كل واحدة منهما تفسّر مجالاً من مجالات الضوء إلا أنه لا بد من أخذهما لتفسير كافة الظواهر.

ولهذا فإن الحقيقة أصبحت نسبية.. وخُذ على ذلك مثالاً آخر، فإذا كان بيدك كرة من الحديد فإنك تعتقد اعتقاداً جازماً أنها مصمتة، غير متخلخلة، قوية، متماسكة ولكن علماء الفيزياء يقولون لك: إن هذه الكرة ليست سوى فراغ هائل تدور فيه ذرات، وبين كل ذرة وذرة ما بين الأرض والشمس.. ثم إن كل ذرة مكوّنة من نواة مؤلفة من البروتونات والنيترونات تحيط بها كهارب لا يكاد يكون لها وزن، ولا مكان، وتسير بسرعة كبيرة في مدارات ملتفَّة حول النواة. وهذه الكهارب أو الطاقة هي الإلكترونات. وما بين الإلكترونات والنواة مسافات شاسعة مثل ما بين الأرض وزحل وربما أكثر.. وكلها فراغ في فراغ!.. وهكذا تتحوّل المادة الثقيلة المصمتة التي تراها أمامك، وتحسّها بيدك، وتحملها فتؤود بثقلها، تتحوّل هذه المادة إلى هباءات متناثرة في كون فسيح، تسبح في مداراتها كما تسبح النجوم والكواكب والأقمار في مداراتها، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وهي أمور تفوق الخيال ويعجز الإنسان عن أن يتخيّلها ويتمثلها، ولكنه ما لبث أن يقول: سمعنا وأطعنا، لأن أساطين العلم يقولون له ذلك. وأن ما تراه من مادة ليس إلا فراغاً هائلاً، وشحنات سالبة، وشحنات موجبة، وبينهما شحنات لا سالبة ولا موجبة (النيترونات).. وأجزاء كثيرة متشظّية من الذرة ونواتها، لا يعرفها إلا من درس الفيزياء. وهي كلّها بالنسبة لهم حقائق لا تُرى

ولا تُعرف على حقيقتها وماهيتها، ولكننا تعرَّفنا عليها بآثارها.

وهؤلاء العلمانيون البلداء الأغبياء المنكرون للغيب المدّعون التمسك بالعلم يقولون: إنهم لا يؤمنون إلا بما هو مشاهد.. وما يشاهدونه قد تحوّل إلى غيب من الغيب، لا يعرف كُنْهَهُ إلا الله، علاّم الغيوب (الذي ينكرون وجوده وهو أقرب قريب، وأقرب إليهم من حبل الوريد).

فأين هي المادة التي يشاهدونها ويلمسونها بأيديهم، ويجدون صوتها بأسماعهم، وروائحها بأنوفهم، ويرون تفاصيلها الظاهرة بأعينهم؟ ومع هذا يأتيهم علماء الفيزياء ليقولوا لهم: إن هذا الذي ترونه ليس ظاهر العلم، وهو وهم من الأوهام والحقيقة التي وصلنا إليها الآن (ولا ندري ماذا سيكشف لنا الغد) هي أن المادة عبارة عن طاقة مكثّفة. وهذا التكثيف في الطاقة أمر نسبي. وهي في واقعها شحنات سالبة (إلكترونات)، وشحنات موجبة (بروتونات)، وشحنات لا سالبة ولا موجبة (نيترونات)، وما بين ذلك عدد كبير من الشظايا التي لا تُرى ولا تُسمع ولا تُشم ولا تُلمس، تدور في أفلاك، وفي فراغات، والفراغ هو الأصل.. والطاقة تتكثف فتبدو لنا مادة نلمسها، أو نرى أثرها كموجات مغناطيسية كهربائية.

ولكن ما حقيقة الكهرباء؟ ما حقيقة المغناطيس؟ لا أحد يعلم.. وهذه الموجات أو الفوتونات (الجسيمات) قد تكون ضوءاً نراه أو نرى بواسطته الأشياء ونحدد الألوان. والألوان ذاتها عجب في عجب، فاللون الأخضر مثلاً هو أن هذا الجسم الذي نراه أخضرَ قد امتصَّ جميع ألوان الطيف السبعة (من البنفسجي إلى الأحمر والتي يمكن أن نراها بواسطة المنشور الزجاجي. وهو ما يفعله الطلبة في المرحلة المتوسطة والثانوية)، ما عدا الموجات التي نعبّر عنها باللون الأخضر، فينعكس ذلك الطيف أو تلك الموجات فنراه بهذا الشكل، وهكذا قُل في بقية الألوان. وأما المصاب بعمى الألوان فإنه يستطيع أن يميّز بعض الألوان ولكنّه لا يميّز الأخرى، والعيب (في الغالب) عيب خلقي فيما يسمّى العُصي والمخروطات في شبكية العين.

ويقع الضوء على الشبكية فيحدث موجات كهربائية كيميائية تنتقل عبر العصب البصري في رحلة عجيبة فذّة إلى منطقة الإبصار في الفص القذالي من الدماغ، وتبدو الصورة معكوسة مثل الصورة على الفيلم النيغاتف.. وحتى تُدرك تنتقل إلى منطقة الإدراك البصري، وتعمل مناطق أخرى لإتمام إدراك هذه الصورة وألوانها.. وهو عمل تنوء به الجبال، ولكن الله سبحانه وتعالى ييسر ذلك ويسخرّه لهذه الخلايا العصبية، وتشابكاتها التي تصل إلى التيريلونات، فتقوم بهذا العمل في لمح البصر أو هو أقرب، في دقة متناهية معجزة، تجعل الجاحد المكابر يطأطئ رأسه مسبِّحاً وحامداً وشاكراً للخالق المبدع الكريم المتفضل الجواد البارئ المصور.. ولكن هؤلاء القوم أصابهم العمى؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وأنت تنظر إلى قطعة صغيرة من جلد يدك فترى الشعر وترى المسام، ثم تكبّرها بعدسة اليد فتختلف الصورة.. فإذا أخذت منها قطعة صغيرة جدّاً، ووضعتها تحت المجهر الضوئي، رأيت صورة أخرى وعالماً آخر، فإذا ما كبّرت الصورة إلى بضعة آلاف المرات رأيت على هذه القطعة الصغيرة ملايين المخلوقات من بكتريا وفطريات تتعايش على جسدك، وتأكل تلك القشور الميّتة وتساعد على إعادة البناء في تنظيم دقيق رائع.. فإذا كُبّرت الصورة بالمجهر الإلكتروني إلى ربع مليون أخرى؛ إذا أنت أمام عوالم أخرى، فإذا وصلت إلى تكبير مليون مرة خرجت عن نطاق ما تسميه معقول.. وهكذا، فأين الحقيقة؟ أهي التي تراها بعينك؟ أم التي تراها بعد التكبير بعدسة اليد (عشر أو عشرات المرات)؟ أم بالمجهر الضوئي (من مئة إلى آلاف المرات)؟ أم بالمجهر الإلكتروني (من مئات الآلاف من المرات إلى الملايين)؟ أيّ تلك الصور تمثل الحقيقة؟..

وكل صورة من هذه الصور تُنبئك بخبر آخر، وحقائق أخرى.. وعوالم جديدة.. يصيبك الدوار وأنت بعد لم تزد عن معرفة بضعة ملمترات من جلد يدك؛ أين هي الحقيقة؟ وأين هي المادة؟ فإذا دخلت في عالم وظائف الأعضاء

ووظيفة هذه القطعة الصغيرة من جلدك إذا أنت ببحار متلاطمة من العلوم التي تفني الأعمار ولا يستطيع الإنسان الإحاطة بها. . وقد تخصّص لها رجال بذلوا كل حياتهم وأوقاتهم من أجلها. . وفي كل يوم يرون جديداً، ويعلمون ما لم يكونوا يعلمون.

فإذا تركت الجلد، وأخذت خلية واحدة من خلاياه فقط فإذا أنت أمام عالم فسيح، لا أول له ولا آخر (بالنسبة لمدارك الإنسان، وإلا فهو عالم محدود) وفي الخلية توجد النواة وما تحتويه من كروموسومات. . وفي الكروموسومات عوالم وعوالم، وإذا بعالم الشفرة والرموز ينفتح في عالم الجينات. . والجين عبارة عن مجموعة من القواعد النتروجينية (أربعُ قواعد فقط) في مسلسل حلزوني ممتد ما بين الأرض والمريخ إذا تم فرد (مدّ) جميع مادة الحامض النووي منزوع الأوكسجين المعروف باسم الـ (DNA)، وهو كله موجود في حيّز لا يُرى بالعين، ولا يُرى إلا بالتكبير آلاف المرات (لرؤية النواة) ثم تكبير مئات الآلاف من المرات لرؤية تفاصيل (DNA). . والجين أو المورثه هو قطعة من الـ: (DNA) (هذا المسلسل الحزوني) تكفي لتكون شفرة (رمز) لإيجاد مسلسل بروتيني مكون من مجموعة من الأحماض الأمينية.

لا نريد أن نلج عالم المورثات فهو عالم فسيح، وهو تخصص مثير بكلِّ معنى الإثارة؛ فطباع وشكل وتكوين كل فرد منّا موجودة في هذه الشفرات والرموز الكيميائية، ولكنها ليست رموزاً جامدة لا تتغير أبداً، بل إن التغيير والتبديل يلحقها بعوامل لا حصر لها ولا عدّ من البيئة الخارجية، والبيئة الداخلية، ومن الإشعاعات الكونية، والإشعاعات الصادرة من ما ينتجه الإنسان (بما في ذلك البلوتونيوم الموجود في السجائر المشتعلة)، ومن المواد الكيماوية التي لا حصر لها تقريباً. . . ومن التفاعلات بين هذه المواد العديدة، والفيروسات، والبكتريا، وملايين الملايين من الأنواع والمخلوقات، وقد تتحول إلى سرطان خبيث يقتل الإنسان، وخاصة إذا وجدت استعداداً وراثياً لذلك. . . كيف يمكن أن نعرف الحقيقة في خضم هذه البحار المتلاطمة والأمواج العاتية؟

إنما نحن كراكب مركب شراعي في وسط المحيط.. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فهذا الذي لا يريد أن يؤمن بالغيبيات ولا بالله سبحانه وتعالى، لأنه لا يراه، فهل يستطيع أن يرى بعينه المجردة ما هو موجود في نقطة ماء من بركة أو من جدول؟..

إنها تبدو أمام عينيك صافية شفّافة، فإذا وضعتها تحت المجهر فإذا أنت بعوالم من المخلوقات تسبح فيها ملايين الملايين من المخلوقات.. ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يٓس: ٤٠]؛ هذه وحيدات الخلية من الأميبا والجيارديا والتراكوموناس والبلانتديم (وكل واحدة منها أنواع)، ثم هناك البكتريا بأنواعها، وهناك الطحالب بأنواعها كذلك.. وهناك أنواع عديدة من الفطريات.. كل هذا في قطرة ماء وما أدراك ما قطرة الماء؟ وما طبيعتها؟ وكيف تحول من سائل إلى غاز (بخار الماء) أو إلى جماد (الثلج)؟ وما هي خصائصها؟ وكيف تستطيع أن تذيب المواد وتحللها وتتحول هي إلى سالب يشدّ الموجب من المادة المتحلّلة، وموجب يشدّ إليه السالب من تلك المادة.. وهذا ما نعرفه باسم الذوبان، فيذوب الملح والسكر ومئات المواد فيها وتتأين (تتحول إلى أيونات وإلكتروليت بنشاط كهربائي عجيب). وكيف تستطيع هذه القطرات أن تصعد من الأرض عبر جذور النباتات إلى ذرى الأوراق في قمم الأشجار عبر السيقان، بخاصية تعرف باسم الخاصية الشعرية... وهو أمر يدرّس في المدارس الثانوية والجامعات...

عوالم الماء والدراسات حوله لا يستطيع أن يلمّ بها إنسان واحد.. ولكنها تخصصات وتخصصات، وكل تخصص له رجاله وعلماؤه المتواضعون الذين يقولون: وما أوتينا من العلم إلا قليلاً؛ فهناك علماء الطب، وعلماء الفيزياء، وعلماء الكيمياء، وعلماء الحياة، وعلماء البحار، وعلماء الأنهار، وعلماء البيئة، حين يدرسون تأثير المياه، وعلماء الطاقة وهم يستخدمون الطاقة المائية (الهيدروليك)، وهناك المهندسون في كيفية استخدام هذه المياه.. وهناك علماء النبات، والزراعة، والري، وعلماء التنبؤات الجوية وهطول الأمطار، إلى آخر ما

هناك من تخصصات متعلّقة بالمياه.. وأعظم من ذلك كله قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، وهو أمر تعجز البشرية بعلومها كلّها عن إدراكه!.. وإن كانت هناك أبحاث جديدة تتحدث عن وجود مياه متأينة في الكون بشكل لم يخطر على بال بشر.

ويكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

كما يكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

يمكن أن تعيش بعض الكائنات بدون طعام، وتصنعه لنفسها من التخمر أو من الهواء كما تفعل النباتات التي تأخذ ثاني أوكسيد الكربون من الهواء مع الطاقة الشمسية، والماء من باطن الأرض (أو بأيّ وسيلة أخرى)، فتحوله إلى سكر ثم إلى (نشاء) وتضيف عليه الآزوت (النتروجين) لتحوله إلى بروتين، وهكذا كل أنواع الغذاء.. ومصدرها الأول الماء. وتعيش بعض البكتريا اللاهوائية بدون أوكسجين، بل تموت بوجود الأوكسجين، ولكنها لا تستطيع أن تعيش بدون ماء!.. كل المواد الحيّة تحتاج إلى الماء في تفاعلاتها، ولذا فإن تركيب المادة الحية يحتوي على الماء، وما يقرب من (٧٠ بالمئة) من جسم الإنسان ماء.. وكذلك الكرة الأرضية التي عليها نعيش تشكّل المياه أكثر من (٧٠ بالمئة) منها.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٥ ـ ٦] فالماء هو أصل الحياة.. ولا يمكن أن توجد حياة، كما نعرفها، بدون ماء.. ومع هذا يأتي هؤلاء العلمانيون فينكرون الله سبحانه وتعالى ويتحدّثون بكلٍّ وقاحة عن موت الإله (فلسفة نيتشه)، وأن الإنسان هو الذي خلق الله وليس الله هو الذي خلق الإنسان، بمعنى: أن فكرة الله أوجدها الإنسان البدائي المتخلّف... إلخ. بسبب خوفه من عوامل الطبيعة كما يدّعي (شبلي شميل) وأضرابه من الجهلة المغرورين.

وبتقدّم العلوم في القرن العشرين كان أول من عاد إلى رحاب الإيمان هم علماء الفلك والطبيعة والكيمياء والحياة والطب. . . إلخ. وظهرت كتب عديدة لأساطين هؤلاء العلماء؛ مثل كتاب (الله يتجلّى في عصر العلم) لمجموعة من كبار العلماء في كافة الفروع العلمية، ومثل كتاب (الإنسان ذلك المجهول)، لـ: ألكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل في الطب. . ومئات الكتب مثل كتاب (العلم يدعو للإيمان) من (تأليف كريسي موريس).

ومن الجدير بالذكر ما نشرته مجلة (Scientific American) العلمية الرصينة؛ حيث قامت بسؤال مئة عالم من المشاهير في كافة فروع العلم: هل تؤمن بوجود إلٰه؟ وقدّمت هذا السؤال مرتين؛ الأولى سنة (١٩٠٠م)، والثانية سنة (٢٠٠٠م). والغريب حقّاً أن غالبية العلماء سنة (١٩٠٠م) كانوا منكرين لوجود الله، أو على أقل تقدير متشككين في وجوده؛ أما في عام (٢٠٠٠م) فكانت الغالبية العظمى من هؤلاء العلماء تؤمن بوجود إلٰه خالق مدبّر حكيم، ولا يمكن أن يكون هذا الكون قد خُلق صدفة بذاته. . ومع هذا فعندما سألتهم المجلة الموقّرة: هل تؤمن بالكنيسة وبإلٰه الكنيسة؟ كان أغلبهم في حرج شديد، وأعلنوا أنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بإلٰه الكنيسة، وأن الله تجسّد وظهر في شكل طفل ولدته امرأته تسمّى مريم من بني إسرائيل في بيت لحم، وأن هذا الطفل كبر، ونادى بمبادئ إنسانية رائعة، ولكنه لم يكن إلٰهاً ولم يكن يدّعي معرفة الغيب، بل أعلن لهم بصراحة أنه لا يدري متى الساعة. . وبالتالي أعلن هؤلاء: أنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بالتثليث الذي جاءت به الكنيسة (منذ عقيدة نيقية في القرن الرابع بعد الميلاد ٣٢٦م)، ولا يستطيعون أن يؤمنوا بأن الله هو المسيح ابن مريم. . كما أن عقيدة الأفخارستيا والعشاء الرباني عقيدة مضحكة وسخيفة، وهي أن الخبز الذي يقدّمه الكاهن يتحوّل فعلاً إلى لحم الإلٰه يسوع، وأن النبيذ الذي يقدّمه لأتباعه هو دم يسوع الذي سُفك من أجل خطايانا! . . فعقيدة الفداء وعقيدة الصلب وعقيدة القربان المقدّس في العشاء الرباني (الأفخارستيا Eucharist) كلها خرافات لا يقبلها العقل والعلم.

هم إذن مؤمنون بإلٰه واحد قدير خالق لهذا الكون مدبّر له، ولكنهم قطعاً لا يستطيعون أن يؤمنوا بالإلٰه الذي اخترعت صورته الكنيسة منذ مؤتمر نيقية وما تبعه من مؤتمرات.. وهم بذلك أقرب ما يكونون إلى الإسلام، ولو نشط المسلمون بين هؤلاء العلماء بالدعوة إلى الله وتوضيح عقيدة الإسلام الصافية المصفّاة من كل دنس من أدناس الشرك والتجسيد والتعطيل لأقبل على الإسلام منهم الكثير ممن أراد الله لهم الهداية.

الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة:

وقد أدّت العلوم المختلفة المندرجة تحت مسمّى (Science) إلى عودة غالبية الدارسين لهذه العلوم إلى رحاب الدين بين المسلمين.. بل أدت إلى حركة جديدة، عرفت باسم الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة، وظهر عدد كبير من هؤلاء في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، واشتدّ الجدل حول هذه الحركة؛ وهل يجوز إقحام العلوم المتغيّرة في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟.

واحتدم النقاش حول ذلك.. وكان لا بد من إيجاد ضوابط، فتكوّنت الهيئة العلمية للإعجاز في القرآن والسنَّة، كأحد راوفد رابطة العالم الإسلامي، وقام عليها رجال مخلصون، وأدّت ولا تزال تؤدي دوراً مشرِّفاً ومحموداً في هذا المجال، وضمّت إليها مجموعات مختلفة من المختصّين بالعلوم الحديثة (فلك، جيولوجيا، علم بحار، طب، بيولوجيا.. إلخ) بالإضافة إلى علماء في التفسير والشريعة وعلوم الحديث واللغة العربية حتى يتم ضبط هذه التفسيرات، ولا يسير كل باحث على هواه أو ما يبدو له أنه الصواب.

وأول ما ينبغي أن نقرره أن هذه الأبحاث في مجال الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنَّة، لا تعدو أن تكون فهوماً للآيات الكريمات والمعجزات المبهرات وللأحاديث الشريفة، بناء على ضوء المعلومات الحديثة.

وقد تكون هذه الفهوم، في نقطة معينة، (مثلاً كلمة العلقة التي ذكرها المفسِّرون بأنها دم غليظ، بينما تذكرها معاجم اللغة أنها كل ما يعلق بشيء آخر،

وما يذكره علماء الأجنة بأنها مرحلة من مراحل تكوّن الجنين يتم فيه علوق الكرة الجرثومية، البلاستولا، بجدار الرحم، ثم تظهر مجموعة من التعلقات العجيبة التي تجعل كلمة العلقة هي المناسبة تماماً لهذه المرحلة كما أقرَّ بذلك أساطين علم الأجنة في العالم مثل كيث مور).

قد تكون هذه الفهوم أفضل من فهم الأئمة الأجلاء من علماء التفسير القدماء في هذه النقطة، فما ذكره الطبري وابن كثير أو ابن جزي أو الرازي أو القرطبي أو النسفي... إلخ في هذه النقطة ليس له ما يُسنده من القرآن أو الحديث أو اللغة، وإنما هو فهم من الفهوم فرضته معلومات ذلك العصر الذي كانوا فيه.

ومع إقرارنا بأن فهم العلقة على ضوء علم الأجنة الحديث أفضل بكثير من فهم العلماء الأجلاء السابقين إلا أننا نقرر أن هذا الفهم قد يتغيّر في تفاصيله على الأقل مع تقدّم العلوم وتوسّعها.

وإذا أخذنا مثالاً آخر من التفسير في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٥ ـ ٨] حيث قال جمهرة المفسّرين: يخرج من صلب الرجل ومن ترائب المرأة.. وهو قول غير صحيح، كما نعرف من العلوم الطبية العديدة، ومع ذلك فقد تنبَّه بعض الأفذاذ من العلماء الأقدمين إلى خطأ هذا القول، فتجد ابن القيّم مثلاً في كتابه الفذ (إعلام الموقعين عن رب العالمين)[1] وهو كتاب فقه لا كتاب تفسير، يقول: «ولا خلاف أن المراد بالصلب صُلب الرجل، واُختلف في الترائب فقيل: المراد بها ترائبه أيضاً، وهي عظام الصدر ما بين الترقوة إلى الثندوة، وقيل: المراد بها ترائب المرأة.. والأول أظهر لأنه سبحانه قال: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، ولم يقل يخرج من الصلب والترائب، فلا بد أن يكون ماء الرجل خارجاً من بين هذين الملتقين، كما قال في اللبن: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ [النحل: ٦٦].

---

(١) ابن القيّم: إعلام الموقعين: ١/ ١٥٨.

وأطال، رحمه الله، في الرد على من قالوا: ترائب المرأة، بل قال: يخرج من بين صُلب الرجل وترائبه ومن بين صُلب المرأة وترائبها.

وقد ذكر القرطبي في تفسيره عن الحسن البصري وغيره بأنه يخرج من صُلب الرجل وترائبه، وصُلب المرأة وترائبها. وذكره كذلك أيضاً الآلوسي في تفسيره.

وهذا الذي ذهب إليه الحسن البصري وابن القيّم وقليل من المفسِّرين القدامى يؤيّده علم الأجنة الحديث؛ حيث نجد أن الغدة التناسلية تتكون في الجنين في الأسبوع الخامس في موضع الكلية، أي: ما بين الصلب والترائب؛ (الترائب: هي الأضلاع، والصلب: هو العمود الفقري). ثم تنزل هذه الغدة التناسلية إلى الحوض وتبقى هناك في الأنثى (مبيض)، بينما تواصل نزولها في الذكر إلى كيس الصفن (الخصية) في الشهر التاسع من الحمل.. ومع ذلك فإن تغذية وتروية الغدة التناسلية تبقى من بين الصلب والترائب.

وتُصنع النطف الذكرية (الحيوانات المنوية) في الخصية عند البلوغ وما بعده، وتنتقل تحملها إفرازات متعددة من الحويصلة المنوية والبروستانة والبربخ... إلخ. إلى الخارج، وتخرج متدفقة بسبب تقلصات عضلات العجان.. وهو الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بالماء الدافق.

وكذلك في المرأة تنمو البويضات في المبيض في دورة شهرية، ويختار الله إحدى هذه البويضات لتكمل نموها وتتحول إلى حويصلة مليئة بالماء الأصفر الرقيق[1]، وتقرب من حافة جدار المبيض، فإذا امتلأت بالسائل انفجرت وخرجت البويضة تتلقفها أهداب البوق وهو نهاية قناة فالوب التي تأخذ البويضة إلى القناة؛ حيث تأتيها الحيوانات المنوية فيختار الله واحداً منها ليلقحها.

إذن هناك ماء دافق للرجل وهو أبيض ثخين (له مثل رائحة البيض)، وماء دافق للمرأة يخرج مرّة واحدة في الشهر عند الإباضة؛ وهو ماء أصفر رقيق.

(١) لقد ورد في الحديث الصحيح: أن ماء الرجل أبيض ثخين، وأن ماء المرأة أصفر رقيق.

بهذا نرى أن علم الأجنة وعلوم الطب (الفسيولوجيا) قد أوضحت لنا بعض مرامي الآية الكريمة، ووصف النبي ﷺ لماء الرجل وماء المرأة.. وجعلتنا هذه العلوم نميل إلى أحد التفسيرين وأن ننضم إلى حزب الأقلية من المفسِّرين؛ وهو أن قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ يعود إلى أنه يخرج من بين صلب الرجل وترائبه، ومن بين صُلب المرأة وترائبها.

وهكذا فإن العلوم الحديثة تعطينا فهماً أدق من فهم القدماء في هذه الآيات الكونية أو العلمية المتعلّقة بتكوين الإنسان أو غيره، وأحياناً تجعلنا نرجّح قولاً على قول بأدلته العلمية الحديثة، أو تفتح معنى جديداً إضافيّاً لم يكن معروفاً في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١٢]، فقد فهم القدماء الصدع الشقوق في الأرض بسبب خروج النبات من الأرض فيشقها شقّاً، أو تدفق المياه من باطن الأرض فيصدعها صدعاً... إلى غير ذلك من المعاني القريبة.. وهذا كلّه حق؛ ولكن أضافت علوم الجيولوجيا كما يقول الأستاذ الدكتور زغلول النجار (الأخ الكريم والصديق العزيز) فهماً آخر وهو الصدوع الهائلة الكبيرة في الكرة الأرضية؛ وهو صدع يمتد ما بين المحيطات الهائلة بجوار القارات.

ومع ذلك كلّه فإننا نقرر: أن ما يسمّى الإعجاز العلمي ليس إلا فهماً من الفهوم لهذه الآية الكريمة، أو الحديث النبوي، ولا يمنع ذلك من فهوم أخرى؛ فكل كتب التفسير وهي بالمئات أو أكثر تحمل عدة معانٍ للآية الكريمة؛ فلا تكاد توجد آية، غير الآيات المحكمات، إلا وفيها عدة أقوال؛ بل وتنقل هذه الأقوال المختلفة عن ابن عباس نفسه ترجمان القرآن.

ولهذا فإن هذا الفهم الحديث للآية الكريمة أو الحديث النبوي، يعطي إضاءة أخرى ومعنى جديداً، أو يؤيد معنى قديماً قال به الأقدمون بالدليل العلمي الحديث، ولكنه مع ذلك يبقى قولاً بشريّاً قابلاً للخطأ، وليس قولاً معصوماً لا يجوز تعدّيه.

ولا أظن عاقل يقول بذلك، وإلا كان مثل رجال الكنيسة الذين حاولوا فرض أفهامهم في الكتاب المقدّس، حول الأرض والمجموعات الشمسية...

إلخ، حيث ناقضوا العلم وحاربوا العلماء وأحرقوهم أحياء لمجرد مخالفتهم لأقوالهم!.. وهو قول شطط أدّى إلى المروق من الدين جملة وتفصيلاً.

وعلى أيّة حال لم يكن بين المسلمين من يقول: إن قوله وحده هو الحق الذي لا مرية فيه، وأن أقوال غيره من العلماء هي الباطل الذي لا ريب فيه؛ بل كان أكثرهم يقول: قولي هذا صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب، والمرجع في ذلك كله هو الدليل.

وإذا كانت النصوص التي بُنيت عليها أحكام الفقه والدين تنقسم إلى نصوص قطعية الثبوت أو ظنية الثبوت. والقطعية الثبوت قد تكون قطعية الدلالة، وقد تكون ظنية الدلالة... ولا شك أن فهوم علماء الطبيعة والطب والجيولوجيا في الآيات الكريمات والأحاديث النبوية التي تتحدث عن هذه العلوم، هي مجرد فهوم ظنية الدلالة، وخاصة أن هذه المواضيع لاينبني عليها عمل ولا أحكام إلا فيما ندر، والمجال في ذلك واسع، ولكنه ليس قولاً بغير دليل، بل ينبغي أن يكون دليله واضحاً من اللغة ومن علوم التفسير والعلوم الحديثة.. وإنه لمن الشطط والبعد عن الفهم الحق أن نظن أن هذه المباحث والفهم الإشاري (وهو ما أطلق عليه القدماء: التفسير الإشاري) حقائق قطعية، وهو الخطأ الفادح الذي وقع فيه رجال الكنيسة فيما يسمّونه العصور المظلمة (Dark Ages).. وقد كانت كذلك بالنسبة لهم، أما بالنسبة لنا فقد كانت عصور النور والقبول بالرأي الآخر؛ فما من تفسير في آية أو حديث إلا ويذكر المفسّر فيه العديد من الأقوال، وقد يرجّح قولاً على قول بناء على ما يذكره من الأدلة؛ بل إن أحكام الفقه في المذاهب الإسلامية تحوي العديد من الأقوال في المسألة الواحدة، وهي كلها تعتمد على فهوم للآيات الكريمات، والأحاديث النبوية الواردة في الموضوع، وما ورد عن الصحابة في تطبيقهم لهذه الفهوم.

والعجيب حقاً: أن المذهب الواحد يحوي العديد من الأقوال في المسألة الواحدة؛ وقد اشتهر مذهب الإمام أحمد بكثرة الأقوال فيه، حيث تبلغ الأقوال أكثر من عشرة أقوال في مسألة واحدة، وكثير منها ترجع إلى الإمام أحمد نفسه!!

وهذا يدل على سعة وسماحة الفقه الإسلامي، وأنه ليس متحجّراً ولا جامداً، وبذا يصلح لكلِّ زمان ومكان، وباب الاجتهاد مفتوح لأهله؛ وهو في هذا الزمان يحتاج للمجامع الفقهية؛ حيث يجتمع العديد من كبار الفقهاء مع العديد من الخبراء ليدرسوا مسألة واحدة دراسة دقيقة من كافة جوانبها، ليخرجوا بقول أقرب إلى الحق.. ومع ذلك فمعظم المسائل لا تصدر فيها فتاوى إلا بعد دراستها لعدة أعوام، وبغالبية الآراء من الموجودين، والإجماع متعذر.

وقد سئل علي ﷺ: هل خصَّكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشيء؟ فقال: لا إلا أن يكون فهماً في كتاب الله أو ما في هذه الصحيفة (وهي صحيفة كانت في غمد سيفه كتب فيها العقل والديّات وبعض الأحكام الأخرى).

بحث سرعة الضوء:

وفيما يلي بعض ما كتبته من تعليق على بحث أخي وحبيبي الدكتور محمد دودح «بحث في سرعة الضوء»، وهو بحث عميق في علم الفيزياء والضوء، وقد قام أخي الحبيب بتعديل الأمور الفلسفية وحذفها والإبقاء على المسائل العلمية، وإلغاء كلمة المعادلة القرآنية، فجزاه الله خير الجزاء، ونفع بعلمه الواسع.

المعادلة القرآنية:

مما أثار دهشتي هو تكرار كلمة المعادلة القرآنية لتوضيح معادلة معقدة

$t'/R' \times ٣,١٤١٦ \times ٢ = t/V'T = t'V' = V0$

صعبة لا يمكن فهمها ولا هضمها إلا لمختص في الرياضيات والفيزياء..
وهل القرآن الكريم كتاب معادلات رياضية فيزيائية معقدة من هذا النوع؟! وهل إذا عُرضت هذه المعادلة المسمّاة المعادلة القرآنية على كبار الصحابة الذين كتبوا القرآن وحفظوه ودرسوه ودرّسوه ونشروه بين الأمم؛ هل كانوا يستطيعون أن يدركوا شيئاً من هذه المعادلة؟ هل كان أبو بكر الصديق أو عمر بن الخطاب أو علي بن أبي طالب أو عثمان بن عفان أو عبد الله بن مسعود أو أبيّ بن كعب أو زيد بن ثابت أو عبد الله بن عباس ﷺ يستطيعون أن يفهموا هذه المعادلة؟ وهل

إذا تخيلنا أننا نستطيع أن نعرضها عليهم لنقول لهم: هذه هي المعادلة القرآنية التي تثبت التوحيد وتوضّح إعجاز القرآن، أن نرى منهم السرور والفهم لهذه المعادلة؟!..

فلماذا إذن نقحم هذه المعادلات الرياضية الفيزيائية العويصة في القرآن، بل وندعي أنها لب لباب القرآن؟! إن هذه المعادلة وغيرها من المعادلات الرياضية الفيزيائية المعقدة يمكن أن تنسب إلى مكتشفها ومبتدعها، فهذه معادلة آينشتاين وهذه معادلة الدكتور محمد دودح.

ويمكننا أن نقول مع الدكتور محمد دودح: إنه استنبط فهمها من آيات من القرآن الكريم مع دراسته الواسعة للفيزياء والرياضيات.. ولكنها تظل مرتبطة بصاحبها، ومن المبالغة، بل ومن الخطورة بمكان أن نسميها المعادلة القرآنية.

وفي بحثه جاءت العناوين التالية: «علاقة ثابتة في القرآن الكريم بين بُعد القمر الأرضي وطول اليوم في النظام المعزول»، «والمعادلة القرآنية تكشف معدل تزايد طول اليوم ومعدل تباعد القمر عن الأرض»، «المعادلة القرآنية تحدد قيم حركة عناصر النظام الأرضي القمري عند أيّ وقت على طول التاريخ»، «المعادلة القرآنية قائمة على ثبات قيمة سرعة الضوء في الفراغ على طول التاريخ»، «المعادلة القرآنية تكشف تاريخ النظام الشمسي وتبيّن قيمة الوحدة الفلكية للقياسات»، «المعادلة القرآنية تبيّن قيمة الوحدة الفلكية وتصف حركة نظام الشمس والأرض على مرِّ التاريخ»، «المعادلة القرآنية توحّد كافة قوانين الحركة في الكون»، «المعادلة القرآنية توحّد عالم الكون الكبير مع عالم الجسيمات الصغير»، «المعادلة القرآنية تكشف آلية نشأة الأرض والقمر».. ولست بصدد دراسة هذه المقولات فهي ليست من اختصاصي، وإنما يقوم بها أهل الاختصاص من أهل الفيزياء والرياضيات الحديثة، ولكن الاعتراض هو على تسميتها المعادلة القرآنية.. وما أحرى أن تنسب إلى مكتشف هذه المعادلة وهو الدكتور محمد دودح، ولا يوجد ما يمنع الدكتور محمد دودح أن يقول: إنه استنبطها من فهمه لآيات القرآن الكريم مع دراسته الواسعة في الفيزياء والرياضيات والفلك.. وأما

الزعم بأنها معادلة قرآنية فذلك يرفعها إلى مصافّ القرآن ويعطيها من القداسة الشيء الكثير!!.

فلسفة البحث وروحه:

يركز الباحث الفاضل الدكتور محمد دودح في بحثه على «أن أعظم رسالة للفيزياء الحديثة كانت في إثبات وحدة كل شيء في العالم (الكون) في أمر واحد كامل التماثل والتجانس يسري بسرعة حدّية واحدة ثابتة القيمة (هي سرعة الضوء = ٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية)، وتلتقي عنده كافة قوانين الكون وقيمة الثوابت... وليس الحقل أو القوة أو الطاقة سوى مصطلحات.. ولعلّ **أقرب الأسماء هو النور؛ لأنه لا يرى ولا تُرى الأشياء إلا به، مع أنه موجود وكأنه الروح تسري في كل الوجود بالسرعة الأساس (أي ٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية)، لأن من ذلك الأمر الأساس يصنع كل شيء وفق قدر واحد هو الخطة الأساس»** (التمهيد).

ويقول: «**لرجوع جميع الأسباب إلى علّة واحدة هي النور أو الأمر الأساس ذي الخصائص الثابتة** (والذي يسري بسرعة ٣٠٠,٠٠٠ كم/ثانية). **وحضور الإلٰه مؤكد لأن كل شيء في العالم يبدو ممتلئاً عقلاً وقصداً، ومزوداً بنوع من الوعي والخيار الحر بلا آلية**».

ويقول الباحث الفاضل: «**إن هذا البحث يرسم رؤية جديدة للعالم من خلال المنظور القرآني** تتفق مع أعقد المسائل الفيزيائية، إلا أنها تطرح في عبارات بسيطة وموجزة **تظهر العالم كوحدة واحدة في الأساس والتكوين والقوانين.. وتبيّن أن أطوار النشأة والتكوين ما هي إلا حلقات في سلسلة واحدة، وتفضي دراسة نصوص القرآن الكريم في موضوع السرعة الحدّية للمادة الأساس إلى نتائج رقمية لم يكن بالإمكان أن تقع مصادفة، وتقدّم معادلة تتفق في المبدأ مع كافة قوانين الحركة في الكون رغم بساطتها، وكأنها المعادلة المعجزة التي ظل آينشتاين يبحث عنها ما يقارب أربعين سنة دون أن يصيبها... فتتفكك المادة إلى نور أو أمر تخبر كل مطالع أن الله واحد متعال وليس خالداً سواه... ولعلّ ذلك يفسّر توارث الأديان لتمثل الإلٰه بالنور لأنه لا يُرى بذاته ولا ترى**

الأشياء إلا به... وعند تتبع سلاسل الأسباب يبدو كأن جسيمات النور رسل لكلِّ ذي فكر»...

«وبذلك تمكّن العارفون بمبادئ لغة الطبيعة بأنفسهم حلَّ اللغز ولا حياة اليوم لدين لا يمضي في نفس الركب مع العلم حتى لو زيّنته الأردية المزركشة وفخّمته بهرجة الطقوس» (وهو كلام إنشائي جميل ولكنه يحمل خطورة كبيرة).

وينتهي الباحث في التمهيد إلى القول:

«من نحن؟ ومن أين أتينا؟ وإلى أين نحن سائرون؟ ولماذا أبدع الإلٰه كل هذا؟ لقد شغلت هذه التساؤلات أذهان الكثيرين الذين لم يحجب الإلف عن وعيهم الشعور وهم يتطلَّعون إلى الكون الغامض حولهم... ولعلّ القرآن الكريم بتلك المعرفة المؤكدة يكون قد ساهم بالفعل (بواسطة نظرية الأمر التي أتى بها الدكتور دودح، وأنها سرعة الضوء) في العثور على جواب مقنع لمثل تلك الأسئلة الملحّة؛ لأنه يكشف إشارة كل شيء في هذا العالم المنظور إلى وحدانية الله».

ومن الصفحة الأولى من البحث يقول: «**لقد تجسّد التوحيد الأول في تاريخ العلم الحديث في اكتشاف إسحاق نيوتن لقانون الجاذبية الذي يوحّد السموات والأرض، فيفسّر حركة القمر بسقوط تفاحة على الأرض، ثم وحد ماكسويل الكهرباء والمغناطيسية، واستشعر آينشتاين مبدأ التوحيد فلم يكتفِ بتوحيد المكان والزمان، بل وحدَّ المادة والطاقة كذلك.. وفي عام (١٩٦٧م) استطاع ستيفن واينبرج ومحمد عبد السلام بانفصال (أي كلاً على حدة) إكمال عمل جلاشو في توحيد القوة النووية الضعيفة داخل الذرات مع القوة الكهرومغناطيسية.. وأتى الإثبات الأخير في توحيد هاتين القوتين في عام (١٩٨٣م) على يد كارلو روبيا وسيمون فان ديرمير.. بالتحقق من وجود تلك الجسيمات في الطبيعة.. واليوم يعكف عديد من العلماء على محاولة إثبات توحيد القوة النووية القوية مع القوتين السابقتين فيما يسمّى بنظريات التوحيد الأعظم، ويضيف آخرون الجاذبية كذلك،**

ومن ثمّ يكتمل توحّد كل القوى في الكون كما نعرفها اليوم فيما يسمّى بنظريات كل شيء».

وأخيراً: يرى الفيزيائيون أن تلك القوى الأربع في الكون هي أوجه مختلفة لقوة واحدة سادت عند التكوين..

نظرية وحدة الوجود الحديثة:

لأن كل الجسميات يمكن إرجاعها إلى مادة ما كونية قد نطلق عليها اسم الطاقة أو المادة الأولية.. ومن هنا ينبثق الاعتقاد بوجود جوهر أولي، أي: علة مادية للأشياء جميعاً... وهي تقدّم أكبر دليل، بل إن جميع الجسيمات قد حيكت من أمر واحد، أي: من نفس الجوهر وهو الطاقة، ولذا يمكننا أن نسميها باسم العلّة الأولى لكل تغيّر في العالم؛ لأنه لا يوجد في الحقيقة سوى هذا الأمر الواحد.

ما هو هذا الأمر الواحد؟ وما هي هذه العلّة الأولى؟.. يقول أصحاب الفيزياء: إنها الضوء الذي يسير بسرعة (٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية) ولا شيء سواه، فهو خالق هذا الكون وهو علته الغائية، ولا شيء سواه!!.

«وهكذا تتلاشى المادة أمام ناظريك، ولا تجد في النهاية من الخواء سوى العجَل أو السرعة الواحدة الأساس التي يشدو بها كل تكوين».

وهكذا أصبحت المادة الأساس أو السرعة الأساس وهي تسير بسرعة الضوء (٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية) هي الخالق الإلٰه لهذا الكون، فالكون منها صدر وإليها يعود؛ وهي البدء والنهاية، وفيها يتوحّد الكون والطاقة وكل ما في هذا الكون.. وما أروع هذا التوحيد! إنه توحيد لا يبعد عن أصحاب وحدة الوجود حيث يتوجه الكون خالقاً ومخلوقاً في النور.. ولكن هذا النور يتحول هنا إلى ضوء يسير بسرعة (٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية).

«**الفيزيائيون إذن على الطريق الحتمي نحو توحيد كلّ شيء**»، لأن كل الدلائل تقود إلى أن الذرة ليست المحطة الأخيرة للمادة، فقد تم اكتشاف العديد

من الجسميات التي تكوّن الذرات.. ولا تزال عملية الاكتشاف جارية لعوالم من التجسمات أصغر فأصغر؛ **حتى تنتهي إلى أمر واحد هو الأساس يمكن تسميته «بالقوة الأساس» لأنه عند التكوين، أي: أول لحظة من عمر العالم قبل ظهور أيِّ تكوين لم يكن سوى هذه القوة الأساس.. ومنها نشأت كل المواد وكل القوى الأربع لعالمنا، أي: القوة الكهرومغناطيسية بتنوعاتها، والجاذبية، بالإضافة إلى القوتين النوويتين القوية والضعيفة اللتين تعملان على ضمِّ الجسميات داخل الذرة»**.

وهكذا ينتهي تسلسل الأمر عند هؤلاء الفيزيائيين إلى قوة خفيّة لكنها لا تزيد عن أن تكون في سرعة الضوء (٣٠٠٠٠٠ كم/ ثانية)؛ وهي الخالق لهذا الكون ولا خالق سواه!! وبما أن هذه القوى كلها قد توحّدت في هذه القوة التي تسير بسرعة الضوء في كافة أشكالها المغناطيسية والكهربائية والجاذبية... إلخ. فذلك هو قمة التوحيد! «فليس الوجود إذن سوى تجليات أمر واحد.. مثل وتر واحد يهتز على الدوام بأطوال متباينة فيصدر في آن واحد كل النغمات (وهذه المادة الأساس التي تسير بسرعة الضوء يمكن أن تكون الضوء أو الكهرباء أو القوى المغناطيسية أو قوى الجاذبية أو قوى الذرات القوية والضعيفة... إلخ). ونظرية الوتر الواحد الفائق الاهتزاز تلك، أو الوتر الفائق (Super String) هي آخر صيحة بعد عهد آينشتاين كمحاولة تبدو صائبة لتوحيد النسبية المعنيّة بالكون الفيزيائي الكبير، مع ميكانيكا الكم المعنيّة بعالم الجسميات الذرية الصغير.. وتوسمُ كل شيء بختم الأصل الواحد مهما تباينت الأبحاث».

وهكذا تتحول هذه المادة الأولية التي تسير بسرعة حدّية ثابتة إلى خالق ومخلوق في آن واحد عند هؤلاء الفيزيائيين الموحديين!!

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

ويقول الباحث الفاضل، (ص ٦): **«إن توحّد كل العالم الفيزيائي من (السماء إلى الأرض) في أمر واحد ثابت الخصائص يمثِّل أساس البناء والمادة الخام لكل شيء ـ كالقطن تصنع منه كافة المنسوجات ـ هو خلاصة مسيرة العلم**

وتاريخ الفيزياء. وهذا الأمر الأساس نصطلح عليه باسم الطاقة؛ لأنها مادة بناء القوى والمواد...».

«وكما يدلّ النص على أن مادة الطين هي خامة كل التشكيلات الحيّة التي انتهت بنشأة الإنسان، فكذلك خامة الكون أو طينة البناء كله، أمر واحد في الأساس ومنه ابتدأت عملية خلق جميع الأشياء». وبذلك يسبق القرآن الكريم الفيزياء في بيان توحّد كل العالم الممكن الإدراك «من السماء إلى الأرض؛ في أمر واحد يدل السياق على أنه أصل كل شيء».

وفي (ص ٧) يقول: «**إنه لا وجود في الأصل إلا لمادة واحدة بسيطة تولدت منها كافة الأجرام والتركبات الهيولية**». وينقل عن ابن عاشور وغيره «قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ **يعني الشمول وجنس الموجود وجميع المخلوقات (انتهى). وأن هذا الأمر طاقة حرّة يُعبَّر عنها بالنور تارة وبتشكلات الطاقة الأخرى تارة أخرى، ولكنها جميعاً تسير بسرعة الضوء؛ وهي السرعة الحديّة القصوى في هذا الكون (٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية).. وسرعة حركة جميع تنوعات الأمر واحدة ونورية؛ لأنه أمر واحد نوري يعرج في الخلاء.. وذلك عند من وقف على سرعة حركة الأضواء» وكل شيء قد خلق من هذه السرعة البالغة «والحديّة» حتى الإنسان الذي خلق من عجل أي سرعة الضوء!!.. و«في جميع التنوعات والأحداث على طول عمر الكون تبقى بسرعة الأمر الأساس ثابتة وواحدة تنشأ بها البداية وتأتي به النهاية، وتمضي بها كافة الطاقات في الخلاء.. وتبقى معياراً لكلٍّ تكوين لأنها السرعة الأساس والأمر هو نفسه منذ التكوين».**

وهكذا تصبح هذه الطاقة التي تسير بسرعة (٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية) هي الأول والآخر والظاهر والباطن.. وهي لبُّ الكون وأساسه، وهي بدايته ونهايته، وهي مظهر تجلياته!!.

إن هذه النظريات التي يقدّمها فلاسفة الفيزياء على أنها توحيد تنتهي بجعل الكون كله بجميع مخلوقاته ليس إلا هذا الضوء أو الطاقة التي تسير بسرعة (٣٠٠,٠٠٠كم/ ثانية)، بل إنه لم يوجد شيء أصلاً إلا هذه الطاقة، فهي البدء

وهي النهاية، منها صدر هذا الكون وإليها يعود.. فهي الخالق والمخلوق، والرب والمربوب.. فأي توحيد عند هؤلاء القوم؟!.. وليس هذا إلا تغيير طفيف لكلام الملاحدة الذين يجعلون الطبيعة إلٰهاً لكل شيء، فهي الخالق وهي المخلوق.. أو كلام البوذيين والهندوس الذين يقولون بوحدة الوجود.

وإذا سرنا مع أولئك النفر القليل من الفيزيائيين الفلاسفة الذين يفرِّقون بين الخالق والمخلوق فإننا نجد صفات الخالق سبحانه وتعالى تتحول هي أيضاً إلى ضوء وطاقة تسير بسرعة (٣٠٠,٠٠٠كم/ الثانية)، لأن هذه هي السرعة القصوى في هذا الكون؛ وهي تندرج في نظريات وحدة الوجود المعروفة.

وقد حاول الدكتور محمد دودح، حفظه الله، أن يحتاط في هذا الباب حتى لا يقع في المنزلق الخطير الذي وقع فيه علماء الفيزياء وفلاسفتهم بوضعه كلمة «الكون الفيزيائي»، ولكن مصادره تجعله يتحدّث «عن كل شيء وعن الشمول» لكل ما في السموات وما في الأرض وما بينهما.. وعن الطاقة التي منها صدر كل شيء وإليها ينتهي كل شيء، وهي غاية الغايات، وإليها المصير!!.

وحتى لو قلنا تجاوزاً: إن هؤلاء القوم من الفيزيائيين الفلاسفة يعتقدون بوجود خالق ومخلوق، وأن الله سبحانه وتعالى خالق مادة هذا الكون كله من هذه الطاقة الأولية التي تشمل كل مخلوق، فهي مبدأ الكون ظاهره وخافيه وجميع القوى تندرج فيه.. وهي قوة أو طاقة يمكن أن نطلق عليها لفظ «النور» أو «الضوء» لأنها تسير بسرعة الضوء (٣٠٠,٠٠٠كم/ ثانية)، إذ لا توجد سرعة في هذا الكون أقصى من هذه السرعة؛ فهي السرعة الحديّة والسقف الأعلى للسرعة وللمادة وللطاقة، والتي يتوحّد فيها الإنسان والشجر والحجر كما تتوحّد فيه المجرة والذرة.. وكل أطياف الضوء والطاقة.

وهذا القول قديم قديم ليس فيه أيّ جديد سوى التعبير بالسرعة الحديّة القصوى؛ فقد تحدّث القدماء من إغريق ومصريين قدماء وهنود وفرس عن العقل الكلي أو النور الأزلي الأولي الذي خلق الله منه الكون في تطور مستمر ومراحل متعددة.

اللوجوس أو العقل الكلي أو الكلمة:

تقول (دائرة المعارف البريطانية ميكروبيديا: ٦/ ٣٠٢، الطبعة ١٥ لعام ١٩٨٢م): «إن كلمة لوغوس (Logos) العقل الكامل الكلي لا نجدها فقط في فلسفة الإغريق، وإنما نجدها كذلك عند قدماء المصريين والهنود والفرس.. وكان لها أهمية كبيرة في الفكر المسيحي والكتابات المسيحية منذ القرن الثالث الميلادي، وخاصة على يد أوغسطين (من مواليد شمال إفريقية ٣٥٤م) كما نجدها لدى كاتب وفيلسوف مسيحي هو توما الإكويني في القرون الوسطى.

وتعود كلمة لوغوس (Logos) واستخدامها لدى الإغريق إلى القرن السادس قبل الميلاد؛ حيث نراها بوضوح في فلسفة هيراكليتس (Heracleitus)، كما استخدمها الرواقيون (Stoics) وبالذات زينون (Zeno of citium) في القرن الرابع قبل الميلاد، حيث اعتبر اللوغوس هو العقل الكلي النوراني الذي تصدر منه جميع الأشياء، وهو يتخلل الأشياء، وهو روح الكون أو الطبيعة، ويمكن أن يطلق عليه لفظ الإلٰه.

واستخدم فيلون الإسكندري الفيلسوف اليهودي المشهور في القرن الأول بعد الميلاد كلمة اللوغوس، واعتبرها بأنها الواسطة التي بها خلق الله الكون؛ إذ إن الله لم يخلق الكون دفعة واحدة ولا فجأة، وإنما خلق أولاً الكلمة (اللوغوس) أو العقل الكلي أو النور الأزلي الذي صدر عنه الكون في مراحل متتابعة.. وهو هو كلام أفلاطون مع بعض التحوير..

كلمة الله عند اليهود وعند المسلمين، التوراة والقرآن:

وعن طريق اللوغوس يستطيع الإنسان أن يتصل بالله.. وقد اعتقد اليهود أن كلمة الله وحكمته الأزلية الأبدية تتمثل في التوراة.. وقد أخذت التوراة بهذا المفهوم معظم أبعاد كلمة اللوغوس.. والتوراة عندهم هي كلام الله القديم الأزلي الأبدي؛ فهي ليست منفصلة عن ذات الله وليست مخلوقة له.. بل هي قديمة كقدمه، أزلية كأزليته، نورانية كنورانيته، وبالتالي لا يمكن الوصول إلى الله إلا بها أو بواسطتها.

ونجد صدى هذه الأفكار عند المسلمين في القرن الثاني من الهجرة (الثامن الميلادي)؛ حيث نجد المعركة تحتدم بين أهل السُّنَّة وبين المعتزلة الذين يقولون: بأن القرآن محدث، مستدلين بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥].

وأهل السنَّة الذي يقولون: بأن القرآن كلام الله القديم الأزلي الأبدي غير منفصل عن ذاته ولا صفاته.. وأن الموجود في المصاحف وتلاوتنا له محدثة مخلوقة.

أما هو فهو كلام الله، وكلام الله لا ينفك عن ذاته أبدي أزلي نوراني.. ثم إن بعض العلماء فسَّق البخاري صاحب الصحيح وبدّعه لأنه يقول بأن تلاوتي أنا للقرآن محدَثة، وكتابتي له محدَثة. فهم يقولون: إن التلاوة والكتابة كلها أزلية خالدة!! ومات البخاري مطروداً من بلده بسبب قوله ذاك.

عيسى عليه السلام كلمة الله:

وقامت الأفلاطونية المتوسطة (مدرسة أفلوطين الذي حوّر أفكار أفلاطون ليجعل عملية الخلق متتابعة في عشر مراحل؛ كل واحدة بعد الأخرى؛ من النور الأولي أو العقل الكلي إلى إيجاد المادة) بالتأثير على الفكر المسيحي الديني في القرن الرابع الميلادي، وخاصة على يد القديس أوغسطين؛ حيث تحولت الكلمة اللوغوس (العقل الكلي أو النور الأولي) إلى يسوع أو نور يسوع الأولي؛ وهو مثل الكلمة أزلي أبدي.. وهو عند النصارى غير منفصل عن الذات الإلٰهية، بل هو منها (هذا على الأقل رأي المنوفيست)، ومنه خلق الأكوان لها في مراحل متتابعة؛ فمن هذا النور الأولي الأزلي خلق الله الأنوار العلوية والأنوار السفلية، ومنها خلق الملائكة والأرواح والعالم الحسي في متاليات متتابعة تبدأ بالبسيط وتنتهي بالمعقّد.. وتبدأ بالنور غير المحسوس من عالم الغيب لتنتهي في عالم الشهادة.. وصارت هذه الكلمة ذاتها (اللوغوس) هي يسوع وهي الله أو ابن الله الذي تجسّد لينقذ العالم من الخطيئة الأبدية، وليخلّص العالم بافتدائه بابنه!! وفي

إنجيل يوحنا تحولت الكلمة (Logos) إلى تجسد كامل في المسيح.. وهكذا تداخلت كلمة لوغوس (العقل الكلي، النور الأولي الأزلي) مع يسوع المسيح لتصبح كائناً واحداً.. في البدء كانت الكلمة، والكلمة هي يسوع وهي الله!! وظهرت تجليات هذه الكلمة في الثالوث والأقانيم الثلاثة: الله (الآب)، والابن (يسوع)، والروح القدس.

يقول القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠م): «في البدء كانت الكلمة (لوغوس) وأن الكلمة في الله، والله كان الكلمة، وكل شيء به قد كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان»[١]، ويقول القديس أوغسطين في نظرية خلق الكون ونقده لما جاء في التوراة وتحويره لها: «لقد ورد في سفر التكوين أن الله قد خلق السماء والأرض في ستة أيام متوالية، ولكنّا لا نستطيع أن نأخذ هذه النصوص على ظاهرها.. بل ينبغي أن نقرر أن عملية الخلق الأولى تمت في لحظة دون أن يقتضي ذلك أيّ تعاقب زمني»، ونفى ما ورد في التوراة أن الله استراح في اليوم السابع؛ إذ إن الله لا يصيبه النصب ولا التعب، وإنما ذلك لتقريب عملية الخلق إلى عقولنا على ما نفهمه نحن البشر الضعاف، فالله لا يتعب ولا يمكن أن يستريح[٢].

النور عند فلاسفة المسلمين:

وقد اهتمّ فلاسفة المسلمين اهتماماً كبيراً بنظرية أفلوطين على وجه الخصوص، واعتمدوها بعد شيء من التحوير، فالله أول ما خلق خلق النور الأولي أو العقل الكامل، ثم جعل هذا النور قسمين: قسم بسيط لا تدركه الحواس مخصوص بالعالم العلوي، ونور مركّب تدركه الحواس وموجود في العالم السفلي.

يقول الطبيب الفيلسوف الكيميائي أبو بكر الرازي (المتوفى سنة ٣٠٣هـ،

---

(١) انظر: اعترافات القديس أوغسطين، تراث الإنسانية: ٣/ ٦٤٥ ـ ٦٦٦ بقلم الدكتور زكريا إبراهيم.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وقيل: سنة ٣٠٩ و٣١٤هـ)، في كتابه (المدخل إلى علم الطب): «أول ما خلق الباري سبحانه وتعالى الأنوار المضيئة. والنور ينقسم إلى قسمين: بسيط لا تدركه الحواس مخصوص بالعالم العلوي، ومركّب تدركه الحواس وموجود في العالم السفلي.. ومن النور العلوي خلق الله العقل (الكلي)، ومن العقل خلق النفس الناطقة، ومن الناطقة الحيوانية، ومن الحيوانية خلق النفس الطبيعية الخامدة التي خلق منها الطبائع البسيطة الأربع: وهي، الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. وازدوج البرد مع الرطوبة؛ فصارت ماء.. ولذا كان الماء أول المخلوقات الجسمانية والعناصر الأرضية، وازدوجت الحرارة مع اليبوسة فصارت ناراً، وارتفعت النار لخفّتها ورسب الماء لثقله سفلاً، فصار بينهما تضادٌّ وتباعد، ونتج عن هذا التضاد والتباعد الهواء، فحرّك البارئ سبحانه وتعالى الهواء فصارت ريحاً، وحرّك الريح الماء، حتى تلاطمت أمواجه وأرغى زبده، وصار الزبد طبقات بعضها فوق بعض، فجمد بالقدرة وصار تراباً وأرضاً».

وهكذا يتدرّج الخلق عند الرازي وغيره من فلاسفة المسلمين، والملفت للنظر حقّاً أن النور الأولي ينقسم إلى قسمين: قسم بسيط لا تدركه الحواس مخصوص بالعالم العلوي، ونور مركّب تدركه الحواس..

وهذا ما لم يصل إليه بعدُ الفيزيائيون الفلاسفة المحدَثون الذين لا يعرفون للكون إلا هذا الضوء الذين يسير بسرعة (٣٠,٠٠٠ كم/ ثانية) مهما تشكلت أنواع الطاقة التي يتمثلها.. فهذه هي السرعة الحديّة القصوى.

وهذا الأمر مشكل بالنسبة للمسلم، فكم هي سرعة جبريل عندما كان يأتي بالوحي والأوامر من رب العزة إلى محمد ﷺ؟ وهل هذه هي سرعته القصوى أي: (٣٠٠,٠٠٠ كم/ الثانية)؟ فكم يا ترى سيحتاج من ملايين السنين الضوئية حتى يصل إلى الأرض؟.. ثم كيف تصعد الأعمال إلى ربِّ العزة كل يوم؟.. وكيف تصعد الأرواح؟ وكيف تصعد الملائكة وتنزل؟ وبأيّ سرعة تسير إذا لم تكن هناك إلا سرعة حديّة قصوى هي (٣٠٠,٠٠٠/ كم/ ثانية)، وهي دليل التوحيد الأعظم عند الدكتور محمد دودح هداه الله ورعاه.

بأيّ سرعة عُرج بالنبي ﷺ إلى السموات العلى من بيت المقدس؟ وكيف استطاع أن يخترق الطباق واحدة بعد أخرى، وليست لدينا سوى سرعة حدّية قصوى هي سرعة الطاقة العظمى، ودليل التوحيد الأكبر، وهي (٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية)؟ ثم إن الكتلة لا بد أن تتلاشى حين تصل إلى سرعة الطاقة القصوى؛ وهي سرعة الضوء هذه (٣٠٠,٠٠٠كم/ ثانية)؛ فهل تلاشى رسول الله ﷺ ليصير ضوءاً أو طاقة تسير بهذه السرعة الحديّة القصوى؛ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٧ ـ ١٨]، وقد رأى الماضي السحيق، رأى آدم ومن بعده من الأنبياء، وصلّى بهم إماماً، ثم رآهم في أماكن في السموات العُلى، كما أوغلت بصيرته وبصره في المستقبل البعيد؛ حيث رأى يوم القيامة وعلامات الساعة وأشراطها ورأى الجنة والنار ورأى من دخلها.. فانتهى الزمان وانداح وتلاشت معالمه، فهو ما بين ماضٍ سحيق ومستقبل بعيد وحاضر يرتبط بالماضي والمستقبل في الآن والتوّ.

والغريب حقّاً: أن يستطيع أبو بكر الرازي وفلاسفة المسلمين أن يحلّوا هذا الإشكال الذي وقع فيه الفيزيائيون الفلاسفة المحدَثون في العصر الحديث؛ إذ لا يوجد لديهم سوى سرعة واحدة وطاقة أصلية واحدة لا يمكن أن تتجاوز سرعتها (٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية) على الإطلاق.. بينما أدرك الأقدمون النور العلوي البسيط الذي لا تدركه الحواس ولا تُعرف مدى سرعته، ومنه خلق الله العالم العلوي.. ونور مركّب تدركه الحواس مختص بالعالم السفلي وهو سرعة الضوء أو السرعة الحدّية القصوى عند هؤلاء الفلاسفة الفيزيائيين الذين قصرت معرفتهم وانتهى إدراكهم إلى ما يشبه إدراك الأطفال، ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]..

وقد اضطرب الأمر لدى أخينا الحبيب الدكتور محمد دودح ودهش لما قاله علماء الفيزياء، واعتبر أن هذه الطاقة المتوهجة التي تبلغ سرعتها الحدّية القصوى (٣٠٠,٠٠٠كم/ ثانية)، ومنها خلقت كلّ الطاقات وكلّ الأكوان كما يزعمون، فتحاً ومعلماً، بل دلالة التوحيد الكبرى.

وقد أحسَّ الأخ الحبيب بخطورة هذه الفلسفة، فحاول أن يقصرها على

العالم الفيزيائي المحسوس.. ولكن نقولاته كلها لا تتحدث إلا عن طاقة واحدة للكون بأسره ظاهره وخافيه، سرِّه وعلنه، بدايته ونهايته؛ فهو يقول عنها: «تنشأ بها البداية وتنتهي بها النهاية»، ويقول: «والدلالة على ظلمة الفضاء رغم وجود الأمر النووي جواب لمبدأ المجسّدة (أرنا الله جهرة)، لأن النور يعمّ فضاء الكون ولا تدركه الأبصار وهو يدركها»، لقد تحوّل هذا النور وهذه الطاقة الأولية التي تسير بسرعة (٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية) إلى النور الإلٰهي أو إلى الإلٰه نفسه ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وهذا كلّه منزلق خطير يؤدي إلى نظريات وحدة الوجود حيث يتمثلون بشعر أبي نواس:

رقّ الزجاج ورقّت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وإن كان لهم في ذلك تأويلات كثيرة تخرجها من مدار كفرها الظاهري من حلول ووحدة ووجود.. الخ. وتكفينا في هذا الإشارة وإلا فمبحث الحلول ووحدة الوجود مبحث طويل قد يخرج بنا عمّا نريده هاهنا. قال الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

النور المحمدي:

ثم إن بعض علماء المسلمين استهوتهم فكرة النور الأولي البسيط الذي خلق الله منه الأكوان العلوية والسفلية في تدرّج عجيب، ورأى النصارى يقولون: إن ذلك النور ليس إلا نور عيسى عليه السلام؛ فقال هؤلاء: محمد ﷺ أفضل من عيسى بل هو أفضل الخلق قاطبة.

وهناك أحاديث مروية بأسانيدها، تتحدث أن أول ما خلق الله نور محمد ﷺ قبل أن يخلق المخلوقات.. بل كلّ هذه المخلوقات إنما خلقت من نور

محمد ﷺ؛ فقد جاء في قصة المولد: أنه جاء في مصنف عبد الرزاق الصغاني بسنده، عن جابر: أنه سأل رسول الله ﷺ عن أول ما خلق الله؟ فقال: أول ما خلق الله نور نبيّك محمد ﷺ يا جابر. وهو غير موجود في مصنف عبد الرزاق المطبوع. وقد رواه أيضاً البيهقي باختلاف يسير في اللفظ.

وذكر الحافظ علي بن محمد القطان في أحكامه (وهو من نقّاد الحديث، المعروفين بصناعة الحديث ومعرفة الرجال) حديثاً عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عن أبيه عن جدّه عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**كنت نوراً بين يدي ربي**».

وقال الزرقاني: «ولا يعارضه حديث الترمذي: **أول ما خلق الله القلم**» إذ يمكن الجمع بينهما بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا النور المحمدي. وقيل: الأولية في كل شيء بالنسبة إلى جنسه ـ أي أول ما خلق الله من الأنوار نوري[1].

وقد روى كعب الأحبار اليهودي الذي أسلم في زمن عمر ولم يرَ النبي ﷺ العديد من الأحاديث الضعيفة التي تتحدث عن نور محمد الذي خلق الله منه الأكوان! وفي الصحيح: أن الرسول ﷺ قد سئل متى كنت نبيّاً؟ فقال: إني لنبيّ وآدم منجدل في طينته، وفي رواية: وإني لنبي قبل أن يخلق آدم بألفي عام.. وأن آدم عندما خُلق وجد مكتوباً على ساق العرش: لا إلٰه إلا الله، محمد رسول الله.. فهو ﷺ أولهم في الخلق وآخرهم في البعث (أي: بعثه نبيّاً إلى قومه)..

والخلاصة: أن المسلمين بفئاتهم المختلفة قد اعتمدوا بشكل من الأشكال نظرية النور الذي خلق الله منه الأكوان.. فالفلاسفة تحدّثوا عن النور الأولي والعقل الكلي، وأهل الحديث والصوفية وغيرهم تحدّثوا (كما جاء في الأحاديث السابقة) عن النور المحمدي.. وقد وصف الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ بأنه النور والسراج المنير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

(١) محمد علوي المالكي في كتابه: محمد الإنسان الكامل، ص ٢١.

﴿٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] فقالوا: إن المراد بالنور هو محمد ﷺ. (تفسير الطبري وابن أبي حاتم والقرطبي)، وقال قتادة يعني: بالنور محمداً (تفسير ابن الجوزي: ٢/ ٣١٧). ولا شك أن الرسول ﷺ نور وهداية للعالمين.

وتروي كتب السيرة والحديث: أنه لما ولد ﷺ رأت أمّه نوراً، وخرج معه نور أضاءت له قصور بصرى والشام[١].

وفي حديث الطبراني: «ورأينا كأن النور يخرج من (فيه)». وما جاء عن ابن عباس قال: «إذا تكلّم رأى النور يخرج من بين ثناياه». عزاه الزرقاني للترمذي والدارمي. وفي حديث عائشة قالت: كنت قاعدة والنبيّ يخصف نعله، فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نوراً فبهتُّ. فقال: ما لكِ بهتِّ؟ قلت: جعل جبينك يعرق، وجعل عرقه يتولد نوراً. . . الحديث.

ومع هذا فقد أدرك هؤلاء: أن ليس بالمقصود النور أنه جسم مشعّ مثل لمبة الكهرباء أو المصباح، فهذا وهم وسوء أدب. . وهو لا يكون نوراً محسوساً إلا من باب المعجزة في حين من الأحيان عند الحاجة[٢].

حديث العقل الأولي الكلي:

وتتحول هذه الفكرة أحياناً إلى العقل الكلي (Logos) الذي خلق فيه اللَّهُ العالم كلّه؛ وهي نفس الفلسفات اليونانية تجد صداها أحياناً في كتب الحديث في أحاديث ضعيفة، فقد أخرج الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبلْ، فأَقبل. ثم قال له: أدبرْ، فأدبر. ثم قال الله عزّ وجلّ: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك. بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب. . . قال عنه

(١) المواهب اللدنية: ١/ ١٢.
(٢) المالكي: محمد الإنسان الكامل ص ٢٢.

الزين العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: ضعيف الإسناد، واعتمده الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين).

وهكذا تجد أن فكرة النور الأولي أو العقل الكلي الذي خلق الله منه الأكوان في تدرجات عديدة تسيطر على كثير من الحضارات القديمة ومنها الحضارة المصرية واليونانية والهندية والفارسية، وتتغلغل في جميع الأديان السماوية بأشكال مختلفة وتحويرات متباينة إلا أنها تعود إلى أصل واحد، فهي عند اليهود الحكمة الأزلية في كلام الله الخالد التوراة، وهي عند النصارى في الكلمة التي تحوّلت إلى نور يسوع الذي خلق منه العالم العلوي والسفلي، وهي عند بعض المسلمين العقل الكلي، أو النور المحمدي الذي خلق الله منه الأكوان. . أما عند فلاسفة المسلمين فهي النور الأولي البسيط الذي يتدرّج في الخلق حتى يصل إلى المادة الغليظة في مراحل متعددة تشابه تلك التي جاء بها أفلاطون وتطورت على يد أفلوطين. . وقد نقلتُ إليك ما ذكره الطبيب الرازي في (المدخل). وإليك ما قاله إخوان الصفاء[1]: «وقد صدر العالم عن الله كما يصدر الكلام عن المتكلم أو الضوء عن الشمس، ففاض عن وحدة الله بالتدرج: العقل الكلي»، ومن العقل النفس، ثم المادة الأولى ثم عالم الطبائع ثم الأجسام ثم عالم الأفلاك ثم عالم العناصر ثم ما يتركب منها.

وتقول مادة أفلاطون في (دائرة المعارف الإسلامية)[2]:

«وقد شغل مفكّري المسلمين نظريةُ الواحد والكثرة، وكيفية صدور الكثرة عن الواحد، وكانوا في هذه المسائل أكثر ترتيباً من أفلاطون بوجه عام. . إذ لا يغيب عن أذهاننا الآراء المنظمة التي أدلى بها ابن سينا فيما وراء الطبيعة، وتأملات جلال الدين الرومي السامية، وإن كان بها شيء من الغموض، وكيف ردَّ ابن الطفيل الأشخاص والأجناس والأنواع إلى الوحدة».

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ١/٥٢٧ ـ ٥٢٩.

(٢) ٢/٤٢٦ ـ ٤٢٨.

«وقد أراد إخوان الصفا أن يكونوا على مذهب أفلاطون فيما ذكروه من أن الأعداد الأربعة تقابل الأشياء الأربعة التي يتألف منها في اعتبارهم العالم الروحاني، فالله يقابله الواحد، والعقل الكلي الفعّال يقابله العدد اثنين، والنفس الكلية يقابلها العدد ثلاثة، والهيولى الأولى يقابلها العدد أربعة».

«وقد تمسّك المسلمون تمسّكاً واضحاً بفكرة وجود عالمين: عالم العقل وعالم الحسّ، وأطلق المتصوفة على هذين العالمين أسماء مختلفة، فالفارابي على وجه خاص يسميها عالم الخلق وعالم الأمر..».

«أما القول: بوجود عالمين عالم الخلق وعالم الأمر؛ فهو من الآراء الجوهرية في التصوف، ويقول الغزالي: كما أن هناك أعضاء ندرك بها عالم الحس (عالم الشهادة)، فإنه يجب للنفس بعض الملكات مُهيِّئة لإدراك عالم الأمر».

نظرية الفيزياء التوحيدية الجديدة:

إن هذه النظرية الجديدة في الفيزياء التي تزعم أن الكون بل الأكوان كلّها تعود إلى الطاقة المسمّاة بطاقة الضوء أو غيرها الأسماء (الكهرومغناطيسية، الذرات... إلخ) والتي تسير بسرعة قصوى حديّة هي (٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية) ليست جديدة، بل هي من أقدم النظريات التي عرفتها البشرية على مدى تاريخها الطويل.. وما الجديد فيها إلا هذه المسميات الجديدة من طاقة وكهرومغناطيسية وسرعة ضوء.. وذرات وإلكترونات وميزوترونات... إلخ.

ولكنها تقصر عن النظريات القديمة في أشياء:

١ ـ أنها تخلط خلطاً شديداً بين الخالق والمخلوق؛ فهي تزيل هذه الحدود وتجعلها البدء والنهاية، والظاهر والباطن، وغاية الغايات، ونهاية النهايات، فهي نظرية أبعد ما تكون عن الإسلام، وأقرب ما تكون إلى البوذية والهندوكية ونظريات وحدة الوجود.

٢ ـ أنها حدَّدت سرعة قصوى لهذا النور لا تتعداه، وسواء ما كان منه نوراً يُرى

أو نوراً لا يرى؛ وهي سرعة (٣٠٠,٠٠٠كم/ ثانية)، وهي سرعة تافهة بالنسبة لسرعة الملائكة أو سرعة النبيّ ﷺ في أثناء المعراج أو سرعة الأرواح وصعودها إلى بارئها، أو سرعة وصول الأعمال كذلك وصعودها إلى خالقها كلّ يوم. . . إلخ.

٣ ـ أنها ليست دليلاً على التوحيد الإسلامي، بل هي من أدلة أصحاب وحدة الوجود وما أبعدها عن أنوار القرآن والإسلام.

٤ ـ من الخطأ الشديد التوهم بأنها وسيلة كبرى للدعوة إلى التوحيد الإسلامي؛ فهي بتكلّفها وبُعدها عن أنوار القرآن والسُّنَّة تخبط في دياجير الأوهام ولا تعدو عالم الفيزياء المحدود؛ حيث نراهم كما وصفهم القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

٥ ـ تربط هذه النظرية بين التطور والارتقاء من الطين في عالم الأحياء، وبين خلق الأكوان كلّها من هذه الطاقة التي تسير بسرعة (٣٠٠,٠٠٠كم/ ثانية). ونظرية التطور قد استخدمت على نطاق واسع في العصر الحديث لزعزعة الإيمان، مع أنها قد استخدمت في الماضي دليلاً عليه؛ وهي قابلة لهذا وذاك بناء على اتجاه مَنْ يستخدمها.

الخلاصة في بحث سرعة الضوء:

إن هذا البحث الفريد العويص يقدّم شكلاً جديداً لتصور قديم؛ وهو أن الله سبحانه وتعالى قد خلق كل الأكوان من النور الأولي (أو من العقل الكلي) متدرجاً من البسيط إلى المعقد. . وقد استطاع الدكتور الطبيب محمد دودح بثاقب فكرة وسعة اطلاعه على علوم الفيزياء والفلك أن يفسّر قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] تفسيراً لم يسبق إليه، حيث جعل الأمر النور الأولي أو الطاقة الأساس التي منها خُلق الكون، وجعل سرعتها ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وقد جعلها

في معادلة رياضية تساوي (٢٩٩٧٩٢,٤٥٨ كم/ ثانية)، وهي سرعة الضوء الحديّة أو سرعة الطاقة الحديّة العليا التي لا توجد سرعة أعلى منها، واحتاط لنفسه فجعلها في الكون الفيزيائي، ليخرج بذلك ما سمّاه المسلمون (عالم الأمر)، حيث سرعة الملائكة والأرواح والأعمال، بل وسرعة الرسول ﷺ في المعراج تبلغ أضعاف أضعاف تلك السرعة المسماة السرعة الحديّة القصوى.

ولكن كلام فلاسفة الفيزيائيين الذين اعتمدهم غير ما ذهب إليه، فهم كما أسلفنا لا يعرفون إلا سرعة واحدة، ولا يعرفون عالم الغيب الذي نتحدّث عنه ونؤمن به.

والباحث الفاضل قد بذل جهداً يُشكر عليه، وأوجد طريقة جديدة فذّة لم يسبق إليها في فهم بعض آيات القرآن الكريم، بل استطاع بفهمه الثاقب أن يوجد معادلات رياضية فيزيائية جديدة قد يكون لها صدى في عالم الرياضيات والفيزياء.. وقد سمّاها المعادلة القرآنية.. وكان الأجدر أن تنسب إلى صاحبها، ولا شك في أنه استنبطها من فهمه الخاص لهذه الآيات مع تبحره في علم الرياضيات والفيزياء والفلك وربطه بينها.

فجزى الله الباحث خيراً على ما بذل من جُهد وسهر من ليالٍ ـ ولكننا نؤكد أن ذلك كله ينبغي أن يكون في إطار فهمه لكتاب الله، مع ما ينبغي من استبعاد آراء فلاسفة الفيزياء المحدثين الذين لا يزيد توحيدهم عن توحيد أصحاب وحدة الوجود من البوذيين والهنادكة.. وأما أصحاب وحدة الوجود من غلاة الصوفية فانقسم الناس فيهم ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم: يكفّرهم بظاهر كلامهم؛ وهذا ما حدث للحلاج حيث أُمر بقتله فقُتل.

٢ ـ قسم: يرى أن هذه شطحات موهمة وأنها غير مقصودة، ويستدل على ذلك بكلامهم عندما يكونون في حالة الصحو، ولهذا تؤول هذه الكلمات بحيث تنفي وحدة الوجود والحلول، وتؤكد وحدة الشهود، والرب ربّ والعبد عبد.. ويرى البعد عن كلامهم لأنه مزّلة ومدحضة.

٣ ـ قسم ثالث: يرى أن هؤلاء من كبار العارفين ويؤول كلامهم للبعد عن وحدة الوجود والحلول.

والأسلم في ذلك كله البعد عن هذه السفسطات، والتركيز على ما في الكتاب والسنَّة والالتزام بهما، وتربية العامة والخاصة التربية الإسلامية الحقّة.

كتب العلوم (الغربية) تبتعد تماماً عند ذكر الله الخالق البارئ المصوّر:

نتيجة المعارك الضارية بين الكنيسة والعلم، والاتفاق بعد ذلك على فصل الدين عن كل ما يتعلّق بالدنيا (العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة كما سمّاها المسيري)، فإن الكتب العلمية ابتعدت تماماً عن ذكر أيّ شيء غيبي، وبالتالي فلا يمكن أن يتحدّث أيّ كتاب علمي عن الله، فالطبيعة هي التي أبدعت وهي التي خلقت وصوّرت.. وهذا لا يمنع أن يكون هناك عدد من هؤلاء العلماء من المؤمنين بالله وبالغيب، كما لا يمنع أن يكون منهم (نادراً) من يؤمن بالتثليث وإلٰه الكنيسة، وقد يصنّفون كتباً مليئة بالإيمان، مثل كتاب (العلم يدعو للإيمان) و(الله يتجلّى في عصر العلم)، و(الإنسان ذلك المجهول)... ولكنها ليست كتباً أكاديمية، كما أن أيّ بحث علمي يُنشر في مجلة علمية ينبغي أن يبتعد تماماً عن هذه الغيبيات.

ونحن نفهم هذه الدوافع التي أدت بهؤلاء العلماء إلى مثل هذه المواقف، وهي ترجع دون شك إلى تاريخ المعارك بين الدين والعلم في أوروبة بالذات، ورغم أن التقدّم العلمي في كافة المجالات العلمية منذ ظهور النظرية الكمية (الكوانتوم) عام (١٩٠٠م) وما تبعها من نظرية آينشتاين النسبية قد أدت إلى اهتزاز الثقة في معلوماتنا العلمية منذ عصر النهضة والتنوير إلى بداية القرن العشرين، ومن هناك بدأت رحلة الشك والسيولة؛ فالحقيقة لم تعد مطلقة، وإنما هي حقيقة نسبية.. وانتقلت هذه النظريات من الجانب العلمي إلى الجانب الفلسفي والأدبي والأخلاقي، مما أدى إلى السيولة وفقدان المعيارية والموضوعية، وفقدان جميع القيم الأخلاقية، وفقدان الأهداف والغايات، خارج نطاق اللذة الآنية وشهوة الفم.

ويؤدي هذا الفكر إلى العدمية، وإلى أن يختار أيّ شيء يريده، وأن يغيّر موقفه وما يريده حسب الشهوة والأهواء.

ويقول زيجمونت بومان: «إن ما يهدّد الوجود الإنساني ككائن أخلاقي ليس الشهوات، ولا الأفكار القديمة، ولا الاعتقاد بالخرافة، ولكن ما يهدّده حقّاً هو الحضارة والعلم!..».

وبذلك قام هؤلاء العلمانيون بهدم كلّ ما قامت عليه أوروبة في عصر النهضة وعصر التنوير.

وتتمسك مفاهيم ما بعد الحداثة بميتافيزيقية ملحدة رغم الاضطراب والشك في كل شيء.

وقد فصّل المسيري في كتابه (العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة) هذه المفاهيم المضطربة واللامعيارية (Anomie)، وأزمة المعنى (Crises of Meaning) والانتقال إلى العدمية (Nihilism)، وسيولة المبادئ والقيم بحيث لم يعد لها أيّ ثبات، مما أدى إلى سيولة الحياة وترجرج كلّ القيم وفقدانها أيّ معنى!.. وقد نقلنا بعض ما قال في الفصول السابقة، وقد أحسن في ذلك وأجاد.

ورغم أن العلوم ذاتها اهتزت ولم تعد لها تلك اليقينية السابقة إلا أن المناهج والكتب التي تدرّس العلوم لا تزال متأثرة بنظريات وأفكار القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، ولم تدلف بعد إلى القرن العشرين، بينما نحن في القرن الواحد والعشرين.

مثال في المجال العلمي: مسألة بقاء المادة وقِدَم العالم:

نجد في كتب العلوم (الكيمياء والفيزياء) قانون بقاء المادة الذي يدرّس في جميع البلاد الإسلامية عربية وأعجمية دون أيّ تعديل أو شرح له أو تأويل، والقانون: ينصّ على أن المادة لا تفنى ولا تستحدث (تخلق) من العدم (Matter can neither be created nor destroyed).

وهو مبدأ أخذت به الفلسفات اليونانية على اختلافها، وسواء كانت فلسفات إلٰهية أم إلحادية، إلا أنها جميعاً كانت تقرّ بهذا المبدأ.. ونرى أفلاطون (Plato) الذي يؤمن بإلٰه واحد للكون يقول: من المحال أن يوجد الله شيئاً من لا شيء، ولا يمكن عند أصحاب هذا القول أن يتحوّل شيء إلى لا شيء؛ أي: أن المادة لا تفنى ولا تخلق من العدم.

ولذا فهم يعتقدون: أن في الكون مادة ما قديمة كقِدَم الإلٰه ذاته، لا يوجد دونها ولا توجد دونه.. وهي لله مثل الطين للفخاري (الذي يصنع منها الأواني الفخارية)، ومثل الحديد للحدّاد، والخشب للنجّار، فهو الذي يخلق منها ما يشاء.

ويأتي أرسطو (Aristotle) ومدرسته برأي مشابه للرأي السابق في أصله مع اختلاف في التفاصيل، فهو يقول: لا يمكن أن توجد مادة من لا مادة أصلاً، وهذا الوجود كله على ما هو عليه لم يزل ولا يزال هكذا.. وأن الزمان والحركة أبديان دائماً لا كائنان ولا فاسدان (أي لم يُخلقا ولن يفنيا).. وأن الشيء الكائن الفاسد هو ما تحت فلك القمر لا يبرح ذلك؛ أي: أن تلك المادة الأولية لا كائنة (لم تُخلق) ولا فاسدة (لا تفنى) في ذاتها، ولكن الصور تتعاقب عليها، وتخلع صورة وتلبس أخرى.. وأن هذا النظام كله العلوي والسفلي لا يختل ولا يبطل، ولا يتجدد فيه متجدد مما ليس في طبيعته، ولا يطرأ عليه طارئ خارج عن أصله.

ولذا فإن من رأيه أنه من الممتنع عقلاً أن تتغيّر لله مشيئة أو تتجدد له إرادة، وإن هذا الوجود لم يوجده الله من عدم بل من مادة أولية.. وأن هذه المادة تترقى في شوقها إليه حتى تصل إلى كمالها، فليس ثَمَّ مُدبّر ولا مُنظّم لهذا الكون.. ويرى أرسطو: أن الطبيعة هي التي تفعل الأشياء، وهي لا تفعل شيئاً عبثاً!!.

ويرى فلاسفة اليونان أن الله يتفكّر في ذاته ولا عناية له بالمخلوقات أصلاً.. ويقول أبيقور: إن كل ما في السماء والأرض لا يقع إلا بالصدفة، وليس ثَمَّ خالق ولا مُدبِّر.

وهذا عين ما تقوله العلوم (Science) اليوم.. ولهذا فإننا نرى العلم

الأوروبي مبني على هذه الأقوال نصّاً وروحاً. . ورغم أن التقدّم العلمي أظهر خطأ كثير من هذه الأقوال، إلا أن العقلية الأوروبية ترفض التسليم بذلك، ولذا فلا يمكن أن تجد في أيّ كتاب علمي أو طبي أو فلكي أو جيولوجي أو أيّ فرع من العلوم (Science) من يذكر الله في أيّ موضوع من المواضيع، فالطبيعة هي التي أبدعت، وهي التي خلقت، وهي التي سوّت. . . إلخ، أو أن الصدفة المحضة هي التي أدت إلى كذا وكذا من الظواهر!!.

ومع أن العلوم الحديثة قد أثبتت أن هذا الكون وجد بعد أن لم يكن، وحدّدوا له زمناً يصل إلى خمسة عشر ألف مليون عام. . وليس المهم تحديد ذلك الزمن، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: ٥١]، فالزمن المحدّد قابل للصواب والخطأ، على الأقل في تفاصيله. أما القول الحقُّ فهو أن هذا الكون جاء من العدم.

وكذلك أثبتت الأبحاث العلمية: بأن هذا الكون سينتهي (لا أحد يعلم متى)، ولكنه من المؤكد أنه سينتهي يوماً ما، فالعدم نهايته، وتسمّى تلك النظرية نظرية الصَّاخة (Big Bang)؛ والصَّاخَة أفضل ترجمة لكلمة (بيج بانج) فهي تصّخ الآذان صخّاً لضخامتها، وهي القارعة، والطامة الكبرى، وهذه هي أوصاف القرآن الكريم ليوم القيامة. . فكيف إذن ندرّس لجميع المراهقين في كافة أرجاء العالم قانون بقاء المادة، وأن المادة لا تفنى ولا تخلق من عدم. . فالمادة لا شك مخلوقة خلقها الله سبحانه وتعالى، وهو القادر على أن يفنيها وسيفنيها حقّاً في يوم: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ٢].

ولو عدّلنا هذا القانون وقلنا: إن الإنسان لا يستطيع أن يخلق المادة من العدم ولا أن يفنيها إلى العدم لكان ذلك صواباً. . أما إبقاء القانون بشكله الحالي المطلق فهو مناقض للعلم ومناقض للدين في آن معاً. . ومع ذلك فقد استطاع الإنسان تحطيم المادة وتحويلها إلى طاقة مدمّرة في التفاعلات النووية، كما أن

تحويل الطاقة إلى مادة أمر مشاهد منذ ملايين السنين، فالكلوروفيل في الأوراق الخضراء يمسك بالطاقة الشمسية ويحولها مع الماء وغاز ثاني أوكسيد الكربون إلى نشويات وسكريات (Sugars & Carbohydrates).. فالمادة يمكن أن تتحوّل إلى مجرد طاقة، ومجرد الطاقة يمكن أن تتحول إلى مادة.. وهذا أمر مشاهد مما جعل أصحاب النظرية يجعلون الطاقة والمادة صوراً متعاقبة للمادة.. وهو أمر يتداخل فيه المادي الملموس إلى آخر نرى آثاره وهو الطاقة.. والضوء هو أسرع طاقة اكتشفناها في عالمنا يسير بسرعة (٣٠٠,٠٠٠ كم/ ثانية)؛ وهو عبارة عن موجات أو فوتونات.. (وقد سبق الحديث عنهما).

ثم اتسع المدى فأصبح العلماء يتحدّثون عن المادة (matter) وضد المادة (anti matter) وتداخل عالم الغيب مع عالم الشهادة، وما نبصره أو نرى أثره بما لا نبصره، بل ولا ندرك كيفية عمل أثره؛ قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٠].

وصدق المولى سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

المراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، كتاب الشعب ـ القاهرة.

كتب التفسير:

٣ ـ ابن كثير (إسماعيل بن كثير القرشي)، تفسير القرآن العظيم، عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة.

٤ ـ محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، طبعة مصوّرة.

٥ ـ محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة ـ بيروت (مصوّرة).

٦ ـ محمد بن عمر القرشي (الفخر الرازي)، التفسير الكبير، المطبعة البهية المصرية ـ القاهرة.

٧ ـ سيد قطب، في ظلال القرآن، طبعة مصوّرة.

المعاجم ودوائر المعارف:

٨ ـ معجم وبستر.

٩ ـ معجم أوكسفورد.

١٠ ـ المعجم الدولي الثالث (الجديد).

١١ - معجم علم الاجتماع المعاصر.

١٢ - دائرة المعارف البريطانية، الطبعة ١٥، لعام ١٩٨٢م.

١٣ - دائرة المعارف الأمريكية، الطبعة ١٩٥٩م.

١٤ - دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشسنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، دار المعرفة - بيروت، طبعة مصوّرة.

١٥ - الموسوعة العربية، إشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب، ومؤسسة فرانكين للطباعة، دار الشعب - القاهرة، ١٩٦٥م.

١٦ - سلسلة تراث الإنسانية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة.

١٧ - وول ديورانت: قصة الحضارة، دار الجيل - بيروت، ١٩٩٢م.

كتب أخرى:

١٨ - مقدّمة ابن خلدون، طبعة لجنة البيان العربي، وطبعة المكتبة العصرية - بيروت، ٢٠٠٤م.

كُتب عن العهد القديم الجديد والعقائد المسيحية واليهودية:

١٩ - الكتاب المقدّس، دار الكتاب المقدّس، القاهرة.

٢٠ - الكتاب المقدّس: كُتب الشريعة الخمسة، الرهبانية اليسوعية، دار المشرق - بيروت، ١٩٨٤م.

٢١ - الكتاب المقدّس: العهد الجديد، منشورات دار المشرق - بيروت، ٢٠٠٠م.

٢٢ - الكتاب المقدّس: العهد الجديد، دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط - بيروت.

٢٣ - الأب فاضل سيد أروس اليسوعي: تكوين الأناجيل، دار المشرق - بيروت، ١٩٩٠م.

٢٤ ـ الإنجيل كتاب الحياة: ترجمة تفسيرية للعهد الجديد ـ بيروت، ١٩٨٤م، الطبعة السادسة.

٢٥ ـ شارل جينيبر: المسيحية نشأتها وتطورها، ترجمة: الشيخ عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية ـ بيروت.

٢٦ ـ أحمد عبد الوهاب: طائفة الموحّدين من المسيحيين عبر العصور، مكتبة وهبة ـ القاهرة، ١٩٨١م.

٢٧ ـ محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، دار الفكر العربي ـ القاهرة، ط ٣، ١٩٦٦م.

٢٨ ـ هيام ماكبي: بولس وتحريف المسيحية، ترجمة سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية ـ بيروت، ١٩٩١م.

٢٩ ـ أندريه نايتون، إدجاروييند، كارل يونج: الأصول الوثنية للمسيحية ـ ترجمة سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية ـ بيروت، ١٩٩١م.

٣٠ ـ المطران برتولومي دي لاسي كازاس: المسيحية والسيف، ترجمة سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية ـ بيروت، ١٩٩١م.

٣١ ـ بسمة جستنيه: تحريف رسالة المسيح عبر التاريخ أسبابه ونتائجه، دار القلم ـ دمشق، ٢٠٠٠م.

٣٢ ـ مجموعة من المؤلفين تحرير جون هيك: أسطورة تجسُّد الإلٰه في المسيح ـ الكويت.

٣٣ ـ د. علي مظهر: محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال، المكتبة العلمية، مصر الجديدة ـ القاهرة، ١٩٤٧م.

٣٤ ـ د. حسن ظاظا: الفكر الديني اليهودي: أطواره ومذاهبه، دار القلم ـ دمشق، ط ٢، ١٩٨٧م.

٣٥ ـ د. حسن ظاظا: الشخصية الإسرائيلية، دار القلم ـ دمشق.

٣٦ ـ ظفر الإسلام خان: التلمود تاريخه تعاليمه، دار النفائس ـ بيروت، ط ٣، ١٩٨٠م.

٣٧ ـ إبراهيم خليل أحمد: إسرائيل والتلمود، مكتبة الوعي العربي ـ القاهرة، ط٢، ١٩٨٣م.

٣٨ ـ د. يوسف نصر الله: الكنز المرصود في قواعد التلمود، دار القلم ـ دمشق، ١٩٨٧م.

٣٩ ـ د. محمد علي البار: القدس والمسجد الأقصى عبر التاريخ، الدار السعودية للنشر ـ جدة.

٤٠ ـ د. محمد علي البار: المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، الدار السعودية للنشر ـ جدة، ط ٢، ٢٠٠٠م.

٤١ ـ د. محمد علي الباز: تيه العرب وتيه بني إسرائيل، الدار السعودية للنشر ـ جدة، ط ٢، ٢٠٠٠م.

٤٢ ـ د. محمد علي البار: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٩٩٠م.

٤٣ ـ محمد علي البار: الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٩٩٠م.

٤٤ ـ محمد علي البار: العهد الجديد والعقائد النصرانية، دار القلم ـ دمشق، ٢٠٠٦.

٤٥ ـ محمد علي البار: هل كان شاعر الألمان غوته مسلماً؟ مكتبة كنوز المعرفة ـ جدة، ٢٠٠٧م.

كُتب أخرى متعلّقة بالعلمانية:

٤٦ ـ د. محمد علي البار ومحمد أيمن صافي: الإيدز وباء العصر، دار المنارة ـ جدة، ١٩٨٧م.

٤٧ ـ د. محمد علي البار: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الدار السعودية للنشر ـ جدة، ط ١٣، ٢٠٠٥م.

٤٨ ـ د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق ـ القاهرة، ٢٠٠٣م.

٤٩ ـ د. محمد الجبر: رؤية معاصرة في قضايا التحديث والعلمانية، دار علاء الدين ـ دمشق، ٢٠٠٣م.

٥٠ ـ د. مراد هوفمان: الإسلام في الألفية الثالثة، تعريب: عادل المعلم وياسين إبراهيم، مكتبة العبيكان ـ الرياض، ٢٠٠٣م.

٥١ ـ جمال الدين الأفغاني: رسالة الرد على الدهريين، تحقيق د. محمد عمارة، (الأعمال الكاملة) ـ القاهرة.

٥٢ ـ رفعت السعيد: ثلاثة لبنانيين في القاهرة ـ بيروت، ١٩٧٣م.

٥٣ ـ شبلي شميل: فلسفة النشوء والارتقاء ـ القاهرة، ١٩١٠م.

٥٤ ـ شبلي شميل: المجموعة الكاملة، مطبعة المعارف ـ القاهرة.

٥٥ ـ جوته (جيته): الديوان الشرقي للمؤلف الغربي، ترجمة د. عبد الرحمٰن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م.

٥٦ ـ د. زينب عبد العزيز: الإلحاد وأسبابه: الصفحة السوداء للكنيسة، دار الكتاب العربي ـ دمشق، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٥٧ ـ ابتهال محمد البار: غوته شاعر ألمانيا والإسلام، مجلة أهلاً وسهلاً (السعودية)، أغسطس، ٢٠٠٢م، ص ٥٢ ـ ٥٤.

مراجع باللغة الإنجليزية:

1 - John Hick (ed): The Myth of God Incarnate. S. C. M. Press, London, 1985.

2 - Hyam Maccoby: The Myth Maker: Paul and the Invention of Christianity, Harper, San Francisco, USA, 1987.

3 - Hellen Ellerbe: The Dark Side of Christian History, Morning Star and Lark, Orlando, WSA, 1994.

4 - Murad Hofmann: Religion on the Rise, Amane Publication, Bettsville, Maryland. USA, 2001.

* * *

الفهرس

الفصل الثالث
قداسة اليهود.. ما هو المقدّس؟ وما هو غير المقدّس؟

الفصل الرابع
اللّه جلّ جلاله في أسفار العهد القديم (الكتاب المقدّس)

الفصل الخامس
الصراع بين الإلٰه والإنسان (حسب زعمهم)

الفصل السادس
الرسل والأنبياء كما تصوِّرهم التوراة وأسفار العهد القديم وما يؤدي إليه من نشر الفاحشة وانهيار الأخلاق وشيوع العلمانية

الفصل السابع
العلمانية والعلم

* * *